«لقد كان هذا الكتاب بحق منارة تشع أنوارها في الأحوال العصيبة»

نعوم تشومسكي

الحرية في المرة القادمة

جون بلجر

نقله إلى العربية

محمد محمود التوبة

العبيكان
Obeikan

علي مولا

جون بلجر

الحرية في المرة القادمة

نقله إلى العربية
محمد محمود التوبة

«لقد كان هذا الكتاب بحق منارةً تشع أنوارها في الأحوال العصيبة»
نعوم تشومسكي

العبيكان
Obeikan

Original Title:
FREEDOM NEXT TIME
By: ***John Pilger***
Copyright© 2006 by John Pilger
ISBN 978-0-593-05552-6

All rights reserved. Authorized translation from English language edition
Published By: Bantam Press, a division of Transworld Publishers, UK

حقوق الطبعة العربية محفوظة لمكتبة العبيكان بالتعاقد مع: ترانس ورلد ببليشرز، المملكة المتحدة

© العبيكان Obeikan **1429 هـ.2008م**

ISBN: 978 – 9960 – 54 – 371 – 0

الطبعة العربية الأولى 1429 هـ – 2008م

الناشر: العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية – شارع العليا العام – جنوب برج المملكة – عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937581/2937574، فاكس: 2937588، ص.ب: 67622 الرياض 11517

ⓒ مكتبة العبيكان، 1428هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بلجر، جون

الحرية في المرة القادمة. / جون بلجر؛ محمد محمود التوبة. – الرياض، 1428هـ

440 ص؛ 16.5×24سم

1– الحرية – مقالات ومحاضرات

أ. التوبة، محمد محمود (مترجم)   ب. العنوان

ديوي 323.44   1428/7138

رقم الإيداع: 1428/7138

ردمك: 0 – 371 – 54 – 9960 – 978

امتيار التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية – الرياض – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4654424/4160018 – فاكس: 4650129، ص.ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى لويس

الذي ولد حين كان هذا يكتب

المحتويات

شكر وعرفان 11

المقدمة 15

الفصل الأول : سرقة أمة 39

الفصل الثاني : المحرم الأخير 97

الفصل الثالث : الهند المشرقة 229

الفصل الرابع : التمييز العنصري لم يمت 247

الفصل الخامس : تحرير أفغانستان 373

شكر وعرفان

ما كان يمكن لهذا الكتاب أن يكتمل من دون المساعدة والدعم اللذين قدمهما كل من الآتية أسماؤهم الذين أقدم لهم أخلص التقدير، وهم: أنطوني آرنوف، تيري بل، باتريك بوند، جيل تشيشولم، جون كولي، آنيا كورلس، آن كننغهام، كوسماس ديزموند، روجر ديسكي، هيلين إدواردز، منى الفرا، سالي غامينارا، ريتشارد غيفورد، أميرة هاس، جين هيل، مايك هولدرنس، جاكلين كورن، شيلا لي، نور مصالحة، ري ماكغفرن، كريس مارتن، غافن موريس، إلان باب، سام بلجر، زو بلجر، ندا رافا، جين روبرتس، فيكي روبنسون، ستيفن رودوف، لورا شيرلوك، جبل سوتشات، جيليان سومرسكيلز، مارجي سترثرز.

انهضوا كالأسود بعد الهجوع

بأعداد لا تقهر

وانفضوا عنكم قيودكم إلى الأرض مثلما تنفضون الندى،

الذي تساقط عليكم في أثناء النوم فأنتم كثيرون — وهم القلة.

بيرسي بايش شيللي
قناع الفوضوية

المقدمة

هذا كتاب عن الإمبراطورية، عن مظاهرها الخادعة وعن الصراع الدائم الطويل الذي يخوضه الناس في سبيل حريتهم. وهو كتاب يقدم الترياق المضاد للصيغ المرخص بها من السلطة عن التاريخ المعاصر، الصيغ التي تُراقب من خلال الحذف ومن خلال فرض المعايير المزدوجة. وآمل أن يكون هذا الكتاب إسهاماً في ما تدعوه فاندانا شيفا "ثورة المعرفة المخضَّعة"[1].

حين بدأت العمل صحافياً، كان هناك ما يدعى "الأخبار البطيئة". وكان من عادتنا أن نشير إلى "أيام الأخبار البطيئة" (وهي عادة أيام الأحد) حين كان "لا شيء يحدث" – أي، ما عدا الانتصارات والمآسي التي كانت تقع في أماكن نائية جداً حيث كانت تعيش معظم الإنسانية. والانتصارات، وهي المكاسب المجهدة الشاقة لأناس تواقين إلى أن يكونوا أحراراً، كانت نادراً ما يُعترف بها. وأما المآسي فكانت تستبعد بوصفها أعمالاً من الطبيعة، بصرف النظر عن البيّنات التي تدل على خلاف ذلك. وكانت السلطات الممنوحة لنا هي الصلاحيات الممنوحة للقوة الكبرى، من مثل: "حكوماتنا" و"مؤسساتنا".ولم يكن "للمنظر المأخوذ من الأرض"قيمة إلا إذا كان يعزز المنظر القادم من أعلى فقط. وكانت مجتمعات كاملة توصف وتقاس بعلاقاتها "معنا"، وفائدتها "لمصالحنا" ودرجة امتثالها (أو عدائها) لسلطتنا. وفوق كل شيء، فهم ليسوا "نحن".

هذه الادعاءات الاستعمارية لم تتغير. وللمحافظة عليها، يبقى ملايين من الناس مستورين عن النظر، ويمكن الاستغناء عنهم والتضحية بهم. في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، وفي الوقت الذي كان فيه العالم يبكي على الأموات من الناس الأبرياء في الولايات المتحدة، قدمت منظمة الأغذية والزراعة في الأمم المتحدة تقريراً

يبين أن معدل الوفيات اليومي كان مستمراً: لقد مات 36.615 طفلاً من آثار الفقر المدقع. وكان هذا عادياً في عصر "النمو الاقتصادي"[2].

وقدم هذه الإحصاءات الشعب الذي يمكن الاستغناء عنه والتضحية به من نيكاراغوا المقفرة، وفي مطالع الثمانينيات من 1980، استعرض المؤرخ مارك كيرتيس في دراسة استطلاعية له خمسمائة مقالة في الصحافة البريطانية عالجت أوضاع نيكاراغوا. فوجد طمساً شاملاً تقريباً لانتصارات حكومة الساندنيتسا لصالح أكذوبة "تهديد الاستيلاء الشيوعي على السلطة"، وكانت تلك الأكذوبة في حينها دعاية أنجلو – أمريكية. وكتب يقول: "يحتاج الأمر إلى بهلوانيات فكرية ضخمة لوصف نجاح الساندنيتسا في تخفيف الفقر. وهو نجاح يلفت الأنظار بكل المعايير. بأنه كان نجاحاً لا يستحق الكثير من التعليق وفق المؤشرات الموضوعية... وقد يمكن للمرء أن يستنتج بشكل معقول أن تقارير التغطية كانت مشروطة بمجموعة مختلفة من الأسبقيات، وهي مجموعة توافقت مع تيار تزييف المعلومات من واشنطون ولندن"[3].

وفي الوقت نفسه، فإن البليّة الفظيعة القسوة المعروفة باسم "قضية إيران – كونترا" كانت قد عرضت في واشنطون بصفتها إحراجاً محلياً لإدارة ريغان أكثر مما هي مؤامرة لإدماء الحكومة النيكاراغوية حتى الموت، وهي الحكومة التي كان التهديد الوحيد منها هو أنها قدمت النموذج الجيد. أما أن عدداً لا يحصى من الناس الأبرياء قد قتلوا أو حرموا فرصتهم في أن يحرروا أنفسهم من الفقر، والمرض، والأمية فإن ذلك لم يكن "قضية" أبداً. وقد أفرد حكم لاحق من محكمة العدل الدولية إدارة ريغان وميزها بأنها الحكومة الوحيدة التي سبق للمحكمة أن أدانتها بسبب "الإرهاب"، ودعتها المحكمة إلى أن تدفع إلى الحكومة النيكاراغوية 17 بليون دولار من التعويضات. ولكن هذا أهمل ونسيت المسألة من وقت طويل، وذلك لأنها كانت أبطأ الأخبار[4].

وفي العام التالي، العام 1987، أجازت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً ينص أن على جميع الدول الأعضاء أن يحاربوا "الإرهاب حيثما كان وكائناً من كان

الذي ارتكبه" وصوتت ضده دولتان فقط هما: الولايات المتحدة وإسرائيل. ولم يغط هذا في التقارير في ذلك الوقت. وحين مات رونالد ريغان امتدح بوصفه "متواصلاً عظيماً"، وقائداً ذا سحر شخصي مغناطيسي. أما إرهابه، واستباحته للقانون فكانت غير قابلة للذكر[5].

ويُرى الاحتلال الحالي للعراق من العالم الموازي نفسه. فحين طُلب من هيلين بودن، مديرة الأخبار في محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2006 أن تشرح كيف كان يمكن لواحد من مراسيلها في العراق "الملتحقين بالوحدات العسكرية" أن يصف هدف الغزو الأنجلو – أمريكي بأنه "استحضار الديمقراطية وحقوق الإنسان" إلى العراق، أجابت مع مجموعة من الاقتباسات من طوني بلير بأن هذا هو فعلاً هدفه، وكأن كذب طوني بلير السيئ السمعة الآن والحقيقة كانا متوافقين. ولم يكن مطلوباً أي دليل آخر.[6] وكان من عادة مثل هذه العبودية الواقعية أن تحير الصحفيين السوفيت الذين كانوا يزورون الغرب في أثناء الحرب الباردة وتربكهم. وقد نكت واحد منهم مرة بالسؤال: "كيف حققتم ذلك؟ ففي بلادنا، ننزع أظافر الأصابع لنحصل على تلك النتيجة!"[7].

في 28 آذار/مارس من العام 2003، في أثناء الهجوم على العراق، قتل اثنان وستون شخصاً بصاروخ أمريكي انفجر في منطقة الشولة من بغداد. في ذلك المساء، قام برنامج أخبار الليل (نيوز نايت) في محطة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، وهو البرنامج المنتظم الوحيد المتلفز للأحداث الجارية، قام بتخصيص خمسة وأربعين ثانية للمجزرة – أقل من ثانية لكل وفاة. قابل ذلك مع 7 تموز/يوليو من العام 2005، حين أدى الانفجار الإرهابي في لندن إلى قتل العدد نفسه تقريباً من الناس وتلقى ذلك الانفجار التغطية التي جعلتنا بين عشية وضحاها عارفين معرفة حميمة بحياة الضحايا، وكنا نستطيع أن نحزن لفقدهم أو أن نحيي شجاعتهم.

وبكلمات أخرى، فبالنسبة إلى الرجال، والنساء، والأطفال الذين يتفجرون إرباً إرباً في بغداد فإنهم محرومون من التضامن الذي نقدمه بشكل طبيعي إلى

ضحايا لندن، ولم يكن مسموحاً لنا أن نعرفهم. لماذا؟ هم، بالتأكيد، لم يكونوا "نحن"، ولكنهم كانوا ضحايانا – أي، لقد ماتوا على أيدي قوات متواطئة مع حكومتنا، وباسمنا.

حين كنت أكتب هذا الكتاب، في مطلع العام 2006، أزيلت من الوجود ثلاث عائلات في ثلاث مدن مختلفة في العراق بالصواريخ والقنابل الأمريكية. إحدى العائلات فقدت سبعة عشر عضواً منها والأخريان أربعة عشر عضواً وسبعة أعضاء، وكان الضحايا في معظمهم من النساء، والشيوخ، والأطفال. ولكن فناءهم العنيف لم يحدث أي تمويجة في الظاهرة التي صنعها الإنسان والمعروفة باسم "مجرى التفكير العام السائد" وهو المصدر الرئيسي لما ندعوه الأخبار. وكنت أتصفح الإنترنت فتصادف أن قرأت كل الأسماء السبعة عشر للموتى من العائلة الأولى. وقد جمع أسماءهم وأعمارهم بعناية شديدة وأعلنها مراسل أمريكي مستقل، هو داهر جاميل، ولكن عمله البارز، عمل شاهد العيان والتحقيق المستقصي لم يظهر أبداً في "مجرى التفكير العام السائد"[8].

الناس الأبرياء الذين قتلوا في لندن كانوا ضحايا جليلة القيمة. والناس الأبرياء الذين قتلوا في العراق كانوا ضحايا غير جليلة القيمة. وإذا صيغ الكلام بطريقة أخرى، فإن مجزرة لندن كانت تستحق شفقتنا، وأما فظاعات العراق فلم تكن تستحق مثل تلك الشفقة.

وهذا المنطق لا يتبع دائماً مساراً صحيحاً. فحين كان صدام في السلطة وكان يُخطب وده ويسلح حتى أسنانه منا "نحن" وبشكل ملحوظ بالتقانة اللازمة لبناء أسلحة التدمير الشامل، كانت المجازر العراقية للأكراد على يدي صدام أخباراً بطيئة. وحين هاجم صدام، في العام 1988، القرية الكردية حلبجة بغاز الأعصاب، وقتل خمسة آلاف نسمة، بذلت الحكومتان البريطانية والأمريكية أفضل جهودهما لتثبيط تغطية تلك الفظاعة الوحشية، وذهب الأمريكيون إلى حد إلقاء اللوم على إيران. وحين استعلمت أنا في ذلك الوقت عن الحدث، أخبرتني وزارة الخارجية في لندن بأنه كان من "السهل إلى حد بعيد جداً" إلقاء اللوم على صدام.

أما في العام 1991، حين أثار صدام استياء كافليه في واشنطون ولندن من جراء قيامه بمهاجمة زبون آخر من زبائنهم، وهي الكويت، وكان الآن عدواً رسمياً، صارت بلوى الأكراد العراقيين فجأة قضية خيرية كبيرة في الغرب. وأغدقت عليهم العناوين الرئيسية والتغطية بالأشرطة التلفازية الطويلة. لقد جعلوا الضحايا ضحايا جليلة القيمة لا مثيل لها. ولكن ويا للأسف، فإن هذا التحول في المكانة لم ينطبق على الأكراد عبر الحدود في تركيا، وذلك على الرغم من أنهم كانوا جزءاً من الأمة المسلوبة نفسها وكان يجري ذبحهم بأعداد أكبر بكثير على أيدي القوات العسكرية التركية. ونظام الحكم في أنقرة عضو في حلف الأطلسي ومستفيد من "العون" الأنجلو – أمريكي، ومن البنك الدولي ومن صندوق النقد الدولي. وفي الحقيقة، وفي ذروة كرب الأكراد الأتراك، تسلمت القوات العسكرية التركية ما قيمته 8 بلايين دولار من المنح الأمريكية من الدبابات، والطائرات، والطائرات العمودية والسفن[9]. وفي العام 2006 بقي أكراد تركيا ضحايا غير جليلة القيمة.

وبموجب القاعدة المبنية على التجربة العملية نفسها، فإن الجريمة تكون جريمة إذا كان مرتكبوها "هم"، وليسوا "نحن". وقد أشار هارولد بنتر في خطابه الرائع المتفوق في قبوله لجائزة نوبل للأدب في العام 2005 إلى "نسيج مزخرف شاسع من الأكاذيب نتغذى عليه"، وسأل لماذا كانت "الوحشية المنهجية، والفظاعات القاسية الواسعة الانتشار، والقمع الذي لا تأخذه رحمة للفكر المستقل"، في روسيا الستالينية أموراً معروفة معرفة جيدةً في الغرب في حين كانت الجرائم الإمبراطورية الأمريكية مجرد أمور "مسجلة تسجيلاً سطحياً، دع عنك أن تكون موثقة، ودع عنك أن تكون معترفاً بها".

كان يشير إلى صمت كبير، لم يكسره ضجيج لا ينقطع من عصر وسائل الإعلام. ففي كل أنحاء العالم، يمكن أن يعزى إفناء أعداد لا تحصى من بني البشر والمعاناة التي يعانونها إلى أمريكا الجامحة. وقال بنتر: "ولكنكم لن

تعرفوها. فهي لم تحدث أبداً ولم يسبق أن حدث شيء أبداً. لا بل إنها وهي تحدث لم تحدث أبداً. إنها لا تهم. ولم تكن موضع اهتمام"[10].

ولكن هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، ويا للأسف المخجل لها، وبرغم أن هذا أمر لا يثير الدهشة منها، تجاهلت تحذير بنتر. فكل ذلك الانتفاخ في غرفة الاستقبال تلك حول الفنون، وكل ذلك التأنق لآلات التصوير في مناسبات منح جائزة بوكر، لم يستطع مع ذلك أن يجعل الإذاعة القومية تفسح حيزاً لأعظم مسرحي حي في بريطانيا، كُرّم على هذا النحو، ليقول الحقيقة. فالأمر بالنسبة إلى هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) لم يحدث أبداً.

وبعد ذلك بقليل، وقد حُرمت من وعي المفارقة الساخرة، قدمت مذيعة الأخبار فيونا بروس فيلم دعاية لعيد الميلاد عن كلاب جورج دبليو بوش بوصف ذلك أخباراً. وأظهر الفيلم كم كان الرئيس وعائلته لطفاء. هذا أمر حدث. والآن تخيل بروس تقرأ هذا: "في ما يلي أخبار مؤخرة، وردت قبل قليل. من العام 1945 إلى العام 2005، حاولت الولايات المتحدة أن تطيح بخمسين حكومة، العديد منها ديمقراطيات، وأن تسحق ثلاثين حركة شعبية تقاتل أنظمة حكم استبدادية. وفي أثناء ذلك، قُصف خمسة وعشرون بلداً بالقنابل وهو ما تسبب في فقدان عدة ملايين لحياتهم وتسبب في حصول اليأس لمزيد من الملايين"[11].

لقد كان واحداً من الملامح اللافتة للنظر لعصر ما بعد الحرب الباردة هو إعادة التأهيل العلني لمفهوم الإمبراطورية. فمثلما قال رئيس الوزراء هارولد ماكميلان سراً في الخمسينيات من 1950، فإن مجموعة جديدة من الإمبراطوريين تندب الآن جهاراً "فقدان المكانة البيضاء" التي كانت هي الإمبريالية الإمبراطورية وكانت التشويه لسمعة "ثقافتنا"[12]. لقد صارت "الثقافة" هي الترميز للعرق وللطبقة، والمراجعة التعديلية هي كل الغضب المتفجر. لقد مجدت وول ستريت جورنال المغامرة الإمبراطورية المدمرة التي قامت بها بريطانيا وفرنسا في السويس في العام 1956، ووصفت المعارضة الأمريكية بأنها "ربما كانت أكبر غلطة إستراتيجية في

عصر ما بعد الحرب"[13] ويبتهج الأكاديمي جون كيسي في كمبريدج بأن القوى الغربية الآن "تستطيع أن تفعل ما تحب في العالم النامي]"[14].

وكتب فرانك فيوريدي في الإيديولوجية الجديدة للإمبريالية يقول: "من السهل أن ننسى أن الادعاءات الأخلاقية الإمبريالية (السياسة الإمبراطورية) كانت حتى الثلاثينيات من 1930 نادراً ما توضع موضع الاستجواب في الغرب. لقد عرضت الإمبريالية والتوسع الكوني للقوى الغربية بتعابير إيجابية بشكل لا غموض فيه، لقد عرضت بوصفها مسهماً كبيراً في الحضارة الإنسانية... وكون المرء إمبريالياً (من دعاة الإمبراطورية) كان يعتبر شارة سياسية محترمة"[15]. وحين برزت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية وتخلصت مما يحب "الأطلسيون" أن يدعوه "عصر البراءة" (ناسين مذابح الأمريكيين المحليين، والرق، وسرقة تكساس من المكسيك، والإخضاع الدموي لأمريكا الوسطى، ولكوبا والفلبين، والأعمال البريئة الأخرى)، أسقطت "الإمبريالية" من نصوص الكتب الأمريكية وأعلنت مسألة أوروبية. وكانت إحدى المشكلات التي تواجه دعاة الإمبراطورية الفخورين في الفترة الواقعة مباشرة بعد الحرب، هي أن هتلر والفاشية، وجميع أفكارهم عن التفوق العرقي والثقافي، قد تركت تراثاً من الإثم بالترابط. فالنازيون كانوا أيضاً، دعاة إمبراطورية فخورين.

وتبع ذلك حملة خطيرة، وإن تكن سخيفة، لشطب الكلمة من اللغة "على أساس أنها عزت بشكل كاذب دوافع لاأخلاقية للسياسة الخارجية الغربية" ونُظر إلى اللفظة على أنها لم تبق بعد الآن ذات "علاقة". وأما أولئك الذين استمروا مصممين على استخدامها بوصفها لفظة تحقيرية فقد كانوا أناساً "غير محترمين" و"شريرين".وقد كتب أحد المؤرخين الأمريكيين يقول، لقد كانوا "ملهمين من العقيدة الشيوعية". أو أنهم كانوا "مثقفين زنوجاً لهم ظلامات تخصهم ضد الرأسمالية البيضاء"[16].

ووفق أفضل تقليد ستاليني، فإن الإمبريالية قد أخفيت مثلما تخفى لطخة ببخاخ الدهان الهوائي. وقد كتب فيوردي يقول: "إن مثقفي الحرب الباردة بقيامهم

بإنكار مركزية الهوية الامبريالية للمجتمع الغربي، كانوا ينكرون ماضيهم الخاص. فهم لم ينكروا أن الإمبريالية كانت شيئاً ينبغي الخجل منه، إنهم أنكروا فحسب كل ارتباط لهم بها"[17].

وقد تغير ذلك في التسعينيات من العا 1990. فمع انهيار الاتحاد السوفيتي، تشجع الإمبرياليون. فالأزمات الاقتصادية والسياسية في العالم "النامي" التي سببها الانهيار في أسعار السلع ونهوب الدَّين، سوف تخدم الآن لتكون تبريراً للإمبريالية بأثر رجعي. ومرة أخرى، احتاج "العالم الثالث"إلى أن يُنقَذ من نفسه. إن رحلة عودة الإمبريالية إلى كون المؤسسة الإمبريالية محترمة قد بدأت.

إن نظرية تآمرية خلاصية مسيحية سميت "مشروع من أجل القرن الأمريكي الجديد" وقد كتبها كافلو بوش الإيديولوجيون قبل قليل من وصوله إلى السلطة في العام 2000، تكهنت بإدارته بوصفها دكتاتورية إمبريالية خلف مظهر خادع ديمقراطي: "الخيالة على الحدود الأمريكية الجديدة" وتستطيع "أن تقاتل وتكسب مسارح حروب متعددة كبيرة في وقت واحد معاً"[18] وقد ضمنت الهجمات التي وقعت على الولايات المتحدة في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001 أن تصير النظرية تطبيقاً، وصارت "حرب"مخادعة "على الإرهاب"هي الحرب على الإرهاب.

وقد سبق لخطة وضعتها وزارة الدفاع بعنوان رؤية للعام 2020 أن حددت الهدف بأنه "هيمنة الطيف الكامل". وهذا ما سيسمح "لوسط الفضاء، وهو الوسط الرابع للحرب – مع الأرض، والبحر، والجو، – بأن يغلق الفجوة المتوسعة دائماً بين الموارد المتضائلة وبين الالتزامات العسكرية المتزايدة"[19]. وقد تكهن الجنرال جون جمبر من سلاح الجو الأمريكي بأن من السهل السيطرة على كوكب الأرض لأن القوات الأمريكية تنعم بـ "عين الله"من الأقمار الاصطناعية وتتحكم في "شبكة المعلومات الكونية"[20]. لديه نقطة. فهناك أكثر من 725 قاعدة أمريكية موضوعة إستراتيجياً في البلدان الممتثلة، وهي بشكل ملحوظ عند بوابات الطرق المؤدية إلى موارد المحروقات المستحاثية وتدور حول الشرق الأوسط وآسيا الوسطى[21].

لم تبق كلمة "إمبراطورية"تهمس بعد الآن همساً، إنها كلمة ينبغي احتضانها ثانية. لقد صرح وزير المالية البريطاني غوردون براون لجريدة الديلي ميل بالقول إن: "الأيام التي كان فيها على بريطانيا أن تعتذر عن الإمبراطورية البريطانية قد انتهت. ويجب أن نحتفل"[22]. وأصر المؤرخ أندرو روبرتس في الديلي إكسبريس على ذلك وقال: إنه بالنسبة إلى "معظم تاريخ الإمبراطورية البريطانية المديد الذي يصل إلى نصف ألفية في طوله، فإنها كانت قوة نموذجية للخير"[23]. وفي الديلي تلغراف صرح المؤرخ العسكري جون كيغان أن الإمبراطورية "مفيدة وأخلاقية إلى حد بعيد"[24]. وفي الثناء على سفن بلير الحربية الأخلاقية وعلى القناعات الغلادستونية عن التفوق، قال نيل فيرغسون أستاذ العلوم السياسية في أكسفورد: "قد تكون الإمبريالية كلمة قذرة، ولكن حين يدعو طوني بلير بشكل أساسي إلى فرض القيم الغربية – الديمقراطية وما شابه ذلك – فإنها في الحقيقة لغة الإمبريالية الليبرالية... فرض آرائك وممارساتك على الآخرين"[25].

أمانة فيرغسون مستفزة "للواقعيين الليبراليين"الذين يسيطرون على دراسة العلاقات الدولية في بريطانيا ويعلّمون أن دعاة الإمبراطورية الجدد هم مديرو أزمة العالم، أكثر مما هم سبب الأزمة. ومع استثناءات مشرِّفة، فإن علماء العلوم "الجيوسياسية" هؤلاء قد أخرجوا الإنسانية من دراسة الأمم وجمدوها مع رطانة تخدم القوة الكبيرة. وبعد أن طرحوا مجتمعات كاملة لتشريح جثثها، فقد حددوا "دولاً مخفقة" و"دولاً مارقة"، ودعوا إلى "التدخل الإنساني" – وهو تعبير يستخدم من اليابان الإمبراطورية لوصف غزوها الدموي لمنشوريا. (واستخدمه موسوليني أيضاً لتبرير الاستيلاء على الحبشة، مثلما فعل هتلر حين اندفع النازيون إلى أرض السوديت.)[26]

هناك تنويعات صغيرة. فمايكل إغناتييف، الأستاذ السابق لحقوق الإنسان في هارفارد والمساند المتحمس لغزوات الغرب، يفضل "التدخل الليبرالي".[27] ومن المعجم نفسه من الكنايات الإمبراطورية الحديثة جاء تعبير "مواطن دولي صالح (أي، تابع غربي) وجاء تعبير "الحكم الصالح" (أي، اقتصاد ليبرالي جديد يديره البنك الدولي

وصندوق النقد الدولي). وسبق أن تم الاستيلاء بغير حق على المفاهيم النبيلة: "فالديمقراطية" (أي، نظام حكم موال لواشنطون) و"الإصلاح" (أي، تفكيك الإصلاحات الاجتماعية الأصيلة) و"صنع السلام" (أي، الحرب). ومازال الأكاديميون والمعلقون يصفون طوني بلير وبل كلنتون، بشكل لافت للنظر، بأنهما " وسط – يسار"، وهو إنكار للسجل التاريخي.

"فالوسط"، طبعاً، ليبرالي ومعقول، وذلك لأن الليبرالية ليست إيديولوجية. فذلك هو حجر المحك الأسطوري لأقوى إيديولوجية في العالم. وقد كتب في الغارديان كاتب العمود هوجو يونغ في العام 1997 يقول، إن طوني بلير "يريد أن يخلق عالماً لم يعرفه أحد منا، عالماً تكون فيه قوانين الجاذبية السياسية مقلوبة [و] تكون الإيديولوجية فيه قد استسلمت استسلاماً كلياً ""للقيم""[28] وأما أن بلير سوف يقترف، وهو يتابع هذه "القيم"، جريمة الغزو، من غير استفزاز، لبلد لا يمكنه الدفاع عن نفسه، وهو الأمر الذي وصفه قضاة نورمبيرغ بأنه "أعظم جريمة في الحرب"فقد كانت مسألة لا تخطر في الفكر. وقد كتب هايول وليامز يقول: "إنها لأسطورة جميلة ومريحة القول إن الليبراليين هم صناع السلام وأن المحافظين مساعر حرب، ولكن إمبريالية الليبراليين قد تكون أكثر خطراً بسبب طبيعتها المفتوحة النهاية – قناعتها بأنها تمثل شكلاً من الحياة هو أعلى تفوقاً من غيره".[29]

ليس مثيراً للدهشة أن بلير "الليبرالي"قد أخذ بريطانيا إلى الحرب مرات أكثر عدداً من أي رئيس وزراء في العصر الحديث، وليس مثيراً للدهشة أن أقرب حليف له، أو ناصحه الأمين، وهو جورج دبليو بوش، قد اعتبر من قِطاع كبير من الإنسانية أخطر رجل على وجه الأرض. وما يوحدهما ليس تطرفهما، بل توحدهما استقامة رأي عريقة من قديم الزمان، ويُحتفى بها بلا شفقة ولا رحمة في "مجرى التفكيرالعام السائد" وهذه، كما كتب ريتشارد فولك، وهو أستاذ العلاقات الدولية في برنستون والمنشق البارز، "تنظر إلى القانون والأخلاق بوصفها نابية غير ذات علاقة في تحديد السياسة العقلانية". وهكذا، فالسياسات والأعمال الغربية قد صيغت منذ وقت طويل "من خلال نظام فرز يدّعي الصلاح ويزكي نفسه، وذي

طريق واحد، وقانوني/أخلاقي [مع] صور إيجابية للقيم الغربية وللبراءة الغربية تُصوِّر على أنها مهددة، وتقر شرعية حملة من العنف السياسي غير المحدود.." وهذا، "مقبول قبولاً واسعاً... لكي يكون بحكم الواقع غير قابل للتحدي"[30].

كتاب الحرية في المرة القادمة يدفع إلى الخلف هذا الفرز الأخلاقي ذا الطريق الواحد ليبين عملياً أن الإمبريالية، في أي زي تخفّت، هي النقيض لما هو "محب للخير وأخلاقي". وقد وضعت كل فصل من الكتاب في بلد كان لي معه ارتباط طويل مراسلاً ومخرجاً للأفلام. وقد حاولت، مع إحساس بالتاريخ، أن أوصل شيئاً مما رأيته وما هز عواطفي – الألم اليومي، والفكاهة السوداء وكرم الأحياء الذين عاشوا على مسافة بعيدة منا وانتزعت منهم الإنسانية بصورة تلائم الغرض في خط تجميع الإنتاج الغرائبي (السيريالي) من "لقطات إعلامية" من أطفال يلعبون بين القنابل العنقودية في كابل إلى الإذلالات المهينة الطقوسية المفروضة على الفلسطينيين، إلى تصميم النساء المفقّرات في جنوب أفريقيا على إنشاء بيوتهن الخاصة الحديثة. والقصص هي قصص شهود العيان والأقوياء، ومن جملتها الأصوات التي تتحدث من المنعات المصفحة للإمبريالية البريطانية حيث كتبوا فيها مقاصدهم الحقيقية التي لم يكن مراداً منها أن تكون ظاهرة لعيوننا.

هؤلاء الأطياف المخبرون بالصدق يظهرون في الفصل الأول وهو "سرقة أمة". ومع ذلك فإن معرفة هذه القصة كما أعرفها تجعلني باستمرار أجد جرأتها الإجرامية المتطاولة أمراً لا يكاد يصدق تقريباً. ففي سرّية عالية، وفي أثناء أواخر الستينيات من العام 1960 ومطالع السبعينيات من 1970، خدعت الحكومات البريطانية، وقسرت وأخيراً طردت جميع سكان جزر تشاغوس في المحيط الهندي كي تعطي الجزيرة الرئيسية وهي دييغو غارسيا، وهي جنة، إلى الأمريكيين لتكون قاعدة عسكرية. ومن هنا هوجمت العراق وأفغانستان. إن كون سكان الجزر مواطنين بريطانيين ولهم جذور في الجزر يعود في تاريخه إلى القرن الثامن عشر، وإن كونهم تكلموا بلغتهم الخاصة ومارسوا ثقافتهم الخاصة، كل ذلك لم يغير من الأمر شيئاً. فقد تم خطفهم منهجياً على أيدي حكومتهم وأرسلوا إلى المنفى إلى الأحياء

المكتظة الفقيرة في موريشيوس، وهي المكان الذي أصيبت فيه أعداد كبيرة من المخطوفين بالهزال، ومن جملتهم الأطفال الذين ماتوا "بكل بساطة من الحزن" كما أخبرتني بذلك أمهاتهم.

البطش الذي لا رحمة فيه ولا شفقة كان واضحاً – " والهدف هو الحصول على بعض الصخور التي ستبقى لنا". وقد كُذِب على الأمم المتحدة، وكأن شيئاً من هذا ما كان يحدث. وفي الوقت الذي هللت فيه مارغريت تاتشر ووسائل الإعلام البريطانية للأسطول البحري الملكي وهو يسرع لإنقاذ ألفين من البيض من سكان جزر الفوكلاند في العام 1982، فإنهم لم ينبسوا بكلمة واحدة حول النزع الوحشي للملكية من ألفين من سكان جزر تشاغوس الذين هم من السود. وحين لمح سكان الجزر، بعد ثمانية عشر عاماً، حريتهم في حكم للمحكمة العليا قضى بأنهم قد أوذوا وأن باستطاعتهم العودة إلى وطنهم، خدعوا مرة أخرى من حكومة بلير، وصدر مرسوم من "الامتياز الخاص الملكي". وهي آلية قديمة سرية، واستخدم للتحايل على القانون والعدالة.

وفي وقت كتابة هذا الكتاب، كانت المحكمة العليا تجري "مراجعة قضائية" وسكان الجزيرة ينتظرون آخر حكم لها بقلق. إن الظلم الذي وقع من قبل هو تعبير مجازي عن القرصنة الكبيرة التي بدأت منذ أكثر من خمسمائة عام حين مُنح القراصنة الأوروبيون امتيازات "الاكتشاف والاستيلاء" في عالم اعتبره البابا والملوك ملكيتهم، وينبغي التصرف به وفق حقهم الإلهي المقدس. هذا الافتراض للقدسية الإلهية لم يتغير.

وعنوان الفصل الثاني، وهو "المحرّم الأخير". مأخوذ من مقالة كتبها الكاتب والعالم الفلسطيني المولد إدوارد سعيد، ونشرت بعد وفاته بقليل في العام 2002. فقد كتب يقول: "يمكن الإقرار باستئصال الأمريكيين المحليين، ويمكن مهاجمة أخلاقية هيروشيما، وأن يوضع العلم القومي [للولايات المتحدة] علناً في لهيب النار. ولكن الاستمرار المنهجي لاضطهاد إسرائيل وسوء معاملتها للفلسطينيين طوال 52 عاماً هو بحكم الواقع أمر غير قابل للذكر، إنه قضية لا يسمح لها في أن تظهر"[31].

وتبدأ القصة قبل أربعين عاماً تقريباً حين وصلتُ إلى فلسطين مراسلاً شاباً واستمعت إلى الفلسطينيين وإلى الإسرائيليين، ورأيت المخيمات الجدباء للاجئين. وفي وصف إدوارد سعيد "الدور المدمر"للصحافيين الأجانب الذين تجاهلوا التاريخ وسياق خيبة الأمل الفلسطينية والعنف، فهم هذا الكاتب المحرم الذي رآه الكثيرون منا واستتكروه سراً في الوقت الذي تغذى فيه الأساطير القاتلة ويطوّل أمدها.

في العام 2002، وجدت دراسةٌ قامت بها جامعة غلاسغو أن 9 بالمائة لا أكثر، من المشاهدين البريطانيين الشباب لأخبار التلفاز كانوا يعرفون أن الإسرائيليين هم قوة الاحتلال وأن المستوطنين غير الشرعيين كانوا يهوداً: وكثيرون من المشاهدين اعتقدوا أنهم فلسطينيون. وكان تعبير "الأراضي المحتلة" نادراً ما يشرح، ولم يُعلَم الناس أن الفلسطينيين كانوا هم ضحايا احتلال عسكري غير شرعي. وكانت اللغة تستخدم استخداماً انتقائياً، وكانت ألفاظ مثل "قاتل" و"فظاعة قاسية" تستخدم بشكل مقصور على الأموات من الإسرائيليين. فهم وحدهم فقط كانوا ضحايا جليلة القيمة. أما أموات الفلسطينيين فلم يكونوا يصلون إلى قدر الأخبار البطيئة بقدر ما كانوا أخباراً لا وجود لها[32].

وفي نهاية العام 2005، حين وقع رئيس وزراء إسرائيل آريل شارون مريضاً مرضاً خطيراً وحيّوه بوصفه "رجل سلام"، رجلاً إذا مات فإن "أمله في دولة فلسطينية"قد "يفقد" وبدا وكأن شبح لويس كارول قد أخذ القصة الممنوعة وهرب. وحين انتخبت حماس مباشرة بعد ذلك للسلطة في الأراضي المحتلة وغزة، استقبلت الأنباء في الغرب من خلال المرآة نفسها. النوع الخطأ من الديمقراطية قد تكلم وهي تتطلب بالتأكيد حلاً بريختياً: "أن يحل الشعب/وينتخب آخر". وإن كون صعود حماس كان ناجماً في جزء غير قليل منه عن الدعم السري الماكيافيللي لإسرائيل وعن الحملة الأنجلو – أمريكية لتدمير العروبة العلمانية وأحلامها "المعتدلة"في الحرية هو أمر غير جدير بالذكر[33].

ويكتب مايك ديفيز في تاريخه في العام 2001، المحارق الفكتورية المتأخرة، أن ما يصل مجموعه إلى تسعة وعشرين مليون هندي ماتوا بلا داع ضروري في

مجاعات فرضتها السياسات البريطانية بإرادتها. وهو يروي كيف أن نائب الملك في العام 1876، اللورد ليتون، أصر على أن لا شيء يجب أن يمنع تصدير القمح والرز الفائضين إلى إنجلترا وأن المسؤولين قد أمروا بأن "لا يشجعوا أعمال الإغاثة بكل طريقة". وحين مات الملايين جوعاً، شنت الحكومة الإمبراطورية "حملة معسكرة لجمع المستحقات المتأخرة من الضريبة المتراكمة في أثناء الجفاف". وفي المقاطعات الشمالية الغربية فقط، وهي التي جاءت بمحاصيل قياسية في السنوات الثلاث السابقة، مات مليون وربع المليون نسمة على الأقل[34].

وسوف يتمكن ستالين لاحقاً من مضاهاة هذا العمل في أوكرانيا، على نحو مخز، وكانت هذه هي نقطة هارولد بنتر: نحن نعرف عن جرائم ستالين، ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عن جرائمنا. إنها تنويه بترويج النخبة لتلك "القوة النموذجية للخير"بأن هند الراج (حكم الهيمنة البريطانية) تبقى بشكل رئيسي مصدراً للحنين المرير اللذيذ. ففي الوقت الذي يُعلَّم فيه الشباب البريطانيون التاريخ الحديث مشروطاً إلى حد بعيد بشرور هتلر و"الحرب الخيرة"— وهي "الحمّام الأخلاقي الذي تم فيه التكفير عن خطايا قرون من الاستيلاء، والرق والاستغلال"، كما كتب ريتشادر درايتون – فإن قصة الكيفية التي جلب بها حكم الراج على الهند مداه الخاص به من المعاناة الإمبراطورية، هي، على أكبر تقدير، ملاحظة هامشية[35].

وفي فصلي الثالث، وهو "الهند المشرقة"، فإن تراث حكم الراج ماثل في الهند المستقلة: في إنكار النخبة للفقر الدائم. لقد ذهبت أول مرة إلى الهند في الستينيات من العام 1960، في ذروة مجاعة في راجستان. وكما هو الحال في زمان الراج، فإن لفظة "مجاعة" كانت تقابل رسمياً بالاستنكار والعبوس، كانت تفضل عليها كلمة "طوارئ". وأما الذين سألوا بعمق شديد عن الأحوال غير المعقولة الإجرامية التي أدت إلى إفقار الجماهير الهندية فلم يكونوا موضع ترحيب، وقد منع عديدون من مخرجي الأفلام الأجانب. وفي العام 2004، بعد غياب طويل، عدت إلى أعظم مدينة هندية، عدت إلى مومباي، التي احتشدت فيها حركات الحرية القومية، وعاش فيها غاندي، ووصلت إليها اليوم إمبراطورية جديدة: وهي "التجارة الحرة"

البوشية والاستهلاكية البورجوازية، ومراكز الاتصالات، ونظام وحشي يقوم على حكم الأفضل، وصراع جديد من أجل الحرية.

في العام 1967، منعت من دخول جنوب إفريقية العنصرية. وبعد ثلاثين عاماً، طرت عائداً إليها. كان نيلسون مانديلا هو الرئيس، و"أمة قوس قزح"قد أعلنت ومات التمييز العنصري. إن رجالاً عظماء وأحداثاً عظيمة أقنعت العالم الخارجي أن الحرية قد وصلت، وأن سكان جنوب إفريقية السوداء شعروا بهزة الحرية وهم يصطفون صفوفاً صابرين كي يقترعوا لأول مرة في حياتهم.

إن خيانة كفاحهم، ونواياهم الخيرة وتفاؤلهم موصوفة في الفصل الرابع. وهو بعنوان "التمييز العنصري لم يمت". كان هذا عنوان فيلم وثائقي أخرجته حال عودتي، وهو فيلم أثار نقاشاً حيوياً في جنوب إفريقية. إن التمييز العنصري أخذ اسمه وروحانيته من نظام حكم البوير الأول، ولكن دم حياته سال من الإرث البريطاني الإمبريالي من سيسيل رودس ورجال آخرين "رجال التجارة والصناعة". الذين قاموا عند منعطف القرن العشرين بسرقة الأرض، والموارد والحقوق الاقتصادية التي تملكها الأكثرية مع ميلادها. والفقر الذي خلقوه لم يتم إبعاده في جنوب إفريقية "الحرة"، مثلما تعهد بجدية المجلس الوطني الإفريقي. في "مناطق العزل العنصري" وصفت الظروف بأنها "بائسة"، مع وجود أكثر من خمسة ملايين طفل جياع ونظام صحي عاجز عن معالجة الأمراض الوبائية، مثل مرض نقص المناعة (الإيدز) ومرض السل[36].

لقد ظهرت نخبة جديدة، وهي منتج "تمكين السود" والمنتفع من الصفقات الخبيثة مع القوة البيضاء التي ما تزال تدير جنوب إفريقية. وقد قال تريفور مانويل، وزير المالية: "إننا نسعى إلى تأسيس بيئة يزدهر فيها الرابحون"[37]. ولكن أفراد القبيلة المعروفة تهكماً باسم "وابنزي" (فالمرسيدس بنز هي وسيلتهم المفضلة للمواصلات) قد بدؤوا يلقون نظرة فاحصة خلف أكتافهم على الصراعات العظيمة في الماضي، لأن مواطنيهم يتحركون مهتاجين ثانية ويطالبون بأكثر من الرموز. وانتفاضات المجتمع شائعة مرة ثانية ومناطق العزل العنصري ومخيمات المقيمين في

الأراضي غير المشروعة تحترق بالمشاعل إلى جانب مباني السلطة. وفي التمييز العنصري الكوني الذي خلقته الإمبريالية الاقتصادية الحديثة، فإن جنوب إفريقية تقدم الشبح والإنذار كليهما.

حين كانت القنابل الأمريكية الأولى تسقط على أفغانستان في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2001 عقاباً على الهجمات التي كانت قد شنت على أمريكا قبل خمسة أسابيع، أذاع الرئيس بوش الرسالة التالية إلى ضحاياه النائين فقال: "سوف يعرف شعب أفغانستان المضطهد كرم أمريكا. ففي الوقت الذي نضرب فيه الأهداف العسكرية، سوف نسقط أيضاً الطعام، والدواء، والتموينات للجياع وللذين يعانون من الرجال والنساء والأطفال من أفغانستان. إن الولايات المتحدة صديقة للشعب الأفغاني"[38].

وفي الأسبوع السابق، قال طوني بلير بشكل جدير بالتذكر: "للشعب الأفغاني نقدم هذا الالتزام. لن نتخلى... وإذا تغير نظام حكم طالبان، فسوف نعمل معكم لنتأكد من أن نظام الحكم الذي يخلفهم هو حكم يستند إلى قاعدة واسعة، ويوحد جميع الجماعات العرقية ويقدم طريقة ما للخروج من الفقر الذي يكون وجودكم البائس"[39].

في الفصل الأخير، "تحرير أفغانستان". وضعت كلماتهما، بوش وبلير، في مقابل عواقب أفعالهما. فالهجوم على أفغانستان، الذي قيل إنه أول "نصر" في "الحرب على الإرهاب". سبب موت ما يقارب سبعة أضعاف عدد الذين ماتوا في البرجين التوأمين. وحين اختفت طالبان، سيطر على البلاد بعض الرجال الذين هم من أقسى الرجال وحشية في العالم، وهم أمراء الحرب أنفسهم الذين غذتهم أمريكا في أثناء الاحتلال السوفيتي، وهم الذين حولوا كابل، العاصمة إلى أنقاض. و"الحركة الليبرالية" في أفغانستان اليوم طبخة تلفيق غرائبي (سيريالي). وتضم "الديمقراطية المحضرة أمريكياً"، على سبيل المثال مولوي كلام الدين، وهو رئيس إدارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى طالبان، وهو الذي فرض حكم الشريعة من خلال أشكال غير عادية من العقوبات والإساءة الجسدية. وتحرير المرأة سراب. وبينما لا

توجد القاعدة في أي مكان ليتم العثور عليها، تطير الدوريات الأمريكية بأكثر من المألوف من العلم الأمريكي وهي تشغل موسيقى الروك بكامل حجم الصوت وتهاجم قرى معزولة و"تسلم المتهمين" منهم إلى معسكرات الاعتقال (غولاغ) الخاصة بالاستخبارات الأمريكية المركزية.

حين سمعت دونالد رمسفيلد يصف أفغانستان اليوم بأنها "نموذج"للديمقراطية، فكرت في الكيفية التي سوف يقدر بها مؤرخي المفضل لحماقات الحرب غير المعقولة، وهو جوزيف هيللر، هذا التقويم من رمسفيلد. في الفصل الخامس، أروي محادثة كانت لي مع عقيد في قاعدة أمريكية، كان يشبه بشكل غريب "ميجر ميجر"* في رواية الشرط – 22** التي كتبها هيللر. ويبدو أيضاً أن وزير دفاع طوني بلير، وهو جون ريد، قد خطا خارجاً من صفحات رواية الشرط – 22 حين أعلن أن "الحرب على الإرهاب"في أفغانستان كانت "مترابطة" ترابطاً مطلقاً مع مكافحة المخدرات"[40] والصادرات الرئيسية للديمقراطية "النموذج"هو الهيروين، وهو الذي حظرته طالبان بنجاح، والذي يجني منه حالياً أمراء الحرب الديمقراطيون ثرواتهم. وينتهي المخدر في شوارع مدن مثل غلاسغو. على هذا النحو هي "اللعبة الكبيرة للأمم"التي طورها الرجال الإنجليز لابسو القبعات الخفيفة الواقية من الشمس والتي يفخر بها خلفاؤهم.

بعد أن غادرت أفغانستان، طرت إلى الولايات المتحدة، وكان قد بدأ فيها تمرد في المؤسسة "القديمة". قابلت راي ماكغفرن، وهو محلل سابق في الاستخبارات الأمريكية المركزية، وهو الذي كان قد أعد سابقاً الإيجاز اليومي للبيت الأبيض. وحين قلت له إن نورمان ميلر كان يعتقد أن أمريكا قد دخلت حالة "ما قبل

* هو اسم الشخصية الخيالية في رواية الشرط – 22.

** يشير إلى رواية بهذا العنوان لجوزيف هيللر. والعنوان نص في التعليمات العسكرية. وهو مجازاً يعني وضع الإنسان في قيد مزدوج غير معقول. مثل القول إن الشخص لا يستطيع الحصول على عمل من دون خبرة ولا يستطيع الحصول على الخبرة من دون عمل. وبذلك يقع الضحية تحت طلبات متناقضة وفي موقف لا يمكن الربح فيه (المترجم).

الفاشية"، كان صامتاً، ثم قال: آمل أن يكون على حق، لأن هناك آخرين يقولون إننا قد صرنا من قبلُ في حالة فاشية. فحين ترى من الذي يسيطر على وسائل الإنتاج هنا، وحين ترى من الذي يسيطر على الصحف والدوريات ومحطات التلفزة، وهي التي يأخذ منها معظم الأمريكيين أخبارهم، وحين ترى الكيفية التي تجري بها إدارة ما تسمى الحرب على الإرهاب، فإنك تبدأ بفهم إلى أين نحن متوجهون... وهكذا نعم، يجب أن نكون جميعاً قلقين بشأن الفاشية"[41].

صوت آخر من المؤسسة، هو بول كريغ روبرتس، محرر مشارك سابق من وول ستريت جورنال ووزير مالية مساعد تحت حكم ريغان، كتب يقول:

بدأت الولايات المتحدة تكتسب صورة ألمانيا النازية. ولا ينبغي أن يكون لدى الناس المطلعين جيداً أي مشقة في كتابة قائمتهم الخاصة بالعناصر المشتركة في كلا نظامي الحكم، نظام بوش ونظام هتلر: استخدام أكاذيب غير عادية لتبرير العدوان العسكري، والاعتماد على القسر والتهديدات في مكان الدبلوماسية والإيمان الكلي بفضيلة قضية المرء وحقانيتها، ومساواة الأغراض الحقيقية أو التحليل "المستند إلى الواقع"بالخيانة، وإعادة توجيه الوطنية من البلد إلى القائد، والإيمان بأن الهزيمة تكمن في الحوار وفي إضعاف الإرادة[42].

من السهل جداً استخدام "الفاشية"بصفة شتيمة، أو بصفة تسمية منهجية لكل شرور العالم، ولكن ما يسترعي الانتباه بشأن الحوار في أمريكا اليوم هو التحذير العائد المتكرر من المحافظين الذين يؤمنون بفصل السلطات بموجب الدستور. وقد كتب روبرتس يقول: "إن بوش، بالفعل، يؤكد السلطات التي تراكمت لهتلر في العام 1933... وهكذا فإن الولايات المتحدة قد وصلت إلى حافة الدكتاتورية[43].

في العام 2005، صوت مجلس الشيوخ الأمريكي، في الواقع، على إلغاء أمر الإحضار حين أقر المجلس تعديلاً أسقط حكماً من المحكمة العليا يسمح لسجناء خليج غوانتانامو بالوصول إلى محكمة فيديرالية. ومن دون أمر الإحضار وتشريعات

"الإجراءات القضائية"المحددة من قانون حقوق الأفراد، تستطيع الحكومة أن تحبس خصومها وتطبق حكماً ديكتاتورياً. وهناك قضية ليست غير نموذجية هي قضية دكتور أمريكي عوقب باثنين وعشرين عاماً في السجن لأنه أسس جمعية خيرية هي، "ساعد المحتاجين،" والتي ساعدت الأطفال في العراق الذين ابتلاهم الحصار الاقتصادي الذي فرضته أمريكا وبريطانيا في التسعينيات من العام 1990. وقد كسر الدكتور رافل ضافر هذا الحصار، في جمعه للمال من أجل الأطفال الرضع الذين كانوا يموتون من الإسهال، وهو الحصار الذي تسبب، بحسب ما تقول اليونيسيف(صندوق الطفولة في الأمم المتحدة)، بموت نصف مليون طفل تحت سن السنوات الخمس[44]. وقد دعا المدعي العام آنئذ، وهو جون أشكروفت، الدكتور ضافر، "إرهابياً"، وهو وصف هزئ منه القاضي نفسه في ما كان من الواضح بشفافية أنها محاكمة سياسية[45].

وبصورة سرية، تولى بوش سلطة متنوعة من "توقيع القرارات". وهي مراسيم لا تُعرف إلا قليلاً وتبطل القوانين التي أقرها مجلس الشيوخ وتسمح لبوش بأن يتجاهل التشريع، دع عنك ذكر معاهدة جنيف التي تمنع تعذيب السجناء. وبرغم كل شيء، ألقى الرئيس كلامه بلا تبصر، وصار الدستور الأمريكي "مجرد رقعة من ورق ملعون"[46].

وإلى جانب وكالات الاستخبارات، وسعت وزارة الدفاع مراقبتها المحلية كي "تحقق في جرائم وقعت داخل الولايات المتحدة"[47] وفي معسكر اعتقال (غولاغ) وكالة الاستخبارات الأمريكية، يسمح بالتعذيب وبالقتل. وفي العراق يُقنَّع المدى الحقيقي لمجزرة السكان المدنيين ولعقوبتهم، وبشكل ملحوظ المجازر واستخدام أسلحة الفسفور الأبيض في مدينة الفلوجة، يُقنَّع بنظام ناجح لرفع التقارير "ملحق بالوحدات العسكرية". وفي العام 2004، قدرت دراسة قامت بها مدرسة جون هوبكنز للصحة العامة، وراجعها نظراء آخرون، ونشرت في الجريدة الطبية البريطانية لانسيت، قدرت رقماً "محافظاً" هو مائة ألف نسمة قتلوا بالقوة النارية الأمريكية[48] وقدرت أربع دراسات أخرى رقماً أعلى[49].

إن بلاداً كانت في الماضي كريمة يجري تسميمها بسلاح غير مرئي من أسلحة التدمير الشامل: وهو الإشعاع من أسلحة يوجد اليورانيوم على رؤوس المقذوفات فيها (وهو المعروف باليورانيوم "المنضب") وهو إشعاع يعادل عدة مرات من الإشعاع الذي أطلقته قنبلتا هيروشيما وناغازاكي. والأطفال على وجه الخصوص هم العرضة للخطر لأنهم يلعبون في مناطق ملوثة تلوثاً كثيفاً، وزادت فيها السرطانات ثلاثين ضعفاً. وأكثر من نصف المصابين بالسرطان في العراق هم من الأطفال تحت عمر خمس سنوات. لقد رأيت أجنحة المستشفى ممتلئة بهؤلاء الأشباح الصغار المتحولين المشوهين[50].

كنت في الماضي أعتقد بأن هؤلاء الذين يتولون السلطة والمسؤولية لو رأوا فقط ما سبق لي أنا رأيت، من هول الحرب وانحطاطها، لتصرفوا بشكل مغاير. كان ذلك سذاجة، وذلك لأن قوة الرفض الشعبي فقط هي التي تغير مسارهم، أو تخلصنا منهم. وهم يفهمون ذلك. وذلك هو السبب، الذي من أجله تجرّم المخالفة في الرأي مثلما تجرّم السلطات القانونية للدولة،.

ففي بريطانيا، واعتباراً من 1 كانون الثاني/يناير من العام 2006، يمكن أن يلقى القبض عليك بسبب أصغر الإساءات. وهذا الأمر موجه بوضوح ضد الاحتجاج السلمي. إن مايا إيفانز، التي تعمل طاهية نباتية، والبالغة من العمر خمسة وعشرين عاماً، سيكون لها سجل إجرامي طوال بقية حياتها. لقد ألقي القبض عليها بموجب قانون جديد هو قانون الجريمة الخطيرة المنظمة وقانون الشرطة، وذلك لأنها قرأت بصوت عال عند النصب التذكاري للجندي المجهول في لندن أسماء سبعة وتسعين جندياً بريطانياً قتلوا في العراق. لقد كانت جريمتها خطيرة إلى درجة استدعت أربعة عشر شرطياً في سيارتين كبيرتين للقبض عليها[51].

أما جون كات، وهو يبلغ من العمر ثمانين عاماً، وخدم في القوات الجوية الملكية في الحرب العالمية الثانية، فقد أوقفته الشرطة في برايتون لأنه كان يرتدي قميصاً "مسيئاً" بشكل حرف تي وكان يوحي أن بوش وبلير يجب أن يحاكما من أجل جرائم الحرب. لقد ألقي عليه القبض بموجب قانون الإرهاب ووضعت الأصفاد

في يديه، وذراعاه ملويان خلف ظهره. ويقول سجل الإدارة عن القبض عليه إن "الغرض"من تفتيشه كان هو "الإرهاب" و"أساس التدخل" كان "حمل بلاكارد وقميص حرف تي عليه معلومات مضادة لبلير" (هكذا). وفي وقت كتابة هذا الكتاب فهو ينتظر حالياً المحاكمة لرفضه قبول تحذير من الشرطة[52].

إن هذا الاستيلاء على القانون لغايات سياسية ليس أمراً مختلفاً عن هدم حكم المحكمة العليا الذي صدر لصالح سكان جزر تشاغوس. هل هذه هي البداية لنوع من الفاشية تكون فيها اجتماعات المسيرات العسكرية العظيمة غير ضرورية مطلقاً؟ لقد حذر جورج أرويل من أن الشمولية لا تحتاج إلى دولة شمولية. وإن العواقب الناجمة عن قرارات اتخذها سياسيون "ديمقراطيون"محترمون هي الآن تذكر بالقرارات التي اتخذها الفاشيون.

الفرق هو في المسافة. إن جميع سكان الأرخبيل البريطاني في تشاغوس قد جمعوا وطردوا، وأجبرت النساء والأطفال على الدخول في قاع هيكل السفينة من دون توفير ماء عذب بطريقة تذكر بالرق. وفي الوقت الذي كان يحدث فيه ذلك العمل، بقي البريطانيون في الوطن أحراراً، تحميهم القوانين. ولكن ذلك يتغير الآن. إن المسافة تتضاءل.

لقد كتبت كتاب الحرية في المرة القادمة لأحذر من هذه المخاطر ولأحتفي بأولئك الذين يتحدونها. إن الكتاب يتابع موضوعات كتبي السابقة مثل، الأبطال، والأصوات النائية وجداول الأعمال الخبيئة، وقد تم تمييز هذا الأخير حديثاً بختم "مرفوض"من رقباء خليج غوانتانامو[53]. وهذا الكتاب ليس متشائماً. وفي خبرتي، إن معظم الناس لا ينغمسون في حماقة "قواعد"السلطة الجشعة. وهم لا يشوهون أخلاقياتهم وفكرهم لتتطابق مع المعايير المزدوجة ومع فكرة الشر المقبول، ومع فكرة الضحايا الأجلاء القيمة وغير الأجلاء القيمة. إن معظم الناس يوافقون مخلصين من كل قلوبهم مع روبرت جاكسون، المستشار الرئيسي للولايات المتحدة في محاكمات نورمبرغ للقادة النازيين. وقد قال: "إذا كانت أفعال معينة من خرق المعاهدات جرائم، فهي جرائم سواء فعلتها الولايات المتحدة أو فعلتها ألمانيا، ونحن

غير مستعدين لنقرر قاعدة للسلوك الإجرامي ضد الآخرين ولا نكون راغبين في أن يستشهد بها ضدنا"[54].

تبين استطلاعات الرأي، في بريطانيا، أن الأغلبية تعارض غزو العراق واحتلاله وتعتقد أن رئيس الوزراء قد كذب عليهم. وفي الانتخابات العامة البريطانية في العام 2005، لم يكد الخمس من السكان البالغين يصوت لحكومة بلير في ثاني أخفض حضور منذ صدور امتياز الانتخاب. هذه ليست لا مبالاة، بل هو إضراب غير معلن يعكس وعياً متصاعداً، لا بل شعوراً يقدم أكثر من الأمل.

ونظراً إلى أن الصليبيين في واشنطون بدّدوا تعاطف معظم البشرية مع ضحايا 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، لكي يسرعوا هيمنتهم الخاصة، فإن ذكاء عاماً نقدياً قد استغضب. شاهد الاستجابة الهائلة للناس في الغرب نحو كارثة تسونامي في 26 كانون الأول/ديسمبر من العام 2004. وفي الوقت الذي قدم فيه بوش أقل من تكلفة حفلة تدشين رئاسته وقدم فيه بلير واحداً من عشرين من قرض أعطي إلى نظام الحكم الإندونيسي ليستطيع أن يشتري طائرات حربية بريطانية، فإن الناس العاديين قدموا الملايين. كان هذا أكثر من الإحسان، كان هذا استعادة لسياسات المجتمع، وللأخلاقيات، والإيمان بالتعاون بين الأمم.

سبق للمعلق الأمريكي المشهور وولتر ليبمان أن وصف الجمهور بأنه "القطيع المحتار"[55]. ويشاركه في هذا الاحتقار أولئك الذين يخافون كشف القناع عن مناعتهم الظاهرية ضد الهزيمة حين يغير "القطيع"اتجاهه فجأة. ففي الستينيات من العام 1960، وفي الولايات المتحدة، فإن حملة الحقوق المدنية أنهت الآثار المتبقية من الرق. وقد تحالفت الحملة مع الحركة التي أوقفت حشداً عسكرياً بكل الجهود الممكنة كان سيشعل آسيا وما وراءها. ومثلُ أنصار الحركة العمالية للإصلاحات الديمقراطية والانتخابية والمقاتلين الصليبيين الآخرين الذين قاتلوا من أجل الحريات التي يتمتع بها كثيرون منا، فإن الجمهور قد عرف أنه إذا كانت السلطة لا تهزم حقاً فإنها لن تخيف الناس إخافة كبيرة إلى درجة تستهلك معها موارد ضخمة تحاول بها أن تصرف انتباههم وتخدعهم.

أنا لا أقدم أي شيء من هذا ببلاغة خطابية، فالتجديد الإنساني ليس ظاهرة. واستمرار الصراع قد يبدو في بعض الأوقات مجمداً، ولكنه بذرة تحت الثلج. انظر إلى أمريكا اللاتينية، التي أُعلنت لمدة طويلة غيرَ مرئية، وقابلة للاستهلاك والتضحية بها في الغرب. لقد كتب إكواردو غالينو "إن الأمريكيين اللاتينيين قد دربوا على العجز. وإن تربية انتقلت إلينا من العهود الاستعمارية، علمها لنا جنود عنيفون، ومعلمون خائفون، وقدريون ضعفاء، قد جذّرت في أرواحنا الإيمان بأن الواقع غير قابل للمس وأن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نبتلع بصمت الأحزان التي يأتي بها كل يوم"[56]. كان غالينو، وهو منشق وشاعر، يحتفي بإعادة ميلاد الديمقراطية في أرض وطنه أروغواي، التي صوت فيها الناس "ضد الخوف". وفي فنزويلا، يرأس هوغر شافيز الحكومة الوحيدة على الأرض التي تتقاسم ثروة نفط الأمة مع أفقر فقرائها. وفي بوليفيا، وهي أفقر دول أمريكا اللاتينية جميعاً، قام السكان المحليون، بعد أن كانوا قد أجبروا الشركات الأجنبية على الخروج، وهي التي كانت قد "امتلكت" ماءهم، قاموا بانتخاب أول قائد من السكان المحليين في القارة.

هذه القوى جزء من حركة تمتد على اتساع العالم تقوم ضد الفقر والحرب وتزييف المعلومات التي ظهرت في أقل من عقد من الزمان، وهذه الحركة أكثر تنوعاً، ومبادرة، وإيماناً بتعاون الأمم وتسامحاً مع الاختلاف، من أي شيء حدث طوال حياتي. وهي أيضاً غير مثقلة بالنرجسية الغربية، التي لا حصة لها في الحرية مثلما يعرف أحكم الناس. ويعرف أحكم الناس أيضاً أنه مثلما تتجلى الآن العناصر الغامضة في غزو العراق، فكذلك يمكن أن تتجلى أيضاً عناصر منهج كامل للهيمنة وللإفقار.

* * *

الفصل الأول

سرقة أمة

الغرض من التمرين هو أن نحصل على بعض الصخور التي سوف تبقى لنا.
وزارة الخارجية، لندن، 1966

إن صراع الشعب ضد السلطة هو صراع الذاكرة ضد النسيان.
ميلان كونديرا

في سجلات المحفوظات التي نسيت من وقت طويل في لندن وفي موريشيوس يوجد فيلم نادر عن مجتمعٍ لشعب راضٍ بما قسم له. والصور الحبيبية، المتراقصة، المليئة بحركة الأطفال وهم يلعبون على الشواطئ الرملية، وبحركة النساء الشابات الفخورات وهن يقدمن أبناءهن المولودين حديثاً من أجل العماد، وبالرجال المنطلقين إلى صيد السمك، وكلابهم تسبح إلى جانبهم، هي صور لمحات من جنة حقيقية. وهناك قرى مزدهرة، ومدرسة، ومستشفى، وكنيسة، وسكة حديدية خفيفة، تقوم كلها في أحضان أعجوبة من الجمال الطبيعي: خيوط من الأرض المرجانية، تطفو في فيروز، كان في ما مضى قمماً من سلسلة جبال غوندوانالاند المعروفة باسم ليميوريا، وغطتها منذ مدة طويلة 21.000 ميل مربع من المحيط الهندي.

خمس وستون من هذه البقع الكلسية، مرتبة في مجموعات، تشكل أرخبيل تشاغوس: جزر سالومون، وأرض بيروس بانهوس المرجانية إلى الشمال، وجزر إغمونت إلى الغرب، و200 ميل إلى الجنوب، أرض مرجانية بشكل إيطاليا صغيرة،

هي 14 ميلاً طولاً و6 أميال عرضاً. هذه هي دييغو غارسيا. خالية من العواصف المدارية الخطيرة وتملك ميناء طبيعياً واسعاً محمياً، وتقع دييغو غارسيا في منتصف الطريق بالضبط تقريباً بين إفريقية وآسيا.

عاش نحو ألفي نسمة على أرخبيل تشاغوس، وكانت أكثريتهم في دييغو غارسيا. وهم أمة لطيفة، مخلوطة النسب، ويعود أصل نسب أجدادهم إلى القرن الثامن عشر حين أحضر الفرنسيون الأرقاء من موزامبيق ومن مدغشقر ليعملوا في مزرعة جوز الهند. وبعد هزيمة نابليون في العام 1815 انتقلت الجزر من الحكم الفرنسي إلى الحكم البريطاني، وفي أقل من عشرين سنة تماماً بعد ذلك ألغي الرق.

واستمر المجتمع التشاغوسي بالنمو مع وصول العمال من الهند بموجب عقود عمل في الأربعينيات من 1840 والخمسينيات من 1850. وكثيرون من أولئك العمال استقروا وتحولوا إلى الكاثوليكية مع السكان المستوطنين المستقرين، ومع مجيء القرن العشرين كانوا قد طوروا لغة متميزة كانت تنويعاً ذا إيقاع من الخليط الفرنسي.

كان يوجد آنئذ ثلاثة مصانع للب جوز الهند المجفف، توفر زيت جوز الهند الذي كان يضيء مصابيح الشوارع في لندن، ومحطة تزويد السفن بالفحم وهي في طريقها إلى أستراليا أوعائدة منها. ومع مجيء الستينيات من 1960 كانت هناك خطط لتشجيع السياحة. وكان العمال يتلقون أجراً صغيراً أو دفعة عينية بسلع من مثل الرز، والزيت، والحليب. ويستكملون ذلك باصطياد السمك الموجود بوفرة في المياه الساحلية، ويزرعون البندورة (الطماطم)، والفلفل الحار، واليقطين، والباذنجان، ويربون الدجاج والبط[1]. وفي أحد الأفلام، الذي التقط صوَرَه المبشرون، يظهر ولد يلعب مع بطة مدجنة ويظهر كلب يغوص من أجل اصطياد السمك. ويصف فيلم مصور من الخمسينيات من 1950 من وزارة المستعمرات السكان، وكأنه يحتفي برؤية كاملة للإمبراطورية في مثل ذلك المكان، يصفهم بأنهم "ولدوا وترعرعوا... في أهدأ وألطف الظروف". وتتحرك آلة التصوير قبالة امرأة تضحك وهي تعلق الملابس لتجف في بستان جوز الهند في حين يلعب أطفالها حولها. هذه المرأة هي تشارليسيا أليكسيس[2].

قابلت تشارليسيا قبل أمس. بعد خمسين عاماً من تصويرها في الفيلم. كانت تجلس في ظل بيتها الصغير، المؤثث تأثيثاً قليلاً متفرقاً على حافة بورت لويس، عاصمة موريشيوس، على بعد أكثر من ألف ميل من وطنها. وسألتها عن أحب ذكرياتها التي شغفت بها في دييغو غارسيا. فأجابت "أوه، كل شيء، إن الإحساس بالرفاهية السعيدة هي أغلى تذكاراتي. كانت أسرتي تستطيع أن تأكل وتشرب ما تشتهي، ولم يعوزنا أي شيء أبداً، لم نشتر أي شيء أبداً، ما عدا الملابس. هل تستطيع أن تتخيل ذلك؟

"لماذا غادرت؟"

"غادرت في العام 1967. كان زوجي مريضاً وقررت أن أخذه إلى بورت لويس لأحصل على المعالجة التي كان يحتاج إليها. وعندما كنا جاهزين للعودة، ذهبنا إلى روجرز أند كومباني – فهم الذين يديرون السفن – وطلبنا تذاكرنا. فقالوا لنا إن لديهم تعليمات بألا يسمحوا لنا بالعودة. وقالوا إن دييغو قد بيعت.

"بيعت؟"

"نعم، ذلك ما قالوه. لقد خدعنا. وحين ننظر إلى الوراء، إلى اليوم السابق لليوم الذي غادرنا فيه، نرى أن الحاكم الإداري كان قد أخبرنا بأن نأخذ معنا الكثير من الفاكهة معنا. لقد خدعونا بطرق عديدة جداً، وحين سارت هذه اللعبة في مسارها، رحّلوا كل الناس، مثل ذلك تماماً. كنت أنا الجيل الرابع. كانت دييغو هي طائري المحلق في كبد السماء وسلب مني. وأرسلت لأعيش في حي قذر فقير، في غرف كانت مخصصة في السابق لتكون حظائر للماعز والخنازير. تلك هي الهيئة التي رأونا فيها".

شيء مشابه حدث لريتا بانكولت. ففي العام 1968، مرضت طفلة من أطفالها الستة مرضاً خطيراً، وكان على ريتا وزوجها أن يأخذوا طفلتهم مع بقية الأسرة إلى موريشيوس. وحين ماتت الطفلة المريضة، ذهبوا، مثلما فعلت تشارليسيا، إلى وكيل النقل البحري في ميناء بورت لويس للحصول على تذاكرهم إلى الوطن، وهناك

ذكر لهم أنهم لن يستطيعوا أن يعودوا أبداً. وقال الوكيل "أنا آسف جداً بالنسبة إليك، يا ريتا، فجزيرتكم قد بيعت". حينئذ، أصيب زوجها الذي كان يجلس إلى جانبها بجلطة، وانشلت ذراعاه وفمه، ومات بعد أيام قليلة.

ومثل جميع النساء التشاغوسيات اللواتي قابلتهن في المنفى في موريشيوس فإن تشارليسيا أليكسيس وريتا بانكولت كانتا امرأتين رائعتين وذلك ببساطة لأنهما استطاعتا الاحتمال والبقاء، لأن ما حدث في جزر تشاغوس كان ممضاً حارقاً، ولا يكاد يبدو قابلاً للتصديق. وفي الحقيقة، فإن اللفظة التي يسمي بها التشاغوسيون صراعهم من أجل العدالة والحرية، وهي المصارعة، ظهرت من الجريمة التي تسمح لنا بأن نلمح كيف أن القوة الكبيرة تعمل خلف مظهرها الخادع المحترم الديمقراطي، وتساعدنا على أن نفهم كم من العالم يدار لمنفعة القوي، وكيف تبرر الحكومات أعمالها بالأكاذيب.

في أثناء الستينيات من 1960 والسبعينيات من 1970 خدعت الحكومات البريطانية، من العمال والمحافظين على حد سواء، السكان وطردتهم بأكملهم من تشاغوس، وهي مستعمرة تابعة بريطانية، وذلك لكي يكون من الممكن إعطاء وطنهم إلى قوة أجنبية، هي الولايات المتحدة، ليكون موقعاً لقاعدة عسكرية. إن هذا العمل من "الخطف الجماعي الشامل"[3] قد نفذ بسرية عالية، جنباً إلى جنب مع المؤامرة التي سبقته. فطوال عقد من الزمان تقريباً، لم يعرف مجلس النواب، ولا مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة أي شيء عن ذلك، ولم يكشف عن ذلك أي صحافي. وحين تأسست القاعدة، أخذت مجموعة من مراسلي "الدفاع" جواً إلى القاعدة من قبل وزارة الدفاع وأرسل المراسلون التقارير كما كان متوقعاً، وكأنه لم يكن إنسان يعيش هناك أبداً، وما زال مذيعو أخبار هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) يشيرون إلى الطيران الأمريكي وهو يطير خارجاً لقصف أفغانستان والعراق من جزيرة دييغو غارسيا "غير المأهولة".

لقد عومل التشاغوسيون مثلما عومل سكان أستراليا المحليون الأصليون في القرن التاسع عشر: فقد اعتبروا أنهم لم يوجدوا. ولم يسرق وطن التشاغوسيين منهم وحسب، بل لقد أخرجوا من التاريخ أيضاً. وإلى عهد قريب، أنكر موقع وزارة

الخارجية على شبكة المعلومات مجرد وجودهم نفسه. إن حفنة فقط من أعضاء مجلس النواب (البرلمان) أشارت إليهم في المناقشات النيابية عن "الأراضي الواقعة ما وراء البحار" المتبقية لبريطانيا. وما من سياسي واحد من الذين كان لسياساتهم التي وضعوها عواقب وحشية على سكان الجزر قد أشار إليهم مطلقاً في مذكراته أو مذكراتها. ولا أعلم عن أي عمل علمي عن السياسة الخارجية البريطانية يصف ما حدث لهم، مع استثناء واحد يدعو إلى الإعجاب، وهو الكتب التي كتبها مارك كيرتس، الذي سماهم "اللاناس"[4].

وبعد أن تخلت بريطانيا عنهم، فإن سبع حكومات بريطانية راقبت مواطنيها المعرضين للخطر، في مكان ناء وهم يعيشون كابوساً في الأكواخ في جزر سيشل، وبشكل رئيسي في موريشيوس، وقد نُبذوا هناك، في الوقت الذي قام فيه الوزراء ومسؤولوهم في لندن بشن حملة من الخداع سارت كل الطريق صعوداً حتى وصلت رئيس الوزراء. وتستمر هذه الفضيحة اليوم — تستمر بعد أن قضت المحكمة العليا في لندن في العام 2000 أن ذلك "الإخراج الذريع" لسكان الجزر من وطنهم كان "إخفاقاً قانونياً وضيعاً".

كان العام هو 1961. وخطا رجلان بخطوات واسعة مقتربين من رصيف الميناء الموجود في دييغو غارسيا، وقد صورهما المبشرون في الفيلم غير واعين لأهمية ضيفيهما الزائرين. كان أحدهما هو العميد البحري غرانثام من أسطول الولايات المتحدة، وكان قائد زمرة مساحة متقدمة أمريكية، وكان هدفها الذي جاءت من أجله هو العثور على جزيرة مناسبة لإنشاء قاعدة عسكرية سوف تسمح لواشنطون أن تهيمن على المحيط الهندي وما وراءه. وطوال السنوات الثلاث التالية تفحص المخططون والمهندسون البريطانيون والأمريكيون مجموعة جزر تشاغوس. وأخيراً اختاروا جزيرة ألدابرا المجاورة. ولكن قرارهم السري تسرب إلى علماء الجمعية الملكية في لندن الذين أصيبوا بالهلع: فألدابرا هذه تمتلك سكاناً فريدين من السلاحف الأرضية العملاقة، وطيور البحر التي تبني أعشاشها وآخر طير لا يطير باق على قيد الحياة في المحيط الهندي، إنها مستودع كنوز الحياة البرية.

وشنت هيئة هذه المؤسسة الهائلة حملة، بالتعاون مع المعهد السميثسوني في واشنطون، ودّعت نتيجة لها وزارة الدفاع والعميد البحري غرانثام إلى خارج الجزيرة. وبهذا سلمت السلحفاة الأرضية العملاقة وسلم آخر طائر لا يطير. ولكن الخيار الثاني لم يسلم. وكان هذا الخيار هو دييغو غارسيا، وهي الجزيرة التي لم تكن فريدة بما فيه الكفاية لتثير انزعاج علماء الطبيعة على الرغم من أنها غنية بالحياة البرية والبحرية.

وأما بالنسبة إلى وجود سكان من البشر في حياة مزدهرة، فهذا لم يشكل "معضلة لا يمكن التغلب عليها" كما نصحت بذلك وزارة الخارجية، لأن الناس يمكن "إخراجهم" و[إعطاء] "العالم الخارجي سيناريو لا يوجد بموجبه سكان دائمون في الأرخبيل". وكان هذا جوهرياً "لأن الاعتراف بوجود سكان دائمين سوف ينطوي على أن هناك سكاناً سوف تتوجب المحافظة على حقوقهم الديمقراطية"[5]. وما كان يستطيع ونستون سميث* في رواية جورج أرويل 1984 أن يصوغ ذلك على نحو أفضل.

في شهر شباط/فبراير 1964، عقد مؤتمر أنجلو – أمريكي سري في لندن، اتخذ فيه القرار الأخير. ومرة أخرى، لم يُحط مجلس النواب(البرلمان) علماً. وفي شهر نيسان/ابريل التالي، طار آنتوني غرينوود، وكان وزير المستعمرات في وزارة هارولد ولسون العمالية، إلى موريشيوس، وكانت آنئذ مستعمرة بريطانية شملت جزر تشاغوس. وقد أوضح غرينوود الشروط المطلوبة لمنح الاستقلال لموريشيوس. وعلى الرغم من قرار الأمم المتحدة رقم 1514، الذي نص على أن جميع سكان المستعمرات لهم الحق غير القابل للتحويل في الاستقلال من دون شروط، فإن غرينوود عرض الاستقلال مع قيود. إن موريشيوس تستطيع أن تكون حرة طالما

* وينستون سميث شخصية البطل في رواية 1984 للكاتب البريطاني جورج أرويل (1903 – 1950). وصار هذا الاسم رمزاً لرجل الشارع والضحية البريئة للألاعيب السياسية. ويعمل سميث في الرواية كاتباً في وزارة الحقيقة، وعمله هو أن يعيد كتابة الوثائق التاريخية كي تتلاءم مع الخط الحالي للحزب، وهو أمر يتغير على أساس يومي! (المترجم)

كانت بريطانيا تستطيع أن تحتفظ بأرخبيل تشاغوس. وكانت الرشوة مجرد 3 ملايين جنيه إسترليني، مع وعد بالقيام بدعم تفضيلات السكر الموريشيوسي.

وهكذا "بيع" وطن تشارليسيا وريتا. وفي 8 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1965، وفي شفق عصر بريطانيا الاستعمارية، خلقت بريطانيا مستعمرة جديدة، وهي أرض المحيط الهندي البريطانية، التي كانت أرضها الرئيسة جزر تشاغوس. لقد كانت خدعة ربما ما كان ليقوى عليها إلا نظام الحكم البريطاني القديم، وذلك لأن المستعمرة الجديدة كانت زيفاً، فهي كيان خلق من أجل الغرض الوحيد وهو تسليمه من أجل استخدامه للقوات العسكرية الأمريكية. وكان ذلك قد صار ممكناً باستخدام السلطات القديمة من امتيازات الملك، وكان هذا الاستخدام ارتداد إلى الحق الإلهي المقدس للملوك.

لقد جيء بأرض المحيط الهندي البريطانية إلى الوجود بأمر مجلس ملكي إداري، وهو قرار لا يوافق عليه مجلس النواب بل الملكة، التي تتصرف بناء على نصيحة — في الواقع، بناء على تعليمات — مجموعة سرية لا تخضع للمساءلة تعرف باسم مجلس الملكة الخاص. وأعضاء هذه الهيئة، المستشارون في المجلس الخاص، يضمون وزراء حاليين وسابقين في الحكومة. وهم يظهرون أمام الملكة في قصر بكنغهام، وقوفاً على شكل نصف دائرة حولها ورؤوسهم منحنية قليلاً، مثل كهان الديانة السلتية القدماء، ولا يجلسون مطلقاً. والبنود المعدة لختم الملكة المطاطي — "الأوامر المجلسية" — تقرأ بصوت عال بالعنوان فقط. ليس هناك أي نقاش، بل تقول الملكة ببساطة، "موافق عليه". هذه حكومة بالتفويض: إنه استخدام المرسوم الملكي من قبل السياسيين الذين يريدون أن يهربوا بشيء ما بطريقة غير ديمقراطية. ومعظم أبناء الشعب البريطاني لم يسمعوا بهذا التفويض. ويستخدمه رؤساء الوزارة البريطانيون لأخذ الأمة إلى حروب غير مقبولة شعبياً، من مثل غزو مصر في العام 1956 وغزو العراق في العام 2003. والحكام المستبدون يفعلون الشيء نفسه، ولكن من دون الشعائرية الغربية. وقد استخدمت حكومة ولسون هذا التفويض لنفي سكان بأكملهم لكي تسلم بلدهم إلى الأمريكيين. وبعد أربعين

عاماً تقريباً، استخدمته حكومة بليرلإعاقة محاولة المحكمة العليا أن تسمح للسكان بالعودة إلى وطنهم.

وعلى الرغم من أن المسألة لم تكد تروى في الصحافة، فقد وصلت كلمة عن هذه المناورة إلى الأمم المتحدة في نيويورك، وحثت الجمعية العامة على أن تصدر القرار 2066، الذي طلب من الحكومة البريطانية "أن لا تتخذ أي عمل من شأنه أن يمزق أراضي موريشيوس ويخرق وحدتها الإقليمية". وقد أهمل هذا القرار.

وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 1966، وقع اللورد شالفونت، وكان وزيراً في وزارة الخارجية، عقداً في واشنطون يعطي وزارة الدفاع الأمريكية "عقد إيجار" لمدة خمسين عاماً على دييغو غارسيا مع تمديد تلقائي لعشرين سنة. وتكشف وثائق وزارة الخارجية التي رفعت عنها السرية والتي تم الحصول عليها بموجب قانون حرية المعلومات في العام 2005 أن واشنطون أرادت أن يطرد كل السكان، كما قال ذلك أحد المسؤولين، كان يتعين أن تكون الجزر "مكنوسة" و"مطهرة". وكانت هذه العملية موصوفة في ملف سري بأنها "رزمة مرتبة ومعقولة"[6].

وقد أخبرني روبن كوك، الذي لم يكن بعد في العام 1966قد بدأ مسيرته البرلمانية، أخبرني في العام 2004 أن الفضيحة لم ترفع إلى مجلس العموم طوال عقد من الزمان تقريباً لأن أعضاء البرلمان "لم يعرفوا شيئاً عنها. وكان الحفاظ على ذلك السر مدهشاً". لقد كان كذلك حقاً. وفي العام 1974. وهو العام الذي انتخب فيه كوك لأول مرة عضواً في البرلمان – وسأل كتاب مشترك أمريكي – بريطاني صيغ على شكل سؤال وجواب أعد للمسؤولين والسفارات حول العالم، سأل: "هل هناك أي سكان محليين على الجزر؟" وكان الجواب: "لا". وأنكر متحدث باسم وزارة الدفاع أن يكون هذا كذبة، وهو في هذا السياق ربما يكون قد نطق بأغرب كذبة على الإطلاق. فقد قال: "ليس هناك أي شيء في ملفاتنا عن سكان أو حول إخلاء سكان"[7].

لم يكشف مجلس الشيوخ الأمريكي حتى جاء العام 1975، وبعد تشهير واشنطون بوست بالقضية، عن أن الحكومة البريطانية كانت قد "عُوضت" سراً

عن تشاغوس بحسم 14 مليون دولار من سعر غواصة نووية من نوع بولاريس. وهذا نفسه كان حسماً غير قانوني، ولم يُقدم إلى مجلس الشيوخ قطعياً للموافقة عليه، والوثيقة التي وقعها شالفونت قررت كذباً أن الولايات المتحدة لن تدفع أي أجرة مقابل الحصول على "حقوق قاعدة". ولم يكن هناك أي ذكر للسكان[8].

وكانت ليزيت تاليت هي أيضاً في فيلم وزارة المستعمرات. كانت في الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت وهي تتذكر المنتج وهو يقول لها ولصديقاتها: "استمروا بالابتسام أيتها الفتيات!" وقالت وهي تجلس في مطبخها في بورت لويس: "لم نكن نحتاج ليقال لنا ذلك. لقد كنت طفلة سعيدة، لأن جذوري تضرب عميقاً في دييغو. جدة جدتي ولدت في دييغو، وجدتي ولدت هناك، وأمي ولدت هناك، وأنا ولدت هناك. وولدت ستة أطفال. وربما يكون الإنجليز وحدهم هم الذين يستطيعون أن يخرجوا فيلماً يظهر أننا كنا مجتمعاً مستقراً، ثم ينكرون دليلهم هم ويخترعون الكذبة بأننا كنا عمالاً عابرين. وهذا هو السبب الذي لا يستطيعون من أجله أن يقذفوا بنا خارج بيوتنا الخاصة، وكان عليهم أن يرهبونا لنغادر أو يقسرونا على الخروج".

"وكيف أرهبوكم؟"

"لقد حاولوا أن يجيعونا حتى الموت. فسفن الطعام توقفت عن الوصول، وصار كل شيء نادراً. ولم يكن هناك حليب، ولا منتجات ألبان، ولا زيت، ولا سكر، ولا ملح. ولما لم يستطيعوا أن يجيعونا حتى الموت لنخرج من بيوتنا، نشروا الشائعات بأننا سوف نقصف بالقنابل، ثم إنهم تحولوا ضد كلابنا".

والتشاغوسيون يحبون كلابهم، إنهم لا ينفصل بعضهم عن بعض. والبيت التشاغوسي مليء حتى الإسراف بالدرجات والسلالم للأطفال وبالكلاب السمراء اللون الهجينة التي تبصبص بأذنابها وبالجراء. والخطة لقتل كل الكلاب الموجودة على أرض الجزيرة — مع مفهومها الضمني غير الذكي بأن قتل البشر قد يكون هو الأمر التالي — جاء من السير بروس غريتباتش، الذي يحمل وسام فكتوريا الملكي

لطبقة فارس، ووسام القديس ميشيل وجورج، ووسام عضو الإمبراطورية البريطانية، وكان حينها حاكم صاحبة الجلالة لجزر سيشل، وهو الذي كان مسؤولاً عن المستعمرة الجديدة أراضي المحيط الهندي البريطانية.

وقالت ليزيت: "في البداية حاولوا استخدام كرات سمك مسمومة، وقد قتلت قليلاً من الكلاب وتركت الكثير منها في آلام مخيفة. ثم دفعوا إلى رجل ليمشي متجولاً مع عصا كبيرة، وينهال على الكلاب بالضرب حتى تموت، أو يحاول ذلك".

"وفي أي عام كان ذلك؟"

"ربيع العام 1971. كان الجو حاراً. وكان الجنود الأمريكيون قد بدؤوا بالوصول من قبل لبناء القاعدة. ووجهوا ظهور العديد من سياراتهم الكبيرة مقابل الظل المبني من الآجر وكان يُعد فيه جوز الهند، وجمعت مئات من الكلاب وسجنت هناك. ثم قتلت بالغاز الموجه من خلال أنبوب من عوادم السيارات. وكنت تستطيع أن تسمع الكلاب تبكي".

وقذف بأجسام الكلاب، والكثير منها كان ما زال حياً، على رف كان يوضع عليه عادة لب جوز الهند حين كان يطبخ فوق نار من قشور الثمرة تحترق تحته. تلك كانت محرقتهم. وكان الأطفال يصغون إلى ولولة كلابهم وهي تحترق حتى الموت وراقبوا قلة من تلك الكلاب التي حاولت أن تهرب إلى الشاطئ، ولكنها كانت تدفع إلى الخلف لترد إلى اللهيب من مساعدين يساعدون القائمين بالحرق. واحتاج الأمر لأكثر من طن من قشور جوز الهند لإكمال المجزرة.

وقالت ليزيت: "إن الأطفال يرعون كلابهم ويعتزون بها، ولم يبق أي شيء بعد ذلك كما كان. لقد صرنا مجللين بالحزن".

وأخبرني روبن مارديموتو المحامي الموريشيوسي لسكان الجزر فقال: "إن علاقتك مع حيواناتك الأليفة لابد وأن تكون هي نفسها سواء أكنت تشاغوسياً أم بريطانياً. لقد دمر السكان تدميراً مطلقاً بالمصير نفسه الذي خصت به الكلاب، والكثيرون من السكان أخبروني بأنه كان واضحاً لهم بأنهم إذا أقدموا

على أي اعتراض على ترحيل السكان فسوف يعانون المصير نفسه. وأنه إذا كان ذلك غير كاف، فإن الطائرات العمودية العسكرية الأمريكية والطائرات الأخرى كانت تطير على ارتفاع منخفض فوق الجزيرة وقد أخبروا الناس بأن المكان كله سوف يقصف بالقنابل قريباً جداً. لقد استمعت إلى نساء يبكين، وهن يتذكرن كيف كن يركضن من الضجيج حين كن يرين فجأة طائرة عمودية، وكن يضممن أطفالهن بين أذرعهن وهن جميعاً مذعورات".

وأما الذين رفضوا أن يغادروا فقد استدعوا إلى مكتب الحاكم الإداري وأخبروا بأنهم ليس لديهم أي خيار لأن "إخراجهم" من ديارهم كان "قانونياً" بموجب قوانين المستعمرة الجديدة. وكانت تلك كذبة كبيرة. وقد لاحظ قاض كبير، هو اللورد سيدلي، بعد ثلاثين عاماً أن "الصلاحيات القانونية لحكم الجزر قد [أسيء استخدامها] من أجل الغرض المحرم وهو إخراج السكان من ديارهم وتفريغ الجزيرة منهم"[9].

وقد أخبر الناس المجموعون بأنهم سيحملون على السفن ويرحّلون. وتوجد صورة لهذا الاجتماع. وفيها رجل أبيض يلبس البنطال القصير والجرابات الطويلة ويقف على درجات، ويخاطب حشد الناس، والأطفال يتطلعون إلى الكبار، الذين يبدون بدورهم مذهولين. ويظهر الكثيرون وقد انهاروا تحت تأثير الصدمة، في حين يبدو آخرون وقد ضربهم الأسى.

وقالت ليزيت: "إن القاضي تود هو الذي بلغنا الأخبار. وكان هناك نوع من الإشارة إلى أن ما فعلوه بكلابنا سيفعلونه بنا. كانوا بلا شفقة ولا رحمة".

وأجبرت ليزيت وعائلتها، مع 180 آخرين، على الصعود إلى السفينة نوردفاير، التي كانت تبحر بانتظام بين تشاغوس وموريشيوس، وسيشل، وكانت تنقل لب جوز الهند المجفف وتعود بالإمدادات إلى الجزر. وكان المجيء والذهاب المستمر بهدوء لهذه السفينة قد ساعد على إعطاء التشاغوسيين اسمهم المعروف جيداً وهو الإلويز ويعني "سكان الجزر". وكانت تلك السفينة غير

كافية بشكل ميئوس منه لتكون وسيلة النقل لهذا العدد من الركاب عبر 2500 ميل. ولم يسمح لهم أن يحملوا معهم إلا الحد الأدنى ممن ممتلكاتهم الشخصية، وكان عليهم أن يتركوا خلفهم أثاث بيوتهم الذي اشتروه بمدخراتهم من أعمالهم في المزارع، وأن يتركوا دجاجهم، وبطهم، وحميرهم، وماعزهم الثمينة. ونسل الماعز والحمير التي لم تطلق عليها النار يعيش الآن حياة برية في حدائق الخضروات وفي المقابر التي غطتها الشجيرات.

وقد أرسلت أوامر السير غريتباتش ذات الأسلوب العسكري بالأقمار الاصطناعية من سيشل. "اقتلوا الكلاب وأنقذوا الخيل"، لقد وجه الأمر إلى مارسيل موليني، مدير المزرعة. وهو يصر الآن على أن الخيل تفخر باحتلالها لمكان على ظهر سفينة نوردفاير[10]. وطوال خمسة أيام أطعمت الخيل ولم يطعم الناس. وحشر الرجال كالقطيع على جسر السفينة وكان عليهم أن يقفوا أو أن يجثموا في طقس قاس جداً، وفرض على النساء والأطفال أن يناموا في قاع هيكل السفينة على شحنة من السماد – من ذرق الطيور. وعانى الناس من التقيؤ والإسهال، وأسقطت امرأتان حمليهما.

وقالت ليزيت: "لقد كان الماء أيضاً شحيحاً. وما لا أستطيع أن أنساه هو الخوف واللايقين على مصيري نفسي ومصير عائلتي. وحين وصلنا إلى سيشل، كانت الشرطة بانتظارنا. واقتادونا مشياً صاعدين إلى تلة إلى سجن، وهناك أبقينا في زنازين إلى أن صارت السفينة جاهزة لتأخذنا وتتابع إلى موريشيوس.

"وأظن أننا راودنا بعض الأمل في وعد لنا بأننا في موريشيوس سوف نمنح بيتاً، وقطعة أرض، وحيوانات، ومبلغاً من المال. لم نحصل على شيء. وحين وصلت السفينة إلى موريشيوس كان الشخص العطوف الوحيد هو القبطان الذي سمح لنا أن نمكث في سفينته إلى أن يكون عليه أن يبحر".

وقد أخبرني الرئيس السابق لموريشيوس كسام يوتيم، وهو الذي دافع عن حقوق التشاغوسيين فقال: "لا تستطيع أن تتخيل كم كانوا محتارين ومذعورين.

بعضهم خيم على ظهر السفينة بانتظار السفينة التالية لتعيدهم إلى وطنهم. ولم يكن في استقبالهم أي مسؤول بريطاني لتسهيل طريقهم، على الرغم من أن البريطانيين هم الذين فعلوا هذا بهم وهم أنفسهم مواطنون بريطانيون. لقد كانوا بحاجة إلى المساعدة لدمج أنفسهم في المجتمع الموريشيوسي، وهو مجتمع مختلف جداً عن المجتمع الذي كانوا قد اعتادوا عليه. بالنسبة إليهم، كانت الحياة بسيطة، كانوا يملكون بيوتهم الخاصة، ويزرعون طعامهم الخاص، وكانوا يصطادون السمك من البحر وكانوا يعملون في مزرعة. كانوا قريبين جداً من الطبيعة، أما الحياة في موريشيوس، فكانت بالمقارنة بذلك حياة معقدة. فأنت تخرج لتبحث عن عمل، وهناك بطالة. ماذا يحدث لإنسان لا يمتلك أي مهارات إلى جانب مهارات صيادي السمك؟

"كثيرون منهم لم يروا المرور"، في وطنهم لم يكونوا يفكرون ولو باستخدام دراجة ليذهبوا من مكان إلى آخر. كان أولئك الناس ممن يغنون في طريقهم في الحياة، وهم هنا كانوا يبكون في طريقهم في الحياة، وما زالوا يبكون. إنني أعرف سيدة فقدت طفلين في غضون شهرين أو ثلاثة، ولم تكن قادرة على القيام بعمل جنازتيهما لأنها لم تكن تملك أي مال. لقد أخذ الطفلان من المستشفيات مباشرة إلى المقبرة. تلك السيدة مازالت تنوح".

ليزيت هي تلك السيدة. لقد فقدت جوليس وعمرها ثمانية أعوام، وفقدت ريجيس وعمره عشرة شهور. ومات زوجها بعد ذلك في الحال. إنها امرأة نحيلة كالسلك، ذكية ذكاء حاداً تضع على وجهها قناعاً من الأسى والتصميم. وقالت: "حين رست السفينة لم يكن المسؤولون الموريشيوسيون يعرفون ماذا يفعلون بنا، وأخذونا في نهاية الأمر إلى عقار مهجور للإيواء اسمه بو مارشائد. وأخبرنا الموريشيوسيون الذين قابلناهم أن هذا المكان لم يكن صالحاً للسكن، وكنا نستطيع أن نعرف لماذا. فالماعز التي كانت تجلب من جزيرة رودريغيز كانت قد وضعت في هذه البيوت، وهي غير مزودة بالكهرباء. ولا بالماء، وكانت النفايات والقذر في كل المكان. وإن الصحيح هو أن نقول إننا عوملنا مثلما تعامل الحيوانات.

"كان ذلك في شهر تشرين الثاني/نوفمبر – لقد نسيت العام، وآمل أن أنساه – وكنت مريضة في المستشفى وكان طفلاي كلاهما معي كذلك. لقد ماتا في كانون الثاني/يناير، وبين موتهما ثمانية أيام.

وسألتها: "وممَ ماتا؟"

"ماتا من الحزن. حين تلقيت الأخبار، كنت أعرف أن الصغير كان يرضع حليبي، وكان ذلك حليب الحزن. وأما ابن الثامنة فكان قد سمع كل الكلام، ورأى كل الرعب الذي حدث للكلاب. لقد كان يعرف أنه يغادر وطنه".

"وماذا قال الطبيب عنه؟"

"قال الطبيب إنه لا يستطيع أن يعالج الحزن".

"هل لديك صورة لهما؟"

"حين جئت إلى موريشيوس لم تتح لي الفرصة لالتقاط صور لهما. لقد جلست وحسب وبكيت ولم يكن لدي الوقت لالتقاط الصور... ولكن: اسمعني، إنني سأرجع إلى الوطن، كلنا سنرجع إلى الوطن. لسنا هنا لنستدر الشفقة، نحن هنا كي نقاتل".

بعد أن أشارت ريتا بانكولت لجرائها أن تبتعد، رحبت بي للدخول إلى بيتها في منطقة كاسيس من بورت لويس، وهي المنطقة التي يعيش فيها معظم المنفيين التشاغوسيين. لقد ولدت ريتا في جزيرة بيروس بانهوس في العام 1925 وتقول إن "إرادتها ألا تنسى أبداً" حياتها السابقة قد صانت تماسكها منذ أن دُفعت أسرتها إلى ظهر السفينة مع "قبضة من الثياب" مربوطة بكيس مخدة وحصيرة من القش". ومن بين صور العائلة التي أرتني إياها كانت هناك صورة للعائلة الملكية، من حوالي السبعينيات من 1970. وسألتها لماذا احتفظت بهذه الصورة.

وقالت: "هل هذا هو السؤال؟"

"تلك هي الملكة والدوق. ألم تعرفوهما؟"

"لم أفكر فيها. إنها صورة احتفظت بها أم زوجي..".

"وماذا تفعلين بها، ياريتا؟"

"أضعها في المرحاض! لقد سببوا لنا الكثير من المعاناة. سأمزقها مزقاً وأرميها في المرحاض".

وهكذا فعلت.

وقالت: "حين وصلنا إلى موريشيوس، لم يعترف بنا ولو بصفتنا من بني البشر. ولم يكن لدى أطفالي ما يأكلونه، ولذلك ذهبت من بيت إلى بيت في شارع حسن المظهر. وحصلت على عمل بيتي، ولكن السيدة حين اكتشفت إنني كنت من تشاغوس طردتني. وكل ما كنت أستطيع أن أفعله هو أن أبحث في حاويات القمامة في الشوارع عن أكياس بلاستيك تحتوي على خبز بائت. ففي موريشيوس يرمي الموسرون معظم خبزهم. وكنت أستغرق يوماً كاملاً لأجمع وجبة من هذا للأطفال، هذه هي الطريقة التي عشنا بها".

لقد مات أربعة من أطفال ريتا في موريشيوس: الأول كان الطفل الذي جاؤوا به وفيه جرح مصاب بالغرغرينا ليعالج، ثم في سنوات المنفي مات رينو، وأليك، وإيدي.

وسألت: "مم ماتوا؟"

"الأحزان"

لقد أحضرت معي وثيقة بريطانية رسمية لأريها لريتا. وكانت مكتوبة في العام 1968 من قبل أنتوني إفال أوست (وتنطق أورست)، وكان في حينها مستشاراً قانونياً طموحاً صاعداً لوزارة الخارجية والكومنولث، وعمره ستة وعشرون عاماً. وقد كتب في رأس الوثيقة "الإبقاء على الرواية"، ونصحت الوثيقة حكومة ولسون بأن "تحاجج" في "الرواية" بأن التشاغوسيين كانوا "سكاناً متنقلين فقط" وذلك لأن "هذا سوف يدعم حججنا بأن الأراضي ليس فيها سكان محليون أو سكان مستقرون". وحين ترجمت الوثيقة إلى لغة الكريول لتفهمها ريتا، أسقطت ريتا رأسها بين يديها.

وصاحت تقول: "ولكن ذلك غير صحيح! كل أجيالنا مدفونة في دييغو. كيف يستطيع أن يكتب ذلك؟"

ولم أقرأ لها ما كتب أوست عن تمزيق المعارضة. وقد كتب يقول: "نحن قادرون على أن نضع القوانين ونحن نتابع العمل. وقادرون على أن نعامل سكان أرض المحيط الهندي البريطانية بوصفهم لا (ينتمون) لها بأي معنى من المعاني". وكان أوست قد منح لاحقاً وسام القديس ميشيل والقديس جورج في إنعامات صدرت بمناسبة عيد ميلاد المملكة[11].

ومع حلول العام 1975، بدأ التشاغوسيون الموجودون في المنفى يموتون من الفقر الذي فرض عليهم. وكان معظمهم عاطلين عن العمل ولا يملكون فلساً وكانوا يشتركون في مناطق فقيرة مكتظة أو ينامون في العراء. وقد أخبر مسح قامت به لجنة منظمة الأخوة الألويزية في بورت لويس عن ست وعشرين عائلة كانت قد "ماتت معاً في فقر"، وعن تسعة انتحارات، وعن فتيات شابات أرغمن على ممارسة البغاء من أجل مجرد دفع ثمن الطعام. وفي ما يلي نبذة من التقرير:

إليان وميشيل موزا: الأم والطفل انتحرا.

ليون رانغاسامي: أغرقت نفسها لأنها منعت من الذهاب إلى وطنها.

تيرين شياتوكس: انتحرت، لا عمل، ولا سقف يؤويها.

ديزي فولفرين: لم تحصل على طعام لمدة ثلاثة أيام. ماتت من الفقر.

جوسو ومود بابتست: لا سقف يؤويه، ولا طعام يغذيه، فأقدم على الانتحار[12].

هذه مجرد لقطة من المعاناة التي أوقعتها الحكومة البريطانية التي عبرت عن قسوتها عرضاً في رسالة موجهة إلى عضو في البرلمان من مسؤول في وزارة الخارجية. وقد كتب هذا يقول: "على الرغم من أننا لا نمتلك أي معلومات عن وفيات، فإن بعض الوفيات لابد أن تكون حدثت في المسار العادي للأحداث"[13].

تلك كانت كذبة. لقد أرسلت وزارة الخارجية مسؤولاً كبيراً، وهو أي. آر. جي. بروسر، ليحقق، وكان قد أرسل تقريراً مفصلاً حياً بالصور عن ظروف حياة سكان الجزر ونصح بأن "هناك حاجة لفعل شيء ما لهم"[14]. وكان رد فعل الحكومة هو أن تعرض مبلغاً ضئيلاً هو 650.000جنيه إسترليني تعويضاً لجميع السكان. ولكن هذا المبلغ نفسه لم يصل حتى العام 1978، أي بعد خمس سنوات من تاريخ ترحيل آخر ساكن من سكان الجزر، لا بل إن هذا المبلغ نفسه قد أرسل بشكل متردد متذمر. فقد شددت مذكرة وردت من المندوبية العليا البريطانية في بورت لويس تقول فيها "يجب أن نكون قانعين بأننا لم نستطع أن نؤدي التزاماتنا... بشكل أرخص[15].

وفي العام 1975، قدمت مجموعة من الناس اليائسين العريضة التالية إلى المندوبية العليا:

نحن، سكان جزر تشاغوس... قد اقتلعنا من جذورنا من هذه الجزر لأن حكومة موريشيوس باعت الجزر إلى الحكومة البريطانية لبناء قاعدة عسكرية. إن أسلافنا كانوا عبيداً أرقاء على تلك الجزر ولكننا نعرف أننا الوارثون لتلك الجزر. وعلى الرغم من أننا كنا فقراء فنحن لم نكن نموت من الجوع. كنا نعيش أحراراً... وهنا في موريشيوس... لكوننا عبيداً أرقاء صغاراً، لا نجد أحداً يساعدنا. إننا ضائعون، لا نعرف ماذا نفعل[16].

وكان رد المندوبية العليا هو أن ذلك لا علاقة له بالبريطانيين وأن على سكان الجزر أن يوجهوا "مخاوفهم" إلى الحكومة الموريشيوسية، فهي التي حملت المسؤولية عن إعادة توطينهم[17]. وكانت هذه كذبة أخرى، فمعظم التشاغوسيين كانوا مواطنين للمملكة المتحدة وللمستعمرات. ولكن، ومع انكشاف الملفات، كان ذلك الموقف كله جزءاً من الإستراتيجية البريطانية الرسمية نحو سكان الجزر، والتي كانت تقوم على أساس أن "تمنح أقل الحقوق الممكنة مع أقل تصرف رسمي ممكن"[18].

في 16 شهر آذار/مارس من العام 1981، اجتمع مئات من النساء التشاغوسيات في المندوبية العليا البريطانية في بورت لويس، وجلسن هناك وغنين، وطالبن بتعويض مناسب. وبعد أن حاولن عبثاً أن يتحدثن مع المندوب السامي، قمن باحتلال مدخل القاعة، وبدأت ثماني نساء إضراباً عن الطعام في الحدائق المقابلة. وإحداهن كانت تبلغ سبعة وسبعين عاماً من عمرها. قبض على تشارليسيا أليكسيس وضربت، وقد أدت صورة لها في صحيفة وهي تجر إلى الباب الخلفي لعربة شرطة إلى إرسال موجة من الإحراج إلى لندن. وحين كان الإضراب عن الطعام في يومه الثامن عشر، وافق البريطانيون على "محادثات" – لا مع التشاغوسيين، بل مع الحكومة الموريشيوسية.

وفي الأشهر القليلة الأولى من العام 1982، ظهر أن المحادثات بشأن التعويض كانت تحرز تقدماً. وفي 27 آذار/مارس، قبلت مجموعة من أشد سكان الجزر فقراً تسوية "كاملة ونهائية" من 4 ملايين جنيه إسترليني – وهو مبلغ أقل من نصف أدنى التقديرات التي كانوا يستطيعون أن يبقوا بها على قيد الحياة. وأرتني ريتا وثيقة غريبة زائفة رسمية حملت اسمها وبصمة إبهامها. وفي مقابل "تسوية" تصل إلى حوالي 1000 جنيه إسترليني، ومن دون وعي من ريتا لما كانت توافق عليه، "وقعت" عن غير علم منها على اتفاقية تتنازل فيها عن حقوقها في أن تعود إلى تشاغوس.

وقالت: "لا أستطيع أن أقرأ أو أكتب. وقيل لي إنني إذا وقعت على هذا فأنا سأحصل على بعض مساعدة الرعاية في موريشيوس. وأدركت بعد ذلك أن التوقيع قد سمح للحكومة البريطانية أن تقول إنهم عوضوا علينا.وهم لم يعوضوا علينا، إنهم خدعونا. والمال الذين حصلنا عليه لم يبدأ بدفع ديوننا".

وقال محاميهم روبن مارديموتو: "لقد كان الأمر بأسره هو أنه من غير المناسب، وغير الأخلاقي، والدكتاتوري أن يفرض على التشاغوسيين أن يضعوا بصمات إبهامهم على وثيقة قانونية مكتوبة بالإنجليزية، والتي يجعلون فيها التشاغوسي، الذي لا يقرأ أو يتكلم أي شيء من اللغة الإنجليزية، يتنازل عن حقوقه بصفته إنساناً".

وجمعاً للخداع مع التشويش، فإن بعثة من وزارة الخارجية إلى موريشيوس، قادها السير ليونارد ألليسون، أعلنت: "نحن لن نصر على التنازلات". وذلك في الوقت التي تترك فيه بلا تغيير كلاً من شروط التسوية، التي كانت تتطلب التنازل، والوثائق الذي لا يمكن أن تقرأ من أولئك اليائسين المحتاجين أشد الحاجة إلى بعض التعويض[19].

مثل هذه الوسيلة الفجة كان يمكن كذلك أن تكون منتجاً لحرب الفوكلاند. ففي العام 1982، كانت تجري مقارنة معاملة بريطانيا للتشاغوسيين في الأمم المتحدة مع صرفها في ذلك العام لمبلغ بليوني جنيه إسترليني للدفاع عن حقوق سكان جزر الفوكلاند[20]. إن الفوكلاند وتشاغوس كلتاهما كان فيها 2000 نسمة من المواطنين البريطانيين. سكان إحداهما كانوا بيضاً، وسكان الأخرى كانوا سوداً. ففي حين ووجه الغزو الأرجنتيني للفوكلاند بشراسة من القوات البريطانية التي أرسلت إلى مسافة 8000 آلاف ميل لهذا الغرض، فإن الغزو الأمريكي لدييغو غارسيا كان منسجماً في كل تفاصيله مع الحكومة البريطانية التي رتبت هي نفسها لطرد السكان.

في العام 1982، سمت جريدة فايننشال تايمز غزو الفوكلاند "وسيلة غير قانونية وغير أخلاقية للحصول على مطالب إقليمية جيدة"، وهو كذلك "اعتداء" لا ينبغي أن يسمح له بأن "يمر فوق رغبات سكان جزر الفوكلاند"[21]. وقالت الديلي تلغراف، وهي ترجع صدى أقوال مارغريت تاتشر إن "رغبات سكان جزر [الفوكلاند] كانت هي العليا"، وأن هؤلاء "السكان للجزر" يجب ألا "يُخانوا" وأن "المبدأ يملي"، أن الحكومتين البريطانية والأمريكية لا يمكن على الأرجح أن "تكونا غير مباليتين بفرض حكم أجنبي على شعب ليس لديه رغبة في ذلك الحكم"[22]. مثل هذا السخط اللطيف انطبق تماماً على شعب تشاغوس، ولكن لم يُعبَّر عنه أبداً.

وقد سألت مارسيل موليني عن هذا، وهو رجل متورد اللون شكله كشكل بوذا، مرتاح مع مشروب من الجن الزهري اللون، وقميص منتفخ، وقت غروب

الشمس في جو مداري، وقد كان هو آخر مدير للمزرعة في دييغو غارسيا وكانت عائلته قد ملكتها. لقد تحرك في بيئة القبعات الخفيفة للسير بروس غريتباتش، وهو الآن رجل قلق.

قال: "أولاً، دعنا نضع السجل بشكله الصحيح، إن العملية المعروفة باسم عملية التدافع من الذعر – أي إخراج أولئك الناس من الجزر – كانت خطأ اجتماعياً من السير بروس".

"خطأ اجتماعي؟"

"لا أظن أنه عناها. كانت لديه بعض الأفكار الرائعة لتطوير الجزر من أجل السياحة. وهذا هو السبب الذي أراد من أجله أن يخرج الخيل ويجربها في مكان آخر".

وقلت: "نعم، فقد وضع الخيل على الظهر ووضع النساء والأطفال في القاع".

"أوه، لقد فعل ذلك من دون تفكير في الواقع. ولكنها لم تكن جيدة، كانت مزعجة في الحقيقة. ففي إعطاء الخيل أولوية، كان علينا أن نضع اسطبلات من خشب على الظهر، ويا إلهي، حين تمايلت السفينة كان هناك روث من الخيل في كل مكان، كان مقرفاً في الواقع".

"وما الذي أثار قرفك غير ذلك؟"

"الاختراع في لندن الذي يقول إن التشاغوسيين كانوا مجرد عمال بعقود عمل، وكان يمكن إعادتهم إلى أماكن لم يأتوا منها أبداً. إن الرجل الذي كان يعتني لي بقطيعي من المواشي في دييغو كان هو الجيل الخامس".

"لماذا فعلوها؟"

"دعنا نواجه الأمر: هل يهتم بهذا أي شخص من هؤلاء الأولاد الموجودين في وزارة المستعمرات؟ توافق معي... لديك مستوى معيشتك وتحافظ عليه... ومشروبك الجن الزهري اللون عند الغذاء..".

"وهكذا فالناس كانوا مجرد (محليّين)".

"المحليون، نعم. تلك كانت حقيقة الحياة الاستعمارية، سواء أكنت في كينيا، أو أوغندا، أو سيشل، ومن ذا الذي اهتم بخصوص تشاغوس؟ أوه، اقذف بهم في سفينة ليس إلا، وأنت تعرف. ذلك كان هو الموقف. كان جحيماً. أحد الشباب قفز من فوق السطح إلى موته. لقد قرأت عن سفن العبيد التي ذهبت من إفريقية إلى أمريكا. كان هذا هو الشيء نفسه. وكان الفرق الوحيد هو عدم وجود السلاسل. لم أستطيع أن أخرج الناس من ذهني، ما زلت لا أستطيع. وفي سنواتهم الأولى القليلة في موريشيوس، ذهبت لأراهم. لم يكن لديهم ماء ولا وسائل صحية عامة، ولم يكن أطفالهم يملكون الملابس، لقد بدوا وكأنهم مرغوا بالرماد والتراب".

"تبدو مفعماً بالأسى".

"إني كذلك".

"وعلام تحزن أكثر الحزن؟"

"أين يبدأ المرء؟ التخلص من الكلاب، أنا الذي فعلت ذلك للسير بروس. لم يكن الأمر لهواً. كان لدينا حوالي ثمانمائة كلب في دييغو. وأنا آسف للقول إني حاولت تسميمها. استخدمت مادة الستركنين السامة، التي كان الأمريكيون يستخدمونها في وطنهم لتسميم ذئاب البراري. وفي اللحظة التي كنت أرى فيها أن السم قد بدأ يؤثر كنت أطلق النار على الكلاب في رؤوسها. وساعد الأمريكيون في ذلك، ولكن فصيلة منا لم تستطع أن تطلق النار على كل الكلاب وتقتلها. وهكذا فقد تحدثت مع المسؤولين الطبيين الأمريكيين، الذين اقترحوا أول أكسيد الفحم. وهذا ما خنقها. ثم حرقنا الكلاب، وكانت ثمانمائة أو تسعمائة. ولم نفعل ذلك بالقطط... لم نستطع أن نمسك بها".

"وفي الوقت الذي كان كل هذا يجري، هل عبر أي شخص عن أي أسف؟"

"حسناً، عمي، وهو الذي كان يملك المزرعة، كان متضايقاً جداً من الأمر كله".

"متضايق؟"

"لم يكن سعيداً بالثمن الذي قبضه للمزرعة".

"ماذا ترى في التعويض الذي حصل عليه الناس؟"

"هل تسمي ذلك تعويضاً؟ وافق معي الآن، إن هذه الأمور يجب أن تعمل على النحو المناسب، لا أن نفرِّش الشيء تحت السجادة".

"هل تتذكر الأسطول الملكي وهو يذهب لإنقاذ سكان جزر الفوكلاند؟"

"ها! كم مرة فكرت في ذلك".

"ماذا كان الفرق؟"

"أما تستطيع أن تسمعها، أي الملكة، في إذاعتها في عيد الميلاد وإذاعات يوم مولدها؟ فهي تقول: (شعبي)". ولذلك فأنت تذهب لتنقذ ألفين من شعبها في الفوكلاند، وترفس ألفين من شعبها بعيداً في تشاغوس".

"ما هو الفرق؟"

"لا أحب أن أجيب عن ذلك".

"لم لا؟"

"أنا أحب البريطانيين".

"تابع، وأجب".

"أظن أننا كلينا نعرف الجواب".

أوليفيير بانكولت هو الابن الباقي لريتا على قيد الحياة. في الفجر في كل صباح يلبس بدلة عمله الخضراء وينطلق على دراجة هوائية نازلاً في مسار حجري قذر ماراً بأكواخ الصفيح المموج التي يحييه منها الناس تحية حارة. في أثناء النهار يعمل كهربائياً مع مجلس المدينة في بورت لويس. وفي المساء، ومن مبنى صغير غير سكني تحت لافتة مكتوبة باليد، "جماعة لاجئي تشاغوس"، يأخذ أوليفيير قضية

المصير، قضية المصارعة، إلى العالم. ومن بين أربعة آلاف من التشاغوسيين في موريشيوس فإن أوليفيير هو الوحيد الذي يتحدث الإنجليزية بطلاقة. وهو مثال الكمال في الصبر والتلطف، ويقود مجتمعاً تسيطر عليه الأمهات الشيخات اللواتي يعتزمن الذهاب إلى الوطن قبل أن يمتن.

وحين تدخل المبنى الصغير ترى هناك "صوة جنة"، كما يسميها أوليفيير. وهي صورة كبيرة متوهجة، بحجم الجدار، خضراء وناضرة كأنها حلم (وهي ليست مختلفة عن السجادات الجدارية الكبيرة المعلقة في بيوت اللاجئين الفلسطينيين). وفوقها صور لأولفيير مع نلسون مانديلا ولأولفيير مع البابا الراحل. وقال أوليفيير: "إننا نقارن صراعنا مع صراع نلسون مانديلا. لقد مر تقريباً أربعون عاماً منذ أن سرقوا بلادنا وسجنونا هنا. نحن جميعنا مثل مانديلا.

ويحتوي المبنى الصغير على حاسوب، ويقول أوليفيير: "مراسلي إلى العالم. فنحن نرسل بياناتنا الصحفية من هنا".

"هل يقوم أحد بنشرها؟"

"أحياناً، ولكني أحافظ على إرسالها على كل حال، وأستمر في شرح من نكون نحن، وماذا فُعل بنا. وأتذكر كلمات مارتن لوثر كينغ: بهذا الإيمان سنكون قادرين على أن ننحت من جبل اليأس، حجراً من الأمل".

"هل تغضب؟"

"نعم، أنا أغضب حين أفكر في الأمريكيين على أرض دييغو مع قاذفاتهم القادمة على مدرج بطول ميلين، وبرك مسابحهم، وباراتهم، وحفلاتهم في الهواء الطلق، ومسابقاتهم لملكة جمال دييغو غارسيا".

"وما الذي يزعجك أكثر إزعاج؟"

"الأكذوبة التي تزعم أننا لم نوجد".

وكذبة وزارة الدفاع في العام 1975 التي تقول: "ليس هناك أي شيء في ملفاتنا عن سكان [تشاغوس] أو عن إجلاء للسكان" هي كذبة لها شناعة خاصة. وذلك لأن الحقيقة هي أنه كان هناك كل شيء في ملفاتهم[23].

في التسعينيات من 1990 اتخذ صراع سكان الجزر منعطفاً مؤثراً دراماتيكياً حين اكتُشف كنز دفين من الوثائق الرسمية التي أزيحت عنها السرية في المحفوظات الوطنية في كيو في جنوب غرب لندن. وقد قدّمَت هذه الوثائق قصة المؤامرة بين حكومتين لتنفذا وفق كلمات المادة 7 من قانون محكمة الجنايات الدولية "إخراج السكان أو نقلهم بالقوة... وهي جريمة ضد الإنسانية"[24].

وبالنسبة إلى المتآمرين كانت السريّة والخداع حيويين. ففي شهر أيار/مايو من العام 1964، نبهت "مذكرة إرشادية" من وزارة الخارجية إلى أن "هذه الخطوات [إجلاء سكان تشاغوس] يجب أن توقت توقيتاً لا يجتذب إلا أقل انتباه ممكن ويجب أن يكون له بعض الغطاء المنطقي أنّى يكون ذلك ممكناً وأن يكون مقدراً سلفاً [وإلا] فإن تلك الخطوات سوف تثير الشكوك حول الغرض منها"[25]. وكان "الغطاء المنطقي" اختراع أرض المحيط الهندي البريطانية، التي سوف تقدم إلى العالم بصفتها أرضاً مأهولة "مؤقتاً" من "عمال متعاقدين" من الذين يمكن "إعادتهم" إلى موريشيوس وسيشل. وقد سمى مسؤول كبير في وزارة الخارجية، وهو تي. سي. دي جيروم هذا بأنه "حل لمشكلة السكان".

وفي 28 تموز/يوليو من العام 1965، كتب جيروم إلى الممثل البريطاني في الأمم المتحدة، وهو اف. دي. دبليو. براون، يوجهه ليكذب على الجمعية العامة بأن جزر تشاغوس لم تكن "مأهولة حين حصلت عليها المملكة المتحدة لأول مرة". وبراون هذا فعل ذلك وكذب في 16 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1965. وأساء أيضا تمثيل السكان حين وصفهم بأنهم كانوا "عمالاً من موريشيوس وسيشل" "ولا تنطبق عليهم" التزامات بريطانيا بموجب ميثاق الأمم المتحدة، وكذب في أن "ترتيبات إدارية جديدة" قد تم "إعدادها بحرية مع... الممثلين المنتخبين من الشعب صاحب العلاقة"[26].

وفي مذكرة سرية، أوضح الحقيقة مسؤول في وزارة المستعمرات هو كي. دبليو. اس. ماك كنيزي. وقد كتب يقول: "إن أحد الأشياء التي نود أن نعملها في الأرض الجديدة هو أن نحول المقيمين الموجودين إلى مقيمين لمدة إقامة قصيرة ومؤقتين وذلك بإعطائهم رخص هجرة مؤقتة، تصفهم بأنهم سكان من موريشيوس أو سيشل"[27].

ولدى قراءة الملفات، يتضح بجلاء أن الحكومة البريطانية فعلت مثلما طلبت منها واشنطون. وقد كتب مسؤول في وزارة الخارجية يقول، إن الإجلاء الجماعي "كان قد جُعل فعلياً شرطاً للاتفاقية [مع الأمريكيين] حين تفاوضنا فيها في العام 1965". وكتب مسؤول آخر، هو آي. ماك كلوني يقول: "أنا أشتمّ رائحة مشكلة مقلقة هنا... لا أرى لماذا لا يريد الأمريكيون أن يسمحوا لبعض السكان بأن يمكثوا؟ ألا يمكن أن يكونوا مفيدين؟"[28]

وفي البعثة البريطانية في الأمم المتحدة في نيويورك، اغتاظ سي. ثي. كينغ بشأن "مخاطر الدعاية الضارة". وكتب إلى لندن يقول: سيكون من المرغوب فيه، في أي دعاية ضرورية عن المنشآت المقترحة، تجنب استخدام كلمة "قاعدة" إلى أبعد حد ممكن. وفي وزارة الخارجية نبه جيه. اتش لامبرت إلى أنه "إذا صار الاهتمام بـ [التشاغوسيين] اهتماماً قوياً بما فيه الكفاية، فإن الصحافة قد تكتشف تماماً أنهم موجودون وبأعداد هامة"[29].

وكان المسؤولون يدركون سراً فيما بينهم، أنهم كانوا عرضة للاتهام "بتهم عدم الأمانة" لأنهم كانوا يخططون "لتزييف السجلات". وعبر أحدهم عن المخاوف "القديمة الطراز" بشأن قول "الكذبات السخيفة". ولكن "الكذبات السخيفة" نفسها، مهما تكن كاذبة، لا تكاد تصف كذبة الرسالة المرسلة من السير بروس غريتباتش إلى وزارة الخارجية، وفي رسالته تلك وصف أولئك الذين لم يكن قادراً على أن يخدعهم ليغادروا بأنهم "جميعهم كانوا متعاقدين من [الذين] انتهت عقودهم ومارسوا حقهم في مغادرة تشاغوس"[30].

وبدءاً من العام 1965، فإن التعليمات الصادرة من وزارة الخارجية ووزارة علاقات الكومنولث، مثلما كانت تدعى آنئذ، إلى السفارات البريطانية حول

العالم، شددت على الحاجة إلى تجنب كل إشارة إلى "سكان دائمين". أما أنطوني أوست، المستشار القانوني الشاب لوزارة الخارجية الذي سبق له أن كتب يقول: "نحن قادرون على أن نضع القوانين ونحن نتابع عملنا"، فقد نصح بأن على الخط الرسمي أن "يديم رواية أن سكان تشاغوس ليسوا سكاناً دائمين أو شبه دائمين"[31].

ودار حوار بين هؤلاء المسؤولين المعينين، والواعين لسلطتهم وعياً واضحاً. وعلق أحدهم "[على دييغو غارسيا] بالقول: هناك سكان مدنيون. ولكن، من الناحية العملية، فأنا أنصح بسياسة (الإغفال الهادئ)" - وبكلمات أخرى، دعونا ننسى هذا الشأن إلى أن تتحدانا الأمم المتحدة بشأنه[32]: إن خطورة هذه الملاحظة الصادرة من فارس على ما يظهر واضحة للعيان حين توضع في مقابل المادة 73 من ميثاق الأمم المتحدة، وهو الميثاق الذي يلزم السلطات الاستعمارية مثل بريطانيا لا بحماية حقوق الإنسان لشعوبهم المستعمرة وحسب، بل يلزمها بالقيام "بتطوير الحكم الذاتي" أيضاً. إن هذا الأمر يسمى "الأمانة المقدسة"[33]. وكتب اتش. جي. دارون يقول: "هذا غير مرض تماماً... نحن نقترح أن نمنح شهادات لسكان الجزر، مزيفة تقريباً، بوصفهم ينتمون إلى مكان آخر. وكل هذا يبدو صعباً على التصالح مع (الأمانة المقدسة) في المادة 73"[34].

وربما كانت هذه المشكلة في ذهن إلينور إمري، رئيسة إدارة الأراضي المستعمرة في المحيط الهادئ في وزارة الخارجية، التي كتبت الرسالة التالية "السرية الشخصية" إلى السير بروس غريتباتش، وقالت: "نحن سنستمر في المحاولة وقول أقل ما يمكن لتجنب إحراج الإدارة الأمريكية... ونحن لا نرغب لهذه المسألة أن تصير معروفة معرفة عامة وأن يعرف أن بعض السكان قد عاشوا في دييغو غارسيا طوال جيلين على الأقل، ويمكن لهم لهذا السبب أن يعتبروا (منتمين) إليها. وكتبت تقول: لذلك، فإن وزارة الخارجية ستنصح وزراء الحكومة بأن يقولوا: "هناك فقط عدد صغير من العمال المتعاقدين وهم من موريشيوس وسيشل يقومون بالعمل في مزارع لب جوز الهند المجفف" وإنه "إذا وجه [عضو في البرلمان] سؤالاً عما سيحدث لهؤلاء العمال المتعاقدين في حالة إقامة قاعدة على الجزيرة، فنحن نأمل أن ذلك السؤال، في الوقت الحاضر، يمكن أن يزاح جانباً بوصفه سؤالاً افتراضياً".[35]

ما تكشفه هذه الملفات هو آثار متتابعة من الأكاذيب، نعم، ولكنه أيضاً موقف مستبد من الوحشية والاحتقار. في 24 آب/أغسطس من العام 1966، كتب السير بول غور- بوث، وهو الوكيل الدائم في وزارة الخارجية يقول: "يجب علينا بالتأكيد أن نكون خشنين جداً في هذا الموضوع. والغرض من التمرين هو أن نحصل على بعض الصخور التي ستبقى لنا. لن يكون هناك أي سكان محليين باستثناء طائر نورس البحار الذي لم يحصل بعد على لجنة (لجنة مكانة النساء لا تغطي حقوق الطيور)" (والتوكيد في الأصل).

وفي أسفل الصفحة ملاحظة هامة مكتوبة بخط اليد، وكتبها دي. إي. غرينهل، وهو مسؤول كبير آخر، صار هو البارون غرينهل اف هارو. كتب يقول: "من سوء الطالع، هناك مع الطيور بعض طرزانات قلة أو بعض المساعدين الذين تعتبر أصولهم غامضة، وهم الذين يجري بكل أمل فرضهم على موريشيوس...الخ. وحين يكون ذلك قد تم، فإنني أوافق على أننا يجب أن نكون خشنين جداً"[36].

وفي مطالع السبعينيات من العام 1970، كان أندرو ستوارت رئيس إدارة هونغ كونغ والمحيط الهندي في وزارة الخارجية، وهو منصب عال جداً، وفي العام 1973، اقترح أن يذهب هو إلى دييغو غارسيا ليرى بنفسه أكان السكان "مؤقتين أم دائمين". وبعد أكثر من ثلاثين سنة، وفي شهر آب/أغسطس من العام 2004، تقابلنا في لندن وسألته ماذا وجد هناك؟

فقال: "وجدت أن ما كان هناك هو مجتمع منتظم... كنيسة ومحلات تجارية وكل ذلك، ورفعت تقريراً بأن هناك مجتمعاً دائماً".

"وماذا حدث بعدئذ؟"

"افترضت أنهم عوضوا تعويضاً مناسباً..".

"وحين تنظر الآن إلى الوثائق الرسمية، فلديك هنا بعض زملائك يتحدثون عن الحاجة إلى بعض الصخور والتخلص من حفنة من الطرزانات وبعض المساعدين..".

"في الواقع، أنا عرفت الشخص الذي تشير إليه، وأكن له أعظم الاحترام، وهو الآن متوفى. وأنا متأكد من أنه لو كان لديه أي دليل على أن ملاحظاته العابرة كانت ستصير عامة لما كتبها أبداً... وأنت تعرف، أن الناس يضعون الأشياء في محاضر في الأوراق الرسمية وهم لا يعنونها في الحقيقة".

"حقيقي؟... هل سبق لأي واحد من زملائك أن قال إن ما كان يجري لتشاغوس كان خطأ؟"

"لا، لا أعتقد ذلك... كان هناك حاجة في الغرب إلى قاعدة في المحيط الهندي في حالة ما بعد فيتنام. أنا لم أشعر أن ذلك كان خطأ، على شرط أن يكون السكان قد عوضوا تعويضاً مناسباً. هل تجد ذلك صادماً؟"

"بعد أن تحدثت مع العديدين من سكان تشاغوس الذين يعانون معاناة مرعبة، أود القول إنني أجدها صادمة، ولكنني لست متفاجئاً. إنها الكيفية التي تعمل بها القوة غير الديمقراطية، أليس كذلك؟"

وقال: "على افتراض... آسف، أنا أستجوبك... على افتراض أنهم قد أعطوا جنة مدارية ليعيشوا فيها، ونقوداً ليعيشوا منها، وأن الشيء كله كان قد نفذ تنفيذاً حساساً وكريماً، فهل تنظر إلى ذلك بأنه صادم؟"

"حسناً، سيكون الأمر متصلاً بالتشاغوسيين، ولكنهم في الحقيقة كانوا مستعدين أن يعيشوا في الجزر الخارجية وهي بيروس بانهوس، وسالومون، ومنعوا من الذهاب إلى هناك، وهم ما زالوا ممنوعين من الذهاب إلى هناك، على الرغم من أن هذه الجزر على بعد مائتي ميل من دييغو غارسيا. لقد عرضوا ذلك حلاً ولكنهم حرموا منه".

"كان الأمريكيون سيرون ذلك غير مقبول".

"ولكن هذه الأرض كانت بريطانية، وكان هؤلاء الناس رعايا بريطانيين. فلماذا يجب توقيف حقوقهم الأساسية لأن الأمريكيين وجدوا شيئاً ما غير مقبول؟

"كانت هناك حاجات دفاعية لها الأوليّة المهيمنة... وكثير من جنون العظمة في الحرب الباردة".

"في هذه الأيام ليس هناك حرب باردة، ولا يوجد اتحاد سوفيتي، وهذه قاعدة أمريكية بعيدة جداً عن أمريكا، ومع ذلك فإن الحكومة البريطانية ما تزال تضع المصالح الأمريكية فوق حقوق شعبها. وأنت كنت واحداً من السفراء البريطانيين المتقاعدين الذين وقعوا حديثاً رسالة معارضة لحرب العراق. إذا كانت مهاجمة العراق خطأ، فلماذا لم تكن حادثة تشاغوس خطأ؟"

"مهاجمة العراق كانت حماقة. أنا لست ضد الولايات المتحدة بوصفها شرطي العالم، ولكن يجب عليهم أن يكونوا أكثر إدراكاً بشأن ذلك. وبالنسبة إلى العراق، فأنا لم أكن أصدر عليه حكماً أخلاقياً. لقد كان حكماً عملانياً (براغمانياً) عن عدم الحكمة في عملهم".

"هل تعتقد أن الأخلاقيات تلعب دوراً في السياسة الخارجية؟"

"أوه. نعم، بالتأكيد. وأنا أعني، إذا لم يكن هناك قواعد أخلاقية لما تفعله، فإنك آنئذ لا تختلف عن الحكام المستبدين".

"لابد أن تشاغوس زلقت بذلك المبدأ".

"لماذا تستمر في إعادتي إلى الحكم الأخلاقي؟"

"إن ميثاق الأمم المتحدة يقول إن بريطانيا أمسكت بما تسميه "الأمانة المقدسة" نحو العناية بشعب تشاغوس..".

"أنا آسف، فأنت مستمر في العودة بي إلى النقطة نفسها. أنا شخصياً لا أستخدم كلمة مثل الأمانة المقدسة".

"ميثاق الأمم المتحدة يستعملها، وبريطانيا موقعة عليه".

"أعرف ذلك، ولكن حين يبدأ الناس في الحديث عن الأمانة المقدسة، أنا أتوقف عن الكلام. أنا قضيت حياتي الاستعمارية كلها أعمل من أجل الاستقلال أولاً لأوغندا،

ثم لجزر سيشل ولجزر هيبريديز الغربية وتلك كانت أمانتي المقدسة... طبعاً، أنا أدرك أن لديك جدول أعمال وأن من غير المرجح أن تعطي قدراً ضخماً من القوة لوجهة نظري".

"جدول الأعمال الوحيد هنا هو جدول أعمال عدد من الحكومات البريطانية التي سبّب سلوكها مثل هذه المعاناة للناس. ولولا ذلك، لما كنت أوجه إليك هذه الأسئلة. نحن لا نحب أن تُفعل تلك المعاناة بنا، أليس كذلك؟"

"لا. طبعاً لا نحب".

وصعد الإخفاء إلى قمة الحكومة. ففي 5 و8 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1965، كتب وزير المستعمرات، وهو أنطوني غرينوود، محضرين سريين لرئيس الوزراء هارولد ولسون، ووصف فيهما مشكلة "سكان عددهم ألف نسمة" يعيشون في تشاغوس. واستحث موافقة الملكة على وجه السرعة "على مرسوم ملكي بمشورة المجلس الخاص يفصل الجزر" لكي يتم إعلان المستعمرة الجديدة "ونحن سنكون قادرين على أن نقدم إلى الأمم المتحدة أمراً واقعاً"[37].

وهكذا فحين أعطى رئيس الوزراء هارولد ولسون الضوء الأخضر للمرسوم الملكي بمشورة المجلس الخاص، كان مدركاً أنه كان يلغي الحقوق القانونية والإنسانية لمواطنين بريطانيين. كان يسرق بلدهم ويتجاهل المخاطر الناجمة عن "رمي أناس غير قابلين للتوظيف في موريشيوس المكتظة بالسكان"، مثلما حذر من ذلك مسؤول شريف في وزارة الخارجية، دع عنك ذكر المعاناة التي لا يحيط بها تقدير والتي يؤدي إليها بالتأكيد ذلك العمل[38].

والذي تولى المسؤولية عن الإخفاء كان هو وزير الخارجية، مايكل ستيوارت، وهو رجل هادئ، أشيب الشعر له مظهر كمظهر الجد. وقد كتب سراً إلى ولسون في 25 تموز/يوليو من العام 1968، واقترح أن تكذب الحكومة على العالم في أنه لم يكن هناك "أي سكان محليين" على الرغم من أنه قد وقع على مذكرة موزعة في الوزارة قالت: "مع أي تجوز ومطٍ للغة الإنجليزية، كان هناك سكان محليون وكانت وزارة الخارجية تعرف بذلك"[39].

ولم تكن وزارة الخارجية تعلم وحسب، بل كانت مشغولة بإعداد الكيفية التي سيكذب بها الوزراء في هذا الموضوع. وقالت إحدى المذكرات: "نحن لا نرغب في أن يصير الموضوع معروفاً معرفة عامة، وأن بعض السكان [كانوا] (منتمين) إلى الجزر. ولذلك فسوف ننصح الوزراء، وهم يعالجون أسئلة إضافية عن كون دييغو غارسيا مأهولة، أن يقولوا هناك عدد صغير فقط من العمال المتعاقدين من سيشل وموريشيوس المرتبطين بالعمل في مزارع لب جوز الهند المجفف في الجزيرة. وهو ما يكون اقتصاداً في قول الحقيقة، أو، بتعبير آخر، الكذب"[40].

وكتب ستيوارت في رسالته إلى ولسون يقول: "لقد درس المسؤولون بدقة إمكانية إعطائهم [التشاغوسين] بعض عناصر من الاختيار، ولكنهم نصحوا بأن هذا سيبدو غير قابل للتطبيق عملياً بالكلية"[41].

قارن كلماته مع كلمات ممثل بريطانيا في الأمم المتحدة اف. دي. دبليو. براون، إلى الجمعية العامة، التي يقول فيها إن "الترتيبات الإدارية الجديدة" من أجل تشاغوس قد تم "إعدادها بحرية مع... ممثلين منتخبين من الشعب صاحب العلاقة". وقد كتب ستيوارت كذلك أنه "سيكون من المساعد إذا كنا نستطيع أن نعرض أي تحرك بصفته تغييراً في التوظيف لعمال متعاقدين... بدلاً من أن يكون بصفته إعادة توطين سكان"[42].

وفي 26 نيسان/ابريل من العام 1969، كتب السكرتير الخاص لولسون إلى ستيوارت: إن رئيس الوزراء وافق على "الخطة"[43]. واستمرت سبع حكومات بريطانية متعاقبة – ولنستحضر التعبير الذي لا ينسى للمستشار القانوني لوزارة الخارجية في العام 1969 في المحافظة على الرواية[44].

لقد قرأ ريتشارد جيفورد كل هذه الوثائق منذ أن زار موريشيوس لأول مرة في عطلة له في العام 1997، وصار مدركاً لمحنة التشاغوسيين. ومنذ ذلك الوقت، صار محاميهم الشجاع الذي لا يكل. وقد قال لي: "لقد كان مثيراً للصدمة تماماً أن نجد أنه كانت هناك سياسة تجري صياغتها في خرق فاضح للقانون الدولي. وتظهر

الوثائق أنها كانت قد تقررت على أعلى مستوى، من رئيس الوزراء، وبشكل أكثر تخصيصاً من هارولد ولسون. لقد كان يعرف معرفة جيدة أنه كان هناك سكان وأنهم كانوا سيُرحلون. وهذه سياسة صنعت تقريباً على ظهر مغلف، بمعنى على عجل وبلا ترو. ليس هناك أي مدخلات ديمقراطية، لم يطرح أحد الأسئلة، ولم يطرق أحد الباب، ولم يكن هناك أحد ليمثل مصالح سكان الجزر. إنهم لم يوجدوا بصفتهم عنصراً سياسياً ليؤخذوا بالحسبان، ليس إلا".

وفي سيرتي دينس هيلي، اللتين تبلغان أكثر من ألف صفحة، وهو الذي كان وزيراً للدفاع في حكومة ولسون وكان مسؤولاً عن تسليم دييغو غارسيا إلى وزارة الدفاع الأمريكية، لم يعط إشارة واحدة عن طرد السكان. وفي العام 2004 طلبت من هيلي مقابلة، وأجاب: "أخشى أنني لا أملك أي ذكريات عن أرخبيل تشاغوس، آسف".

وفي 6 أيار/مايو من العام 1969، كتب السكرتير الخاص لهيلي إلى 10 داوننغ ستريت، يؤكد أن وزير الدفاع كان قد قرأ خطة ستيوارت و"هو يوافق مع توصياتها". لا بل إن هيلي استفسر عن تكلفة طرد السكان وسعى إلى التشديد على أن أي "تجاوز" لما فوق 10 ملايين جنيه إسترليني لن يكون محتملاً من إدارته[45].

وسعى ولسون إلى الحصول على موافقة كل الوزراء الكبار في وزارته ومن جملتهم المدعي العام، ومستشاره الرئيسي في القانون الدولي، وقد أعطوا جميعاً موافقتهم كتابة. ومن أواسط الستينيات من العام 1960 إلى العام 1974، كان لدى ثلاثة من رؤساء الوزارات وثلاثة عشر وزيراً معرفة شخصية عن طرد سكان جزر تشاغوس. ولم يُثر أحد منهم أي اعتراض.

وقال جيفورد: "من الصعب جداً أن نقبل أن الوزارات البريطانية تفعل هذا. وأنا لا أستطيع أن أبدأ في تبريره، لأنها كانت معروفة بأنها غير قانونية بموجب القانون الدولي، وهي الآن مقبولة بصفتها جريمة دولية ضد الإنسانية. ولدينا منذ ذلك الوقت مشكلة التطهير العرقي في البلقان، وعلى الرغم من أن درجة استخدام القوة قد لا تكون هي نفسها، فإن غرضها مع ذلك هو الغرض نفسه، وهو إجلاء الناس

بسبب أصلهم العرقي من منطقة لأنهم أناس غير مرغوب فيهم. لا أستطيع أن أرى كيف تصور أشخاص في عقولهم السليمة تلك السياسة أو كيف نفذوها".

وسألته عن السبب الذي يعتقد أنهم فعلوا ذلك من أجله، فأجاب:

"يستطيع المرء أن يقول فقط إن الذين فعلوها كانوا ينظرون إلى جائزة أخرى، وأن هذا كان يعتبر ثمناً يستحق الدفع، وذلك لأنه لن يكون هناك في الواقع أي اعتراض من هذه البلاد، وأن الذين فعلوها سيفوزون بها وينجون من العقوبة. وتبين الوثائق هذا بوضوح تام، لقد كانوا مهتمين فقط بألاّ ينكشفوا".

"كيف فازوا بها ونجوا من العقوبة؟"

"بالتحرك بذكاء وترحيل السكان قبل أن يكون أي شخص قد أدرك وجودهم. إنه مخجل جداً".

إن صمت معظم الصحافيين طوال معظم العقود الثلاثة سمح لهم أيضاً أن يفوزوا بها وأن ينجوا من العقوبة. وقد كتب جون ماديلي، وهو صحافي ومذيع يعمل حراً لحسابه، كتب تقريراً قوياً واسع المعرفة لمجموعة حقوق الأقليات، بعنوان: دييغو غارسيا: مقابلة بفوكلاند، وهي المقالة التي نبهتني لأول مرة إلى محنة التشاغوسيين[46]. ولإظهار أن سكان الجزر لم ينسوا نسياناً كاملاً في بريطانيا، فقد وصف ماديلي الحملة المدهشة الوحيدة التي قام بها جورج تشامبيون، وهو أستاذ إنجليزي من كنت، أنشأ في العام 1966 جمعية لدييغو غارسيا في المنفى، وكرس جهوده لشرح الجريمة للجمهور البريطاني.

وغير اسمه إلى "تشاغوس"، وقام تشامبيون بالاتصالات مع أعضاء البرلمان، ومع أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكيين ومع الجمهور. ويقف مرة في الشهر خارج وزارة الخارجية، ويحمل لافتة تحمل كلمتي "دييغو غارسيا" فقط. ويقف الناس ويسألونه من كان دييغو غارسيا. وقال: "بعد أن يعرفوا كانوا يساندون القضية"[47]. وهذا يذكرني ببريان هاو الشجاع، الذي يخيم حالياً في ميدان البرلمان طوال خمس

سنوات متوالية، وهو يعرض لافتة صغيرة تقول: "توقفوا عن قتل الأطفال. دعوا أطفال العراق يعيشون".

وكانت هناك مؤامرة موازية قيد الحركة في واشنطون في الستينيات من 1960 وفي السبعينيات من 1970، وهي أيضاً جرت في سرية عالية. وكان الهدف هو منع فضيحة اقتلاع السكان من الوصول إلى مجلس الشيوخ، إضافة إلى الطبيعة العدوانية للقاعدة المقترحة في دييغو غارسيا. وفي 14 كانون الأول/ديسمبر من العام 1966، نبه مسؤول في وزارة الخارجية وزير الخارجية إلى "أن الأمريكيين يصرون على أن الترتيبات المالية يجب أن تبقى سرية. وأن حكومة الولايات المتحدة، ولأسباب مقنعة تخصها، قد اختارت أن تخفي عن مجلس الشيوخ المساعدة المالية الكبيرة التي سوف نحصل عليها في شكل إعفاء من مدفوعات مستحقة عن بولاريس [سلاح نووي]"[48].

ولم يكن البريطانيون ليكونوا إلا سعداء جداً للتعاون. ووعدت برقية موجهة من وزارة الخارجية إلى سفارة واشنطون بأننا "أخيراً، وتحت ضغط شديد، ينبغي علينا أن ننكر وجود إسهام للولايات المتحدة في أي شكل، وأن نوصي الوزراء بأن يفعلوا ذلك في [البرلمان] إذا كان ضرورياً"[49] وكان المسؤولون مذعورين من أنه "إذا قام الأمريكيون، تحت ضغط شديد، بالكشف عن وجود الترتيبات المالية، فإننا آنئذ سنقع في صعوبات برلمانية ودستورية حادة"[50].

ويبين هذا الصدام بياناً عملياً أين يقع ولاء النخبة من حين إلى آخر – لا مع بلدها الوطن، أو مع مواطنيها، أو مع مؤسساتها الديمقراطية، بل مع نظام حكم أجنبي جشع يسعى إلى احتلال بلاد ذات سيادة لأسباب يرغب هذا النظام أن يخفيها عن شعبه هو.

بعد ثلاث سنوات، قابل وزير الخارجية، ستيوارت رئيس وزراء موريشيوس سيووساغور رامغولام، الذي كانت حكومته قد قبلت الاستقلال ورشوة ضئيلة جداً من المال في مقابل "فصل" تشاغوس. وعرض موضوع القاعدة في الحديث. وتسجل محاضر محادثتهم هذا التأكيد من ستيوارت. قال وزير الخارجية: "كلمة

قاعدة كلمة مضللة وغير دقيقة للاستعمال في هذا السياق.وكل ما هو متصل بذلك هو منشأة متواضعة للاتصالات البحرية. وهي لن تشكل قاعدة بأي شكل من الأشكال، لعدم وجود أي خطط لوضع قوات عسكرية عملياتية هناك،لا، ولن توفر المنشأة كذلك مساندة الإمداد والتموين (اللوجستية) لمثل هذه القوات"[51].

كل كلمة من كلامه كانت كاذبة، والعكس منها كان هو الصحيح. "فالمنشأة المتواضعة للاتصالات البحرية" التي "لن تشكل بأي شكل من الأشكال قاعدة" هي اليوم تؤوي أربعة آلاف شخص من الجيش العامل والمتعاقدين المساندين، وتضم اثنين من أطول مدرجات قاذفات القنابل في العالم، ومراسي لثلاثين سفينة، ورصيفين نوويين، وقبابا لتتبع الأسلحة الفضائية، ومحلات تسوق، ونوادي ليلية، وملعب غولف، وملاعب التنس، وبرك سباحة والمزيد فوق ذلك. إنها واحدة من القواعد الأمريكية الأربع "للحملات" خارج الولايات المتحدة[52].

وقد أبقت إدارتا الرئيس جونسون، والرئيس نيكسون هذه الخطط سرية لأكثر من عقد من الزمان. واليوم، تقدم المحفوظات القومية في واشنطون حقائق هي فضائحية مثل الفضائح الخبيئة في ملفات لندن. وتصف الوثائق "نقل عمال لب جوز الهند الجاف السابقين" بوصفها "رزمة نظيفة معقولة" مبررة بقصة الغطاء التي وافقت عليها لندن وهي أن دييغو غارسيا "ليس فيها سكان دائمون"[53].

وكان جوناثان ستودّارت واحداً من المؤلفين، وخدم في سفارات الولايات المتحدة في بورت لويس وفي لندن وخدم في وزارة الخارجية. وفي العام 2005 رتبت لأقابله في فندق في واشنطون. وهو الآن في الثمانينيات من عمره، وقال إنه قد وافق على التحدث إلي بسبب إيمانه القوي "بالتعبير الحر والمفتوح". وسألته لماذا كان قد كتب أنه لم يكن هناك سكان دائمون في تشاغوس.

وأجاب: "إن وزارة الخارجية ووزارة الدفاع في لندن أكدتا لنا أن أولئك الناس كانوا عمالاً مؤقتين متنقلين من موريشيوس، ولكن، نعم، سمعنا كل هذه القصص".

"بالتأكيد أنت عرفت الحقيقة في وقت مبكر في العام 1972".

"ماذا تعني؟"

"في العام 1972 كتب سفير الولايات المتحدة في موريشيوس، وليام بريوير، هذا إلى واشنطون: من غير المعقول أن نقرر أن دييغو غارسيا ليس فيها سكان دائمون. ليس هناك أدنى ريب في أن فيها سكاناً ثابتين منذ القرن الثامن عشر. هل رأيت ذلك؟"[54]

"نعم، كنت مدركاً لهذا. والسيد بل بريوير خريج مدرستي وزميل فصلي، وهو موظف عالي التأهيل جداً في السلك الخارجي. وكانت المشكلة هي أن البريطانيين كانوا ثابتين على خطِّهم".

"في واحد من تقاريرك، كتبت أن الولايات المتحدة أصرت على أن تكون دييغو غارسيا "مكنوسة" و"منظفة" من الناس. وأشرت أيضاً إلى تهديد من الدعاية السيئة، وبهذا فأنت كنت مدركاً للعواقب المترتبة على ما كنت تفعله. هل أزعجك أي منها؟.

"كنت منزعجاً من القصص المتضاربة. انظر، لقد أرسلنا زميلاً هو جون كيللي، إلى هناك ليرى إن كان هناك أي سكان محليين يتحركون في الجزيرة".

"هل كانوا هناك؟"

"قال: لا"

"في أي عام كان ذلك؟"

"لابد أنه كان في العام 1974".

"ولكنهم كانوا كلهم قد رُحلوا في ذلك الوقت".

"أنت تعرف، أنني لا أجد هذا مثيراً للصدمة. ونحن لدينا تعبير لهذا في الديمقراطية. ويدعى (غ ع ش) هل أنت مطلع على ذلك؟"

"ذكرني من فضلك"

"غط عجيزتك شخصياً"

"هل تعتقد أن سكان الجزر يجب أن يسمح لهم بالعودة إلى الوطن؟"

"نعم، إذا كنت تستطيع أن تؤسس من دون أدنى شك... انتظر لحظة، هذا سؤال من النوع المحمل بالمضامين الخفية".

"غ ع ش؟"

"يجب أن تكون عملياً يا جون"

وأخذتني سيارة أجرة عابرة إلى قلب مدينة واشنطون، إلى مكاتب ليهمان إخوان، المستثمرين المصرفيين لأن جيمس شليسنغر كان مشاركاً فيها. وقد رتبت أن أقابل شليسنغر حول موضوع تشاغوس. وبصفته وزيراً للدفاع تحت إدارة الرئيسين نيكسون وفورد ثم مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، فقد كان مسؤولاً في نهاية المطاف عن استلام الأمريكيين لدييغو غارسيا وعن بناء القاعدة العسكرية. وفي تجسيد ما يعرف في الولايات المتحدة الأمريكية باسم "دولة الأمن الوطني"، يعتبر شليسنغر صقر الصقور، ولديه إيمان ثابت بأمريكا الإمبراطورية. وهو طويل وله وجه كحجر الصوان، مغلق لا يمكن اختراقه على ما يظهر، وجه يفيض بسلطة القوة.

وقلت له: "في أثناء السبعينيات من 1970، عارضت معظم البلدان التي لها حدود في المحيط الهندي – وهي تسعة وعشرون بلداً منها في الحقيقة – إنشاء القاعدة الأمريكية على أرض دييغو غارسيا، هل سبق أن أُخذت تلك المعارضة بالحسبان؟"

"حسناً، هم في العلن عارضوها، لأن لديهم، حسب ما نفترض، معارضة في صفوف شعوبهم. ولكن هذه الحكومات كانت تفهم التهديد السوفيتي بعد حرب الشرق الأوسط في العام 1973، وقالت تلك البلدان لنا: يجب علينا نحن أن نعارض هذه القاعدة علناً، ولكن امضوا فيها قدماً".

"في تحد لشعوبهم؟"

"كانوا عمليين.".

"حين صرت وزيراً للدفاع، هل كنت مدركاً أن سكان دييغو غارسيا كانوا قد طردوا بالقوة لإ فساح الطريق للقاعدة؟"

"لم أكن مدركاً لذلك".

"ولكن في ذلك الوقت، كانت معروفة لمجلس الشيوخ، وقد قال عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون: الحادثة بأكملها تفوح منها رائحة كريهة من الخداع والأكاذيب. ولدى قراءة السجلات الرسمية في واشنطون ولندن، فإن من الواضح أن حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا قامتا بصفقة سرية في أواسط الستينيات من 1960، وأن العنصر الرئيس فيها كان هو الإصرار الأمريكي على أن يقتلع السكان من الجزيرة ويرحلوا منها".

"هذا ليس صحيحاً".

"إنه صحيح، لأن السجلات تبين أنه صحيح، وقد أعلم السفير الأمريكي في موريشيوس وزارة الخارجية كتابة أن ما يصل إلى ألفين من السكان كانوا يعيشون هناك منذ القرن الثامن عشر".

"أنا أرى أن تلك ليست هي المسألة".

"حسناً، إنها هناك موجودة في السجلات. وأنا أستطيع أن أعرضها عليك إذا كنت ترغب".

"في الواقع، حين ظهرت تلك المسألة منذ بضع سنوات، رجعت إلى السجلات، ووجدت إشارة إلى ما تقوله أنت".

"مبدئياً، هل تعتقد أن من الصواب طرد شعب من بلده لإفساح الطريق لإنشاء قاعدة عسكرية؟"

"أنا أعتقد، أن فكرة الضرورة العسكرية، تأخذ الأوليّة عادة باستثناء أوقات السلم".

"وهذا كان في أوقات السلم".

"كان في أوقات الحرب الباردة، وكنا نشعر، نحن والحكومات الأوروبية أننا معرضون للتهديد".

"وما علاقة ذلك بشعب يعيش بسلام على جزيرة في وسط المحيط الهندي؟"

"ما أتذكره هو أن الحكومة البريطانية عوضت السكان المحليين الذين نقلوهم إلى أي مكان، وقد كان...جزر سيشل؟"

"إلى موريشيوس، معظمهم. لقد رأيتهم هناك، لقد دمرت حياتهم وما عوضوا به ضئيل لا يكاد يذكر. دعني أوجه لك هذا السؤال. هل سبق أن كان هناك وقت درس فيه الناس الموجودون في السلطة عواقب فرض تلك القوة؟ في هذه المسألة، كانت العواقب كارثية".

"كم من الناس كانوا معنيّين؟"

"ألفا نسمة، معظمهم لهم جذور تعود إلى القرن الثامن عشر".

"حسناً إن عدداً لا بأس به منهم كانوا عمالاً خارجيين".

"لقد تم إظهار ذلك بأنه غير صحيح والحادثة مخبوءة من التاريخ. ماذا لو أن شيئاً مثل هذا كان قد حدث لك ولي؟ ماذا لو أننا أخبرنا أننا على وشك أن نصير لاجئين فوراً لأن أحداً أراد أن يضع قاعدة عسكرية في بلدنا؟"

"أقترح أن تنظر إلى الخلف إلى عدة قرون من تاريخ الإمبراطورية البريطانية. هذا متواضع بالنسبة إلى غيره مما حدث في أماكن أخرى، كان هناك لامبالاة بالسكان المحليين".

"لا يناقش أحد في ذلك، ولكن ألم نتقدم منذ ذلك الوقت؟"

"بالتأكيد. والناس في القرن الحادي والعشرين يستطيعون أن ينظروا إلى الخلف وينتقدوا، ولكن هذا امتياز للناس المحميّين".

"الناس المحميّون؟"

"نعم، الناس الذين ينتقدون الماضي، على الرغم من أن الماضي له علاقة بالحريات التي يتمتعون بها اليوم".

"ألسنا معنيين بأن نتعلم من الماضي؟ أي إذا وجدنا أنه قد تم ارتكاب بعض الشر الكبير، أفلا نقول: لن يكون ثانية؟"

"بالتأكيد".

"هذا ما حدث. دمرت حياة الناس، وأنت كنت في السلطة. أليس هذا شيئاً يهمك؟"

"لقد فاتني المغزى من ذلك".

"المغزى هو أنك إذا اتخذت قراراً في واشنطون ولندن وكان هذا القرار يدمر حياة عدة آلاف من الناس في الطرف الآخر من العالم، ألا ينبغي أن تستدعى للمساءلة؟"

"لقد كانت هذه مسألة صغيرة نسبياً. ولو أن المرء يعود إلى الخلف إلى السلوك البريطاني، في الحرب العالمية الثانية، وعلى سبيل المثال، إلى الهجوم على درسدن، والهجوم على الأسطول الفرنسي، وكل ذلك تحت قيادة تشرتشل، الذي نعجب به، وعن حق، إعجاباً كبيراً، فإننا نجد أن هذه القضية التي يجري إبرازها الآن هي قضية صغيرة جداً، ويجري إبرازها لأسباب لا أستطيع أن أعزوها لأي شيء آخر غير البحث وراء دعاية معينة".

"ولكن التشاغوسيين ليسوا النازيين، ومن وجهة نظرهم إنها بحث عن العدالة".

"وما هو دافعك أنت، إذا جاز لي أن أستفسر؟ محض البحث عن العدالة، أنا متأكد".

"نعم، هو ذلك. ألا تعتقد أن هذه الأسئلة صحيحة مشروعة؟"

"أعتقد أن الأسئلة مستندة إلى رفض الاعتراف بسياق الأحوال الزمنية وإلى نقد تلك الأحوال بعد أن تكون قد صارت أقل علاقة بالحاضر".

"دكتور شليسنغر، ليس بالنسبة إلى سكان جزر تشاغوس فهي لم تصبح أقل علاقة بالحاضر. وهم ما زالوا ممنوعين من العودة إلى الوطن، وما زالوا حتى الآن لم يعوضوا".

"أنا أفهم. حسناً، لا أستطيع إلا أن أقول فقط: إنني أستبقي عقلاً منفتحاً عما إذا كان يجب لهذا أن يحدث أم لا".

وانفجر شليسنغر غاضباً وانصرف، وهو يتهمني بأني "لا ألعب وفق القواعد".

في لندن في العام 1971، جاءت آخر كذبة كبيرة قصدت إخفاء الحقيقة وهي أن سكان الجزر كانوا يمتلكون الجنسية البريطانية. في شهر كانون الثاني/يناير ذلك، أبرق موظف كبير في المندوبية البريطانية العليا في بورت لويس إلى وزارة الخارجية قبل الاجتماع مع رئيس وزراء موريشيوس، وهو الاجتماع الذي كانت مسألة تشاغوس ستناقش فيه. وقد كتب يقول إنه لا يعتزم إثارة قضية جنسية سكان الجزيرة، ولكن كان من "الممكن دائماً أنه [هو] قد يضع هذه النقطة في مكانها، وفي هذه الحالة، حسب ما يفترض، سيتعين علينا أن نعترف بكل شيء"[55].

وردت وزارة الخارجية بأنه لم يكن من سياسة حكومة صاحبة الجلالة أن "تعلم (العمال المتعاقدين) بمواطنيتهم المزدوجة". أو أن تخبر الحكومة الموريشيوسية، وذلك لأن السياسة البريطانية كانت "سياسة الإخفاء"[56].

واستمرت سياسة الإخفاء سارية إلى نهاية القرن تقريباً، مع كل الاحتياطات الممكنة التي اتخذت للإبقاء عليها. وقد أوصى محضر من وزارة الخارجية لوزير الخارجية دوغلاس هيرد بأن "لا يسمح لأي من الصحافيين بزيارة دييغو غارسيا" وأن

الزيارات من أعضاء البرلمان يجب ألا تشجع لكي يستمر استبعاد أولئك "الذين يثيرون عن عمد أسئلة غير مرحب بها"[57].

ومع ذلك، ففي أواخر التسعينيات من 1990، تم كسر وفتح تابوت يحتوي على ملفات رسمية في كيو. وبعد أن تسلح بهذا الدليل فوق العادي، توجه ريتشارد غيفورد وفريقه القانوني إلى المحاكم. وفي أكتوبر من العام 2000، طار أوليفيير بانكولت ومجموعة من مواطنيه، ومن جملتهم ليزيت تاليت وتشارليسيا أليكسيس إلى لندن للإدلاء بشهاداتهم في دعوى لدى المحكمة العليا وهو العمل الذي تحدى شرعية نزع ملكيتهم.

وفي الوقت الذي كانت تعد فيه القضية، تجمعوا معاً في غرفة قبو في فندق رخيص، ولم تسهم حكومة بلير ببنس واحد لإعاشتهم. وعلى الرغم من أن إجراءات المحاكمة أديرت بلغة لا يفهمها أحد منهم، باستثناء أوليفيير، فإنهم كلهم أعطوا شهادات مؤثرة عن حياتهم التي خربت وعن مصارعتهم في قضية المصير.

وكانت الحكومة قد خافت من هذا، ولذلك قامت وزارة الخارجية في الأشهر الثلاثة التي سبقت الاستماع بشن حملة تزييف معلومات مضللة عمداً، قادها بيترهين، النشيط السابق ضد التمييز العنصري، والممسوخ الآن إلى النموذج الحق لوزير بليري. وقال هين لمجلس العموم: "لقد مضى على الجزر الخارجية وهي غير مأهولة مدة ثلاثين عاماً ولذا فإن أي إعادة توطين سيطرح مشكلات خطيرة، بسبب القابلية العملية للتطبيق وبسبب ما يتصل بالتزاماتنا المتعلقة بالمعاهدة"[58].

إن كلمة "معاهدة" تعني ضمناً وجود اتفاقية دقق فيها البرلمان. لم يكن هناك أي معاهدة: صفقة إجرامية سرية فقط. وطبيعة الجريمة موضحة بجلاء في قانون روما للمحكمة الجنائية الدولية، التي تنظر إلى اقتلاع السكان وإجلائهم بالقوة بوصفه جريمة ضد الإنسانية[59]. وزيادة على ذلك، فقد كان يمكن تقديم البيان العملي على عدم صحة القول إن الجزر لم تكن مأهولة منذ طرد السكان. فمستعمرات "أصحاب اليخوت" عاشت طوال شهور على أرض الجزر الخارجية، وطوال أكثر من عشرين سنة استمتع أربعة آلاف جندي عامل أمريكي ومتعاقدين

أجانب بالظروف المعيشية على أرض دييغو غارسيا التي وصفها الأسطول الأمريكي بأنها "متميزة" و"لا تكاد تصدق"[60]. ومع ذلك، فإن وزارة الخارجية أمرت بالقيام بدراسة "لقابلية التطبيق" لعودة السكان إلى الجزر والجدوى منها. ولم يستشر أي فرد واحد من سكان الجزيرة، وقد وصف العالم الأول في العالم في قضية تشاغوس الدراسة كلها بأنه تمثيلية "لغز كلمات"[61].

وفي 3 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2000، وفي المحكمة العليا، فإن مستشار محكمة الاستئناف لوز والسيد القاضي جبس أذهلوا الحكومة. استشهدوا بالماغنا كارتا (الميثاق الأعظم أو العهد الكبير)*، الذي حظر "النفي من المملكة" من دون الدعوى القضائية المناسبة، وسحقوا بالإجماع قانون العام 1965 الذي استعمل لترحيل سكان الجزر بوصفه قانوناً غير قانوني. وفي إشارة القضاة إلى الحكومات المسؤولة، اقتبسوا من تاسيتوس** "إنهم يصنعون صحراء ويسمونها سلاماً". وأضافوا: "إنه قصد بها أن تكون مفارقة ساخرة، وأما هنا، فقد كانت إخفاقاً قانونياً خسيساً".

وبدا كأن أوليفيير، وليزيت، وتشارليسيا، وريتا كانوا يستطيعون أخيراً أن يذهبوا إلى الوطن[62].

وفجأة اكتشفت الصحافة التشاغوسيين. وقال العنوان الرئيسي في التايمز: "سكان الجزر يعودون إلى الوطن بعد ثلاثين عاماً في المنفى" و"المساعدون أغاظوا وزارة الخارجية"[63]. وأخذت صورة لأوليفيير وهو يخطو خطوة واسعة خارجاً من المحكمة العليا إلى الشارع الواقع على سيف نهر التايمز (ستراند) وذراعاه مرفوعتان في تحية النصر. وكانت هذه الصورة، مع العنوان الرئيسي، "ثلاثون عاماً

* ميثاق حقوق صدق عليه ملك الأنجليز في العام 1215، وهو أساس الحريات الدستورية الإنجليزية التي حددت قوعد العدالة وضمنت الحرية الشخصية والسياسية وحقوق الملكية للمواطنين وغير ذلك. (المترجم)

** كورنيليوس تاسيتوس (55؟ – 120م) مؤرخ وخطيب روماني. أشهر أعماله تواريخ وحوليات، وهو مصدر رئيسي عن القرنين التاليين لحياة المسيح عليه السلام.(المترجم)

من الأذى تنتهي"، معلقة على باب مبناه الصغير في بورت لويس، وما تزال تستدر الدموع من عينيه[64].

وقال لي: "إنه شيء لن أنساه أبداً، فعندما خرجت من المحكمة، كنت أعرف أنني حصلت على نصر. شعب صغير هزم قوة كبيرة".

وقالت تشارليسيا: "كنا منتشين. وظننا أن البريطانيين كانوا يمتلكوا بعض الأحاسيس أخيراً".

وقالت ليزيت: "كان النصر يعني أنني شعرت أنني مرتاحة لأول مرة، لأنني ظننت أنني سأعود إلى وطني الأم، وإلى المقبرة التي يرقد فيها أسلافي. وظننت أنني سأرى شواطئنا الجميلة ثانية، والبحر الجميل، في المكان الذي ولدنا فيه".

ولكن حكومة بلير كان لديها أفكار أخرى. بعد عصر ذلك اليوم نشرت وزارة الخارجية قانوناً جديداً للهجرة منع سكان الجزر من العودة إلى دييغو غارسيا، وهو المكان الذي جاء منه معظم السكان. ومرة أخرى، استشهدت "بالتزامات المعاهدة" مع واشنطون.

وبرغم ذلك، فإن حكم المحكمة العليا كان يعني أن الحكومة لا تملك أي خيار آخر سوى أن تمنح سكان الجزر جوازات سفر بريطانية، وبدا أنه لا يوجد أي شيء يوقف السكان من العودة إلى الجزر الخارجية. وكان أول من يجرب ذلك ستة من صيادي السمك التشاغوسيين الذين انطلقوا في قارب صغير من بورت لويس إلى بيروس بانهوس. وقال روبن مارديموتو: "حين هبطوا إلى الأرض، كان الموقف عاطفياً جداً بالنسبة إليهم أن يمشوا على أرض وطنهم وأرض أسلافهم. ولكن هل تعلم، أنه في غضون خمس دقائق، اكتشف وجودهم زورق دورية بريطاني وأخبرهم بأن عليهم أن يغادروا المكان؟ وقالوا للدورية: انتظروا دقيقة، ها هي جوازات سفرنا، فهذه بلادنا، وها هو حكم المحكمة العليا، نرجو أن تقرؤوه". وقال الشرطي البريطاني: "لن نتحدث إليكم، عليكم أن تخرجوا". وعلى طول مائة ياردة من الشاطئ، كانت هناك مستعمرة من أصحاب اليخوت والبحارة، وكان

معظمهم من غير البريطانيين، وكانوا يلعبون لعبة الكرة الطائرة على الشاطئ. لم يعكر صفوهم أحد.

وفي شهر حزيران/يونيو من العام 2002، نشرت وزارة الخارجية "دراستها" عن "الإمكانية العملية" وجدوى عودة سكان الجزر إلى وطنهم. وادعت هذه الدراسة أن "الفيضانات، والعواصف، والنشاط الزلزالي" سوف "يجعل الحياة عسيرة". وأنه لن يكون هناك ماء كاف، أو أرض زراعية، أو مصائد أسماك تمد السكان. وتكلفة إعادة التوطين ستكون تكلفة باعثة على "منع" إعادة التوطين[65].

وقام خبيران دوليان بدراسة "الدراسة" وهما: جوناثان جينيس من جامعة هارفارد، وهو خبير بإعادة توطين السكان، والأستاذ الدكتور ديفيد ستودارت، من كمبردج وبيركلي، وهو الثقة الأول في العالم في شؤون تشاغوس وجزر الحواجز المرجانية.

ولاحظ جينيس أن تشاغوس لم تَخبُر إعصاراً واحداً في ثلاثين عاماً من تقارير المناخ، وآخر عاصفة كبيرة كانت في العام 1891. وكتب يقول: "بصراحة، إن تشاغوس محظوظة بأنها خالية من العواصف المدارية الكبيرة. ومعظم الجزر المرجانية لا تنعم بذلك الحظ... وتمتلك تشاغوس بيئة لطيفة عاش [فيها الناس] طوال ثمانية أجيال". ووصف الدراسة الرسمية بأنها "تشويه للبيانات الموجودة في اليد... وليست موضوعية... ومن السخف أن نتخيل أن الجزر لا يمكن أن تستوطن ثانية"[66].

وكان ديفيد ستودارت قد زار أرخبيل تشاغوس لأول مرة منذ أربعين سنة تقريباً. وليس هناك عالم يعرف الجزر معرفة أفضل منه. وقد أخبرني أن "وزارة الخارجية في الواقع جربتها في ثلاثة مما يدعى دراسات. وهذا ما شكل مجلداً مؤثر المنظر. وفي الحقيقة، فإن ما أنتجوه غير معقول. فصفحة بعد صفحة يتكرس المجلد لترسيخ أن الشواطئ مكونة من الرمال! ويبالغون في القول بندرة الإمدادات من الماء. وقد نشرت أوراقاً تبين أن هذه الجزر هي من بين أرطب الجزر في العالم، وأن مياه

المطر تبقى ثلاثة أيام على سطح الأرض. والمشروع كله بلا قيمة، وهدر للوقت، وهو تمثيلية لغز كلمات غالية التكلفة"[67].

كان كسام يوتيم قد خدم بوصفه الرئيس الأول لموريشيوس طوال عشر سنوات من العام 1992. وهو رجل مهذب، فصيح، تحدث إلي بطريقة لم أعرفها من قبل أبداً عن رئيس سابق يتكلم عن حكومة صديقة. وقال لي: "يجب علي أن أذكرك أن هذا تم انتهاكاً لميثاق الأمم المتحدة باستخدام الأكاذيب، أنا لا أتصنع بكلماتي: لقد كانت أكاذيب، اللعنة على الأكاذيب. إن الحكومة البريطانية، وهي تقذف بالناس إلى خارج أرضهم، قد قادت الكثيرين منهم، وهي تعرف، إلى الموت المحقق. وما من واحد من بني البشر يمكن أن يعامل مخلوقاً آخر من بني البشر بالطريقة التي عامل بها البريطانيون الشعب التشاغوسي. وللمقارنة، علينا أن نعود إلى الخلف إلى أيام الرق. ومن أجل ذلك، تلقت بريطانيا الثمن الفدية الذي يتلقاه اللصوص، وما يزال البريطانيون يرفضون طاعة المحكمة وترك الناس ليعودوا ولو إلى الجزر الخارجية".

وقلت: "حين تسأل الأمريكيين عن هذا، فهم يقولون دائماً :حسناً، اسألوا البريطانيين".

"هذا مثير جداً للاهتمام. فأنا ذهبت إلى وزارة الخارجية واستقبلتني هناك البارونة آموس، الوزيرة المسؤولة في مجلس اللوردات، وطلبت السماح لسكان الجزر أن يذهبوا ليضعوا الأكاليل على قبور أسلافهم. وأجابت: ليس لدينا أي اعتراض. وعلى العكس، فنحن سنساعدهم. وسوف نضع سفينة تحت تصرفهم. إنني أؤكد لك أننا نحن أنفسنا جاهزون للموافقة... ولكننا لا نعرف إذا كانت الولايات المتحدة مستعدة للموافقة".

"وقلت لها: وبناء على ذلك، يا بارونة، هل تسمحون لي أن أرفع المسألة وأدرسها مع الرئيس بوش؟" فقالت: "بالتأكيد" وهذا هو ما فعلته. كتبت إلى الرئيس بوش، طالباً منه الإذن للتشاغوسيين لزيارة جزرهم ووضع الأكاليل. وجاء الجواب لمن

وزارة الخارجية]، "نعم... ولكن البريطانيين غير مستعدين للموافقة". وهكذا تلك هي اللعبة. إنهم يلعبون البنغ بونغ بحياة سكان الجزر".

تفخر البارونة آموس بنفسها بناء على أصولها الإفريقية الكاريبية. وهي تلقي العديد من الخطابات المفعمة بالروح الليبرالية، وذلك مثل المحاضرة الكبيرة التي ألقتها في العام 2003 وكانت بعنوان "كشف الكذبة وترويج المساواة"، وفيها "تماهت مع الأقليات المعرضة للخطر والطرف المظلوم"[68]. وحين طلبت منها إجراء مقابلة معها، وافقت مبدئياً. وحين قلت لها: إنها عن التشاغوسيين، تراجعت من خلال مرؤوس أقل منها رتبة.

في شهر آذار/مارس من العام 2003، استقال روبن كوك من الحكومة احتجاجاً ضد غزو العراق. وقد أجريت معه مقابلة في العام التالي، وقد توفي في العام 2005. وأخبرني أنه أثار فضيحة تشاغوس لأول مرة مع رئيس الوزراء جيمس كالاهان في مؤتمر حزب العمال في العام 1975 في برايتون.

"في الواقع كنت في غرفة نومه في فندق غراند وقلت له: انظر، يا جيم، أنا أسألك في كل شهر سؤال دييغو غارسيا ولم تخبرني أبداً ولو لمرة واحدة أنه كان يوجد هناك شعب يعيش على أرض الجزيرة. وأنا أذكره بشكل حي وهو يبسط يديه على أغطية السرير ويقول: "حسناً، يا روبن، لم يسبق لك أبداً أن سألت السؤال".

وقلت: "كان مشؤوماً، أن تدرس ماذا فُعل بالشعب، أليس كذلك؟"

"نعم، كان كذلك. كانت الحادثة واحدة من أقذر الحوادث التي سبق لي أن عرفت عنها والتي لا يمكن الدفاع عنها أخلاقياً".

"لماذا إذاً لم تغتنم الفرصة وتصحح الخطأ حين صرت وزيراً للخارجية؟ بعد أن وجدت المحكمة العليا الموقف لصالحهم، وكل ما فعلته لسكان الجزر كان منحهم الجنسية التي كانوا يمتلكون الحق فيها على كل حال. وأنت منعتهم مع ذلك من أن يذهبوا إلى وطنهم".

"لم تكن إعادتهم إمكانية سياسية أبداً. فالأمريكيون كانوا هناك، ولديهم اتفاقية معنا".

"وماذا لو قلت للأمريكيين: إن المحكمة العليا في بلادنا قالت إن ظلماً كبيراً قد وقع وأن من الواجب علينا أن نعطي هؤلاء الناس الفرصة للذهاب إلى الوطن وإعادة بناء حياتهم".

"حسناً، لقد قلت ذلك تقريباً".

"ولكنك تخليت عن دييغو غارسيا".

"أوه، نعم، لأن ذلك لم يكن ممكن التحقيق سياسياً أبداً مع الأمريكيين".

"وذلك هو السياق الذي وقف فيه كل شيء؟"

"نعم".

وفي العام 2002، كان التشاغوسيون يسافرون بجوازات سفرهم البريطانية الجديدة، وبدؤوا يصلون إلى بريطانيا، ليستحضروا حملتهم إلى لندن وليهربوا من فقر موريشيوس. وحين طاروا إلى مطار غيتوك، قدموا احتجاجاً في بهو المطار، ورفضوا التحرك من هناك لعدة أيام، إلى أن وافقوا أخيراً على الذهاب إلى فنادق رخيصة وإلى عقار سكني في كراولي في سسكس. وقال المتحدث باسمهم الآن فينكاتاسين: "لو سمح لنا أن نعود إلى تشاغوس، لما كان أي واحد منا يريد أن يكون هنا"[69].

وفي العام التالي كانوا جميعاً في المحكمة العليا، وكانوا في هذه المرة يطالبون بالتعويض. ولكن في هذه المرة، كانت روح الماغنا كارتا وتاسيتوس غائبة إذ إنهم واجهوا نوعاً مختلفاً جداً من القضاة، السيد القاضي أوزيلي، الذي أشار من المنصة إلى الحكومة البريطانية بوصفها "نحن" في حين وصف القضية بأنها "غير وجيهة" و"لا أمل فيها"[70] ولم يمنح سكان الجزر بنساً واحداً، وهو قرار "رحب" به بل رامل، وزير الخارجية المسؤول عن تشاغوس. وقال رامل: "لقد جزمنا دائماً أن الإجراءات [الخاصة بالتعويض] كانت إجراءات أسيء تصورها"[71].

بعد خمسة أشهر، ألقى رامل خطاباً مثيراً أمام هيئة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة في جنيف، وقال: "أود أن أستذكر الكلمات الافتتاحية في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ينص على أن: الاعتراف بالكرامة الأصيلة وبالحقوق المتساوية غير القابلة للتنازل عنها لكل أعضاء الأسرة الإنسانية هو الأساس الذي تقوم عليه الحرية، والعدالة، والسلام". وبكلمات أخرى، فمن دون مراعاة حقوق الإنسان من جميع الدول فإن الحرية، والعدالة، والسلام مهددة تهديداً أساسياً. وتعهد أن "يعمل لإزالة هذا التهديد"[72].

بعد ثلاثة أشهر قام رامل بعمل النقيض المضاد تماماً. وظف اليد المشعوذة نفسها التي استخدمتها حكومة ولسون لطرد سكان الجزر في الستينيات من 1960، فأرسل مرسوماً ملكياً بمشورة المجلس الخاص إلى الملكة لتطبع موافقة خاتمها المطاطي عليه. وهذا المرسوم قلب نصر التشاغوسيين في المحكمة العليا في العام 2002 بكليته ومنع سكان الجزر من العودة إلى الوطن مطلقاً. وقال ريتشارد غيفورد: "لم أفكر ولا في أشد أحلامي طيشاً أن الحكومة سوف تضع حكم المحكمة العليا جانباً بكل بساطة وتتصرف بمثل هذه الاستهانة الفاحشة".

ودُسّ المرسوم الملكي بمشورة المجلس الخاص مع قائمة من الأوامر الملكية غير المؤذية، تراوحت بين تعديل على النظام الأساسي لكلية قائسي البصر وتعيين أربعة مفتشين تربويين لدى جلالتها في سكوتلندا. ولم تعط أي أسباب للتنصل من حكم المحكمة، وأشار النص المختصر إشارة غير صادقة إلى "مغادرة" سكان الجزر. وبكل بساطة أعلن مستشار خاص مصير آلاف من رعايا جلالتها وهم أكثر الرعايا تعرضاً للخطر، ولسوء المعاملة ولهضم حقوقهم، وبذلك الصوت الغريب الحاد لها قالت هي: "موافق عليه"[73].

حدث ذلك في 10 حزيران/يونيو من العام 2004، في يوم انتخابات في بريطانيا، حين ظنت الحكومة أنه لا أحد سيلاحظ، وأن الدعاية السيئة ستكون في حدها الأدنى أو غير موجودة. وعموماً، كانوا على حق. فبعد أسبوعين، فإن عضواً واحداً

فقط من البرلمان، وهو ليو سميث، سأل رامل هل استشير واحد من التشاغوسين من قبل؟ وكان الجواب بكلمة "لا" بلا تزويق وبلا رحمة[74].

وافق رامل على رؤيتي في وزارة الخارجية في شارع الملك تشارلز، بعيداً عن الوايت هول. وبدأت بسؤاله: لماذا لم تمتثل الحكومة لحكم المحكمة العليا وللأمم المتحدة وتسمح للتشاغوسيين بالذهاب إلى وطنهم؟ فأجاب: إن الدراسة الرسمية "دراسة قابلية التطبيق" والجدوى أظهرت أن الجزر لم تبق قابلة للسكن وأن هناك مخاوف بشأن مستوى البحر، والفيضان، والمياه العذبة.

وقلت: "هناك أربعة آلاف جندي عامل أمريكي ومتعاقدون، ومدرجان لقاذفات القنابل، كل واحد منها بطول ميلين ونصف، ومراس لأسطول من السفن، وأحوال معيشية يصفها الأسطول الأمريكي بأنها" لا يستغنى عنها"، و" متميزة" و" لا تكاد تصدق"، وهم يريدون تمديد ما يدعى عقد إيجارهم لها لما وراء العام 2016. فهل تطلب منا أن نصدق أن هذه الجزر هي فعلاً غير قابلة للسكن، بل هي تغرق؟"

"لا، لا، طبعاً هي قابلة للسكن، ولكنه بتكلفة... وهذه التكلفة تستند إلى توصيات مالية محددة في تقرير الخبراء".

وقلت: "ها هي نسخة من تقريرهم، وفي الصفحة الثالثة، يقول: إن هذا التقرير لم يكلف بواجب التحقيق في التكاليف المالية لإعادة التوطين. اغفر لي من أجل القول هكذا، ولكن يبدو لي أن ما قلته أنت قبل قليل كان مختلقاً".

"إذا قلت لك، يا سيد بلجر، بأن علينا مسؤوليات مالية طارئة، فهذا يعني أنك إذا كان عندك زلزال، وإذا كان عندك ثوران بركان، وإذا كان عندك موجة مد، فإن دافع الضرائب البريطاني هو الذي سيدفع الفاتورة".

"يا سيد رامل لا توجد فرصة لكرة ثلج في جهنم ليكون هناك زلزال، أو إعصار أو موجة مد في تشاغوس. إنها بيئة لطيفة لطفاً كلياً. وذلك هو السبب الذي يجعل للأمريكيين فيها قاعدة ضخمة هناك وهم يصفون البيئة بأنها لا تكاد تصدق. هل رأيت الظروف المعيشية للتشاغوسيين في موريشيوس؟"

"لا... ولكن لا شك عندي أن بعض الناس، مثلما هو الحال في كل أنحاء العالم، يعيشون في فقر. ومع ذلك، عند النظر إلى الموقف الإجمالي فإن المجتمع التشاغوسي هو الآن مندمج في كل من موريشيوس وجزر سيشل".

"إنهم بوضوح غير مندمجين. لقد رأيت ذلك بنفسي، والرئيس السابق كسام يوتيم ذكر أنهم غير مندمجين إلى حد كبير. إذا لم تكن قد ذهبت إلى هناك فكيف تستطيع أن تكون على يقين؟"

"أرجو أن تنظر إلى ما فعلناه لهم. إن هذه الحكومة قد شرّعت منحهم الجنسية البريطانية".

"ولكن ماذا كان حقهم؟ انظر إلى التعويض الذي أعطيتموه لهم. الرئيس السابق كسام يوتيم يسميه فستق العبيد، أي، مبلغاً تافهاً. لقد رأيت الكثير من الفقر في العالم، وهؤلاء الناس لا يبدو لي أنهم قد عوضوا أدنى تعويض".

"لقد أعطي التشاغوسيون ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون من الجنيهات الإسترلينية بأسعار اليوم".

"كما تعرف، لم يتسلموا في الواقع أكثر من ألف جنيه لكل عائلة، على أقصى حد. وذلك هو السبب في أنهم فقراء فقراً مرعباً وموضع سخط من السكان من حولهم".

"أنت لا تستطيع أن تصنع النقود، عليك أن تتخذ خيارات عن الطريقة التي تصرف بها نقودك. وبالنسبة إلى إعادة السكان إلى الجزر، فإن المال يجب أن يأتي على الأرجح من عون يجب أن نعطيه لأناس فقراء في مكان آخر".

"ألا تشعر هذه الحكومة؟ ألا تشعر أنت بأي عار بسبب ما فُعل بهؤلاء الناس؟"

"أنا لا أبحث عن تبرير القرار الذي كان قد اتخذ في الستينيات وفي السبعينيات".

"لا، أنا أعني العار الآن. لقد استخدمت السلطات القديمة نفسها لتمنعهم من العودة إلى الوطن".

"لا ، أنا لا أشعر بالعار. ولكنني أفهم الارتباط التاريخي الذي كان للمجتمع التشاغوسي بهذه الجزر ، ونحن مستعدون أن ندعم زيارة إلى قبور أسلافهم".

"ارتباط تاريخي؟ دعني أسألك سؤالاً شخصياً. ماذا لو أنك أنت وأسرتك قُذفتم خارج وطنكم، وضعتم في سفينة، ورميتم على أرصفة المرافئ في مكان ما ،وأنتم معدمون؟ كيف ستحب ذلك؟

"إذا لم أكن قد عوضت، فسأكون غضبان جداً..".

"هؤلاء الذين يقودون هذا الصراع من سيدات طاعنات في السن بمعنويات عالية ، هن اللواتي لا تسمحون لهن بالذهاب إلى الوطن ليمتن هناك. أليس هذا مخجلاً؟"

"أنا لن أكون خجلاً. وكما قلت، فإن المال الذي سيمول حركتهم في العودة يمكن فعلاً أن يصرف على أناس فقراء".

وكان رامل قد أقر أمام البرلمان أن تكلفة إعادة توطين سكان الجزر هي أبعد ما يكون عن كونها باعثه على "المنع". فهي ستكون خمسة ملايين جنيه إسترليني للإنشاء وخمسة ملايين جنيه إسترليني في السنة للإدامة. وكما يشير ريتشارد غيفورد ، هناك ثروة من الدخل يمكن أن تكتسب من مصائد الأسماك، وكذلك فإن الإتحاد الأوروبي سيساند إعادة التوطين. وإذا وضعنا هذا جانباً ، فإن مبلغ خمسة ملايين جنيه إسترليني ليس أكثر من تكلفة المحافظة على سفارة بريطانية من مثل التي ترفع علم الاتحاد في موريشيوس[75].

حين كنت في موريشيوس، كان المندوب السامي، ديفيد سنوكسيل، يُخدم هناك بأربعة ملاعب تنيس، وحدائق غناء، وبركة سباحة بحجم كامل، وسيارة جاغوار ومستعمرة من الموظفين، وكل ذلك يدفعه دافع الضرائب البريطاني الذي عبر بل رامل عن مثل ذلك القلق عليه.

عند سفح التل، وليس أبعد من مسافة خمس عشرة دقيقة في السيارة، يوجد بيت لأسرة اعتبرت غير مستحقة لنقود دافع الضرائب البريطاني، وفقاً للوزير، رغم

أن هؤلاء أيضاً هم مواطنون بريطانيون. وأول مرة لمحت فيها هذه الأسرة من التشاغوسيين المنفيين كانت في فيلم تلفزيوني في العام 1982، وهو فيلم قارن معاملتهم مع المعاملة التي عومل بها سكان جزر الفوكلاند. في إحدى تسلسلات الفيلم تحركت آلة التصوير يميناً وشمالاً وإلى الأعلى وإلى الأسفل لتمر على أربعة عشر شخصاً نائمين في تناوبات في غرفة بائسة وسخة، مع وجود طفل في صندوق من الورق المقوى[76].

بعد اثنين وعشرين عاماً، وجدت الأسرة نفسها تعيش في المكان البائس الوسخ نفسه. مازالوا ينامون على الأرض، ومازال المطر يتصبب عليهم، ومازال المرحاض حفرة في الأرض، ومازالوا بلا مطبخ ومازالوا فقراء للغاية وهم كثيراً ما يبقون جياعاً.

وسألت الأب، وهو لويس أونيزيم، ما الذي تغير منذ أن صورهم الفيلم؟

وقال: "لا شيء".

"أتذكر زوجتك في الفيلم، امرأة باهرة الطلعة، وكانت تطل من النافذة".

"ماتت بعد نوبة قلبية. كانت شابة. وفي الواقع، ماتت حزناً".

"كانت حزينة جداً؟"

"حزينة جداً حقاً. لقد كنا سعداء جداً في دييغو".

"هل تستطيع أن تصف شيئاً من حياتكم هناك؟"

"حسناً، لم نكن نحتاج إلى المال هناك. كنا نمتلك مقتنيات متواضعة، ولكننا امتلكنا كل ما احتجنا إليه. كانت زوجتي حزينة فقد فرض علينا أن نغادر ونترك كل شيء خلفنا، بالإضافة إلى حيواناتنا. لا بل لقد أمرونا بأن نسرع لأن السفينة كانت على وشك أن تغادر. فتخيل نفسك تركض خارجاً من المكان الذي ولدت فيه وترعرعت فيه، وأنت لا تدري أتراه ثانية أم لا؟"

"وهل تعاني أنت من الحزن الذي عانت منه زوجتك؟"

"نعم، إنني أعاني. فأنا قد تقدمت بي السن، وأسرتي فقيرة جداً إلى الدرجة التي يجب فيها على إحدى بناتي أن تدفع غرامة لأنها لا تستطيع بإمكانياتها أن ترسل أبناءها إلى المدرسة. إننا لا نأكل إلا الرز فقط وقطعاً من البابايا من تلك الشجرة هناك. ونحن نشتري الأوراق الخضراء حين يوجد بعضها في البقالة".

وسألت لويس وبناته: هل تلقيتم تعويضاً؟ إنهم يستطيعون أن يتذكروا أن بعض الديون قد سددت عنهم "منذ سنوات". وبدوا محتارين من السؤال.

في 14 من كانون الثاني/يناير من العام 2005، طار بل رامل أخيراً إلى بورت لويس، ليتفقد بيوت التشاغوسيين. ووصل مصحوباً بعدد كبير من الشرطة إلى مركز المجتمع في فندق بي دو تومبو في الساعة 7.30 صباحاً. وكان بانتظاره أعضاء من مجموعة لاجئي تشاغوس، ومسانديهم، وقلة من المراسلين المحليين والأجانب. وقد طلب المسؤولون المرافقون للوزير من الشرطة أن يبقوا الصحافة في الخارج، وحرس الباب ضباط يحسنون استعمال عصا القيادة ببراعة. وقالوا: "لا آلات تصوير". وتجمع التشاغوسيون حول النوافذ الصغيرة ذات القضبان الحديدية الحاجزة لكي يشهدوا اللقاء الذي سيدوم عشرين دقيقة.

وافتتح رامل الاجتماع بالإعلان بأنه على الرغم من أنه كان يحبذ قيام التشاغوسيين بزيارة أرض وطنهم، فإن الحكومة الموريشيوسية لسوء الحظ قد منعت البريطانيين من التعاقد مع سفينة لتأخذهم. وبالنسبة إلى مستمعيه بدا ذلك مثل لعبة بنغ بونغ لندن – واشنطون.

وأجابه أوليفيير بانكولت: "أنت تقول يا سيد رامل إنك تساند زيارتنا وتمويلها، ولكن المشكلة الوحيدة هي السفينة. حسناً، نحن نملك سفينة". وسلم أوليفيير الوزير ملفاً عن السفينة، والتي كانت موجودة في دبي. وقال: "وهي جاهزة لتأخذنا إلى أرخبيل تشاغوس".

وقال رامل، وقد صدمته المفاجأة، إنه سيقوم "بالنظر" في الملف.* ثم غادر بعد ذلك على عجل ليزور البيوت التشاغوسية، وهو المكان الذي قالت الشرطة للصحافيين عنه إنهم ليسوا موضع ترحيب فيه. وبرز ليعلن أن اللاجئين عاشوا عيشة "لا تختلف" عن معيشة الموريشيوسيين، وقال إنه كان واضحاً أن فقرهم "ليس له مطلقاً" أي علاقة بنفيهم القسري. ثم إنه ساق سيارته مبتعداً، مصحوباً بالشرطة الراكبة المرافقة.

كان هناك سؤالان نجح مراسل مصمم على توجيههما حين مشى رامل بخطوات واسعة عبر المجتمع. كان الأول حول أمواج المد البركاني (التسونامي) الذي حدث في اليوم الأول بعد عيد الميلاد في العام 2004، والذي كان، وفقاً لما نشرته الغارديان، قد تم التنبؤ به بشكل دقيق من قبل القاعدة الأمريكية في دييغو غارسيا، ولكن هذه المعلومات الحيوية قد بقيت "أفضل سر احتفظ به في الأسطول الأمريكي". وأن أحد الأماكن القليلة في المحيط الهندي التي لم تصبها أمواج المد البركاني (التسونامي) كانت أرخبيل تشاغوس.

فإذا كانت دييغو غارسيا أرضاً بريطانية، فلماذا لم يتم مشاركة بقية العالم بهذه المعلومات، ألم يجعل رصيف أمواج المد البركاني الواسع التابع للجزر من التحذير الكارثي الذي ورد في "دراسة قابلية التطبيق" والجدوى التي أجرتها الحكومة البريطانية مهزأة؟"[77].

وكان السؤال الثاني عن تقرير في الواشنطون بوست، وهو تقرير يدعي أن دييغو غارسيا كانت جزءاً من معسكر اعتقال (غولاغ) أمريكا، وأن "المشتبه بهم من القاعدة" اعتقلوا في "معسكر العدالة" على أرض الجزيرة وعذبوا[78].

---

* في شهر نيسان/ابريل من العام 2006، سمحت الحكومة البريطانية لمائة واثنين من سكان الجزر بقيادة أوليفيير بانكولت، بأن يبحروا إلى تشاغوس في زيارة تحت السيطرة بشكل حازم لمدة اثني عشر يوماً. وبالنسبة إلى عودتهم الدائمة فقد قال وزير الخارجية جاك سترو: "إنها ليست عملية".(المؤلف)

دفع رامل السؤال الأول بالقول إنه سوف "ينظر فيه"، وأنكر في الحال بلا تحفظ أنه كان هناك سجناء على الأرض البريطانية. وقد كررت الواشنطون بوست الاتهامات[79].

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، يكون أوليفيير وليزيت ومواطنوهم قد وصلوا إلى لندن لحضور المراجعة القضائية التي طال انتظارها لاستخدام الحكومة الامتياز الملكي لوقفهم عن العودة إلى وطنهم. وهذه فرصتهم الأخيرة في المحاكم في بريطانيا. وستكون المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان هي الفرصة التالية. ويجري رفع قضيتهم على يد السير سيدني كينتريدج مستشار الملكة، ومدافع بارز عن حقوق الإنسان، وهو الذي مثل نلسون مانديلا وأسرة ستيف بيكو في بلده الأم جنوب إفريقية.

من الصعب أن أصف تصميم سكان الجزر على كسب العدالة والحرية. وهذا التصميم، ورفضهم أن يُلقى بهم بصفة ضحايا دائمين، راسخان في ذاكرتي. ولا أحتاج إلا إلى التفكير فقط في المأساة المنحوتة في وجه تشارليسيا وفي تعهدها وقولها "نحن نقاتل، ونقاتل!" والتفكير في أوليفيير وهو واقف على قبور إخوته وأخواته ويهمس "لا مزيد" ولا أحتاج إلا إلى الاستماع إلى أغنياتهم التي تتتابع كأنها مسكونة بالأرواح، مثل "أفغانستان"، التي تحكي عن قاذفات القنابل التي انطلقت من جنتهم ضد رجال، ونساء، وأطفال مثلهم، ويستذكرون تعبيراتهم المتكررة عن كرمهم نحو البريطانيين، وهم يفصلون دائماً بين الناس العاديين وبين النخبة، ويستذكرون دفء الإنسانية الذي يأتي من الناس الذين عاشوا مثلما عاشوا هم في الماضي فقط والذين كان عليهم أن يكافحوا كفاحاً لا يكاد يحتمل تقريباً من أجل البقاء.

وفي آخر يوم لي معهم، أخذني أوليفيير، وليزيت، وتشارليسيا وريتا إلى نصب تذكاري يطل على ميناء بورت لويس يعلم المكان الذي هبطوا فيه إلى الشاطئ ويحيي ذكرى أولئك الذين ماتوا. وقد رمى كل واحد منهم وروداً على سوقها إلى الماء الزيتي. وذهبت في ذلك المساء مع تشارليسيا ومع أحفادها إلى شاطئ البحر.

كان الوقت غسقاً والشمس الملتهبة تهبط على أفق يقع خلفه أرخبيل تشاغوس. وتجمعوا كلهم معاً على الرمل واستمعوا إلى تشارليسيا وهي تغني:

حين كنت أعيش في دييغو، كنت كطائر جميل يحلق في كبد السماء.

ومنذ أن كنت هنا، فانا أعيش حياة بلا قيمة.

فأعطني يدك يا صديقي، فسوف نصرخ ونرسل رسالتنا إلى العالم بأن القاعدة العسكرية موجودة في محيطنا.

نعم، أنا أحمل الأحزان في قلبي.

انظر إلى طفلي الذي يكبر.

إنه لا يعرف أرض وطن أمه.

حين نبحث عن العدالة، فلا تضربنا، يا أيها السيد الشرطي.

حين كنت أعيش في دييغو، كنت كطائر جميل يحلق في كبد السماء.

* * *

الفصل الثاني

المحرَّم الأخير

إن الإيديولوجية التي تقسم الناس إلى ذوي قدر أكبر وذوي قدر أصغر، وإلى مخلوقات أعلى ومخلوقات أدنى، لا ينبغي لها، لتكون إيديولوجية باطلة، أن تصل إلى الأبعاد التي وصلتها الإبادة الجماعية الألمانية.

أميرة هاس، صحفية إسرائيلية

لم يكن هناك شيء اسمه الفلسطينيون، إنهم لم يوجدوا مطلقاً.

غولدا مئير، رئيسة الوزراء الإسرائيلية.

كان الحجاج يمشون بتثاقل بطيء وهم مُصعِدون في طريق الآلام، يمرون على بائع سقطت أسنانه، يبيع مزيلاً لروائح الإبطين باسم بونتيوس بيلاطس ("احكم عليها بنفسك") ويبيع ساعات الضريح المقدس الرملية لتوقيت سلق البيض. وفي كل محطة من محطات الصليب، قاد صلوات الحجاج راهب من الفرنسيسكان، وحين وصلوا إلى كنيسة الضريح المقدس، كنيسة القيامة، نزل دخان البخور، والعرق والسوائل على أولئك الذين كانوا قادرين على التدافع بالمرافق ليشقوا طريقهم إلى الداخل. وهنا، يكون قد اكتمل العد التنازلي للألم وانطلقت أجراس الشعائر كنيران المدفعية في السماء وأعولت الكلمة منتحبة صاعدة بأن المسيح كان ميتاً وأنه لم يبعث بعد.

كان ذلك عيد الفصح في العام 1968، وهي زيارتي الثانية لما يسميه الرهبان الأرض المقدسة، وهو تعبير يفتقد الآن المعنى بالنسبة إلى الجميع باستثناء الأتقياء. واعتاد الأجانب أن يهمسوا: "عاش العرب هنا"، لا بل لقد قيل إنهم كانوا قد عاشوا هنا أطول من أي أحد آخر. ولكن هذه الحقيقة كانت هدامة الآن، و"العرب" الذين هزموا هزيمة شاملة للغاية في "حربُ الأيام الستة" قبل عشرة شهور، لا يكادون هم أنفسهم يهمسون بها لئلا يوقظوا في منتصف الليل ويطردوا من المدينة التي شهدت مولدهم ولئلا يعطى بيتهم من قبل حارس الممتلكات إلى أمريكي أو هولندي صبأ إلى اليهودية حديثاً. "فالعرب"، من الناحية الرسمية، كانوا الآن هم "المشكلة السكانية" أما كلمة "الفلسطينيون" فلم تكن تستخدم إلا من الفلسطينيين أنفسهم فقط.

وكنت، في إسرائيل، قد استمعت إلى أولئك الذين كانوا من جيل يهودي بقى أبناؤه أسرى لأساطيرهم ومخاوفهم، وكنت أشعر بالنسبة إليهم بمشاعر التقمص الوجداني الطبيعية، لا بل بمشاعر الإعجاب. وبعضهم كان قد قاتل في جيش الشعب، إي الهاجناه، ألهمه ذلك المذهب الإنساني الذي كان مادة للأسطورة في البلدان الغربية الراغبة في نفي الإثم في أوروبة ونفي الحقيقة في الشرق الأوسط. وحين كنت مراسلاً شاباً كنت أقبل مثل هذه الأساطير، وأبقى في قبضة عاطفة مختلطة من الإجلال والرهبة والتعجب من قوة تلك الأساطير، وأبقى كذلك نهباً لمعجم أورويلي من الأضداد التي بقيت حتى وقت قريب تحمي ملحمة الظلم الذي لحق بفلسطين.

في الشهور التي سبقت هذه الزيارة كنت قد أقمت في مزرعة جماعية "اشتراكية"، (كيبوتز) واستمعت فيها كيف أن أرض فلسطين كانت في معظمها صحراء، في الوقت الذي قد تكون فيه قد سكنت من قلة من البدو العرب الرحل، وكيف أن أحد الإنجازات الفذة للمشروع الصهيوني تجلت في تحويل الصحراء إلى أرض خضراء. وبرتقال يافا، الذي كان يزرع في المزارع الجماعية الاشتراكية مثل مزرعتي التي أقمت فيها والذي كان يصدر إلى بقية أجزاء العالم، كان يقال عنه

إنه يرمز لهذا المسعى الجدي الذي يبعث على الفخر ضد الاحتمالات المعاكسة، — حين أكّدت، في الحقيقة، عكس ما يقولون. إن بساتين البرتقال وكروم العنب كانت قد سرقت من الفلاحين الفلسطينيين الذين كانوا يحرثون التربة ويصدرون البرتقال والعنب إلى أوروبة منذ بداية القرن الثامن عشر. إن مدينة يافا السابقة مازالت تدعى "أرض البرتقال الحزين".

وحين وصل مضيفيّ الإسرائيليون اللطفاء، الذين كانوا يقودون السيارة على طول الطريق الساحلي (الكورنيش) في تل أبيب، حين وصلوا الساعة الموجودة في وسط الميدان الذي يعلّم المكان الذي بدأت منه يافا، حينها فقط نطقوا كلمة "عرب" وكأنهم يبصقونها بصقاً. آنئذ، شعرت أنا بشيء مألوف. فالبغضاء غير المفسرة ذكرتني بجنوب إفريقية، التي كنت قد منعت من دخولها منذ قريب. وبالنسبة إلى مصدر مخاوف الإسرائيليين، فقد كانت مثل الأشباح. فالفلسطينيون كانوا هناك ولم يكونوا هناك: ويستخدمون عمالاً وخدماً، ولكنهم مستثنون من أي سياق غير السياقات التي تدعو إلى الاحتقار.

وقد سافر معي دان هادارني، وهو مصور قد بقي على قيد الحياة بعد المحرقة. وبوصفه بولندياً وواحداً من "الغبار البشري" من الشتات، فقد تذكر، حين كان صبياً في بولندا، "العربات السوداء الطويلة" لقوات الأمن الداخلي للنظام النازي (الغستابو) وهي تجوب الشوارع، ويخرج منها رجال يلبسون معاطف طويلة، ويغرون الأطفال ليدخلوا إلى العربات من أجل "ركوب الابتهاج". وكانت المقصورات الخلفية للسيارات مغلقة والنوافذ مظللة غير شفافة، وحين يبدأ ركوب الابتهاج لكل صبي يتدفق الغاز من فتحات موجودة تحت المقعد، ولم يكن يستغرق الأمر أكثر من السير مسافة مجموعة من المباني أو مجموعتين حتى يكون بضعة أطفال من اليهود قد ماتوا. لقد سمع المصور عن السيارات، ولذلك كان يعدو مسرعاً حين كانت تأتي. ومعظم أفراد أسرته قتلوا بالغاز على أيدي النازيين.

وبعد أن قمنا هو وأنا بقيادة السيارة بطول فلسطين التي تحتلها إسرائيل، وكنا عائدين إلى القدس من مخيمات اللاجئين في قلندية وعقبة جبر، قال لي

فجأة: "أنا مفعم بالتشويش، وأتمنى لو لم أر ما رأيت اليوم. من الأفضل لإسرائيلي مثلي ألا يتشوش، لأننا نكون آنئذ، نحن اليهود، أضعف ما نكون. في المخيم، نظرت إلى مرآة: الناس هناك كانوا نحن، مرة أخرى في الشتات، فقد عبروا عن مرارتهم بالكلمات التي استخدمناها، وتصميمهم كان هو تصميمنا، الذي ترعرعنا معه في حارات اليهود (الغيتو). في قلبي، أريدهم أن يكونوا أحراراً، أن يذهبوا إلى وطنهم، ولكنني أعرف أن علي أن أوقفهم عن ذلك."

كان عيد فصح بارداً ببرودة قارصة وبليلاً بللاً قاسياً. ولم أكن قد لبست معطفاً، وكانت الريح في قلندية تدور مسرعة كالدوامة من ناحية الصخور الموجودة على الجانب العاري من الوادي وتحمل معها رائحة النتن المنبعث من مجاري الصرف التي فاضت واختلطت بالوحل. ومن بين آلاف المسيحيين الأجانب الذين يطوقون القدس، فإن اثنين فقط، زوجين لوثريين كنديين، ساقا سيارتهما مسافة 10 عشرة أميال عبر الوادي، وكانت سيارتهما اللاندروفر محملة بالبطانيات.

كان عدد من الناس يقارب ثلاثة آلاف نسمة يعيشون في هذا المخيم، وهم لاجئون في أرضهم الخاصة، وبعضهم على مرمى البصر من بيوتهم التي لم تبق بيوتاً لهم، وهم الآن مسجونون في مساكن من الطين، والخيش، والحديد المموج. والماء يقطر بنياً، إن وجد، من حنفيات جماعية، وهناك مراحيض جماعية، وأمراض جماعية مثل الجنون، والعمى، والتهابات المعدة والأمعاء. وكان يصرف لكل شخص من الطعام ما يعادل 2500 حريرة (كالوري) في كل يوم، وهي تهبط إلى 1500 حريرة في الصيف. وهذه الأرقام حسبتها وكالة الأمم المتحدة للإغاثة والتشغيل (الأونروا) بوصفها بدقة الكمية التي يحتاج إليها الإنسان ليبقى على قيد الحياة لا أكثر ولا أقل، وبوصفها بدقة الكمية التي تستطيع الوكالة أن تقدمها بناء على الحسنات الضئيلة التي تأتي من "المجتمع الدولي".

كانت الوجبة الرئيسية في قلندية ثريداً في صحن معدني مطلي بالقصدير قيل إنه يحتوي على تنويعة من المواد الغذائية تمت موازنتها موازنة خبيرة، إضافة إلى كسرة من الخبز وحبة من الفيتامين. ويفترض أن يتلقى الأطفال دون الخامسة

عشرة من العمر تكملة من الزلال (البروتين) – الرز، ومسحوق البيض، والخضروات – ولكن هذا نادراً ما يصل إليهم جميعاً لأن أموال الأونروا كثيراً ما تنفد، وأولئك الذين ينجحون في الحصول على الطعام يسرعون عائدين به إلى الأكواخ، وهناك يتم تقاسمه أو يعرض للبيع لأن ذلك هو الدفاع الوحيد ضد الفقر الشديد. ربع الأطفال يعانون من سوء التغذية: وهو رقم لم يتغير طوال أربعين عاماً تقريباً.

ثلثا رجال قلندية عاطلون عن العمل، وقد نشأ جيل لم يعرف العمل أبداً. ولم يذهبوا إلى أي مكان. لقد ذرعوا المخيم صعوداً ونزولاً في الشارع الوحيد المتموج. وتجمعوا خارج المجمع الإداري، ليستمعوا للنشرات الإذاعية من عمان التي يرسل الفلسطينيون عبرها رسائلهم من الشتات، من كل شتاتهم – في العالم العربي، ومن أمريكا، ومن أوروبة، ومن أمريكا اللاتينية – إلى عائلاتهم. وكانت هذه الرسائل لابد أن تتبعها الأغنيات الحزينة التي تغنيها أم كلثوم، "كوكب الشرق" المحبوبة، ويهمهم الرجال باللازمة الغنائية التي يعرفونها كلمة كلمة. ثم من عادتهم أن يمشوا المزيد أو أن يجلسوا على أي قمم حجرية ناتئة فوق الوحل، والتي كانت تخدم أيضاً لتكون أماكن تنظف عليها الملابس وتفرك، ثم حين يسمح الطقس، تترك عليها لتجف. وكل هؤلاء الرجال كانوا ينضحون بهوان لا يكترث لشيء، وكأنهم ينتظرون أن يتنزل عليهم إله يأتي لنجدتهم وهم يراقبون نساءهم وهن يرضعن الجيل التالي.

وقلت لمحمد جار الله "رأيت طفلين فقط يلبسان الأحذية"، ومحمد رجل مقدسي لطيف وساخر كان قد جاء معي إلى قلندية، وهو مثل معظم رجال الأونروا رجل فلسطيني.

وقال: "وأنا رأيت الاثنين نفسيهما."

"ولكن الجو بارد جداً."

"نعم أستطيع أن أشعر بذلك."

"حسناً، وماذا تفعلون حيال ذلك؟"

"حسناً، يا صديقي جون، ميزانيتنا معي في حقيبتي... ها هي... كما ترى، في هذا العمود تظهر النقود التي نملكها. وفي العمود التالي مصروفاتنا... طعام لكل فرد وبطانيات لكل فرد تقريباً. والعمودان يتوازنان، كما ترى. منذ ثلاث سنوات صرفنا على الطعام وسقوف للإيواء. وفي سنوات ثلاث أخرى... ربما سنستطيع أن نصرف على الأحذية. ذلك هو تقدمنا بعد عشرين سنة."

ترتفع أعلى تلة فوق المخيم في كتلة من الحجر الكلسي المتأكّل. وحين بدأ المطر يهطل، نزل شخص وحيد يمشي على المنحدر متوجهاً نحونا، وابنه يمسك بذيل معطفه الطويل الممزق. ومد الرجل يده وأمسك بيدي ولم يتركها. وقال بلغة إنجليزية متحفظة بطيئة: "أنا أحمد حمزة، أعمل في الترفيه في الشوارع. وفي يافا، كنت أعزف على عدة آلات موسيقية، وأغني باللغة العربية، والإنجليزية، والعبرية، ونظراً إلى أنني كنت فقيراً نوعاً ما، فقد كان من عادة ابني الصغير أن يبيع العلكة في الوقت الذي كان يقوم فيه القرد بحيله. وحين فقدنا بلدنا، فقدنا الاحترام. في أحد الأيام أوقف كويتي غني سيارته أمامنا. وكان واحداً من أولئك الذين جاؤوا إلى رام الله لقضاء عطلة الصيف. وصاح على ابني وقال: "أرني كيف يلتقط الفلسطيني طعام إعاشته!" فجعلت القرد يبحث عن الطعام في الأرض... في قناة التصريف في الشارع... وابني بحث مع القرد. ورمى الكويتي نقوداً معدنية وجثا ابني على ركبتيه ليلتقطها. هذا لم يكن صواباً، أنا كنت فناناً، لا شحاذاً... لا بل أنا الآن لست فلاحاً. لا تهتم."

وسألته: "كيف تشعر الآن حيال ذلك؟"

وهل تتوقع مني أن أشعر بالبغضاء؟ ماذا يشكل ذلك لفلسطيني؟ أنا لم أبغض اليهود قطعياً. صراحة، أنا لا أتذكرهم كثيراً في حيفا... نعم، أنا افترض أني أبغضهم الآن، أو ربما أن أشفق عليهم لغبائهم. فهم لا يستطيعون أن يربحوا، وذلك لأننا نحن الفلسطينيين الآن مثلما كان اليهود، ومثلنا فعل اليهود، فنحن لن نسمح

لهم أو للعرب أو لكم أن تنسوا. الشباب سوف يضمنون لنا ذلك، والشباب الذي يأتي بعدهم... أليست تلك هي الحقيقة يا جار الله؟"

وقال محمد جار الله: "يا صديقي، أنا هنا أمثل الأمم المتحدة. ويطلب مني أن أكون محايداً."

وقال أحمد حمزة: "محايداً؟ ما معنى محايد؟ هل أنت فلسطيني؟"

وقال جار الله: "نعم، أنا كذلك."

"وإذاً، فهل أقول أنا الحقيقة أم لا؟"

"إنك تقولها."

وحين مشى مبتعداً لاحظت انه كان يقود ابنه الذي تعثر.

وقال جار الله: "إنه الرمد الحبيبي (التراخوما) وقد أدى في الأيام الأولى إلى عمى المئات من الأطفال في المخيمات. وهو الآن تحت السيطرة."

وهطل المطر وضرب بقوة. وفي المبنى الأساسي الأول في المخيم، المبني من الإسمنت المسلح والبارد برودة لا تطاق حتى لكأن الجدران والأرضية فيه مصنوعة من الجليد، كانت هناك مجموعة من البنات دون سن العشرين يتعلمن الخياطة. وتجاهلتنا وجوههن، فقد أشفق عليهن الأجانب مرات كثيرة. ومع ذلك، فإن إحدى الفتيات تابعت عيني، ثم من دون إنذار وقفت وبدأت تصيح. وقامت الفتاة الجالسة إلى جانبها بشد وزرتها، وأنبتها همساً، ولكنها مع ذلك صاحت، وبكت، وتردد صدى صوتها المفعم بالألم المبرح في أرجاء الغرفة المتجمدة.

ووضع محمد جار الله معطفه الضخم حول كتفيها، وكأنه أراد أن يحميها من البرد. وقال وهو يهز رأسه: "آه، هذا صعب. وهي تسألك لماذا لا تستطيع أن تذهب إلى وطنها: إنها تقول: لماذا؟ لماذا؟ إنها في السادسة عشرة من عمرها وقد ولدت هنا. وكما تعرف، هذا هو المكان الوحيد الذي عرفته حتى الآن، وأشك، إن كانت قد ذهبت ولو إلى المسجد في القدس. ولكنها ما تزال

تعتقد أن هذا المكان ليس هو وطنها. وفي خيالها أنها تمتلك وطناً في مكان آخر."

وقمنا، أنا ودان هادارني، بقيادة سيارتنا ومتابعة مسيرتنا إلى رام الله، وهي على بعد بضعة أميال. وقد كانت رام الله، بأكثريتها المسيحية، هي المدينة الأم في الأرض المقدسة التي تم الاستيلاء عليها من الملك حسين ملك الأردن في حرب حزيران/يونيو السابقة، وكانت هناك أصوات من قبل في إسرائيل تزعم أن رام الله أرض إسرائيلية. وبالنسبة إلى سكانها الذين بلغ عددهم ستمائة ألف نسمة، كانت الضفة الغربية من الأردن هي بليستاين أو فلسطين، وهي الترجمة العربية لكلمة بلستينا الرومانية، على الرغم من أن بعض المؤرخين الإسرائيليين يصرون على أن الرومان فقط هم الذين استخدموا هذا الاسم ليمسحوا اليهودية من الخريطة. ومهما تكن المزاعم المتصلة بالكتاب المقدس مناسبة، فإن العرب الفلسطينيين كانوا هم الأكثرية المستمرة هنا، وكانوا يعيشون في الوديان الصوّانية ذات المدرجات المزروعة بأشجار الزيتون وبساتين البرتقال وكروم العنب التي ارتفعت فوقها المنارات وتحرك فيها الناس كالفراشات في الحقول، ولا يفتقدون إلا غابات البلوط، وكما يتفق اليهود والعرب، فإن الأتراك المدانين هم الذين قطعوا تلك الغابات.

في رام الله، كانت الساعة الكبيرة القائمة في ميدان المغتربين قد وقفت على الساعة العاشرة وسبع دقائق. ففي 6 حزيران/يونيو 1967، كانت هي أحد الأهداف الأولى التي أصيبت بالقذائف قبل ساعات قليلة من احتلال القوات الإسرائيلية للمدينة مقدمة لاحتلالهم الضفة الغربية. وكانت الشوارع الآن فارغة تقريباً. وفي طريق جانبي، كانت هناك أسرة مذهولة من الصدمة تحاول أن تتفحص خرائب بيتها الذي نسفه الإسرائيليون. وبدا الأمر وكأن "إرهابياً مشبوهاً" كان قد نام فيه. وكانت التدميرات هي المنظر المألوف في المدن والقرى في الضفة الغربية وفي غزة. لقد كان الفلسطينيون "مشبوهين" إذا كانوا سابقاً أعضاء في حزب سياسي، أو اتحاد عمالي، أو جمعية طلابية أو رابطة ثقافية، فجميع هذه النشاطات كانت محظورة.

وإذا تلفظوا بكلمة احتجاج ضد الاحتلال، فإن من الممكن أن يعتقلوا، أما الإضراب أو مجرد إغلاق متاجرهم الخاصة في أثناء ساعات العمل العادية فقد كان ممنوعاً. وقبل أن يحاكموا، بل قبل أن يتهموا، فإن عائلاتهم وفي الغالب جيرانهم، الناس الذين لم يكادوا يعرفونهم، وهم أبرياء في نظر السلطات نفسها، سيكونون قد عوقبوا عقوبات جماعية. وهم يجمعون في الشارع بغض النظر عن الساعة أو الطقس - النساء، والأطفال، والمسنون، والمرضى - ويحشدون ليشهدوا تدمير بيوتهم. وكان المقصود من ذلك أن يكون "درساً" لهم. وليس معروفاً إن كان الجنود اليهود الذين زرعوا المتفجرات قد فكروا في المفارقة الساخرة في أعمالهم، فإن شعوباً قليلة كانت قد رأت عقوبات جماعية أكثر مما رأى اليهود، لمجرد أنهم كانوا يهوداً. واليوم، إن مجرد كونك فلسطينياً يجعلك "مشبوهاً".

تحت الساعة المتوقفة في الميدان وخارج محل وكيل سفريات، كانت كلمة "إسرائيل"، على مجسم الكرة الأرضية الموجود في النافذة قد غطي تغطية حريصة بكلمة فلسطين، وكان هناك صف من الناس ممتد إلى الشارع. وكان هؤلاء المصطفون أناساً ذاهبين إلى أمريكا، وفي أمريكا جالية فلسطينية من حوالي خمسة آلاف نسمة. وقد سمح الإسرائيليون لهؤلاء أن يأخذوا نقودهم بالنقد الأجنبي على شرط أن يوقعوا على تصريح يفيد بأن رحيلهم كان طوعياً وأنهم لن يعودوا إلى بلدهم أبداً. وبموجب القانون الدولي، يعتبر هذا الإجراء غير قانوني، ولكن كلا الطرفين تآمر فيه، ومعظم الوجوه التي تقف في الصف استدارت بعيداً حين اقتربت منهم، كانت مرارتهم حقيقية ملموسة.

وسقنا سيارتنا جنوباً إلى أريحا، وهناك على بعد ميل من جدران أول مدينة في العالم، وهي الآن قد صارت كوماً من العصر الحجري الجديد الأنيق، هناك امتدت أضخم مدينة أشباح في العالم: وهي عقبة جبر، وكانت في السابق مخيماً لخمسة وعشرين ألف لاجئ جاؤوا من القدس، ومن الناصرة، ومن حيفا، وجميعهم هربوا في تدافع هلوع في ليلة 12 حزيران/يونيو في العام 1967، معتقدين أن تقدم الجنود اليهود نحوهم سوف يؤدي إلى مجزرة في صفوفهم. ومع الفجر في اليوم التالي

كانوا قد ذهبوا من المخيم، الخمسة والعشرون ألفاً كلهم، ذهبوا عبر جسر أللنبي إلى ما تبقى من المملكة الهاشمية الأردنية. ذهبوا كلهم ما عدا واحداً.

كان هو رئيس بلدية المخيم، وقد اقترب مني وهو يمشي منتصب القامة قاسي الظهر وقد وضع على كتفه عصا مكنسة وكأنها كانت بندقية. وطوال هذه الشهور العشرة مشى عبر الشوارع الفارغة، يحرس البيوت الفارغة بمكنسته، ويصيح مصدراً الأوامر إلى لا أحد. وكان الاضطراب العنيف في تلك الليلة، والذي سببه الخوف المعدي، قد ترك ذلك الرجل على ما يبدو على هذه الحال.

داخل البيوت ذات الجدران الطينية لم يطرأ أي تغيير منذ ليلة 12 حزيران/يونيو. لقد ترك الإسرائيليون المخيم مثلما وجدوه، ويعودون فقط لكنس الشوارع من أجل الألغام. في أحد البيوت كان هناك سرير أطفال، عمل سلال غير منتهٍ، وطاولة ممدودة. وفي بيت آخر دفتر صور تذكارية لزواج ملقى وهو مفتوح، ربما يكون سقط في الزحام، وقد أطل وجهان خجولان، باسمان، وإلى جانبهما نسخة من كتاب الخطوات الأولى في قواعد اللغة الإنجليزية ترفرف صفحاته، والأبواب مشرعة تفتحها وتغلقها ريح تنزلق بعيداً على التلال الوعرة، والذباب يهتز فوق علب الخميرة التي تقول الملصقات عليها إنها كانت "منحة من الشعب الأمريكي، لا يجوز بيعها أو تبديلها."

في مقالة "المحرَّم الأخير"، وهي مقالة نشرها إدوارد سعيد المولود في فلسطين قبل موته بقليل كتب يقول: "استئصال الأمريكيين المحليين أمر يمكن الإقرار به، وأخلاقيات هيروشيما يمكن مهاجمتها، والعلم القومي [للولايات المتحدة] يمكن وضعه علناً في اللهب. ولكن الاستمرارية المنهجية للاضطهاد الإسرائيلي طوال 52 سنة وسوء المعاملة الإسرائيلية للفلسطينيين هي فعلياً أمر غير قابل للذكر، ورواية ليس لها إذن في أن تظهر."[1]

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا الفصل، يجتمع حشد من زعماء العالم في زيارة متحف تاريخ المحرقة في ياد فاشيم في إسرائيل. "وإن الحج الذي يقوم به عدد

كبير من الزعماء الأوروبيين إلى القدس"، كما روت الصحافية الإسرائيلية أميرة هاس:

يبين أنهم لا يرتدعون بالنقد الموجه إلى إسرائيل – إنهم يشاركون في حدث إعلامي لا يمكن أن يفسر إلا بوصفه دعماً فقط لإسرائيل ... وفي أحسن الأحوال، يمكن رؤية الزيارة بوصفها تشجيعاً لكلا الطرفين ليلتزما "بعملية السلام المتجدّدة". ولكن تشجيعاً من أجل ماذا؟... من أجل حاجز الفصل، الذي يستمر إنشاؤه بقوة، خلافاً لحكم محكمة العدل الدولية؟ من أجل السحق المستمر للقدس الشرقية الفلسطينية وفصلها عن بقية الأرض الفلسطينية، خرقاً للمطلب الدولي بأن تخدم القدس الشرقية لتكون عاصمة دولة الفلسطينيين؟ هل وزير الخارجية الألمانية، ورئيس الوزراء الهولندي، ورئيس الوزراء السويدي بعد أن يرسموا إشارة الصليب على أنفسهم ويبرهنوا أنهم يتذكرون المحرقة – هل يخططون أن يذكروا إسرائيل أن كل المستوطنات [اليهودية] وليس فقط المخافر الأمامية، هي كلها غير شرعية؟ هل سيطلبون من إسرائيل أن تخليها؟ ومن هو من المشاركين في الاحتفال الذي سيذهب ليرى الطرق الخاصة لليهود فقط وللفلسطينيين فقط؟ هل سيحتج أي واحد منهم على قوانين التمييز ضد المواطنين الإسرائيليين، لأنهم فقط غير يهود – عرب – ويهدد بفرض عقوبات إلى أن تلغى هذه القوانين؟

ثم خاطبت "الذكرى المتلاشية" للمحرقة. فكتبت تقول إن الذكرى تسترجع:

لا مع مجرد النصب التذكارية والاحتفالات، بل تسترجع بشكل رئيسي مع الرفض الذي لا يقبل المهاودة لإيديولوجية العرق السيد التي قسمت العالم إلى أعراق أعلى وأعراق أدنى... نحن [اليهود] وضعنا في قاع السلم في الإيديولوجية النازية. هل كانت هذه الإيديولوجية ستكون غير مجرمة لو أننا وضعنا في رتبة هي في الدرجات العالية؟[2]

إن أميرة هاس هي واحدة من مجموعة صغيرة بارزة من إسرائيليين جديرين بالإشادة جعلت الفلسطينيين قابلين للذكر في إسرائيل. ففي العام 1993، فعلت ما

لم يفعله صحافي إسرائيلي من قبل أبداً: لقد ذهبت لتعيش وتكتب التقارير من بين الناس في قطاع غزة، وهي "السجن المفتوح" الذي تبلغ مساحته 147 ميلاً مربعاً، والذي يجبر فيه مليون وربع المليون من الفلسطينيين على العيش في ظروف معدمة.

وبالنسبة إلى معظم الإسرائيليين فإن غزة، مثلها مثل الضفة الغربية، أرض غير معروفة، أرض تفريخ للإرهاب وللتطرف الإسلامي. وطوال ثلاث سنوات عاشت أميرة بين الفلسطينيين في غزة، بين سائقي سيارات الأجرة، والفلاحين، والأطباء، وربات البيوت، والنشيطين وقادة الإسلاميين. وفي رسالة يومية إلى جريدتها ها أرتز، أضاءت بوضوح عالماً حرم فيه الناس العاديون من الحريات الشخصية والاقتصادية الأساسية، وحرموا العدالة والكرامة، وكانوا فيه يتعرضون للإرهاب من جنود هم أفضل جنود العالم تجهيزاً ومن بيروقراطيين غير منظورين: وهم حامي هذا، وضابط ذلك. ووصفت كيف أن طبيباً في غزة:

لم يستطع أن يحصل على إذن لمرافقة أمه المريضة مرضاً في مراحله النهائية إلى المستشفى... لقد ماتت وحيدة. ولم يسمح لأخي الطبيب أن يغادر الضفة الغربية ليحضر جنازة أمه في غزة... وقد ارتبط شاب من مخيم اللاجئين في المغازي مع امرأة من مخيم الجلزون في الضفة الغربية ولم يكن قادراً على أن يزورها طوال خمسة أشهر. وشاب آخر، كانت خطيبته في الأردن، حرم من الحصول على إذن بالسفر... وزوجان يخضعان لمعالجة تتصل بالخصوبة... تسلما إذناً واحداً بالسفر ليوم موعدهما – للزوجة فقط.[3]

حين قابلت أنا أميرة لأول مرة، كانت مهتمة تود أن تشرح كيف أن غزة كانت باعثة لذكريات الماضي اليهودي. وقالت: "إن رغبتي في أن أعيش هناك، نشأ من الرعب من أن تكون متفرجاً." ووصفت لي اللحظة التي فرض فيها على أمها، حنه، أن تمشي من قطار المواشي إلى معسكر الاعتقال في بيرجن – بيلسن في يوم صيفي في العام 1944. "كانت هي والنساء الأخريات قد بقين عشرة أيام في القطار القادم من يوغوسلافيا. كن مريضات وبعضهن كن يلفظن أنفاسهن. ثم رأت أمي هؤلاء النساء الألمانيات وهن ينظرن إلى السجينات، مجرد نظر. هذه الصورة صارت

ذات أثر تكويني في نشأتي، هذا (النظر بمؤخرة العين) النظر الشزر الذي يستحق الاحتقار".

بقي والدا أميرة على قيد الحياة وقدما إلى إسرائيل، وقالت لي: لقد عرض عليهما بيت عائلة فلسطينية في القدس ولكنهما رفضاه "بسذاجة". وقالا: نحن لا نستطيع أن نأخذ بيت لاجئين آخرين." لقد انتقل تصميمهما الأخلاقي إلى ابنتهما. إن أميرة هاس في نظر بعض قرائها خائنة، بل هي أسوأ. وقالت لي: "أنا أتسلم رسائل تقول لابد أني كنت كابو في أول خلقي. [والكابو هو مراقب يهودي كان يعينه النازيون على المعسكر]"*

في العام 2002، ألهمني كتابها، شرب البحر في غزة: أيام وليال في أرض تحت الحصار، أن أعود إلى فلسطين وأعمل تكملة لفلمي الوثائقي الذي أخرجته في العام 1974، فلسطين ما زالت هي القضية. وهاتفتها من لندن، وكانت هي في رام الله تغطي "عملية الدرع الدفاعي"، وهي الهجوم الجبهي الذي قام آرييل شارون على مدن الضفة الغربية في شهري آذار/مارس ونيسان/ إبريل في ذلك العام. وقد أجرينا محادثتنا وهي تجثم على أرض بيت مع وجود إطلاق نار في خلفية المكان.

وقالت: "إن خرجت فسيقتلني الجيش."

"ولكنك إسرائيلية."

"لا يشكل ذلك فرقاً. كل إنسان هنا هدف."

وصلت إلى الضفة الغربية سريعاً بعد ذلك. وكان الجيش الإسرائيلي قد هاجم قبل قليل مخيم اللاجئين في جنين، باستخدام خمسين دبابة، والجرافات المدرعة، والطائرات العمودية المسلحة، والمقاتلات القاذفة اف 16. وفي كل يوم طوال أسبوع، أطلقت طائرات اف 16 ما متوسطه 250 صاروخاً ضد مساحة هي أقل من ميل مربع

---

* الكابو تعبير استخدمه النازيون في معسكرات الاعتقال لتسمية السجين الذي كانت تختاره قوات الأمن ليكون رئيس عصابة عمل مكونة من سجناء آخرين يختارون عادة من المجرمين. وكان الكابو يعاملون معاملة أفضل، وكثيرا ما عاملوا السجناء الآخرين بوحشية.(المترجم)

واحد من الأكواخ التي تؤوي خمسة عشر ألف نسمة، نصفهم من الأطفال. وقد قتل أربعة وخمسون شخصاً وجرح المئات من الناس. والذين دافعوا عن المخيم قلة من عشرات الرجال المسلحين بالبنادق وبمصائد المغفلين البسيطة الصنع. وقد قتلوا ثلاثة وعشرين جندياً إسرائيلياً. وهذه المقاومة، وتكلفتها الدموية للجيش الغازي، أهاجت شارون بالغضب الشديد. وقد وصف المدافعين بأنهم "إرهابيون"، ووافق على تدمير بيوت أربعة آلاف لاجئ، وبعض البيوت دمرت وسكانها في داخلها.

وقد تم جمع آلاف الرجال الفلسطينيين وقد خطفوا في الواقع. والعديد من الفلسطينيين، وفق ما تقول منظمة العفو الدولية، قد "عذبوا منهجياً."[4] وتقول منظمة العفو: إن إسرائيل "هي البلد الوحيد على سطح الأرض التي يعتبر فيها التعذيب وسوء المعاملة جائزاً قانونياً." وفي جنين، فإن اللاجئين الذي كانوا بلا مأوى أجبروا ثانية أن يكونوا بلا مأوى: وبالنسبة إلى بعض المسنّين، كانت تلك هي المرة الخامسة لهم منذ النكبة، أي "الكارثة"، تأسيس إسرائيل في 14 أيار/مايو 1948. لم يكن يوجد إلا القليل فقط من الطعام والماء، ولا طاقة ولا مساعدة طبية طارئة، وتعرض الأجانب المتطوعون الذين حاولوا أن يدخلوا جنين لإطلاق النار عليهم، وكان إيان هوك، وهو بريطاني عمره 54 عاماً يعمل مع الأنروا، قد أطلقت عليه النار في ظهره وترك ينزف حتى الموت في الوقت الذي كانت سيارة الإسعاف تحمله وكان الجيش الإسرائيلي يؤخرها.

في وسائل الإعلام الإسرائيلية، كان هناك سخط غاضب من الاتهامات في الخارج بوجود مجزرة. وقد كتب مراسل لندن لجريدة هاآرتز إلى الغارديان ليشتكي، ونوقشت تعاريف "المجزرة" على أعمدة الرسائل. لقد قتل المدنيون بدم بارد، ومن جملتهم أطفال اغتالهم القناصون العسكريون وسحق رجل معوق إعاقة شديدة في بيته بالجرافة برغم التحذير من أنه كان في الداخل (انظر الصفحة 75)، ولكن هذه القضايا لم تناقش. ومثل هذه التفاصيل كانت شديدة الوحشية ولو لأولئك الذين كان يعتبر رد فعلهم الدفاعي عن إسرائيل في السابق رداً لا يمكن أن يدحض.

وفي الوقت الذي كان هدف الجنرال شارون المصرح به من مهاجمة الضفة الغربية هو "سحق البنية التحتية للإرهاب"، فقد كان هدفه الحقيقي هو أن يُعلَم بشكل لا يُمحى حدود محيط دولته القائمة على التمييز العنصري وحدود مستعمرتها. هل ستبرهن جنين على تدميره؟ للحظة، بدا "المجتمع الدولي" وكأنه سيقف لإسرائيل. وفي جنيف، بدأت هيئة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان تجمع الأدلة، وكان أول شاهد هو ممثل منظمة العفو الدولية، وقد تحدث بغضب علني تتجنب تلك المنظمة عادة إظهاره.

وقال: "خروقات خطيرة لمواثيق جنيف." اقترفتها السلطات الإسرائيلية كل يوم، وكل ساعة لا بل كل دقيقة ضد الفلسطينيين. وقد نفذت القوات الإسرائيلية تنفيذاً منتظماً أعمال القتل من دون أن تكون أي أرواح معرضة للخطر. وتم التدمير المنهجي لأكثر من 600 بيت فلسطيني، وهو الأمر الذي جعل الآلاف بلا مأوى، والأغلبية العظمى من الأطفال... وقد حققت بعثات العفو الدولية في الهجمات الحديثة التي قام بها الجيش الإسرائيلي على المدن، ومن جملتها مخيمات اللاجئين. وفي كل مرة دخلت فيها الدبابات إلى المنطقة، تحركت فوق السيارات، ومشت فوق الجدران، وحطمت البيت وواجهات المحلات... واستخدمت النيران الكثيفة ضد مناطق سكنية مكتظة بالسكان... وقد قطعت خدمات الكهرباء، والماء، والهاتف... وهي معاملة كان القصد منها على ماهو ظاهر إيذاء السكان والحط من قدرهم، وقام الجنود الإسرائيليون الذين احتلوا الشقق السكنية بتدنيسها بشكل منهجي. وقتلت [القوات] ستة من المساعدين الطبيين، ومن جملتهم طبيبان. وأطلقت النار إطلاقاً منتظماً على سيارات الإسعاف ومن بينها سيارات الإسعاف التابعة للجنة الدولية للصليب الأحمر.

ودعا إلى "إنهاء شلل المجتمع الدولي" في حماية الحياة في فلسطين.[5]

وقد أدانت مجموعة الأمم المتحدة، التي مثلت ثلاثاً وخمسين حكومة، إسرائيل لقيامها "بالقتل الجماعي" للفلسطينيين و"الخروقات الفاضحة"، للقانون الإنساني، وأكدت "الحق المشروع للشعب الفلسطيني في المقاومة". وأقر القرار

بأكثرية أربعين صوتاً ضد خمسة، مع امتناع سبعة عن التصويت، ومعظم دول الاتحاد الأوروبي صوتت لصالح القرار. وكانت مسودة أقوى قد ساوت "إرهاب الدولة" من إسرائيل مع "إرهاب" الفلسطينيين المتفجرين الانتحاريين. ولم يكن حذف كلمات "إرهاب الدولة" كافياً للحكومة البريطانية التي طالبت، في تصويتها ضد القرار، أن يعمل المزيد ضد الهجمات الانتحارية الفلسطينية، التي "استفزت"، الهجوم الإسرائيلي "وأطلقت دائرة العنف."[6]

إن بريطانيا هي المهندس الرئيسي في الكارثة التاريخية لفلسطين. ففي العام 1917، وكانت عين بريطانيا على تأسيس دولة عميلة لها في الشرق الأوسط لمراقبة قناة السويس والطرق التجارية لبريطانيا إلى الهند، وعد وزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور بقيام "وطن قومي للشعب اليهودي" في فلسطين، مضيفاً، "لن يعمل أي شيء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة." ويرى بعض المؤرخين هذا الوعد بوصفه أعظم نصر حققته جماعة الضغط (اللوبي) الصهيونية.

واليوم، يُلزم وعد بلفور الحكومة البريطانية بمسؤولية خاصة لتفي بالتزامها، والتزامات الذين سبقوها منذ العام 1967، لتدعم العمل الدولي الهادف إلى إنهاء احتلال إسرائيل غير الشرعي للضفة الغربية وغزة. إن البيانات الصادرة عن طوني بلير ووزير خارجيته جاك سترو، تعطي باستمرار هذا الانطباع. ففي العام 2001 ومرة أخرى في العام 2005، عقد بلير "مؤتمرات دولية" ترافقها دعاية مفرطة عن فلسطين في لندن. وكلا الحدثين لم ينتج أي شيء ذا قيمة. وكانا عملين معوقين من أعمال العلاقات العامة التي أعطت بلير عناوين عريضة "لصانع السلام" الزائف، وهو الذي أخذ بريطانيا إلى الحرب أكثر من أي رئيس وزراء حديث آخر. وهناك أمر أكثر أهمية من ذلك، هو أنهما أخفيا حقيقة أن الدعم البريطاني للقمع الإسرائيلي كان يتسارع سراً.

إن فهم هذا الخداع حيوي في تقدير مدى الظلم الذي وقع على الفلسطينيين: وهو ما دعاه نلسون مانديلا "أكبر قضية أخلاقية في عصرنا." ففي شهري

أيار/مايو وتموز/يوليو من العام 2001، كشف التقرير الخارجي من جينز أن بريطانيا وفرنسا أعطتا إسرائيل "الضوء الأخضر" لمهاجمة الضفة الغربية. وقد عرضت على حكومة بلير خطة تعتبر من الأسرار العليا من أجل القيام بغزو كل من الضفة الغربية وغزة بكل قوة وإعادة احتلالهما، وهما اللتان كانتا آنئذ تداران من السلطة الفلسطينية، سلطة ياسر عرفات، بتسامح على مضض من الإسرائيليين. وكانت الخطة تقضي باستخدام "أحدث نفاثات اف – 16 واف – 15 ضد كل المنشآت الرئيسة للسلطة الفلسطينية [و] 30.000 ألف رجل أو ما يساوي جيشاً كاملاً." ولكن هذه الخطة كانت تحتاج إلى "الزناد" من تفجير انتحاري يسبب "العديد من الوفيات" والإصابات [لأن] "الانتقام" عامل حاسم. وهذا "سوف يدفع الجنود الإسرائيليين إلى تدمير الفلسطينيين."[7]

والأمر الذي كان قد نبّه شارون ودائرته الداخلية، وبشكل ملحوظ مؤلف الخطة، العميد شاؤول موفاز، رئيس الأركان الإسرائيلي، هو اتفاق سري عقد بين عرفات وحماس، المنظمة الإسلامية المسؤولة عن عدد من الهجمات الانتحارية، يقضي بأن تتوقف هذه الهجمات. فبعد 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، قلق شارون ونظام حكم الليكود من أن "حل" الشرق الأوسط سيكون منتجاً فرعياً لحرب أمريكا المسكوكة حديثاً، أي، "الحرب على الإرهاب"، وخصوصاً حين نطق جورج دبليو. بوش فجأة بكلام لا علاقة له بما سبقه، وهو أن بوش كان دائماً قد ساند "الحلم" بدولة فلسطينية. كان لا بد من عمل شيء.

في 23 تشرين أول/نوفمبر من العام 2001، اغتال عملاء إسرائيليون قائداً من حماس، وهو محمود أبو هنود. وبعد اثني عشر يوماً، جاء رد الفعل الحتمي في هجمات انتحارية منسقة ضد إسرائيل. وقد كتب أليكس فيشمان، وهو كاتب استخبارات على اتصال جيد بالصحيفة الإسرائيلية اليومية يديعوت أحرونوت، يقول: "كائناً من كان هو الذي قرر تصفية أبو هنود، فقد كان يعرف سلفاً أن ذلك سيكون هو الثمن، وكائناً من كان الذي أعطى الضوء الأخضر للقيام بهذا العمل، فقد كان يعلم علماً كاملاً أنه بفعله ذلك كان يمزق، بضربة واحدة،

اتفاق كلمة الشرف (الجنتلمان) الذي عقد بين حماس وبين السلطة الفلسطينية [التي] ما كانت لتوقع نفسها بيد إسرائيل وتعطيها الفرصة لتقوم بتوجيه الهجمات الجماعية على مراكز سكانها."[8]

وعند صدور إشارة البدء، وفي غضون أسابيع هاجم الجيش الإسرائيلي الأراضي المحتلة بقوة غير مسبوقة. وبالنسبة إلى موفاز، الذي كان يعرف أن عرفات كان يكافح من أجل الوصول إلى تسوية متفاوض عليها، فإن هذا "النصر" سوف يثأر لما رآه انسحاباً مخجلاً لإسرائيل من لبنان.[9] وكانت النتيجة تقريباً تدمير السلطة الفلسطينية وقاعدة عرفات السياسية. وأصدر نظام حكم بوش البيان المسكن المعتاد حول "إنهاء العنف" ووضع المسؤولية على عرفات. وأما بلير "صانع السلام" فلم يقل شيئاً.

كان الاقتحام وحشياً. وحين وصل موفد الأمم المتحدة إلى الشرق الأوسط، تيري رود لارسون، وسمح له الإسرائيليون أخيراً أن يدخل إلى جنين، وصف ما رأى بأنه "فصل محزن ومخز في تاريخ إسرائيل." وقال إن الجيش الإسرائيلي قد منع العون الإنساني من الدخول إلى المخيم، ومن جملته قوافل الطعام. وطالب لارسون، مع وزراء خارجية أربع حكومات أوروبية، بتحقيق دولي.[10] وكان الأوروبيون صرحاء على غير المعتاد (باستثناء بريطانيا) إلى درجة أن القرار رقم 1405 أقر بسرعة من مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وأنشأ فريق تحقيق من "خبراء متميزين" مع تعليمات بكشف الحقيقة بشأن جنين.

طوال خمسة وثلاثين عاماً، حرك الإسرائيليون واشنطون تحريكاً ناجحاً ليجعلوها تضمن أن الوكالة الوحيدة من الأمم المتحدة التي يسمح لها بالدخول إلى الضفة الغربية وغزة كانت هي الأنروا المفقّرة، والتي كان العون الإنساني هو بشكل صارم ما تتعامل به. وحين استعد فريق الأمم المتحدة ليطير إلى جنين، قابل كوفي عنان، أمين عام الأمم المتحدة، مسؤولين كباراً أمريكيين وقام بعد ذلك بإلغاء التحقيق بسبب "رفض الحكومة الإسرائيلية أن تتعاون." إن كون الفظاعة الوحشية قد وقعت في مكان خارج إسرائيل، وفي أرض محتلة احتلالاً غير شرعي، لم يكن على ما يظهر عاملاً يؤخذ بالاعتبار.

لقد كانت الأمم المتحدة في أجبن موقف لها، وعنان يؤكد دوره بصفته موظفاً حكومياً لدى الولايات المتحدة الأمريكية. واتضح العار في شهر تشرين الثاني/نوفمبر الثاني حين نشرت منظمة العفو الدولية ما وصفته بأنه أكمل تحقيق لها أجرته في أي مكان. وبشكل فوق العادة، دعت منظمة حقوق الإنسان الحكومات التي كانت موقعة على مواثيق جنيف إلى أن تطبق المحاكمة على الجنود الإسرائيليين "المسؤولين عن جرائم الحرب" في جنين. وكانت تلك الجرائم: القتل غير المشروع، واستخدام المدنيين دروعاً بشرية، ومنع المساعدة الطبية عن المصابين بجروح، وتعذيب السجناء، والتدمير الوحشي لأربعة آلاف بيت مات فيها كثيرون في أثناء تدمير البيوت بالجرافات.

واستشهدت المنظمة بقضية جمال فايد، وهو رجل معوق إعاقة شديدة وعمره 38 سنة. وقالت منظمة العفو، إن عائلته:

قد أبرزت هويته للجنود، الذين كانوا يعدون لتدمير بيته، وذلك ليبرهنوا لهم أنه كان مشلولاً، وأنه لم يكن يستطيع أن يخرج من البيت من دون مساعدتهم. ورفض الجنود أن يساعدوه وبعد قليل اقتربت الجرافة من البيت. وصاحت الأسرة على السائق ليتوقف. ولم يتوقف، وكان جمال فايد مازال محصوراً في الداخل، فقتل.

ووصفت منظمة العفو كذلك كيف أن ولدين، أحدهما عمره ست سنوات، والآخر عمره اثنتا عشرة سنة، كانا قد قتلا بنيران دبابة إسرائيلية وهما ذاهبان لشراء الحلوى بعد أن كان الجيش الإسرائيلي قد أعلن أن منع التجول قد رفع. وقد تجاهلت الحكومة الإسرائيلية منظمة العفو، مثلما سبق لها أن طردت الأمم المتحدة.[11]

ليس هناك بلد آخر على وجه الأرض يتمتع بمثل هذه الحصانة، التي تسمح لها أن تتصرف من دون عقوبة، مثل إسرائيل. وليس هناك أي بلد آخر يمتلك مثل هذا السجل من الخروج على القانون: وليس هناك واحدة من الحكومات الاستبدادية في العالم تقترب من سجل إسرائيل.إن إسرائيل هي بطل العالم غير المنازع الخارق للقانون الدولي — وهو قانون تأسس نتيجة لجرائم مقترفي المحرقة اليهودية.

إن إسرائيل التي كانت قد ولدت استهانة بالقرار (46) من مجلس الأمن في الأمم المتحدة وهو القرار الذي طالب اليهود والعرب أن "يمتنعوا... عن أي نشاط سياسي يضر بالحقوق، أو بالمطالب أو بموقف كل مجتمع،" إن إسرائيل هذه قد تحدت منذ ذلك الوقت 246 قراراً لمجلس الأمن وأكثر من ضعف هذا الرقم من قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة.[12] إن حق الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم، وهو الحق المقدس المعزز بقرار الأمم المتحدة رقم 194، كما تقول إحدى الدراسات: "قد أعيد تأكيده من المجتمع الدولي 135 مرة في المدة بين الأعوام 1948 – 2000. ليس هناك شيء مثله في تاريخ الأمم المتحدة، وهو ما يرفع هذا القرار من (توصية) إلى تعبير عن الإرادة المصممة للمجتمع الدولي."[13]

وتحدت إسرائيل الأمم المتحدة في كل مرة. وكلمات هذا القرار وغيره من القرارات مشابهة شبهاً لافتاً للنظر لكلمات قرار مجلس الأمن الذي اتخذ في العام 1990 مطالباً بخروج صدام حسين من الكويت. وحين لم يخرج، هوجم بقوةٍ قادتْها أمريكا وخربت البنية التحتية لبلده. وحين تتجاهل إسرائيل بانتظام أوامر الأمم المتحدة للخروج من الأراضي الفلسطينية التي تحتلها احتلالاً غير شرعي ووحشي، فإنها تكافأ بالهبات السخية وبالأسلحة من الولايات المتحدة وبريطانيا. في عام واحد، هو العام 2003، طلبت إسرائيل من الولايات المتحدة 8 بلايين دولار في ضمانات قرض. وكان المسؤول الإسرائيلي الذي أرسل إلى واشنطون ليفاوض عن هذه الضمانات هو آموس يارون، وهو الذي كان القائد العسكري في بيروت في العام 1982 حين حدثت المجزرة التي قتل فيها عدة آلاف من الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا. وقد منحت له الأموال المطلوبة.

هذا الخروج المقبول على القانون منسوج في بنية إسرائيل. لقد وجدت حالات كثيرة مثل جنين. ففي عشية تأسيس دولة إسرائيل في العام 1948، قامت عصابات الأرغون وشتيرن، وهما مجموعتان إرهابيتان يهوديتان، بمجزرة قتلوا فيها 250 مدنياً، ومن بينهم أكثر من مائة من النساء والأطفال، في مدينة دير ياسين الفلسطينية. وقد بقي منهم على قيد الحياة خمسة وعشرون نسمة فاقتيدوا لاستعراضهم في شوارع القدس الغربية

اليهودية ثم أخذوا إلى مقلع حجارة وقتلوا، في الوقت الذي تم طرد الآخرين ممن بقوا على قيد الحياة من بيوتهم.[14] مثل هذه الفظاعات الوحشية كانت شائعة – وكانت تعتبر، في الحقيقة، عمليات أساسية في إرغام الفلسطينيين على الفرار من أرضهم – على الرغم من أن القيادة الصهيونية في فلسطين قبل قيام إسرائيل كانت تريد من العالم أن يصدق أن تلك الفظاعات الوحشية كانت من عمل "المنشقين."

في العام 1948، كان هناك "منشق" رئيسي هو مناحيم بيغن، وهو تابع للصهيوني المتطرف زئيف جابوتنسكي الذي كان يعتقد بالحق اليهودي بكل الأرض التي يحددها الكتاب المقدس لإسرائيل "من النيل إلى الفرات."[15] وفي العام 1941، اقترح نائب بيغن، إسحق شامير، أن تقوم عصابة شتيرن بالتعاون مع النازيين للمساعدة على هزيمة البريطانيين، وأرسل رسالة تعبر عن تعاطفها مع "التصور الألماني" من أجل "نظام جديد لأوروبا" وتعرض القيام بحماية مصالح النازيين في الشرق الأوسط.[16] وبعد أن أعلنت عصابة الأرغون خارجة عن القانون، أسس بيغن حزب حيروت، وهي منظمة شجبها ألبرت أينشتاين واليهود البارزون الآخرون بوصفها "قريبة قرباً حميماً في تنظيمها، وطرائقها، وفلسفتها السياسية، وجاذبيتها الاجتماعية إلى الأحزاب النازية والفاشية."[17]

واستمر بيغن وشامير كلاهما في العمل إلى أن قادا حزب الليكود وصارا رئيسي وزراء. وفي العام 1982، شن بيغن غزواً دموياً على لبنان، وانتهى إلى موت ثمانية عشر ألف شخص، معظمهم من اللاجئين الفلسطينيين.[18] وعن الهجوم على المدنيين، ومن جملته القصف المستمر بالقنابل لبيروت وإشباع جميع مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الكبيرة، الموجودة في جنوب لبنان، بقصفها بالقنابل قصفاً ساحقاً، قال بيغن: "لا تساورني أدنى شكوك ولا للحظة واحدة في أن السكان المدنيين يستحقون العقاب."[19] ووصف الفلسطينيين بأنهم "وحوش برجلين اثنتين."[20] وبالنسبة إلى المجزرة التي وقعت في صابرا وشاتيلا في بيروت، واعتبر الإسرائيليون مسؤولين عنها، استبعد بيغن هذا العار بوصفه معاداة للسامية من "الغوييم"، وهو التعبير التحقيري الذي يطلقونه على غير اليهود.[21]

وأشهر منشق هو آرييل شارون، ففي وقت كتابة هذا الكتاب ما زال هو رئيس الوزراء الحالي لإسرائيل، على الرغم من أنه مريض مرضاً خطيراً بعد إصابته بالجلطة. ففي العام 1953، كان شارون آمراً للوحدة 101 من الجيش الإسرائيلي، وكانت "مهمته" القيام "بتنفيذ أعمال انتقامية عبر حدود الدولة." وفي عمليتها الأولى، في آب/أغسطس من العام 1953 قتلت الوحدة عشرين لاجئاً في مخيم البريج، في غزة، ومن بينهم سبع نساء وخمسة أطفال. وفي ليلة 14 تشرين الأول/أكتوبر، ألقى شارون الحصار على قرية قبية. وكانت الأوامر لديه من القيادة المركزية هي "مهاجمة القرية واحتلالها احتلالاً مؤقتاً، والقيام بالتدمير وبأقصى عمليات القتل، وذلك من أجل طرد سكان القرية من بيوتهم." وأصدر تلك الأوامر إلى رجاله بهذه الكلمات: "الهدف: مهاجمة قرية قبية (هكذا)، واحتلالها وإحداث أقصى ضرر للحياة وللممتلكات، ووقعها الرائد آرييل شارون." والتأكيد الموضوع على الوثيقة الأصلية هو تأكيد منه هو. وقد قتل تسعة وستون مدنياً، والأكثرية منهم كانت من النساء والأطفال. ونتيجة لذلك، صوت مجلس الأمن في الأمم المتحدة ليسجل "أقوى زجر" يلوم إسرائيل.[22]

ومثل مصير كل القرارات الأخرى، كان مصير هذا القرار التجاهل – على الرغم من أمر فوق العادة، وهو أن وزارة خارجية الولايات المتحدة عبرت عن "أعمق تعاطفها" مع الضحايا وطالبت بأن أولئك المسؤولين عن المجزرة "يجب أن يجلبوا للمساءلة."[23] كان شارون حينذاك سيئ السمعة. وفي العام 1971، دمرت قواته ما يقارب ألفي بيت في قطاع غزة، فاقتلعت بذلك اثني عشر ألف فلسطيني ورحلت المئات إلى المنفى في الأردن، وفي لبنان، وفي سيناء التي كانت تحتلها إسرائيل.[24]

وفي شهر حزيران/يونيو من العام 1982، أمر الجنرال شارون، وكان حينذاك وزيراً للدفاع، بغزو لبنان لتدمير "البنية التحتية الإرهابية" لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي كانت تتمركز في بيروت. وكان هذا الغزو حدثاً مروعاً، قاتلاً. وقد ألقى الإسرائيليون الحصار على بيروت الغربية الإسلامية، وقطعوا الماء، والكهرباء وإمدادات الطعام وقصفوا المدينة بالقنابل، واستخدموا القذائف الفسفورية والقنابل

العنقودية التي زودهم بها الأمريكيون في الشوارع المكتظة بالسكان. وفي أثناء أول أسبوعين قتل ما يقدر بأربعة عشر ألف فلسطيني ولبناني وجرح عشرون ألفاً، وكانت الأكثرية الساحقة منهم من المدنيين. ووفقاً لصندوق الامم المتحدة لرعاية الأطفال (اليونسيف)، فقد قتل عشرة أطفال في مقابل كل مقاتل فلسطيني.[25]

وفي شهر أيلول/سبتمبر، قررت منظمة التحرير الفلسطينية أن تخلي بيروت، وتحت إشراف قوة دولية أركب آلاف من المقاتلين الفلسطينيين على ظهر سفينة كانت ستأخذهم إلى بلدان عربية أخرى، في الوقت الذي تبقى فيه نساؤهم وأطفالهم خلفهم. ومع اكتمال الإخلاء، زعم شارون أن "2000 من الإرهابيين" بقوا في مخيمات اللاجئين، من دون أن يقدم أي دليل، وأمر "بتطويق وإغلاق" مخيمي صبرا وشاتيلا. وفي 16 أيلول/سبتمبر، سمح شارون للكتائب، الذين كانوا قد تدربوا تدريباً فاشيستياً، وكانت إسرائيل قد سلحتهم ودفعت لهم، ولهم تاريخ من الوحشية والبغضاء مع الفلسطينيين، سمح لهم بدخول هذين المخيمين. وقد قاموا بالقتل المنهجي للشيوخ، وللنساء، وللأطفال.[26]

واستغرقت المجزرة أقل بقليل من أربعين ساعة. وكان الكتائب على اتصال مستمر مع الإسرائيليين، الذين كانوا يستطيعون رؤية داخل المخيمين من برج المراقبة ومن طلقات الإنارة التي أطلقت لتضيء طرق التقدم لعملائهم، في الوقت الذي كان الإسرائيليون فيه يجبرون اللاجئين الفارين على العودة إلى المخيمين. قال الإسرائيليون إن القتلى 700، وترتفع تقديرات أخرى إلى 3.500، ويحتمل أن الرقم الحقيقي 1700قتيل[27].

وكان روبرت فيسك من التايمز واحداً من أوائل من دخلوا مخيم شاتيلا بعد أن كان القتلة قد غادروا. وقد استذكر التجربة في كتابه ارحموا الأمة. وكتب يقول: في كل مرة خطوت فيها خطوة "تحركت الأرض نحوي. وتحرك سد حاجز من القذر والطين كله واهتز من وزني بطريقة مرعبة، نابضية، وحين نظرت إلى الأسفل ثانية، رأيت أن الرمل المكوم لم يكن سوى غطاء خفيف فوق المزيد من الأطراف والوجوه الآدمية. وتبين أن حجراً كبيراً لم يكن إلا معدة.

كنت أستطيع أن أرى رأس رجل، وصدراً عارياً لامرأة، وأقدام طفل. كنت أمشي على عشرات الجثث التي كانت تتحرك تحت أقدامي... كانت العائلات قد أوت إلى غرف نومها حين جاء المسلحون من خلال الباب الأمامي وكانوا هناك يتمددون... العديدات من النساء اغتصبن، وكانت ملابسهن ملقاة حول أرض الغرفة، وأجسادهن العارية مرمية فوق أزواجهن أو إخوانهن، وكلهم الآن سود من الموت[28].

ربما كان رعب صبرا وشاتيلا هو بداية النهاية للحصانة الأخلاقية التي طلبتها إسرائيل واستغلها في الغرب، وخصوصاً في أوروبة. إن قراءة كتاب ارحموا الأمة، وهو رواية فيسك عن المجزرة، التي كانت مدمرة لإسرائيل، كانت هي أقوى قراءة للمجزرة بسبب محاولات فيسك الملحة لإعطاء الإسرائيليين كل فرصة ممكنة للإجابة عن لائحة الاتهام لجريمتهم – وهي جريمة كان صحافيون آخرون مستعدين للتغطية عليها، أو الصفح عنها ببعض الالتواء في المعنى اللغوي للكلام، لا بل بإجراء حوار بين أنفسهم إن كانت قد وقعت المجزرة فعلاً أم لا: وهو "حوار" سوف يجد صداه بعد "القتل الجماعي" في جنين بعد عشرين عاماً تلت.

وفي 16 كانون الأول/ديسمبر، من العام 1982، دعا قرار من الجمعية العامة في الأمم المتحدة هذه المجزرة في صبرا وشاتيلا "عملاً لإبادة الجنس."[29] وفي شهر شباط/فبراير التالي لم تقدم هيئة تحقيق إسرائيلية رأسها إسحق كاهان، رئيس المحكمة العليا، أي دليل على أن أي إرهابي واحد كان موجوداً في صبرا وشاتيلا حين هوجم المخيمان.[30] وسمعت هيئة التحقيق كيف سمحت القوات الإسرائيلية للكتائب بأخذ الأسرى الذين "اختفوا" بعدئذ، ووجدت أن أرييل شارون تحمل "المسؤولية الشخصية" عن المجزرة.[31]

وفي جميع أنحاء العالم، سعت كل الدعايات الموالية لإسرائيل أو جماعات الضغط الصهيونية أن تسيطر على الضرر بالإصرار على أن تقرير هيئة كاهان أظهر قوة "ديمقراطية" إسرائيل، ولكن ما كشفته الهيئة لم يغير شيئاً. ولم يلحق العار بشارون في إسرائيل. وبالنسبة إلى الكثيرين من مواطنيه، بقي بطلاً. وبيغن،

بدوره، وجه تهديداً علنياً للصحافيين الذين يشيرون إلى تآمر إسرائيل ومشاركتها في المجزرة بوصفهم حملة "التشهير بالدم"* ضد كل اليهود.[32]

وفوق ذلك، فقد أخفقت الهيئة في تحديد الواضح: وهو أن جريمة ضد الإنسانية قد اقترفت. لا بل إن كلمة "مجزرة" قد عقمت لتصير "الأحداث" وبشكل حاسم لم تستخدم كلمة "الفلسطينيين" قطعياً. ولهذه المغالطة السفسطائية غرض جاد طبعاً. وكما قالت، رئيسة وزراء إسرائيل السابقة، غولدا مائير، فإن الفلسطينيين "لم يوجدوا مطلقاً" لقد كانوا مجرد "إرهابيين" فقط.

هذا التجريد من الإنسانية يجري عبر دعاية الدولة الإسرائيلية، ومعرفة وصحافة، مع استثناءات مشرفة. وكما يشير فيسك في كتابه ارحموا الأمة، إن الإسرائيليين، بوضعهم أمة بأكملها تحت كلمة "الآخر" يكونون قادرين على [وصف] أعدائهم بأنهم شر أكثر مما هم أعداء [لكي] لا يجرؤ فرد عاقل على النظر في مطالبهم السياسية بوصفها مطالب جدية. وزيادة على ما تقدم:

فإن أي شخص عبّر عن التعاطف مع الفلسطينيين كان يعتبر بوضوح معادياً للسامية – ولذلك فهو ليس معادياً للإسرائيليين أو لليهود فقط، بل هو موال للنازيين... فإذا سمّت إسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية عدواً لها، فإن نزاع الشرق الأوسط يكون آنئذ قد اشتمل على فريقين متعاديين. ولكن إذا اعتقد العالم أن الفلسطينيين كانوا شراً، فآنئذ لا يكون النزاع موجوداً. كانت المعركة بين الحق والباطل، بين داوود وجالوت، بين إسرائيل و"الإرهاب."[33]

وفي ذروة الفظاعات الوحشية التي حدثت في لبنان، كتب الدكتور شلومو شملزمان، وهو ناج من المحرقة بقي على قيد الحياة، رسالة إلى الصحافة الإسرائيلية، أعلن فيها أنه كان سيضرب عن الطعام إلى أن توقف إسرائيل القتل. وكتب يقول:

* وهي الاتهامات الموجهة إلى اليهود بأنهم يستخدمون الدم البشري في طقوسهم الدينية. وعلى وجه الخصوص دم أطفال المسيحيين.(المترجم)

في طفولتي، عانيت الخوف، والجوع، والإذلال حين عبرت من غيتو وارسو، من خلال معسكرات العمل، إلى بوكينوولد. واليوم، بوصفي مواطناً في إسرائيل، لا أستطيع أن أقبل تدميراً منهجياً للمدن، والبلدان، ومخيمات اللاجئين. لا أستطيع أن أقبل القسوة التكنوقراطية في القصف بالقنابل... إنني أسمع أصواتاً مألوفة اليوم... إنني أسمع "عرباً قذرين" وأنا أتذكر "يهوداً قذرين". وأسمع عن "مناطق مغلقة" وأتذكر أحياء اليهود (الغيتو) والمخيمات. وأسمع "وحوشاً برجلين اثنتين"... وأنا أتذكر "دون البشر"... أشياء كثيرة في إسرائيل تذكرني بأشياء كثيرة...[34]

مخيم قلندية اليوم هو نقطة التفتيش الإسرائيلية الرئيسية على الطريق من القدس إلى رام الله. لقد كنت قد عدت هناك في الثمانينيات من 1980 وفي التسعينيات من 1990، ولكن حين عدت مرة أخرى في العام 2002 لم أعرف من المخيم إلا القليل منه. كان محاطاً بالخنادق المحصنة بلفة فوق لفة من الأسلاك الشائكة، واستبدلت بالخيام أكواخ قوية. وصف الناس أمام صنبور الماء لم يتغير، والطرق والممرات مختنقة بالغبار في الصيف وتتحول إلى وحل أسود كالسكر المحروق في الشتاء.

وفي مكتب الأنروا سألت عن محمد جار الله، ولكنه كان قد توفي، وأما أحمد حمزة، مؤانس الشوارع، فقد أُخذ بعيداً... وهو مريض جداً." ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن ابنه، الذي كان الآن قد صار أعمى بالتأكيد. جيل آخر كان يرفس كرة منفسة في الغبار وأخذ أماكنه خلف آلات الخياطة نفسها في مبنى الإدارة الإسمنتي، وكان الآن يلبس أحذية رياضية رخيصة.

وفي صف متعرج من أكياس الرمل، وبراميل النفط، وطوب البناء عند نقاط التفتيش العسكرية، وقف الناس فرداً فرداً، وهم مزدحمون ازدحاماً شديداً بعضهم على بعض إلى الدرجة التي لا تكاد أيديهم تستطيع فيها أن تنش الذباب. وكان أفراد العائلات يمسك أحدهم بالآخر، والأطفال الرضع صامتون. وظهر المسنون وكأنهم أكثر ارتياحاً، وربما كان ذلك لأنهم سبق أن عانوا هذا من قبل مرة بعد مرة. وما كدت أقول ذلك حتى شاهدت شيخاً مسناً ضعيفاً وهو يسقط في الزحام، وقد أمسكته وأبقته واقفاً صبية شابة. لم يكن يوجد له مكان ليجلس

على الحجارة ويستجمع نفسه، وأما التوسلات الموجهة إلى عسكري قريب، كان يفجر حب الشباب تحت خوذته، فلم تجد نفعاً، وما وصلت إلى شيء، بل نظر بعيداً، وتظاهر بدور المتفرج.

مجموعتي لآلة التصوير وأنا كنا في سيارة طويلة. وانتظر السائق، وهو فلسطيني لحظته، ثم قفز من السيارة وتحدث إلى ضابط إسرائيلي: وتم التلويح لنا بإشارة العبور.

وسألته: "ماذا قلت له؟"

"تظاهرت بأني إسرائيلي. عبريتي جيدة."

"كم مرة تفعل ذلك؟"

"كل يوم... أنا أسوق سيارة أجرة في القدس الغربية اليهودية، وأحمل ركاباً في الفنادق. لو ظن ركابي اليهود والأجانب أنني عربي، فلن يستأجروا سيارتي. وأنا أستمع لهم وهم يضحكون من (العبيد) أي نحن."

لقد مضت عشرة أيام منذ أن انسحب الجيش الإسرائيلي من رام الله بعد ثلاثة أسابيع من الاحتلال، ورام الله هي عاصمة الأمر الواقع للسلطة الفلسطينية. لقد رأيت أماكن كثيرة في أعقاب غزو، ولكن هذا كان مختلفاً. كان التدمير انتقائياً. كان أبعد ما يكون عن "تدمير البنية التحتية للإرهاب"، كان هدفه بوضوح هو تدمير البنية التحتية للمجتمع المنظم. وقد بدت الأعمال الفاضحة من التدمير العمدي العبثي للممتلكات وأعمال النكاية أعمالاً منهجية. وقد تبعت مسار دبابة كانت تنحرف من جانب إلى جانب من الطريق من أجل أن تسحق السيارات الصغيرة المملوكة للعائلات وتسحق أحواض الورد، ومن أجل أن تسحق ملاعب الأطفال، واحدا بعد الآخر، تاركة خلفها الأراجيح وأعمدة التسلق مشوهة.

في مدرسة عزيز شاهين للبنات، دخلت عشر دبابات إلى الملعب وسحقت الملعب، وبقيت هناك في الوقت الذي استخدم فيه القناصة الفصول العليا. وحين سمح للطفلات أن يَعُدْنَ، وَجَدْنَ كل شيء مدمراً حتى صار قمامة: مقاعدهن

وكراسيهن وكتبهن الدراسية، وسجادة، كما أشارت إحدى الفتيات، كانت في إطار زجاجي مهشم، وهي تقول: "السلام والعدالة في فلسطين." أما الأدوات الموسيقية التي لا يمكن استبدالها فقد سلبت غنائم حرب.

في وزارة التعليم، نسف الجنود الأبواب ليفتحوها وعاثوا فساداً في الحواسيب، وجردوها من السواقات، التي احتوت على بيانات عن الدورات العلمية، وعن الامتحانات، وقوائم التخريج. لم يتركوا شيئاً. وفي مكتب تسجيل الأراضي، سرقوا جميع السجلات أو دمروها، ومن جملتها وثائق ملكية يعود تاريخها إلى العهد العثماني. وفي إذاعة السلام والمحبة، التي تذيع إلى الشباب، قال المؤسس، معتز بسيسو: "لم يستغرقوا زمناً طويلاً. كان واضحاً أن لدى الجنود أوامر. لقد دمروا جهاز بثنا، وجميع أشرطتنا، والأقراص الصغيرة، والخلاطات: دمروا كل شيء. لقد دُمّرنا نهائياً إلا أن نحصل على المساعدة من الخارج."

وفي المركز الثقافي الفلسطيني قابلت المديرة، ليانا بدر، وهي روائية معروفة موضع تقدير، في الشارع، أمسح "دموع الغضب في عيوني". وكانت المسودة الأصلية لكتابها، ظلال الكلمات المنطوقة، ملقاة على أرض مكتبها متناثرة وممزقة، وقد أخذت السواقة من حاسوبها، وكانت تحتوي على روايتها، ومسرحياتها، وشعرها. وكل شيء آخر تقريباً كان قد سحق، أو دنس، ولم يبق أي كتاب سليماً بكل صفحاته، ولم يبق شريط أساسي واحد من مجموعة هي أفضل مجموعات السينما الفلسطينية.

ويوماً بعد يوم، قام الجنود الذين عسكروا هنا في أثناء الغزو بالتدمير المتعمد العابث للمركز كله: عمل دام طوال أعمار كثيرة وذلك مثل التاريخ الشفهي الضخم الزيتونات، وفيه وصفت أجيال من فلسطين التي عرفها القرويون كيف كانت شجرة الزيتون "مصدر النور، والنار، والغذاء، والشفاء" منذ الأزمنة القديمة وجهودهم لإنقاذ منحدرات التلال المزروعة ببساتين الزيتون من جرافات اليهود.

كان هناك مرحاضان في كل طابق من المركز الثقافي المكون من ثلاثة طوابق، ومع ذلك فقد جعل الجنود من أهدافهم أن يتبولوا وأن يتغوطوا في كل مكان غير المراحيض: على أرضيات المكاتب، وفي أصص الورد، لا بل في الأدراج التي تسحب من الطاولات. وعمد أحدهم إلى التغوط على آلة النسخ والتصوير. ووضعت أكياس بلاستيكية مليئة بالغائط وقوارير مياه معدنية مليئة بالبول في الأماكن التي توقع أكبر ضرر ممكن: على كتب مفتوحة، وعلى الأعمال الفنية، مثل المطرزات اليدوية.

في الطابق العلوي، في قسم الأطفال، "قسم من أجل تشجيع فن الأطفال" قام الجنود بالبول على كل شيء تقريباً. لقد دمروا عمداً وعبثاً أربعة جدران من رسوم الأطفال المرسومة بألوان الرسم المائية (الغواش) كان الجنود قد وجدوها ولوثوها بالغائط.

وقالت ليانا بدر: "هذا مشروع فني كامل، وكان يفترض أن يؤخذ في جولة إلى المدارس. أنظر إليه الآن، مغطى بالغائط والبول."

وفوق كل ذلك حفروا شمعداناً يرمز لإسرائيل، ونجمة داوود وكلمات: "أولاد الكلبات – أنتم حقراء. أنا ولدت لأقتل." وهناك مسجل فيديو ملقى على جانبه، وداخله ممزق، وإلى جانبه كوم من الأشرطة العارية باللغة العبرية.

أين كانت "البنية التحتية للإرهاب" التي قال الجنرال شارون أن جنوده كانوا يبحثون عنها؟ إن المركز الثقافي يقع في منطقة سكنية مبنية من البيوت الحجرية الأنيقة والمحاطة بالحدائق المكتظة بأشجار السرو وأشجار الفاكهة. وقد داست الدبابات أوالجرافات بشكل منهجي فوق صف من أشجار السرو. وقد أخبر الناس الذي يسكنون هنا المراسلة أميرة هاس بأنه كان هناك الكثير جداً من إطلاق النار حين احتل الجيش المركز لأول مرة إلى درجة ظن معها الناس أنه كانت هناك معارك بالبنادق مع الفلسطينيين. ولكن لم يظهر في المركز أي مسلح فلسطيني أبداً، وكان واضحاً أن الجنود كانوا يطلقون النار على أهداف مختارة عشوائياً

ليكون إطلاق النار "ترفيهاً ليلياً". وقد روت المراسلة: "في إحدى الليالي، استيقظ الجيران على صوت نباح: ورأوا أن أحدهم قد ربط مكبر صوت إلى شريط مسجل وكان يشغله بتسجيلات أصوات نباح كلاب. وفي غضون دقائق قليلة، كانت كلاب الحي كلها قد استيقظت والتحقت بالنباح والضجة. وفي الحال وصل النباح إلى أحياء مجاورة أبعد." وهرب الناس.[35]

وقالت ليانا بدر: "هذه هي حرب شارون المقدسة ضد الإرهاب. إنها ضد ذاكرة الشعب الفلسطيني وثقافته. إنهم يعرفون كم نقدر قيمة التعليم والثقافة. ففي فلسطين المحتلة، أسسنا ستين مكتبة للأطفال. قارن هذا العدد مع مصر التي تملك ما مجموعه خمساً وستين مكتبة. والآن، نحن لا نملك أي شيء لنقوم بتزويد تلك المكتبات به، ويجب علينا أن نبدأ من جديد مرة ثانية، وقد غادرونا مع هذا الإحساس من الإذلال، الجنود الشباب أكلوا، وتغوطوا على أعمالنا، وعلى ذاكرتنا، وعلى فننا. هل تستطيع أن تتخيل الشعور الذي يتركه عملهم هذا؟ إنه شعور بالاغتصاب.

"هذه الثقافة، وهذه الأعمال التي قام بها أطفالنا، هي وجودنا. لقد اغتصبنا، وطوال الوقت، يصيح مقترفو الجريمة بأنهم هم الضحايا، ويطلبون حزن العالم عليهم والصمت الدائم عنا في الوقت الذي يدمر فيه جيشهم القوي ثقافتنا وحياتنا."

لقد تركت عملية الدرع الدفاعي مئات القتلى والجرحى. وكثيرون منهم أطلقت عليهم النار حين كان منع التجول الذي فرضه الجيش "مرفوعاً". وفي مرات كثيرة، روت إذاعة الحكومة الإسرائيلية أن منع التجول قد رفع إلى الساعة السادسة من ذلك المساء، في نفس الوقت الذي يكون فيه الجنود في المدينة قد أعادوا فرض منع التجول في الظهيرة. وفي مرات أخرى، كانت سيارات جيب الجيش المزودة بمكبرات الصوت تسير عبر الشوارع في الساعة الثانية بعد الظهر وتطلب من الناس أن يعودوا إلى بيوتهم في غضون عشر دقائق، على الرغم من أن إعلاناً آخر يكون قد "رفع" منع التجول إلى الساعة الخامسة.[36]

لقد نجحت الحرب النفسية. فالناس لم يكونوا قادرين على أن يعرفوا إن كان يجب عليهم أن يخاطروا بالذهاب إلى المحلات التجارية، أو العمل، أو المدرسة أو الجامعة أو أن يمكثوا في البيت. وداد صفران، وهي كما وصفتها التقارير الصحفية "جدة في الخمسينيات" من عمرها، وكانت تعيش وحيدة وكان سمعها ثقيلاً. ويعتقد أنها سمعت أحد إعلانات منع التجول، ولكنها لم تسمع بالأمر الآخر الذي نقضه. قررت أن تمشي إلى المستشفى لتزيل جبيرة كانت على ساقها. وكانت لا تكاد تستطيع أن تعرج لتمشي بعصا المشي التي تحملها. أطلق عليها النار قناص إسرائيلي وأرداها قتيلة عند أبواب المستشفى.[37]

وقال الدكتور حامد مصري، وهو جراح أعصاب في مستشفى نابلس، إن اثنين من المرضى كان يمكن أن يعيشا لو سمح لسيارات الإسعاف بالوصول إليهما. وكان هذان المريضان هما عمر علي سلامة، وهو نجار، وصخر محمد، وهو خباز. وكان الخباز قد أصيب بطلق ناري أطلق عليه من خلال نافذة في بيته، وهناك نزف حتى الموت قبل أن يسمح لسيارة إسعاف أن تحمل جثمانه. ولم يكن ذلك الحادث أمراً غير مألوف.[38]

وفي بيت لحم، قابلت مسؤولاً فلسطينياً سابقاً في الأمم المتحدة، هو أمجد أبو لبن وهو الذي مات والده في المنزل من أسباب طبيعية، ونظراً إلى أن الإسرائيليين رفضوا السماح لأمجد أن يتخذ الترتيبات اللازمة لاستلام الجثمان، فقد أجبر على دفن والده في حديقته الصغيرة. وقال لي: "دعني أقص عليك ماذا كان يمكن أن يحدث لو أننا حاولنا أن نأخذه إلى المقبرة. في الثامن من آذار/مارس، كان أحد أصدقائي، وهو مدير لمستوصف طبي، يسوق سيارته للحصول على إمدادات طبية. لقد فعل كل شيء على الوجه الصحيح. لقد اتصل بضابط الارتباط الإسرائيلي. وكانت سيارته معروفة جيداً للجيش الإسرائيلي. لا بل إنه وصف لهم ما سيكون لابساً من الملابس في ذلك اليوم. وقالوا له إنه يستطيع أن يحصل على الإمدادات الطبية. لقد قتلوه برصاصة عالية السرعة في جبهته مباشرة."

يرى الفلسطينيون هذا العنف عنفاً مستمراً ويندر أن يُعترف به دولياً من ناحية قصده الإجرامي القاتل، ومن ناحية "الإرهاب" الذي يفرضه، ومن ناحية تأثيره غير المتكافئ على مجتمعهم، مقارنة بإسرائيل. ومنذ بداية الانتفاضة الثانية في أيلول/سبتمبرمن العام 2000، قتل ما يصل إلى 3.300 فلسطيني على يد القوات الإسرائيلية. وأكثر من نصفهم قتل بطريقة غير مشروعة كما تقول منظمة العفو الدولية. وهذا يعني أنهم لم يكونوا يشاركون في صدامات مسلحة أو في هجمات. وكان 650 منهم من الأطفال.[39] وحين كنت في رام الله، كان قصي أبوعيشة، وعمره اثنا عشر عاماً، يلعب في حديقته حين أطلق عليه النار جنديان إسرائيليان فأردياه قتيلاً. والموت من قتلٍ مثل هذا يحدث في كل يوم تقريباً.[40]

وقام الدكتور مصطفى البرغوثي، وهو مدير المركز الفلسطيني للسياسات الصحية في رام الله، بدراسة فترة ثمانية أشهر حتى شهر أيار/مايو من العام 2001. وقد كتب يقول: "لقد قتل أكثر من 500 فلسطيني، وجرح أكثر من 23.000 منهم. وثلث المصابين كانوا أطفالاً، وأكثر من 60٪ بالمائة منهم أطلقت عليهم النار وهم في بيوتهم، أو في مدارسهم، أو في أماكن عملهم."[41]

وفي العام 2003، أورد المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان تقريراً يفيد أن 408 من الأطفال قتلوا منذ بداية الانتفاضة الثانية في العام 2000. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا الكلام، أطلق الجنود الإسرائيليون النار وقتلوا الطفلة إيمان الهمص، ابنة الثلاثة عشر عاماً، على الرغم من أنهم عرفوا أنها كانت بنتاً صغيرة، وكانت تلبس الزي الموحد للمدرسة. كان في جسدها سبع عشرة طلقة وفي رأسها ثلاث طلقات. إن المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان يصف الضحايا الذين يقتلون مثلها بأنهم دليل على سياسة إطلاق النار بقصد القتل وعلى استهداف الأطفال عن عمد.[42] وعلى الرغم من ذلك فإن سمعة الجيش الإسرائيلي في الوطن في إسرائيل، وفي صفوف الكثيرين من اليهود في الخارج، هي أنه "أكثر جيش في العالم إنسانية." حسب كلمات الحاخام الرئيسي البريطاني، جوناثان ساكس.[43]

وفي العام 2002، كشف كريس ماكغريل، مراسل الغارديان في القدس، أن الجيش الإسرائيلي قد "أطلق النار فقتل أو نسف" خمسين طفلاً تحت سن الثامنة في غزة وحدها. وقد حصلت، منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية، بيت سيليم، على تقرير عسكري داخلي يؤكد أن الجيش كان يمتلك سياسة للتغطية على جرائمه. وتقول المنظمة: "الرسالة التي يبثها مكتب القاضي المحامي العام [للجيش] رسالة واضحة، ... الجنود الذين يخرقون (تنظيمات فتح النار)، ولو أدى خرقهم لها إلى الموت، لن يتم استجوابهم ولن ترفع ضدهم دعوى."

وحين تحدى ماكغريل القائد الإسرائيلي بشأن قتل أربعة أطفال في غزة، قدم القائد إقراراً نادراً: "إن جنوده كانوا مخطئين إلى درجة ما أو أخرى في قتلهم لمعظم– ولكن ليس لكل– الأطفال." ولكنه مع ذلك، وفي نهاية المقابلة غير مسار الكلام، وقال: "أنا أتذكر المحرقة، نحن لدينا خيار، وهو أن نقاتل الإرهابيين أو أن نواجه الاحتراق في لهيب النار ثانية."

وسأل ماكغريل الناطق العسكري الذي كان يجلس في المقابلة إن كان يستطيع أن يذكر اسم القائد. فقال المتحدث: "لا، لقد أقر أن جنوده كانوا مسؤولين عن بعض أعمال القتل على الأقل. وفي هذا اليوم وهذا العصر، فإن ذلك يثير إمكانية جرائم الحرب، ليس هنا بل إذا سافر إلى الخارج فإن من الممكن أن يعتقل في وقت ما في المستقبل. بعض الناس قد يعتقدون أن هناك شيئاً ما خاطئاً هنا."[44]

وما كان لافتاً للنظر في هذه المقابلة ليس هو إقرار القائد، مهما يكن أمراً غير مألوف، بل هو استحضاره للمحرقة. وقد سألت مصطفى البرغوثي عن هذا الموضوع. فقال: "وما علاقتها بنا؟ إن معاداة السامية لا علاقة لها بهذه المنطقة. ففلسطين كانت دائماً مجتمعاً متسامحاً جداً. وطوال قرون، عاش الفلسطينيون، واليهود، والعرب، والمسيحيون معاً من دون قيام مشكلات كبيرة. إن هذه المشكلة المأزق التي نواجهها بدأت حين قررت الصهاينة أنهم يريدون دولة على حساب الفلسطينيين. لا علاقة للمحرقة بهذا الموضوع، لقد كانت ظاهرة أوروبية. والكلمة

التي لم تسمع أبداً تقريباً في إسرائيل هي (الظلم). فكأن الأمر هو أن المعاناة اليهودية يمكن أن تفرغ هذا وتمحوه. وهكذا فإن ما حدث هو أن هذا الخطاب نفسه عن الظلم قد انعكس.

"وهذا غريب جداً. فقد كنت في مؤتمر دولي حديثاً وكان المزاج السائد، وفي صفوف أناس لهم سمعة ليبرالية أيضاً، هو أن علينا، نحن الفلسطينيين، أن نعتذر للإسرائيليين عن كوننا محتلين من قبلهم. ويجب علينا أن نعتذر لأننا نجبر اليهود على اضطهادنا لمجرد أننا كنا موجودين هنا طوال آلاف من السنين. يجب أن نعتذر للإسرائيليين الذين يريدون أن يظهروا متمدنين وديمقراطيين. ويبدو الأمر وكأن الحقيقة التاريخية لوجودنا قد أجبرتهم على اضطهادنا، وأجبرتهم على قتلنا: وطبعاً فإن قتل أطفالنا جزء من هذا كله. هم يريدوننا أن نعتذر عن كوننا أحياء، وإذا كان ذلك غلطة، فقد كانت إذن إرادة* الله. وبصراحة، لا أعتقد أن علينا أن نعتذر عن إرادة الله، وفي الطريقة نفسها لا أعتقد أن علينا أن نعاني بسبب جريمة أوروبية، هي المحرقة... الدم اليهودي ثمين، ولكن الدم الفلسطيني ثمين أيضاً. كلانا، نحن الشعبين، ثمين على قدم المساواة. إنني دائماً أقول كم أنا آسف لا على ألف وسبعمائة فلسطيني قتلوا في هذه الانتفاضة فقط بل على أربعمائة يهودي قتلوا فيها أيضاً. كلنا جميعاً، العرب واليهود، ضحايا هذا الاحتلال."

الإيمان بأن جيش الاحتلال هو أكثر جيش "إنسانية في العالم" هو إيمان لافت للنظر. فالتنظيمات المكتوبة التي تتظاهر باللياقة القانونية والإنسانية يقدمها إلى الصحافيين الناطقون العسكريون – بالطريقة نفسها التي يمتدح بها ضابط المعلومات في الجيش البريطاني قداسة مواثيق جنيف، "قواعد السلوك اللائق"، في الوقت الذي يتصرف فيه جنودهم بدرجة الوحشية التي يتطلبها دورهم الاستعماري.

* في النص "غلطة الله". وهذا كلام لا يليق بالذات الإلهية. لا بل إن وجود الفلسطينيين في فلسطين تشريف لهم من الله تعالى بالجهاد والرباط الدائم.(المترجم)

في القدس، تسلمت وثيقة من الجيش الإسرائيلي، "تنظيمات من أجل رد الفعل نحو المقيمين في الضفة الغربية الذين يصلون إلى حاجز طريق في طوارئ مستعجلة لحالة طبية." وهذه التعليمات، كما أكد لي متحدث باسم الجيش، كانت من نتاج حكم من المحكمة العليا في إسرائيل ويعرض الجنود أنفسهم للخطر إذا خالفوها. وتنص، في جزء منها على:

القاعدة، هي أن قائد حاجز الطريق سوف يمكّن أي شخص من المرور لأغراضٍ تلقّي العناية الطبية، ولو لم يكن هذا الشخص يحمل التصريح اللازم، إذا كانت الحالة هي حالة طوارئ مستعجلة لحالة طبية... وفي الحالات، على سبيل المثال، التي تصل فيها المرأة بحالة مخاض [هكذا] عند حاجز الطريق... فإن قائد حاجز الطريق سوف ينظر في إمكانية مرافقة المقيم الموجود في حالة الطوارئ المستعجلة لحالة طبية بسيارة....

فاطمة وناصر عبد ربه يعيشان في قرية بالقرب من القدس وعلى القرية حاجز دائم على الطريق. ولا يستطيع المقيمون أن يغادروا أو أن يعودوا من دون إظهار تصاريحهم. وإقامتهم هذه شكل من أشكال الاعتقال في البيت، وهو أمر مألوف في الضفة الغربية وغزة. وحين يكون هناك منع تجول مفروض، فإنهم بكل بساطة لا يستطيعون أن يغادروا بيوتهم لأي سبب، وابنتهم أريج، وعمرها خمس سنوات، لا تستطيع أن تذهب إلى المدرسة، وهم لا يجرؤون على الخروج ولو إلى شرفة بيتهم. ويقوم العسكريون بقطع التيار الكهربائي من حين إلى آخر، ويتركون مع الشموع. جاء إلى هنا رئيس الأساقفة ديزموند توتو، وقد تأثر جداً بالتشابه مع أسوأ التطبيق الذي مارسته القوانين الماضية السيئة السمعة في جنوب إفريقية.

وقالت فاطمة، وهي تجلس في مطبخها، وأريج في حضنها: "نسمع أن قريتنا قد خصصت لتكون (منطقة "أ" و"ب"). وهذا يعني أنها ارض يهودية، ونحن لا نستطيع أن نستخدم الأرض بعد الآن، وهم يريدوننا أن نخرج. وقد علموا خطوطاً حمراء لمنعنا من استخدامها. هم يريدون أن يتملكها الأجانب، وقالوا لنا إن ذلك هو ما يخططون لفعله."

"كم المدة التي عشتم فيها هنا؟"

"كل حياتنا. نحن لسنا لاجئين. آبائي وأجدادي عاشوا هنا."

فاطمة وناصر كانا لمدة يحاولان أن يرزقا بطفل ثان وكانا يخضعان لمعالجة تتصل بالخصوبة. وفي أثناء سنتين في السجون الإسرائيلية، كما يقول ناصر أسيء له وعانى من مشكلات جنسية. وحين حملت فاطمة، احتفل ناصر بذلك بأن استدان ما يكفي ليستبدل صفائح التنك الموجودة على بيتهم ويضع بدلا عنها سقفاً من الأسمنت المسلح. وقد وصفت فاطمة لي ماذا حدث في ليلة 22 تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2001.

"كانت الساعة السابعة، وشعرت بآلام حادة من المخاض على الرغم من أن الحمل لم يكن قد تجاوز الشهور السبعة . وأريج كانت قد ولدت قبل شهرين من اكتمال الحمل، ولذلك كنا خائفين، وقد طلب زوجي من صديق له أن يأخذنا إلى مستشفى في بيت لحم في سيارة شاحنة يستخدمها لنقل الدجاج. وحين ساق السيارة إلى نقطة التفتيش، نظر الجنود إلى تصاريحنا وقالوا إننا كنا نحتاج إلى وثيقة أخرى. وقلت لهم إني كنت أنزف نزفاً شديداً سيئاً. وبدأنا جميعنا نناقش فدفعوا زوجي وضربوه بأخمص الرشاش. وحاول أن يهدئهم، ثم قررنا أن نقف جميعنا بهدوء، على أمل أن يظهر الجنود نحونا بعض العطف.

"لقد كنت أعرف في قلبي أن هذا سيحدث. فحين كنت على وشك ولادة أريج، نظر إلي جنود نقطة التفتيش وضحكوا وقالوا إنني كنت سمينة فقط... وقالوا: اذهبي إلى البيت!"

"وماذا فعلت في هذه الأزمة الثانية؟"

"عدنا إلى البيت وقررنا أن نحاول ثانية بعد أن يكون الجنود قد هدؤوا. وركبنا هذه المرة سيارة أجرة، على أمل أن يسمحوا لها بالمرور. ولكنهم مع ذلك رفضوا. وكان الوقت الآن شارف على الثانية صباحاً. كنت في المعقد الخلفي وفي حالة المخاض الأخير. ونظر أحد الجنود من النافذة وقلد أصوات أنيني. وكانت تلك

اللحظة هي اللحظة التي ولدت فيها طفلي، فقامت حماتي بقطع الحبل السري بحد شفرة. وسمعت صرخة ابني لأول مرة، وعلى الرغم من ذلك فقد فكرت آنئذ كم كنت سعيدة [حين حملت به] وكم كنت سعيدة لأنني كنت أعددت لوصول ابني وكنت أتطلع بأمل إلى سماع صوته."

والمولود ملفوف في معطفه، قال ناصر لسائق سيارة الأجرة أن يسوق السيارة عائداً، ثم وقفوا عند منعطف في الطريق. ومن هناك، انطلقوا مشياً على الأقدام باتجاه بيت لحم، عبر الحقول والتلال والسفوح الصخرية. كان الجو بارداً. وبعد ساعة، وصلوا إلى طريق فأشاروا لسيارة عابرة فحملتهم، وانطلقت بهم إلى مستشفى العائلة المقدسة، كان المولود أزرق وفي حالة حرجة. بعد سبع ساعات، مات من تعرضه للبرد القارس. سموه سلطاناً ودفنوه قرب بيتهم.[45]

كانت فاطمة تتحدث بالفصاحة الصريحة للناس العاديين الذين كافحوا وتعلموا كيف يعيشون نوعاً ما مع غضبهم. أما ناصر، فلم يرغب في إجراء مقابلة معه. وقالت فاطمة: "إنه غاضب جداً."

"لماذا تصرف الجنود بتلك الطريقة كما تعتقدين؟"

"لأن ذلك عادي. تلك هي الطريقة التي يعاملون بها كل الفلسطينيين. إنهم يفضلون أن يساعدوا كلباً أكثر من أن يساعدوا عربياً. ألست واعياً لذلك؟ كل واحد في كل بلد يعلم عنا كما يبدو. وكل واحد يراقب ولكن لا أحد يساعدنا."

ومن بيت فاطمة، الذي كان مبنياً على منحدر مائل شديد الانحدار، تستطيع أن ترى مستشفى هداسا الحديث في القدس الغربية اليهودية. لقد كانت فاطمة هي المرأة الثانية في قريتها التي تفقد مولودها بعد أن يكون الجنود قد أوقفوها عند نقطة التفتيش. وهناك امرأة أخرى في قرية مجاورة فقدت مولودها في ظروف مشابهة. وقد سجل معهد فلسطيني للسياسات الصحية في مسح له طوال سنتين وفيات ثلاثة وسبعين مولوداً عند "نقاط تفتيش عسكرية، وحواجز، وخنادق،"

ووجد أن العديدات من النساء اللواتي يواجهن صعوبات في الولادة لم يكن لديهن فرصة للولادة إلا في البيت من دون مساعدة طبية.[46]

إن وجود سيارة إسعاف لا يعني أي اختلاف. وفي أثناء فترة مدتها ثمانية عشر شهراً، راقبت المنظمة الإسرائيلية أطباء من أجل حقوق الإنسان الفلسطينيين الذين يبحثون عن العناية الطبية المستعجلة، مثل النساء في المخاض والمرضى الذين يحتاجون إلى غسيل الكلى وإلى علاج السرطان. فوجدت أن 221 حالة من حالات سيارات الإسعاف قد ردت على أعقابها عند نقاط التفتيش، وهو ما أدى إلى تسع وعشرين حالة وفاة.[47]

ويقول الجيش الإسرائيلي إن سيارات إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني تستخدم لنقل المتفجرات. وفي إسرائيل، وجدت أنا أن الناس كانوا ينظرون إلى هذا الأمر وكأنه مسلم به. وفي الحقيقة، كان هناك اتهام واحد بأن قنبلة وجدت في سيارة إسعاف، وأن الهلال الأحمر قد نفى بشدة صحة الحادثة المروية، ووصفها بأنها مؤامرة لنزع الثقة منه. وتقول منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية بيت سيليم إنه "على الرغم من الطلبات المتكررة من منظمات حقوق الإنسان ومن آخرين غيرها فإن المتحدث [العسكري الإسرائيلي] لم يقدم أبداً أي دليل يدعم مزاعمه بأن الفلسطينيين يستخدمون سيارات الإسعاف استخداماً سلبيا... ولكن التوثيق لم يُكشف قطعياً."[48]

ومن جنيف، أصدرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وهي التي تبقى عادة فوق مثل هذه المناقشة، بياناً فوق العادة. تقول اللجنة الدولية للصليب الأحمر:

هناك حملة مستمرة من تزييف المعلومات وتشويه السمعة ضد جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني. وقد عبرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في مناسبات عديدة لأعضاء الحكومة الإسرائيلية وقوى الدفاع عن مخاوفها الخطيرة حول الاتهامات المتكررة ضد جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني التي يجري توصيلها من خلال وسائل الإعلام. وعلى الرغم من الطلبات العديدة من اللجنة الدولية من الصليب

الأحمر، فإن [العسكريين الإسرائيليين] لم يقدموا أبداً أي دليل محسوس يدل ضمناً على مشاركة أعضاء جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في أعمال عنف ضد الإسرائيليين حين يقومون بتنفيذ مهماتهم... وتصل الاتهامات إلى حد القيام بحملة دعاية منهجية تهدد كل المهمة الإنسانية لأنها تلقي بظلال من الشك وعدم الثقة على أولئك الذين يسعون إلى تقديم المساعدة التي تدعو إليها الحاجة الماسة بشكل كبير جداً.[49]

في اليوم الذي زرت فيه فاطمة، رتبت أن أزور سالم شوامرة في مقهى بالقرب من بيته في عناتا، وهي ضاحية خارج القدس. وقد قيل لي: "قصته فقط تعبر عما لا يستطيع الآخرون أن يتخيلوه." سالم يملك بطاقة هوية إسرائيلية. وهذا ما يبين أنه ولد في القدس وهو يعني نظرياً أنه كان يمتلك بعض الحماية من الأعمال الوحشية التي يرتكبها الاحتلال. في العام 1994، قدّم طلباً للحصول على ترخيص تخطيط ليتم تصنيف أرضه أرضاً مخصصة للزراعة. ولهذا الغرض، قيل له، إن عليه أن يدفع 25.000 دولار، وهي ضريبة تنطبق على الفلسطينيين فقط. وطوال أربع سنوات، رفضوا إعطاءه الترخيص ثلاث مرات، وقيل له في مرتين إن هناك توقيعين ناقصين على الاستمارة ولكن أياً من التوقيعين لم يحدد له.

قال لي: "في 9 تموز/يوليو، من العام 1998، كنا نتناول غداءنا، أنا وأسرتي، حين انطلق صراخ مفاجئ، وكان البيت مطوقاً بالجنود. قال واحد منهم: إنه ليس بيتك الآن، إنه بيتنا. لديكم خمس عشرة دقيقة لتخرجوا." وحين تصديت لهم وتحديت هذا، اعتقلوني، وبدؤوا يهشمون النوافذ ويلقون قنابل غاز مسيل للدموع في الداخل، وهناك كانت زوجتي وأطفالي. زوجتي توفيت، وأطفالي كانوا بحالة مروعة. وصل جيف هالبر، عالم الأناسة (الأنثروبولوجيا) الإسرائيلي الرائع الذي يقود اللجنة الإسرائيلية ضد هدم البيوت، ورمى نفسه أمام الجرافات. ولكن الجنود ضربوا كل الناس، وأحد الأولاد فقد كليته، وسوّي بيتي بالأرض. سبع سنوات من العمل في المملكة العربية السعودية، التي ذهبت إليها لأدخر لبناء البيت، ذهبت سدى.

"نقلت أسرتي إلى خيمة في أرض الدار الخلفية، ثم راقبت حدوث المعجزة. الفلسطينيون وجماعة جيف هالبر، والعرب، واليهود معاً، أعادوا بناء بيتي في ثلاثة وعشرين يوماً. مئات من الناس جاؤوا للمساعدة من كل أنحاء إسرائيل. وانتهى بناء البيت في 3 آب/أغسطس. وفي اليوم التالي تماماً، استيقظنا من النوم، زوجتي وأنا، في الساعة الرابعة صباحاً والرشاشات مصوبة إلى وجوهنا. وأمرنا أن نخرج إلى الشارع، وهناك راقبنا بيتنا يدمر للمرة الثانية. لقد دمروا كل شيء حتى الأشجار التي زرعناها. لا بل لقد أخذوا الخيمة التي كنا نعيش تحتها.

"ومرة أخرى، ذهبت إلى الإدارة المدنية وهناك قالوا لي إن البيت ما كان ليهدم لو أنني كنت قد حصلت على التوقيعين الناقصين ولكنهما توقيعا من؟ فطوال شهرين، حاول محام أن يجد لي من هما، من دون أي حظ في النجاح. وهكذا، نعم، أعدنا بناء بيتي مرة أخرى. لقد انتهى في 3 نيسان/ابريل من العام 2001. وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، جاء الجنود مرة أخرى ودمروا البيت مرة أخرى!

"عدت إلى الإدارة المدنية، واستمروا في تحريك خط المنطقة". هل كنت أنا في المنطقة التي كانت مخصصة لليهود فقط؟ لم أكن متأكداً أبداً، لأنني لم أُحَط علماً بذلك أبداً. نعم، أعدنا البناء مرة أخرى، وجاء الجنود مرة أخرى، وفي هذه المرة جاؤوا في دبابة. لم أستطع أن أوقف ابنتي ذات السنوات العشر من عمرها عن الركض أمام الدبابة، ويقول الأطباء إن الصدمة لجملتها العصبية كانت بالغة إلى درجة جعلتها الآن تصاب بالعمى، ويزداد ذلك قليلاً قليلاً كل يوم. جميع أطفالي لا ينامون من دون أن يبللوا فراشهم ويصرخوا من الكوابيس. هذا يحدث في كل ليلة. ماذا يعني هذا بالنسبة إلي؟ إنه يعني أنني، بصفتي والدهم، لا أستطيع أن أحميهم، أنني لا حول لي ولا قوة. الآن يجب علي أن أتوقف."

وحين استطاع صديق لي أخيراً أن يحدد الإدارة التي تعاملت مع قضية سالم، سأل مسؤولاً عن السبب الذي من أجله حدث هذا الهدم. هل كان سالم "إرهابياً" مشتبهاً به؟

جاء الجواب: "لا، لم يحضر إلينا من أجل ترخيص التخطيط."

"ولكنه جاء ثلاث مرات."

"سوف ننظر في الأمر."

ولم نسمع أي شيء بعد ذلك، ولكننا حصلنا على التأكيد غير الرسمي أن بيت سالم لن يدمر للمرة الرابعة. ولكن هذا، طبعاً، لم يكن ضماناً. وحين سمعت عنه لآخر مرة، كان الجنود قد بدؤوا في جرف البيوت القائمة في جواره بالجرافات. ومنذ أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية وغزة، دمرت ما يقدر بأحد عشر ألف بيت فلسطيني. وهذه "إستراتيجية" تعلمتها إسرائيل من البريطانيين، الذين دمروا مئات البيوت، في عقاب جماعي على مقاومة حكمهم في فلسطين الانتداب.[50]

وقد كتبت أميرة هاس في كتابها شرب البحر في غزة، تقول: "إن إسرائيل مثلها مثل كل احتلال قبلها – وعلى الرغم من أنها قد سيطرت على الأراضي منذ العام 1967. مازالت لم تتعلم بعد أن المقاومة والإرهاب كانا ردَّي فعل على الاحتلال نفسه وعلى شكل الإرهاب المتجسد بالحكم الأجنبي."[51] إن معظم الفلسطينيين يوافقون على ذلك، على الرغم من أنهم ربما لا يتفقون مع القول إن إسرائيل "مازالت لم تتعلم بعد" أن إرهابها يستدعي الإرهاب. وقد يقول الفلسطينيون، إن إسرائيل تعمل عمداً على دفع "دائرة" الإرهاب وتستغلها استغلالاً خبيثاً، وإن التفجير الانتحاري الفلسطيني لم يكن أكثر من نتيجة لهذا.

وقد عالج إدوارد سعيد هذا الموضوع في مقالته "العقوبة بالتفصيل":

التفجير الانتحاري يستحق اللوم، ولكنه نتيجة مباشرة، وهو في رأيي نتيجة مبرمجة عن وعي لسنوات من الإساءة، والعجز عن الدفاع عن النفس واليأس. إن علاقة التفجير الانتحاري بالميل العربي أو الإسلامي إلى العنف ضئيلة مثل ضآلة علاقة الرجل القادم من القمر به. إن [آرييل] شارون... يفعل كل شيء في قدرته ليخلق الظروف المناسبة من أجل [الإرهاب]. ولكن العنف الفلسطيني، مع كل

رعبه، ردُّ فعلٍ من شعبٍ يائسٍ ومضطهدٍ اضطهاداً مرعباً، وقد جُرّد من سياقه ومن المعاناة المروعة التي ينبع منها.[52]

الهجمات الانتحارية ظاهرة حديثة [مثلما هي في العراق، فهي لم تكن معروفة هناك قبل الغزو الأنجلو – أمريكي]. في الانتفاضة الأولى (1987–93) لم يكن هناك أي هجمات انتحارية. لقد دافع الفلسطينيون عن أنفسهم ضد الرصاص، والدبابات، والطائرات العمودية المسلحة بأسلحة صغيرة، وكان معظم الدفاع بالمقلاع ومحذفة الحجارة. وأول متفجر فلسطيني انتحاري ضرب في المدينة الإسرائيلية العفولة في 6 نيسان/إبريل في العام 1994. وكان هذا التفجير رد فعل مباشر على القتل الجماعي الذي قام به المتعصب الصهيوني باروخ غولدشتاين لتسعة وعشرين مصلياً مسلماً في(كهف الآباء) الحرم الإبراهيمي في الخليل في 25 شباط/فبراير من ذلك العام. "وباروخ لم يكن مريضاً عقلياً" كما قالت أرملته مريام للصحيفة الإسرائيلية يديعوت أحرونوت. "كان يعرف ما أقدم على فعله. لقد خطط لما فعله لكي يوقف محادثات السلام."[53]

وهكذا بدأت "دائرة العنف". وقد روت بديعوت أحرونوت أن حماس "وزعت تعميماً في الأراضي [المحتلة] حذرت فيه من خمسة أعمال كبيرة انتقاماً للمجزرة التي وقعت في الحرم الإبراهيمي."[54] وتلا ذلك الهجوم الانتحاري في العفولة.

وكتب الصحافي الفلسطيني سعيد غزالي: "[التفجيرات الانتحارية] فظيعة، وغير مبررة، مثل كل الهجمات القاتلة على المدنيين الأبرياء، هي ظاهرة غريبة ومدعاة للصدمة، لا لإسرائيل فقط، بل للفلسطينيين كذلك... لقد عاش الفلسطينيون طوال أكثر من أربعة وخمسين عاماً وهم ينتظرون، ويشتكون، ويستجدون، ويناشدون ويقاومون"، لقد وجدوا سلاحاً أقام نوعاً من التساوي في الخوف.[55] ووضعوا في يد إسرائيل أيضاً سلاحاً للدعاية لا يشبهه أي سلاح آخر، فالمتحدثون الإسرائيليون يكررون بلا توقف، أن مثل هذا العمل البربري، برهن على أن الفلسطينيين كانوا إرهابيين بالفطرة.

وحين تسلقت الدرج المصنوع من طوب البناء، ماراً فوق الأسلاك العارية والأطفال الفضوليين، واجهني ملصق عملاق لآخر متفجرة منتحرة، كنت قد رتبت أن أقابل أسرتها في مخيم الأمعري المغبر المكتظ للاجئين الفلسطينيين بالقرب من رام الله. ولفظة "متفجرة منتحرة" هي لفظة غير معترف بها هنا، فهم لا يعرفون إلا كلمة "شهيدة". وغنى الأطفال: "وفاء، وفاء" وهم يشيرون إلى الصورة البطولية في الملصق. وقفت إلى جانبه فتاة صغيرة، وقد وضعت يدها على قلبها. وقالت: "أنا!" لقد كان لدى الفلسطينيين أول امرأة شهيدة.

امرأة شابة جذابة في الثامنة والعشرين. كانت وفاء إدريس إلهاماً لأسرتها ولصديقاتها. كانت حريصة كرست جهدها لمساعدة الناس. وبصفتها متطوعة لعمل "مسعفة أولية" مع الهلال الأحمر، كانت حاملة نقالات في الخط الأمامي للمقاومة الفلسطينية. حين جاءت الدبابات الإسرائيلية، وواجهها الشباب والأولاد الصغار بالحجارة، وكانت وفاء هناك، تشهد "الأشياء المروعة" كما قال لي طبيب نفسي سريري كان قد قدم لها المشورة وللآخرين من موظفي الهلال الأحمر. "إن الأثر النفسي الذي يقع على هؤلاء الشباب الذين يقومون بإخلاء الموتى والجرحى يمكن أن يكون أثراً عميقاً. إنهم يحملون جثثاً هي حرفياً مقطعة إرباً إرباً."[56]

أصيبت وفاء مرتين بطلقات نارية بساقها من الطلقات المغطاة بالبلاستيك. وكانت تعمل وهي مصابة، وصارت عاملة نشيطة وغاضبة أكثر فأكثر. وفي يوم الأحد، في 28 من شهر كانون الثاني/يناير من العام 2002، أسرعت إلى العمل. وأخبرت أسرتها بأنها ستراهم في ذلك المساء. وبدلاً من ذلك، حملت 10 كيلو غرام من المتفجرات في جعبة، وحزمتها على ظهرها وذهبت إلى القدس الغربية اليهودية. واندفعت مسرعة إلى حشد وقت الغداء في شارع يافا، وأشعلت القنبلة، فقتلت نفسها وأحد الواقفين وجرحت مائة آخرين.

وقال لي أخوها الكبير خليل "كانت هذه مفاجأة لنا جميعاً. لا نستطيع أن نفهم أنها فعلت هذا. كانت تحب الحياة حباً جماً، وكانت تهتم بأصغر المخلوقات،

مثل العصافير الصغيرة، وكانت هي التي تقوم بتهدئتي في كل مرة كنا نختلف فيها، كانت صانعة سلام. طبعاً، نحن كنا نعرف ما يحدث لها. لقد كانت تعمل تحت النار طوال وقت طويل، وقد أصيبت بالطلقات مرتين وضربت من الجنود حين جاءت لتساعد المصابين. كانت تراقب معدة شخص وقد تطايرت خارج بطنه. كانت تراقب أناساً يموتون، وكان يحتمل أن يتم إنقاذهم لو أن الإسرائيليين كانوا قد سمحوا لسيارة الإسعاف التي تعمل فيها أن تمر عبر نقاط التفتيش، وكانت تخبرنا أن سيارات الإسعاف كانت تجبر على الانتظار في صف من السيارات لمدة ساعة أو ساعتين في الوقت الذي ينزف فيه المريض حتى الموت. وكانت منزعجة انزعاجاً عميقاً بشأن النساء الحوامل وفقدانهن لمواليدهن عند نقاط التفتيش، وبشأن موت الأمهات أيضاً. وبسبب خبرتها لكل ذلك، فأنا أستطيع أن أؤكد لك أن أختي لم تكن لتذهب إلى الموت من أجل أي شيء تافه."

وسألته: "هل كنت ستحاول أن توقفها لو عرفت ما كانت تخطط له؟"

"إنني أبلغ الثانية والثلاثين من العمر وقد قضيت عشر سنوات من عمري في سجون إسرائيلية لأنني دافعت عن وطني. ولذلك فالأمر ليس عدم امتلاكي المشاعر نحو شعبي – أنا أريد أن أضحي بنفسي من أجل فلسطين – ولكن الجواب هو: نعم، كنت سأحاول أن أمنعها بأي طريقة أستطيعها، لأنني لا استطيع أن أدع مثل هذه الشخصية العزيزة أن تفعل ذلك، لقد كانت أختي الوحيدة وأنا مفعم بالحزن لأنها غادرت البيت ولم تعد."

خليل ووفاء ولدا في مخيم للاجئين. ومات والدهما حين كانا طفلين، وكانت ساق أمهما مشوهة من أثر طلقة إسرائيلية. وحين كنا نتحدث (مستندين على صورة جدارية لجزيرة مدارية، مثل مكان في الأحلام بعيد عن المخيم)، كانت ابنة خليل ميلانا ذات السنوات الأربع تلعب عند قدميه، وكانت تضع على شعرها زهرة دوار الشمس.

"بصفتك عاملاً نشيطاً، كيف تتعامل مع موت أختك؟"

"إذا كنت تسأل: هل أريد أن أثأر لموتها فالجواب بصراحة، نعم. ولكني لن أفعل، لأن هدفنا ليس هو أن نقتل الإسرائيليين. إنه تأسيس دولة فلسطينية وأن نعيش في سلام مع الإسرائيليين وأن نكون أصدقاء وأن يزور أحدنا الآخر. وأتحدث عن نفسي شخصياً، فأنا لا أريد أبداً إسرائيلياً آخر يضغط على زناد بندقيته ضدي، وأنا لا أريد أن أضغط على زناد بندقية ضد أي واحد، مرة أخرى أبداً.

"أختي وفاء كانت تنتمي إلى حركة التحرير الفلسطينية (فتح) وهي الحركة نفسها التي كانت منغمسة بالعملية السلمية مع الإسرائيليين، ومن جملة ذلك اتفاقية أوسلو التي كان يفترض أن تقود إلى دولة فلسطينية في غضون خمسة أعوام، ولم يحدث ذلك. فليس لدى شارون ومتطرفيه أي اهتمام بهذا: أي بالسلام الحقيقي. ألا تعرف أننا الشعب الوحيد في العالم الذي تقول الأمم المتحدة إننا نملك الحق في الاستقلال، ونحن غير مستقلين؟ نحن فريدون بأسوأ طريقة ممكنة. من فضلك، لا أريد أن أكون فريداً. ولا أريد أن تكون ذكرى وفاء فريدة."

وقلت له: "إن ما صدم الناس في البلاد الأخرى هو أن التفجيرات الانتحارية ليست موجهة إلى شارون وأولئك الذين هم من أمثاله، بل هي موجهة في معظمها إلى المدنيين، إلى أناس من أمثال الذين قتلتهم أختك. ماذا تقول عن ذلك؟"

"أود أن أقول أنا آسف عن كل القتلى، من الإسرائيليين ومن الفلسطينيين. ولكن حين أكون جالساً في بيتي مع أسرتي ويجري قصف بيتي بالقنابل، وأبحث في الحطام عن أحبابي – وهذا يحدث في كل مخيم – حينئذ سيكون لي رد فعل لأنني أعاني، سوف أريد للإسرائيليين أن يعانوا كذلك. الفلسطينيون ليسوا أول من يحس مثل هذا الإحساس، هل هم كذلك؟ إن وسائل الإعلام الأوروبية سوف تسمع دائماً من الإسرائيليين عن مدنييهم الذين يقتلون، ولكنها لن ترى أو لن تريد أن ترى العنف اليومي الساحق من الإسرائيليين ضدنا.

"بمجرد بنادق، نحن نواجه الطائرات العمودية الأمريكية أباتشي والقاذفات الأمريكية اف – 16. لماذا؟ لأننا وحدنا في المواجهة. إن هيئة من الأمم المتحدة

لاكتشاف الحقائق تريد أن تحضر هنا لفحص المجازر التي أمر بها شارون، ولكن الولايات المتحدة تتدخل وتمنعها نيابة عن إسرائيل. ولذلك فماذا نستطيع أن نفعل؟ كيف لا نحس بأننا معزولون عزلاً كاملاً؟ كيف لا نستطيع أن نشعر باليأس؟ كيف لا نستطيع أن نرد بالضرب؟ ولكن بم نضرب في ردنا؟ إن كل ما نمتلكه هو أجسادنا."

"ماذا تعني الحياة لك الآن؟"

"سأكون صريحاً معك: الحياة لا معنى لها عندي. أنا أعتقد أنني لا أمتلك مشاعر بعد الآن، وأعرف أن بيتي سيضرب في أي يوم بالصورايخ من الجو. لا بل حين أقوم بسوق سيارتي، أبحث في السماء عن أباتشي [طائرة عمودية مسلحة]. لقد صرت شهيداً حياً."

والشاعر الفلسطيني محمود درويش، وهو معارض لكل أنواع الهجمات على المدنيين، وهو الصوت الدؤوب المنادي بالتعايش الإسرائيلي – الفلسطيني، كتب يقول: "علينا أن نفهم – لا أن نبرر – ما الذي يعطي البروز لهذه المأساة... الشعب الفلسطيني يحب للحياة. إذا أعطيناهم الأمل – حلاً سياسياً – فسوف يتوقفون عن قتل أنفسهم."[57] والسطور الآتية مقتبسة من قصيدته "الشهيد":

أنا أحب الحياة

على الأرض، بين أشجار الصنوبر وأشجار التين

ولكنني لا أستطيع الوصول إليها، لذلك فأنا أصوب نحو الهدف

بآخر شيء أمتلكه.

وبالنسبة إلى رامي الهانان، وهو مصمم رسام إسرائيلي، فإن تضحية الفلسطيني "بآخر شيء أمتلكه" تسببت في موت ابنته ذات الأربعة عشر عاماً من العمر، سمادار. هناك شريط مصور في البيت لسمادار من الصعب مشاهدته. إنها تعزف على بيانو الأسرة، وهي تلقي برأسها إلى الخلف وتضحك. لها شعر طويل،

كانت قد قصته قبل أن تموت بشهرين. "لقد كانت تلك طريقتها في إصدار بيان استقلالها"، كما أخبرني رامي وهو يبتسم. "كان من عادة إخوتها أن يمازحوها لأنها كانت طالبة جيدة للغاية. ولكنها كانت تعرف ما تريد. كانت تريد أن تكون طبيبة، وكانت تحب أن ترقص."[58]

في أصيل يوم 4 أيلول/سبتمبر من العام 1997، كان على سمادار وأعز صديقة لها، وهي سيفاني، أن تقوما بتقديم أداء تجريبي للقبول في مدرسة للرقص. وقد تحاورت سمادار في ذلك الصباح مع أمها، نوريت، التي كانت قلقة من ذهابها إلى مركز القدس لشراء الكتب التي كانت تحتاج إليها في المدرسة. وقالت نوريت: "كنت قلقة من الزيادة في التفجيرات الانتحارية، ولكنني لم أرغب في الشجار، ولذلك تركتها تذهب."

أما رامي فكان في سيارته حين فتح المذياع في الساعة الثالثة ليستمع إلى الأخبار وسمع التقارير عن التفجير الانتحاري في منطقة التسوق في بن يهودا. ثلاثة فلسطينيين مشوا في صفوف الجمهور وحولوا أنفسهم إلى قنابل بشرية. كان هناك مئتا مصاب تقريباً، والعديد من القتلى. وفي غضون دقائق، رن هاتف رامي الجوال. كانت نوريت تبكي. لقد تلقت مكالمة من أحد أصدقاء ابنهم، الذي كان قد رأى سمادار وهي تشق طريقها إلى سوق بن يهودا قبل وقت قليل من انفجار القنابل. وطوال ساعات، جال رامي ونوريت على المستشفيات، يبحثان عنها. "وأخيراً"، كما قال "اقترح شرطي بلطف أن نذهب إلى مشهد التفجير، وهناك وجهنا إلى محفظة جثث الموتى."[59]

كان "نزولهم إلى الظلام" أيضاً، كما يصفه رامي، بداية حملة ملهمة من أجل السلام. لم أقابل أحداً مثل رامي، والمقابلة التي أجريتها معه في غرفة الجلوس المشمسة في بيته في القدس أثرت في تأثيراً عميقاً. وأحياناً، تبدو حلول المشكلات السياسية الصعبة المراس في ظاهرها أقرب في متناول اليد حين يكون هناك أمثال رامي الهانان منهمكاً فيها، ويقول الذي لا يقال.

قال لي: "إن من المؤلم أن نعترف، ولكنها في الواقع بسيطة تماماً. ليس هناك فرق أخلاقي أساسي بين الجندي الواقف عند نقطة التفتيش يمنع امرأة تحمل بطفل من المرور عبر الحاجز، ويتسبب لها بذلك أن تفقد طفلها، وبين الرجل الذي قتل ابنتي. ومثلما كانت ابنتي مجرد ضحية [للاحتلال] كان هو أيضاً ضحية."

وعلى الرف خلفه كانت هناك صورة لابنته سمادار في الخامسة من عمرها. وهي تمسك لافتة. تقول: "أوقفوا الاحتلال." ويسميها رامي "طفلة سلام." وقد نشأ والداها على الإيمان بأن إنشاء إسرائيل لتكون وطناً قومياً يهودياً كان عملاً من أجل حفظ الذات. فوالد رامي بقي على قيد الحياة بعد أوشفيتز. وأجداده مع ست من عماته وأعمامه هلكوا في المحرقة. ووالد نوريت، ماتي بيليد وهو جنرال، كان بطلاً من أبطال حرب العام 1948. ويصفه رامي بأنه كان "واحداً من الرواد الحقيقيين لصنع السلام مع الفلسطينيين." وكان من بين الإسرائيليين الأوائل الذين زاروا ياسر عرفات في منفاه في تونس. ونوريت نفسها منحت جائزة السلام من البرلمان الأوروبي.

ويعيد رامي "وعيه للحقيقة التي لا نجرؤ على التحدث عنها" إلى الوقت الذي كان فيه مجنداً شاباً في الجيش. ويقول كانت حرب العام 1967 قد وقعت منذ وقت قليل، ولم تكن الحرب هي "التدخل الإلهي" كما صُوِّرت في إسرائيل، وخصوصاً في صفوف "المستوطنين" الذين بنوا قلاعهم غير المشروعة فوق الأراضي المحتلة حديثاً. ويصفها بأنها "بداية السرطان في قلب إسرائيل." وقال إنه أدرك لاحقاً، وهو جندي في حرب العام 1973 حرب يوم الغفران (كيبور)، "أن الدم موجود على يدي، أيضاً."

ورامي ونوريت هما من بين المؤسسين لحلقة الآباء أو العائلات المفجوعة من أجل السلام، والتي تجمع معاً العائلات الإسرائيلية والفلسطينية التي فقدت أحبابها. وهي تضم عائلات المفجرين الانتحاريين. وهم معاً ينظمون حملات تثقيفية ويشكلون جماعة ضغط على السياسيين للبدء بمفاوضات جدية. وحين قابلت رامي، كانوا قد وضعوا قبل قليل ألف كفن خارج مبنى الأمم المتحدة في نيويورك، وكل واحد منها

ملفوف بعلم إسرائيلي أو فلسطيني. وقال "ليس هدفنا أن ننسى الماضي أو أن نغفره، بل هو أن نجد طريقة ما للعيش معاً."

وسألته: "كيف تميز مشاعر الغضب، التي لابد أنك شعرت بها بصفتك والداً، حين فقدت ابنتك عن مشاعر إرادتك في التواصل؟"

"بسيط جداً. فأنا إنسان. ولست حيواناً. لقد فقدت طفلتي، ولكنني لم أفقد عقلي. التفكير والتصرف بناء على الشجاعة فقط يزيد من دائرة الدم التي لا نهاية لها. عليك أن تفكر: شعبانا هنا ليبقيا، لن يتبخر أحد منهما. يجب علينا أن نجد حلاً وسطاً بطريقة ما. وأنت تعمل ذلك بالعقل، لا بالشجاعة."

"هل قمت بالاتصال مع والدي المتفجر الانتحاري الذي قتل سمادار؟"

"جرت محاولة واحدة لذلك. شخص ما أراد أن يخرج فيلماً حول ذلك، ولكنني لم أكن مهتماً. أنا لست مجنوناً، أنا لا أنسى، وأنا لا أغفر. الشخص الذي يقتل الفتيات الصغيرات هو مجرم ويجب أن يعاقب، وأما أن أكون على اتصال شخصي مع أولئك الذين أساؤوا لي، فليست هي المسألة الجوهرية. وهكذا فأنت ترى، أن علي أحياناً أن أقاتل نفسي لأفعل ما أقوم بفعله الآن. ولكنني متأكد أن ما أفعله الآن هو الصحيح. إنني أفهم بالتأكيد أن المتفجر الانتحاري كان ضحية مثلما كانت ابنتي ضحية. من ذلك الأمر، أنا على يقين."

"هل قمت بالاتصال مع والدي المفجرين الانتحاريين الآخرين؟"

"نعم. اتصالات حارة جداً ومشجعة."

"ما هو المقصد من ذلك؟"

"المقصد هو صنع السلام، وليس طرح الأسئلة. وكما قلت، فأنا أيضاً أحمل دماء على يدي. كنت جندياً في الجيش الإسرائيلي... فإذا كنت تحفر التاريخ الشخصي لكل فرد ولكل واحد منا، فلن تصنع سلاماً، سوف تصنع المزيد من المناقشات والمزيد من التلاوم. غداً، أنا سأذهب إلى الخليل لمقابلة عائلات فلسطينية مفجوعة. إنهم برهان حي على رغبة الجانب الآخر في صنع السلام معنا."

"أليس المزاج العام في إسرائيل مختلفاً نوعاً ما؟"

"لي صديق يقول إن ما أفعله هو مثل نقل الماء من المحيط بملعقة. ونحن في حلقة الآباء] قليلون جداً، هذا صحيح، والذين يقودون العالم أناس أغبياء جداً: هذا أيضاً صحيح. وأنا أتحدث عن الرئيس الأمريكي وعن رئيس وزرائنا. إنك حين تأخذ كلمة (إرهاب) وتبني كل شيء حولها، كما يفعلان، فأنت لا تصنع إلا المزيد من البؤس فقط، والمزيد من الحرب، والمزيد من الإصابات، والمزيد من المتفجرين الانتحاريين، والمزيد من الانتقام، والمزيد من العقوبة. وإلى أين يقود ذلك؟ لا يقود إلى أي مكان. إن مهمتنا هي أن نشير إلى الواضح. جورج واشنطون كان إرهابياً، جومو كينياتا كان إرهابياً، نلسون مانديلا كان إرهابياً. ليس للإرهاب معنى إلا لأولئك الذين هم ضعفاء والذين لا يملكون أي خيار آخر. ولا وسائل أخرى."

"ما الذي يجب فعله لإنهاء هذه المعاناة؟"

"يجب أن نبدأ بمحاربة الجهل. أنا أذهب إلى المدارس وألقي محاضرات. وأنا أخبر الأطفال كيف بدأ النزاع بالطلب إليهم أن يتخيلوا بيتاً فيه عشر غرف يعيش فيه محمد وعائلته في سلام. ثم، في ليلة عاصفة، كانت هناك دقات على الباب، وفي الخارج وقف موسى وعائلته. إنهم مرضى، ومنهكون، ومكسورون. وهو يقول: اعذرني، ولكنني فيما مضى كنت أعيش في هذا البيت. هذا هو كل الصراع العربي – الإسرائيلي في لقطة صورة، وأنا أقول للأطفال إن الفلسطينيين أعطوا ثمانية وسبعين بالمائة من البلاد التي هم على يقين أنها بلادهم، وهكذا، فيجب على الإسرائيليين أن يعطوا اثنين وعشرين بالمائة التي بقيت [بعد حرب 1967]."

وهو يعرض على الأطفال في المدارس خرائط العرض الذي قدمه رئيس الوزراء إيهود باراك لياسر عرفات في كامب ديفيد قبل أن تنهار "عملية السلام". وتظهر الخرائط قطاعات من الضفة الغربية حجبت عن الفلسطينيين واحتفظ بها للمستوطنين اليهود. وقال: "كان هذا أعظم سر من الأسرار كلها. لأن باراك لم

يسمح قطعياً بعمل خرائط [رسمية]. كان يقترح شيئاً يعلم هو أن الفلسطينيين لن يقبلوه، ولا يستطيعون أن يقبلوه."

"وأي نوع من رد الفعل الذي تحصل عليه، في المدارس، وفي الأحداث العامة؟"

"أراقب وجوه الأطفال حين أعرض عليهم الخرائط وأقول لهم إننا ملكنا ثمانية وسبعين بالمائة، والفلسطينيون ملكوا اثنين وعشرين بالمائة، وهذا هو كل ما يريده الفلسطينيون الآن، وأرى أن الجهل قد رُفع. وأنت تعرف، في إسرائيل، يقال إن المفجوعين مقدسون. الناس يقدمون لهم الاحترام لأنهم قد دفعوا الثمن. وأنا أتلقى ذلك الاحترام، ولكن هناك أناس طبعاً لا يريدون أن يسمعوا ما أقول."

في كل ذكرى ل "يوم القدس"- وهو اليوم الذي تحتفل فيه دولة إسرائيل الحديثة باستيلائها على المدينة – كان رامي يقف في الشارع مع صورة سمادار وحاول أن يقنع الناس بمهمته من أجل السلام. وفي آخر يوم من يوم القدس، وقف أمام علمين متصالبين إسرائيلي وفلسطيني، والناس يقولون له: كان من المؤسف أنه لم ينسف هو أيضاً. وقال: "ذلك هو حجم المشكلة."

"وهل ستفعل ذلك في يوم القدس القادم؟"

"نعم. وسوف يبصق علي بعضهم ويلعونني، ولكنني أعرف أن هذا جزء فقط من المعادلة الإنسانية، إن الجزء الآخر هو الذي يجب أن نحله، وأنا والآباء الآخرون نقوم بصنع البداية."

"ما هو الثمن الذي يدفعه المجتمع حين يدير احتلالاً عسكرياً؟"

"إنه ثمن لا يطاق. وتبدأ القائمة بالفساد الأخلاقي. حين لا نسمح للنساء الحوامل أن يعبرن نقاط التفتيش، ويموت أطفالهن، نكون قد أنزلنا أنفسنا إلى مرتبة الحيوانات ولسنا مختلفين عن المتفجرين الانتحاريين."

"وماذا تقول للناس اليهود في بلاد أخرى، مثل بريطانيا: الناس الذين يساندون إسرائيل لأنهم يشعرون أن عليهم أن يفعلوا ذلك؟"

"أنا أقول إن عليهم أن يكونوا موالين للقيم اليهودية الحقيقية، وأن يساندوا حركة السلام في إسرائيل، لا الدولة، مهما كلف الأمر. إن الضغط من الخارج فقط – من اليهود، ومن الحكومات، ومن الرأي العام – هو الذي سينهي هذا الكابوس. طالما وجد هذا الصمت، وهذا الانصراف بعيداً بالنظر، وهذه الإساءة غير المقدسة إلى نقادنا بوصفهم معادين لليهود، فإننا لا نختلف عن أولئك الذين وقفوا جانباً متفرجين في أثناء أيام المحرقة. ولا نكون نحن مشاركين في جريمة فقط، بل إننا نضمن أننا نحن أنفسنا لن نعرف السلام، وأن أطفالنا الذين يبقون على قيد الحياة لن يعرفوا السلام. وأنا أسألك: هل لذلك أي معنى؟"

"ولكنهم قد يقولون إن اليهود في خطر من أن يدفعوا إلى البحر على أيدي العرب، وإن على إسرائيل أن تقف بحزم؟"

"ندفع إلى البحر ممن؟ نحن أقوى قوة في الشرق الأوسط. ونحن نملك أحد أعظم الجيوش في العالم. وفي هذه العملية الأخيرة لهجوم شارون على الضفة الغربية في نيسان/ابريل من العام 2002، أرسلنا أربع فرق مدرعة ضد حوالي خمسمائة شخص مسلح. إنها مهزأة. من الذي سيدفعنا إلى البحر؟ من الذي يستطيع أن يدفعنا إلى البحر؟... القضية الحقيقية يتم تمثيلها يومياً عند نقاط التفتيش. إن الولد الفلسطيني الذي تهان أمه في الصباح سيكون متفجراً انتحارياً في المساء. ليس هناك طريقة يستطيع بها الإسرائيليون أن يجلسوا في مقاهيهم ويأكلون ويشربون في الوقت الذي يهان فيه أناس يائسون على بعد مائتي متر والأطفال الفلسطينيون قد بدؤوا يموتون جوعاً. إن المتفجر الانتحاري ليس أكثر من بعوضة. والاحتلال هو المستنقع."

رئيس دائرة الآباء هو إيتسحاق فرانكينتال، الذي كان ابنه أريك، المجند في الجيش، قد خطف وقتل من قبل حماس. وجاء التعبير عن كرم الروح لديه في

خطابه إلى اجتماع من أجل السلام في القدس، قال فيه: "دعوا جميع الذين يزكون أنفسهم بأنفسهم من الذين يتحدثون عن القتلة الفلسطينيين القساة القلوب فلينظروا نظرة جادة في المرآة."

[دعوهم فليسألوا أنفسهم] ماذا كانوا سيفعلون لو أنهم كانوا هم الذين يعيشون تحت الاحتلال. أنا أستطيع أن أقول عن نفسي، أنا إيتسحاق فرانكينتال، كنت قد صرت بلا شك مقاتلاً في سبيل الحرية وكنت قد قتلت من الطرف الآخر أكبر عدد كان من الممكن لي أن أستطيع قتله. إن هذا النفاق الفاسد الأخلاق هو الذي يدفع الفلسطينيين إلى قتالنا بلا هوادة – معيارنا المزدوج الذي يسمح لنا أن نتبجح بأعلى أخلاقيات عسكرية، في الوقت الذي يقوم فيه العسكريون أنفسهم بذبح الأطفال الأبرياء... بقدر ما كنت أود أن أفعل مثل هذا، فأنا لا أستطيع أن أقول إن الفلسطينيين هم الذين يجب لومهم لموت ابني. سيكون هذا هو الطريق السهل للخروج وذلك [لأننا] نحن الذين لا نرغب في أن نضع السلام معهم، إننا نحن الذين نصر على إدامة سيطرتنا عليهم. إننا نحن الذين نغذي دائرة العنف... وإني ليؤسفني أن أقول ذلك.[60]

المنشقون في إسرائيل هم من بين أشجع من قابلت. وباستثناء مردخاي فعنونو المرموق، الذي قضى تسعة عشر عاماً في السجن، ومعظمها في عزل انفرادي، والذي يعيش اليوم تحت اعتقال فعال في المنزل، فإن معظم أولئك الذين ينبرون للدولة الإسرائيلية يبقون في المجتمع، وهناك تكون عقوبتهم في الغالب بلا هوادة. فهم بالنسبة إلى الكثيرين، قد خانوا لا بلادهم فقط بل أسرتهم ويهوديتهم وذكرى ضحايا المحرقة أيضاً. ويرفض أصحاب البقالات خدمتهم، وأصدقاء العمر يقطعون الشارع إلى الجهة الأخرى بدل أن يتكلموا إليهم. ومن دون إنذار يصرخ الناس عليهم ويبصقون عليهم – مثل رامي مع أعلامه.

في وقت كتابة هذا النص، رفض 635 جندياً إسرائيلياً أن يخدموا في فلسطين المحتلة. وزج بالمئات في السجن. وصرح آخرون تصريحات علنية عامة أقلقت نظام الحكم، وكان من جملتهم مظليون، وضباط دبابات، وأعضاء في القوات الخاصة.

وفي أيلول/سبتمبر من العام 2003، أعلن سبعة وعشرون طياراً من القوات الجوية، ومن جملتهم العميد يفتاح سبكتر، بطل في حرب 1967، أنهم رفضوا تنفيذ غارات "غير شرعية وغير أخلاقية على مراكز السكان المدنيين." والأكثرية مجندون شبان من الذين لا بد لهم أن يخدموا ثلاث سنوات في القوات العسكرية. ومنظمتهم هي "شجاعة الرفض."

أمضيت أصيلاً مع واحد منهم، الرقيب السابق إشاي روزن – زفي، وهو يهودي تقليدي مستقيم. تقابلنا في حديقة في تل أبيب، بعيداً عن العيون غير الصديقة. وسألته ما الذي جعله "رافضاً."[61]

"لقد استغرق الأمر معي لأفكر أكثر مما كنت أرغب. حين وصلت إلى غزة مع وحدتي، كنت أستطيع أن أرى أن ما كنا نفعله كان فظيعاً، ولكنني قمت بواجبي، شعرت أنني غير مطمئن ومحرج، ولكني قمت بواجبي. وفي الإجازة، في البيت، لم أتكلم عن ذلك أبداً، وصرت شخصية من نوع شخصية جيكل وهايد*. وبعدئذ بدأت أدرك أنني كنت في الجانب الخطأ من نقاط التفتيش، وحواجز الطرق التي كنا نزودها بالجنود يوماً بعد يوم. القصة الحقيقية للاحتلال هي في حواجز الطرق. عملك هناك هو اللاشيء، فأنت تقف في المكان، وتفكر لو أنك كنت تستطيع أن تهاتف بيتك لكنت ستقول: هذا ممل." ثم ينكشف لك ما هو هذا اللاشيء في الحقيقة. إنه إبقاء آلاف الناس في الإحباط، وفي الإذلال، وفي الجوع، وفي الغضب.

"تصورها. أنت واقف هناك والساعة هي الخامسة في الصباح، وأنت ترى عيونهم – بعض الناس يمكن أن يكونوا في عمر جدي – وأنت تلمح الإذلال والبغضاء. وتود أن تأخذهم جانباً وتقول لهم. انظروا، أنا إنسان طيب، ليس لي أي

* شخصية جيكل وهايد هي الشخص الذي له شخصية مزدوجة تتناوب بين أطوار الخير والشر. وهي منسوبة إلى رواية القضية الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد للكاتب روبرت لويس ستيفنسون (1850 – 1894) الروائي والشاعر وكاتب المقالات الاسكوتلاندي.

شيء ضدكم. ولكن ذلك طبعاً لا جدوى منه. وبالنسبة إليهم أنت الاحتلال. ولا أحد يعطيك حريته مقابل لا شيء."

وقلت له: "إن الحكومة تصر على أن حواجز الطرق موجودة هناك لإيقاف المتفجرين الانتحاريين عن القدوم."

"حواجز الطرق كانت موجودة هناك قبل خمسة وثلاثين عاماً من بدء التفجير الانتحاري. إن الحواجز موجودة هناك للسيطرة، دائماً للسيطرة."

"هل سبق أن أراد الفلسطينيون الذين ينتظرون تحت سيطرتكم أن يناقشوا هذا معكم؟"

"أنت تملك كل السلطة، وهم لا يملكون أي سلطة. أنت تستطيع، في أي لحظة، أن تأخذ بطاقة هويتهم، وبعد ذلك فإنهم لا يملكون أي شيء، لأنهم من دون بطاقة هوية، يمكن أن يعتقلوا في أي وقت. ولذلك فهم لا يجازفون بأي مخاطر، إنهم لا يناقشون، بل إنهم قد يكونون لا مبالين، ولكن ذلك ليس هو ما في قرارة قلوبهم."

"كيف ينظر إليك الإسرائيليون الآخرون، الناس الذين تقابلهم كل يوم، الذين يعرفون أنك رافض؟"

"بعضهم ينظر إلي بوصفي يسارياً متطرفاً، وهو أمر مضحك، لأنني رجل متدين، وبالنسبة إليهم، فإن السؤال الأخلاقي كلمة لا تدخل في الموضوع، وهم يعتقدون أنني منحرف في عقلي. واحد من أفضل أصدقائي قال لي: حسناً. إنها حرب غبية، ولكنها حرب، وعلينا أن نحاربها."

"وأسرتك؟"

"لا نتحدث عن الموضوع، أو نحن نحاول ألا نتحدث عنه. زوجتي تتحدث كل الوقت عن أشياء أخرى، لأن الموضوع صعب جداً..."

"وبهذا فأنت فعلت هذا وحدك؟"

"نعم، أنا وحيد في هذا."

"ما الثمن الذي دفعته؟"

"أنا لست بطلاً، صدقني. أنا شخص مجروح الشعور، أنا مجروح الشعور حين أكون في السوق ويقول لي شخص ما لا أعرفه: أنا قرأت في الصحيفة ما فعلت أنت. إنه مرعب. الناس الذين هم من أمثالك يدمرون بلدنا. ذلك مثل هجوم بالسكين وأنا أنغمس في معركة شخصية في عقلي، كيف أقولها...؟"

"هل تعني أن عليك أن تستمر في شرحها لنفسك؟"

"نعم، نعم، وليس الشرح وحسب، علي أن أكرر التأكيد لنفسي. علي أن أقول: إشاي، أنت لست خائناً. إن من الصعب أن تقول هذا لنفسك، وأنت وحدك."

"وماذا تقول لأولئك الناس اليهود في الخارج الذين يربطون النقد لإسرائيل بمعاداة السامية؟"

"حسناً، هذه مخادعة ضخمة. إنها أسوأ نوع من الدعاية. الشعب اليهودي في بريطانيا، وفي جميع أنحاء العالم، الذين يلعبون هذه اللعبة من المخادعة يديمون وجود الاحتلال وكل فظاعاته. يجب ألا يسهموا في مثل هذه الوسيلة التي تنتهك حرمة ذكرى المعاناة اليهودية، وألا يستغلوها لتبرير اضطهاد شعب آخر، انه انتهاك للحرمة.

"ما الذي تحب أن تقوله لمواطنيك؟"

"أحب أن أقول إن عليهم أن يفكروا تفكيراً شديداً حول الوطنية، لأن نقد حكومتنا في هذه القضية هو الشيء الوطني الوحيد الذي تركناه."

إن ثمن مثل هذه الوطنية الناقدة يمكن أن يكون عالياً جداً. إن إحدى النساء المسنات، وهي يافّا ياركوني، حاملة جائزة إسرائيل، قررت أن تتحدث برأيها في اليوم السابق ليوم ذكرى الشهداء من العام 2002، وهو اليوم الذي تتذكر فيه إسرائيل جنودها الذين سقطوا وتغني يافّا أغنياتها الوطنية في المذياع. ومنذ العام

1948، لم يمر عام واحد من دون أن تقف ياركوني على خشبة مسرح أمام جمهور عاشق لها وتغني أكثر أغنياتها شعبية. في عامها الخامس والسبعين، صارت هي فيرا لين* إسرائيل. وحين تحدثت، كان ذلك قبل أسبوعين من التقدير القومي لمكانتها الأيقونية في الأساطير القومية.

في يوم ذكرى الشهداء من العام 2002 كان ينتظر أن تعطي يافا مقابلة في مذياع الجيش، مثلما فعلت تماماً كل عام. كانت هي مغنية حروب إسرائيل وكان اسمها مترادفاً مع التطوع من أجل الخدمة العسكرية. عندئذ شن شارون "عملية الدرع الدفاعي" وفجرت دباباته طريقها إلى الضفة الغربية. شاهدت يافّا ياركوني أخبار التلفاز وقرأت الصحف، رأت البيوت المدمرة في جنين والنساء يبكين في الركام وصفوف الفلسطينيين المصفدين، وهم يساقون عبر الشوارع. ورأت صورة جندي إسرائيلي وهو ينقش أرقاماً على أذرعة "المشتبه" بهم من الفلسطينيين فأثرت فيها واستشاطت منها غضباً.

وفي مذياع الجيش، كانوا يتوقعون وصولها. كانت ستظهر في برنامج عنوانه "التطوع والتضامن مع الجنود"، وكانت ستقول بضع كلمات مشجعة للقوات، ثم سيغنون أغنيتها – "ليكن عندك الإيمان، إن اليوم سيأتي." عندما بدأت المقابلة، كان من الواضح أن ياركوني لم تكن في مزاج ملائم لأي شيء من هذا. فتجاهلت الأسئلة وبدلاً عن ذلك تكلمت عن "غياب القيادة" في إسرائيل، ولماذا كانت تأمل أن يقوم أحفادها بالهجرة. وعن الجنود الذين رفضوا أن يخدموا في الأراضي المحتلة قالت: "إن من حقهم أن يفعلوا ما يقول لهم ضميرهم أن يفعلوه."

ازدحم مقسم الهاتف. وسرت موجة من العداء ضدها لا تكاد تصدق. وفي ذلك الأصيل، طُلب منها أن تفسر نفسها في برنامج إذاعي شعبي آخر. فقالت: "حين رأيت

* مغنية بريطانية نشطت في 1935 – 1995. وغنت للجيوش وقدمت برامج نالت إعجاب الجنود من الإذاعة البريطانية.

[الجنود] يقودون [الفلسطينيين] وأيديهم خلف ظهورهم، قلت: إنه مثل ما كانوا قد فعلوه بنا وبالأطفال في المحرقة."

مدير المدرسة التي كان ينتظر أن تتحدث فيها في ذلك اليوم اتصل في الهاتف وألغى ظهورها، وحين وقفت لتغني في نادي تزافتا في تل أبيب، صاح الجمهور ضدها استخفافاً وأساء إليها، وخرج الناس من النادي. وكتب وكلاء عملها اعتذاراً ورجوا منها أن توقعه. كتبوا إنها تطلب "صفح الأمة." ولكنه جاء برد فعل عكسي. وروت جريدة يديعوت أحرونوت اليومية اليمينية أن الاعتذار كان قد "فرض" على ياركوني التي، كما زعمت الجريدة، قارنت الجنود الإسرائيليين بالنازيين. وهذه كذبة لم تصحح أبداً، والتقدير الذي كان سيقدم لأكثر من نصف قرن من "الخدمة البطولية" قد ألغي. وهي مثل رامي الهانان وإشاي روزن – زفي، أسيء لها في الشارع وسميت "منكرة المحرقة." وكتب محرر الصحيفة الكبيرة التوزيع معاريف: "إن يافّا ياركوني قد التحقت بمعاداة السامية الجديدة في أوروبة."

لقد رفضت أن تتراجع. وقالت ليوسي كلين، وهو صحافي متعاطف من صحيفة ها آرتز: "الأراضي [المحتلة] يجب أن تعاد وهذا هو كل ما في الأمر، إن كتابة أرقام على أذرعتهم... صدمتني فعلاً. أليس هذا هو ما فعله الألمان؟"وقالت إنها تلقت رسالة من أحد الباقين على قيد الحياة من المحرقة، شكرها فيها على ما قالت، لأننا "يجب أن نتعلم من المحرقة ألا نسيء إلى شعوب أخرى ونذلها."

وكتب كلين يقول: "ومن دون أي اعتبار للإزعاج الذي يمكن أن تسببه لنفسها، أثارت ياركوني أسئلة لا تعتبر مقبولة: هل كان النازيون وأعمالهم كياناً فريداً من نوعه أم أن هناك مثل هذا الأمر وهو: أعمال مثل أعمال النازيين؟ هل نحن، ضحايا النازيين، قادرون على فعل مثل هذه الأفعال؟"[62]

بالنسبة إلى اليهود، فإن مجرد إثارة هذه الأسئلة المحرمة يتطلب شجاعة أخلاقية وفكرية، وخيالاً، تُذكّر كلها بالإنسانيين وبالمصلحين وبالثوريين العظماء لليهودية. وكان إسرائيل شاحاك واحداً من مثل هذه الأصوات، وهو من

اليهود الذين بقوا على قيد الحياة من حي اليهود (الغيتو) في وارسو وبيرغن – بيلسين، وهو أستاذ الكيمياء العضوية في الجامعة العبرية في القدس ومؤسس حركة السلام الإسرائيلية.

في السبعينيات من 1970 قمت بزيارات عديدة إلى شقته الصغيرة، المتروكة بلا ترتيب، في تل أبيب. وهو يقدم لي كرسياً ويجلس على كوم من الكتب، وكل كتاب منها تخرج منه أوراق كأنها البراعم وقد خربش عليها ملاحظاته. كان وجهه مليئاً بالندوب بصورة مرعبة نتيجة لأعمال التعذيب النازية، ونظرته من خلال نظارته المزدوجة البؤرة نظرة لا تخطيء، وصوته الذي ينبعث كالصرير يرتفع ويرتفع، ثم ينفجر ضاحكاً. وكانت كلمتا "يعجز عنه القول" و"السلام" من الكلمات الأثيرة لديه.

وصرح قائلاً: "السلام"، وهو يدير الكلمة حول لسانه، "سوف يأتي السلام فقط حين لا تبقى حقوق اليهود موضوعة فوق حقوق الإنسان. ذلك ما يعجز عنه القول! لم يظهر فينا أبداً مارتن لوثر أو كالفن الذي قال: انتظروا لحظة، لقد كنا على خطأ في بعض المبادئ الأساسية طوال آلاف السنين. إذا كانت إسرائيل ديمقراطية، فلماذا نحن خائفون إلى هذا الحد من أن نغير؟ لماذا نحن منغلقون في تأمل استبطاني دائم؟ حين يتحدث الناس لصالح المصالح اليهودية فقط يعتبرون أناساً قد رأوا النور.

"حين دافع زولا* عن دريفوس لم يعتبره اليهود رجلاً أحب العدالة، بل اعتبروه رجلاً محباً لليهود! واليوم [1974] عليك فقط أن تنظر في الكتاب السنوي للإحصاءات الإسرائيلية، وتستطيع أن ترى أن كل شيء في إسرائيل مصنف في نوعين: يهودي وغير يهودي... الخضراوات! والبطيخ! والمواليد!... غير اليهود، الذين اتفق أنهم الأكثرية هنا، هم من قبيل ما يعجز القول عنه!"

---

* يشير إلى قضية النقيب ألفرد دريفوس (1859 – 1935) الضابط الفرنسي اليهودي الذي اتهم بالخيانة ثم تبينت براءته، وأدى ذلك إلى انقسام في الساحة السياسية الفرنسية. ودافع عنه الروائي والكاتب والناقد الفرنسي الكبير إميل زولا (1840 – 1902) في رسالة مشهورة بعنوان: "إني أتهم". ودخل الكاتب السجن من أجل ذلك. (المترجم)

وسألته هل تعتقد أن اليهود والعرب سوف يعيشون في أي وقت معاً في سلام؟

وأجاب: "نعم! ولكن فقط إذا كان هناك أمن لكلينا. نحن لن نملك الأمن إذا كنا نفكر فقط بوصفنا يهوداً."[63]

وفي الأعوام الحديثة، نطق "المؤرخون الجدد" في إسرائيل بالقضايا التي "يعجز القول عنها"، وهؤلاء المؤرخون هم الذين رفضوا أن يقبلوا ميلاد دولة إسرائيل بوصفه القدوم المعجزة. وقد قابلت في حيفا إيلان بابي، وهو واحد من أشجع المؤرخين التنقيحيين، ولسعة معرفته معنى أخلاقي جذاب، وكأنه كان يعوض عن الوقت الذي أضاعه الآخرون. في كتابه مقومات النزاع العربي – الإسرائيلي، 1947 – 1951، يتحدى زعم المؤرخين الصهاينة الذين يقولون إن حرب العام 1948 مع العرب، وهي التي أدت إلى تأسيس إسرائيل، كانت حرباً خاضوها لمنع "محرقة أخرى." وهو يضع "أسطورة الإبادة" هذه في مقابل قسوة القيادة اليهودية نحو أي مقاومة فلسطينية أبداها الفلسطينيون لطردهم من أراضي وطنهم.

وكانت إحدى القضايا التي أثارت أشد الخصام حول حرب 1948 هي سبب هروب مئات الآلاف من الفلسطينيين من بيوتهم في الشهور والأسابيع التي سبقت إعلان استقلال إسرائيل. ففي الوقت الذي حاجج فيه السياسيون والمؤرخون العرب لوقت طويل أن هذه كانت سياسة مدبرة للتطهير العرقي، فإن "النسخة الوطنية" الإسرائيلية ترى أن القادة العرب هم الذين أمروا بالرحيل عن فلسطين وشجعوا عليه. ولكن المؤرخين التنقيحيين فتحوا سجلات عبرية لم تر من قبل وفتحوا ملفات استخبارات تصف خطة عسكرية مفصلة تهدف إلى الاستيلاء على فلسطين، ومن جملتها سياسة متعمدة "تطلب استسلام السكان [الفلسطينيين] وتدمير القرى والاستيلاء عليها من قبل المستطونين اليهود. وكانت هذه الخطة معروفة باسم "خطة داليت" أو "خطة د".[64]

وفي كتاب تاريخ فلسطين الحديثة، يقول بابي إن المجازر والفظاعات الوحشية، من مثل قتل مائتي إنسان في دير ياسين، "لم تكن قد اقترفت عشوائياً،

بل هي جزء من خطة رئيسية لتخليص الدولة اليهودية المستقبلية من أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين."[65] هذه كانت النكبة، "الكارثة" التي يحزن منها الفلسطينيون. وكتب بابي يقول: "إن 900,000 نسمة تقريباً طردوا بالقوة... وهكذا كانت القوة العسكرية هي التي مكنت لقيام إسرائيل، ومعها التطهير العرقي، واجتثاث العرب من البلاد."[66] وقد كتب مستشار بن غوريون للشؤون العربية يقول: "يجب أن نكون بلا رحمة، وأن نقتل النساء والأطفال كذلك."[67]

وقد هوجم بابي، مع أميرة هاس ومع المنشقين الإسرائيليين الآخرين، هجوماً شرساً خبيثاً. وقد قيل عنه إنه "مسيّس تسييساً عالياً" وأنه "يهودي آخر يكره نفسه". وقد هددت جامعة حيفا بطرده بعد أن دافع عن أحد طلابه وهو الطالب الذي كشف بحثه الذي أجراه لكتابة رسالة الماجستير أن مائتين من الفلسطينيين قد قتلوا على أيدي القوات اليهودية المتقدمة في الطنطورة، وهي بلدة تقع إلى الجنوب من حيفا، وذلك في العام 1948. وبعد أن قرأ مخطوطات مدونة من أكثر من ستين ساعة من الأدلة التي حصل عليها طالبه، تيدي كاتز، من أكثر من أربعين شاهد عيان، صار بابي مقتنعاً بصحتها. وقد كتب يقول: "إنها تحتوي على أوصاف مروعة لتنفيذ أعمال القتل، ومنها قتل الآباء أمام الأطفال، والاغتصاب، والتعذيب."[68] ولكن كاتز ارتكب أربعة أخطاء صغيرة، وعلى الرغم من أنه منح درجة عالية من قسم الشرق الأوسط في الجامعة، فإن درجته قد ألغيت. ووصلت القضية إلى الصحف، وجرى الضغط على كاتز، وهو صهيوني مخلص، كي يقدم الاعتذار.

ووقع بابي أيضاً تحت ضغط شديد. ولكنه احتفظ بعمله بفضل مساندته عن طريق التهديد بالمقاطعة الدولية الأكاديمية. لقد كانت قضية كاتز قضية حفازة، وكانت بدعة بابي هي معارضته الصريحة للاحتلال، وعلى وجه الخصوص، قيامه بفضح الزيف في أسطورة "عملية السلام" في أوسلو ولماذا "فشلت".

وهذه هي أهم أسطورة معاصرة من أساطير إسرائيل. وتقول هذه الإسطورة إن سلف شارون، وهو إيهود باراك، كان قد عرض على الفلسطينيين عودة "90 بالمائة" من الأراضي المحتلة في كامب ديفيد في العام 2000 وأن ياسر عرفات رفض عرض

باراك. وصار رفض عرفات المزعوم لهذا "العمل غير المسبوق من الكرم" هو صيحة الشعار البراق للإساءة المتجددة للفلسطينيين ولعرفات، والمبرر الرئيسي "لعملية الدرع الدفاعي" ولبناء جدار التمييز العنصري.

لم يكن هناك أي عرض يشمل "90 بالمائة". وفي كامب ديفيد، وعد باراك بانسحاب عسكري رمزي من مساحة ليست أكثر من 12 بالمائة من الأراضي المحتلة. وأوضح توضيحاً جلياً أن إسرائيل ليس لديها النية في إعادة أي جزء من القدس الكبيرة، التي تغطي بعضاً من أفضل الأرض الفلسطينية والتي تشكل القلب الإداري والثقافي لفلسطين. ومعظم المستوطنات غير الشرعية، التي سيطرت على 42 بالمائة من الضفة الغربية وغزة، سوف تبقى، تاركة بذلك للفلسطينيين قطعاً مجزأة من أرض وطنهم الأصلية أو 15 بالمائة من فلسطين ما قبل قيام إسرائيل.[69]

وقد كتب المفاوض الرئيسي لباراك في كامب ديفيد، وهو شلومو بن – آمي، قبل أن يتولى دوره مفاوضاً، وقال: "من الناحية العملية، كانت اتفاقات أوسلو قد تأسست على أساس استعماري جديد، على حياة اعتماد طرف على آخر إلى الأبد."[70] وفي الوقت الذي أثنى فيه اليهود الموجودون في الخارج على الإنعام المتصور الذي تفضل به باراك، فإن كثيرين من اليهود كانوا يعرفون معرفة أفضل، كما كتب نعوم تشومسكي. لقد فهموا أنه يجري إنشاء مستعمرة غير مستقلة وهي "بانتوستان مقترحة من النوع الذي أسسته جنوب إفريقية في أحلك أيام التمييز العنصري." وهو ما سوف يركز الحياة الفلسطينية في ثلاثة "كانتونات" تحت السيطرة الإسرائيلية، وهي عملياً مفصول أحدها عن الآخر وهي مفصولة عن كانتون رابع، وهو منطقة صغيرة من القدس الشرقية. "وذلك كان هو السبب، حسب ما يفترض، الذي تم من أجله تجنب الخرائط بكل حرص في مجرى التفكير العام في الولايات المتحدة."[71]

وبدلاً من إعادة العاصمة الفلسطينية إلى القدس العربية، فإن مركز الحياة الفلسطينية حدد في قرية مجاورة هي أبو ديس، وكان الإسرائيليون قد استخدموها مكباً للقمامة. وسوف يسمح لنسبة ضئيلة فقط من اللاجئين بالعودة وسيتعين على

الفلسطينيين أن يتخلوا إلى الأبد عن حقوقهم في العودة – وهو حق لا تنتهك حرمته بموجب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وليست السلطة الإسرائيلية فقط هي التي ستسود، بل إن المحاكم الإسرائيلية أيضاً، وفق ما روته جريدة هاآرتز، ستحتفظ بسلطات الاعتراض (فيتو) على أي تشريع فلسطيني "قد تعرض المصالح الإسرائيلية الكبيرة للخطر."[72]

وقد سألت إيلان بابي حول هذا، فقال: "في صيف العام 2000 تُرك الفلسطينيون مع عرض 10 بالمائة مما كان في السابق فلسطين: وهو ما يمكن أن أسميه الدولة بلا دولة مع عدم وجود سيادة حقيقية لها، ومع عدم وجود سياسات خارجية اقتصادية أو سياسية مستقلة، ومع عدم وجود عاصمة مناسبة لها، وهي متروكة تحت رحمة الخدمات الأمنية الإسرائيلية. وفي مقابل ذلك، طُلب من عرفات أن يعلن نهاية النزاع، وأنه لن يكون هناك بعد ذلك مطالبات بالاستقلال."

وقلت له: "إن الرئيس كلينتون، وهو مضيف كامب ديفيد، قدم نفسه بوصفه حيادياً عادلاً. هل من القوي جداً أن نصف دوره بأنه خيانة؟"

"لا أظن أن ذلك قوي جداً. إن تعبير (عملية السلام) ينتمي إلى القاموس الأمريكي، لم يكن هناك أي جهد دبلوماسي حقيقي من أجل السلام. و[كلينتون] قَبِل التصور الإسرائيلي للسلام، وهو أن يُملي على الفلسطينيين، ويُغلف ذلك في خطاب عن السلام ويقدمه إلى العالم بوصفه جهداً سلمياً حقيقياً. ولمدة من الوقت، قَبِل الفلسطينيون هذا التصور، وفي الاحتفال في مروج البيت الأبيض في العام 1993 لمشاركة كلينتون، وعرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين، تم إخراج الموضوع كله على المسرح بطريقة تجعل من الصعب جداً الاعتراض عليه، لأنك سوف تدعى (معادياً للسلام). وكانت الحقيقة هي أنهم وقعوا على وثيقة لم يكن لها علاقة ولو بواحدة من القضايا المركزية التي كانوا يتصارعون حولها طوال أكثر من مائة عام."

"هل مقارنات مكاسب الفلسطينيين مع بانتوستانات جنوب إفريقية التمييز العنصري هي مقارنات صحيحة؟"

"يجب أن أقول، من وجهة نظري الشخصية إن [التشبيه بالتمييز العنصري في جنوب إفريقية] هو شيء جديد وحديث... ولكني اعتقد أنه يساعد لتوضيح الموقف. هناك سياسة واضحة للفصل وللتمييز العنصري في الضفة الغربية وغزة. أما نحو الأقلية الفلسطينية داخل إسرائيل، وهي حوالي مليون نسمة، فهذه السياسة نسخة من التمييز العنصري، ولكنها أكثر حذقاً ودقة، وهي مطبقة على كل مستوى: تشريعي، وقانوني، واقتصادي. ثم هناك موقع أناس من أمثالي أنا نفسي. فنحن [الذين نعترض] مغربون كلياً عن مجتمعنا الخاص بنا، وهو ما يعني أننا إلى حد كبير جداً مثل أولئك البيض في جنوب إفريقية الذين قرروا أن يلتحقوا بالمجلس الوطني الإفريقي. فنحن مثلهم، نبدو وكأننا نعمل ضد كل شيء مصون أو مقدس في عيون مجتمعنا الخاص بنا. ومثل أولئك الذين عارضوا التمييز العنصري، يتعين علينا أن نكون مستعدين أن نذهب إلى الحد الأقصى: أي، أن نطلب من الآخرين أن يفرضوا عقوبات على مجتمعنا الخاص بنا لأننا نعتقد أنه لا توجد أي طريقة أخرى لتغيير ذلك الأمر الذي يعتبر مدمراً تدميراً أساسياً لإسرائيل ولجيران إسرائيل."

"ما هو الحل؟"

"أنا أعتقد، أننا في نهاية المطاف، سوف يتعين علينا أن يكون لنا دولة واحدة هنا. قد يكون علينا أن نمر عبر مرحلة الدولتين، ولذلك فأنا لا أعارض فكرة حل الدولتين، بشرط أن يفهم الناس أن ذلك سوف يقود إلى دولة ستكون ديمقراطية وعلمانية، وسوف تضم عدداً كبيراً من اللاجئين. هذه هي الطريقة الوحيدة لستة ملايين من اليهود ولستة ملايين من الفلسطينيين، الذين سيكونون هنا في غضون عشر سنوات أو خمس عشرة سنة قادمة، ليكونوا قادرين على العيش في هذه المساحة الضئيلة، بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط. قد يحتاجون إلى هياكل سياسية منفصلة، وكونفيدرالية، ولكن سيتعين أن تكون الدولة دولة واحدة لجميع الناس."

"وهل ذلك ممكن؟"

"إنه ليس ممكناً في الأمد القصير. فمثل هذا الحل طوباوية في الأمد القصير، ولكنه ممكن – وأنا أقول ذلك بحزن كبير – فهو ممكن بعد نازلة فقط، وآمل ألا تكون كارثة، بل نوعاً من الأحداث أو التطورات التي ستكون تبصرة تفتح العيون. وهذا هو السبب الذي أساند من أجله فرض عقوبات على بلادي، وأدفع ثمناً غالياً لقولي هذا. وأنا أشرح لأصدقائي ولزملائي أنني أفضل أن أدفع ثمناً اقتصادياً لا أن أدفع ثمناً من حياة النفوس البشرية. وهذا مشابه جداً لحالة جنوب إفريقية، ففيها لم يكن المجلس الوطني الإفريقي وحده ليستطيع أن يأتي بنهاية للتمييز العنصري. كانت هناك حاجة إلى حملة منسقة من العقوبات، وتلك هي التي نجحت في النهاية."

"وكيف تتعامل مع المتعصبين في الحكومة: شارون والمؤسسة الإسرائيلية الحالية؟ إنهم يمتلكون سلطة كبيرة للغاية."

"إنهم يمتلكون الكثير من السلطة، وأنت لا تستطيع أن تعمل ضمن ذلك. وهذا هو المكان الذي تكون فيه أوروبة مهمة. هؤلاء المتعصبون يحملون صورة عن ذاتهم بأنهم ينتمون إلى أوروبة لا إلى الشرق الأوسط. إنهم على خطأ، فإسرائيل لها مستقبل فقط إذا هي أدركت أنها جزء من الشرق الأوسط وليست حصناً للثقافة الأوروبية. ولذلك، فإن الضغط الأوروبي عليهم، الذي يدين إسرائيل من منظور أوروبي، يستطيع أن يكون له أثر عليهم. ثم هناك الولايات المتحدة. وأولئك الذين هم مثلي أنا نفسي يميلون إلى التفكير في أمريكا بوصفها قضية خاسرة، ولكن المشهد السياسي الأمريكي أكثر تعقيداً بكثير مما تراه العين، ولا أظن أن الفلسطينيين ومسانديهم قد استكشفوا المداخل المفتوحة لهم هناك استكشافاً كافياً. وهم بذلك قد سمحوا بوجود فراغ، وذلك هو السبب الذي يجعل جماعة الضغط الموالية لإسرائيل (اللوبي) قوية جداً، لا لأنها قوية في الجوهر، بل بسبب عدم وجود أحد يعارضها هناك."

"وماذا عن الحصانة التي مازالت إسرائيل تتمتع بها في القضايا الدولية، وقوة ذكرى المحرقة؟"

"ذكرى المحرقة مركزية بالنسبة إلى الطريقة التي تعامل بها إسرائيل وإلى الطريقة التي يرى بها الإسرائيليون أنفسهم. إن المحرقة تسمح للإسرائيليين أن يفعلوا أي شيء: ولو كانت الإبادة الجماعية العرقية، وليس هناك أي نقد داخلي. وليس مسموحاً للأوروبيين، ولا لبقية العالم الخارجي، بنقد إسرائيل، وهكذا فإن أي شيء يقع بين الإبادة الجماعية العرقية وبين الاحتلال الرحيم ليس مفتوحاً للنقد، وإن أنت كسرت تلك القاعدة، فأنت متهم بمعاداة السامية.

"ثم هناك استغلال المحرقة المثير جداً للاهتمام، استغلالها في شيطنة العرب، على وجه العموم، والفلسطينيين، على وجه الخصوص. وقد بدأ هذا الأمر مع بيغن حين شبه عرفات بهتلر في العام 1982. وأنت تستطيع، طبعاً، أن تنزع الإنسانية عن الفلسطينيين بمقارنتهم مع النازيين، وبالتالي فأنت مخول أن تفعل بهم أشياء كان يمكن للإسرائيليين الحساسين أن يحتجوا ضدها لو أنهم سمعوا عنها تحدث في أجزاء أخرى من العالم."

"أليست هذه التهمة بمعاداة السامية خلطاً متعمداً للنقد الصحيح لإسرائيل مع الهجمات المعادية للسامية من قبل جماعات أقصى اليمين في أوروبة؟"

"تلعب معاداة السامية دوراً مهماً جداً في محاولة الإسرائيليين أن يضبطوا النقد القادم من الخارج. وفي الوقت نفسه، فإن أقصى اليمين الأوروبي يستغل الغضب المبرر الذي يبديه المجتمع الأوروبي المدني حول الاحتلال الإسرائيلي. إن استغلال إسرائيل لهذا أمر مثير جداً للسخرية. فما يفعله الإسرائيليون هو أن يأخذوا الظاهرة الهامشية من معاداة السامية ويزعموا أن هذه هي الظاهرة الرئيسية. وبعض الحكومات في أوروبة تلعب متعاونة مع هذه اللعبة: وعلى سبيل المثال، الحكومة البريطانية.

"وأي محاولة لامتلاك سياسة أوروبية منسقة معارضة للسياسات الإسرائيلية بوصف ذلك شرطاً مسبقاً أصيلاً للسلام فإنها تلقى المقاومة المعوقة من الحكومة البريطانية – ومن ألمانيا. وفي حالة ألمانيا، فسوف يستغرق الأمر جيلاً آخر بالنسبة

إلى الألمان ليتحرروا تماماً في مجال كونهم قادرين على فصل القضيتين: فصل معاداة السامية عن نقد إسرائيل."

"ألا يعود الكثير من هذا إلى الخوف في إسرائيل من أنهم سوف يقذفون في البحر؟"

"إنه خوف حقيقي يخافه الإسرائيليون واليهود على حد سواء. وهو خوف آت من الجهل أولاً وقبل كل شيء، ومن الاستغلال الذي تمارسه الحكومات الإسرائيلية. إنه خوف كان له ما يبرره في بداية المشروع الصهيوني، لأن الاستعمار الصهيوني ووجه بالرفض من السكان الأصليين ومن العالم العربي [الأوسع]، وكانت هناك محاولة لإنهائه. ولكن ذلك كان منذ ستين عاماً خلت والحكومات العربية والشعب العربي على حد سواء تصالحوا مع الحقيقة وهي وجود عضو حي هنا، وهو مجتمع يهودي في إسرائيل، ولا أحد يرفض، لا من الناحية العملية الذرائعية ولا من الاعتبارات الأخلاقية، أن يفكر فيه بعد الآن. وما هو مهم هو أن الضحايا، في السنوات الخمسين الماضية، كانوا هم الفلسطينيين، لا الإسرائيليين، وكان الجناة هم الإسرائيليين، لا الفلسطينيين. والخطر الحقيقي اليوم ليس هو أن اليهود سيقذفون في البحر، بل هو أن الفلسطينيين سيقذف بهم إلى خارج أرض وطنهم – وهناك، بعد كل شيء، مثال الملايين الذين قذف بهم إلى الخارج من قبل."

"هل تلعب دعاية الحرب دوراً كبيراً في إسرائيل؟"

"نعم، انظر إلى اللغة المستعملة. فلسطين ليست فلسطين، إنها البنية التحتية للإرهاب. وبما أن الجيش الإسرائيلي يؤثر على معظم وسائل الإعلام، فإن كل المناقشة لحرب التحرير، ولو كانت حرب عصابات، يجري تجنبها. فليس مسموحاً لك أن تقول في وسائل الإعلام الإسرائيلية (مقاتلو حرب عصابات). وليس مسموحاً لك أن تقول (الاحتلال). وليس مسموحاً لك أن تقول (الضفة الغربية) و(قطاع غزة)، ويجب عليك أن تقول (اليهودية) و(السامرة). وهذا كله جزء من تشويه الماضي ومن تجريم الطرف الآخر. إن إنهاء الاحتلال سوف يجد الكثير من المساندة الشعبية في

إسـرائيل. ولكننـا مكيَّفـون لكـي نـرى (الإرهـابيين) والمجـرمين فقـط، والثقافـة الإسلامية التي تحاول أن تقتل أكبر عدد ممكن من اليهود. وبعد 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، فهمت وسائل الإعلام الإسرائيلية أنها كانت تستطيع أن تقفز إلى العربة وتضع الفلسطينيين في (الحرب على الإرهاب)، مبررة بذلك كل أنواع الارتباطات التي لم يكن لها وجود أو كانت خاطئة وحسب."

"أليس صحيحاً أن إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، مع كل أخطائها، فهي تستحق الحماية؟"

"أولا وقبل كل شيء، إنها ديمقراطية لليهود. وهي ليست، بالتأكيد قطعاً، ديمقراطية للفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل والذين يشكلون عشرين بالمائة من السكان. والاختبار الرئيسي لأي ديمقراطية هو الطريقة التي تعامل بها الأقلية، والدولة التي تفرض معاناة غير ديمقراطية أبداً على المنطقة المحتلة، تخفق في أن تكون ديمقراطية. نعم، كان هناك في السابق لعبة من الديمقراطية في إسرائيل، ولكنهم تخلوا عن ذلك. أما الآن فهي لعبة تسمح للحكومة وللجيش أن يفعلوا ما يشاؤون. فهم يستطيعون التمييز ضد الفلسطينيين وقتلهم كما يشاؤون. وهم يستطيعون أن يضايقوا باستمرار أناساً من أمثالي وأن يخيفوهم لينصاعوا لأنهم من اليهود غير الصهيونيين.

"ما ثمن إبداء الرأي بحرية من دون خوف؟"

"طالما استمرت لعبة الديمقراطية قائمة، فالثمن هو العزلة. لقد تأثرت ترقيتي في الجامعة. وكان هناك مزاج تُرجِم إلى مكالمات هاتفية للتهديد. ولكني لم أُهاجَم جسدياً أبداً، ولا سجنت بسبب آرائي. أنا الآن قلق من أن يكون هناك لعبة جديدة في المدينة، تبدأ بانتخابات شارون في شهر شباط/فبراير من العام 2001، وفيها سوف يعامل أناس مثلي من دون لباقة. إن مجموعة معينة من اليهود، من أمثالي، من الذين كانوا حتى الآن محصنين بسبب لونهم، كما نقول، على أفرادها الآن أن يكونوا حريصين جداً، لأننا كما أعتقد على وشك أن نُعامل بالطريقة نفسها التي يعامل بها الفلسطينيون."

"ما أثر كل هذا على المجتمع الإسرائيلي؟"

"في غضون السنوات العشر أو الخمس عشرة القادمة، سيكون لدينا هنا مجتمع من المتعصبين، ويدار وفقاً لقواعد الحكومة الدينية (الثيوقراطية) بدلاً من الديمقراطية، مع الكثير من العنف، محلياً وخارجياً. وسيكون من الصعب التمييز بين العنف المفروض على الأراضي المحتلة، والمفروض على الأقلية الفلسطينية في إسرائيل، والمفروض نحو الناس من أمثالي، وبين العنف الكلي المفروض من المجتمع. وهناك دراسة مثيرة للاهتمام تبين تصاعد العنف المحلي – أي، العنف بين الأزواج والعنف في المجال العام في إسرائيل. فالناس الذين خدموا في الجيش لا يستطيعون أن يحرروا أنفسهم من عقلية القوة حين يعودون إلى البيت وإلى الحياة المدنية."

"أليست الاختلافات الموجودة بين التقاليد الإنسانية لليهودية وبين قومية الصهيونية مختلطة بانتظام وعن عمد تقريباً؟"

"نعم، هناك عالم من الاختلاف. وهذا هو الأمر الذي يساعدني على الاستمرار في اعتبار نفسي يهودياً لا صهيونياً، وعلى ألا استسلم لأي شخص يقول لي إنك لا تستطيع أن تكون يهودياً لأنك مناوئ للصهيونية. اليهودية مدخل شامل للحياة. إنها سارت ضد كل فكرة من أفكار القومية، لقد كانت هي الوصايا العشر، وكانت تجعل المجتمع مكاناً أكثر عقلانية للعيش فيه. وقد أخذت الصهيونية هذه الرسالة الشاملة وضيقتها للغاية، وكأن ما كانت تدور حوله اليهودية هو أرض، وعلم، ونشيد، وعلى الرغم من أنني لا أبرئ أي شخص من معاداة السامية، فإنني أعتقد مع ذلك أن هذا التشويه لليهودية بصفتها استعماراً قد خلق نوعاً جديداً من معاداة السامية."

كان الوقت وقت الغسق حين مشيت عبر "الأرض الحرام،" من نقطة التفتيش العسكرية بين إسرائيل وبين قطاع غزة. وطريقة السيطرة هنا نكدة، وكفؤة، وعلى النقيض من فوضى الضفة الغربية، وتذكرني بنقطة تفتيش تشارلي* التي

* صارت هذه النقطة رمزاً للحرب الباردة، والفصل بين الشرق والغرب. وكانت هناك نقاط أخرى مثل ألفا، وبرافو. وسميت بذلك وفق الأبجدية الصوتية ألف، باء، جيم. (المترجم)

كانت تفصل برلين الشرقية عن الغربية. وبدا أن المرور الإنساني الوحيد الذي كان يجري هو مرور الأجانب والمسؤولين. "لقد نجحوا في جعل العرب يختفون." كما قال مرة عن تل أبيب آفي مغربي، مخرج الأفلام الإسرائيلي الذي أخرج الفيلم التوثيقي الساخر: كيف تعلمت أن أتغلب على خوفي وأحب أريك شارون."[73] وبراعة اليد نفسها كانت قد تحققت عند بوابات أكثر ركن في العالم العربي اكتظاظاً بالسكان. ويسمي الإسرائيليون عملهم هذا "الإغلاق"، وبتعبير آخر، فالإسرائيليون قد بنوا جداراً حول مليون وربع المليون من الناس وأغلقوا عليهم.

وبعد أن صرت في الداخل، وجدت نفسي مستغرقاً باكتئاب سوداوي، وكنت فيه كأنني منتهك لحرمة مكان سري للحداد الحزين. وخيوط الدخان المتصاعدة من النيران الموقدة بالحطب معلقة فوق البحر الأبيض المتوسط نفسه الذي تعرفه الشعوب الحرة، والشمس الحمراء كالنار، هي نفسها تهبط على أولئك الذين لم يعرفوا الحرية أبداً. وعلى طول الشواطئ التي يمكن أن يعتبرها السواح رائعة جديرة بالتصوير كان بعض المحصورين من غزة يمشون متثاقلين مجهدين، وصفوف من الأشكال الداكنة صارت شخوصاً ظلّية، تمشي عند حافة الماء، عبر صرف صحي يرتطم بالحافة وهو يتدفق من "المستوطنة" اليهودية في نيتساريم. وهم يكافحون في مشيهم ويميلون ويسقطون في الغالب على الرمل وعلى الحجارة.

وعلى ردم ترابي أعلى من الشاطئ سار طريق غزة الرئيسي الوحيد، طريق صلاح الدين، الذي كان في ما مضى يسير كل الطريق إلى القاهرة. وقطاع غزة لا يكاد يصل إلى 25 ميلاً طولاً و3 أميال عرضاً، وهذا الطريق هو العمود الفقري للقطاع. ومع ذلك فالطريق قد قطع هنا من قبل الجنود الإسرائيليين، وهو ما أجبر الناس والسيارات على السير على الشاطئ. وكان هذا لضمان "الأمن" من أجل "المستوطنين" في نيتساريم، الذين سكنوا في واحة طفيلية داخل سجن غزة، وهناك يتخيلون أنهم يسكنون في مكان يدعى اليهودية. وعند نقطة تفتيش نيتساريم هذه وقع إطلاق النار السيئ السمعة على محمد الدرة ابن الثانية عشرة، إطلاق النار حتى الموت حين حاول أبوه عبثاً وهو المجروح جرحاً قاتلاً أن يحميه من النيران الإسرائيلية.

وتحيي ذكراهما صور جدارية إيقونية ضخمة علّمت عليها طلقات الرصاص كأنها آثار الجدري.

وقف أبو رائد سلطان، وهو مزارع، على الجانب الآخر من الطريق في المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه. وكانت ابنته تغريد إلى جانبه، ورحبت بي باللغة الإنجليزية. وقالت: "والدي ليس بحالة جيدة. فهو يجد ما قد حدث مستحيل التصديق تقريباً." وشرحت لي أن العائلة كانت تملك بستان حمضيات صغيراً، وهو الذي جلب لجيلها "أول رفاهية منذ ما قبل العام 1948". وقد كانت هي أول فتاة تذهب إلى الجامعة. وفي صباح يوم من شهر آذار/مارس من العام 2002، وصل والدها إلى البستان مع أخيه فوجدا هناك دبابة إسرائيلية تحطم مجموعة من الأشجار بعد مجموعة. لقد أُعلنت أرضهم جزءاً من "المنطقة الأمنية" من أجل "المستوطنين".

لم يكن هناك أي إنذار، صاح الجنود عليهما وقالوا لهما إنهما إذا استمرا في العمل في الأرض فسيكونان في خطر من إطلاق النار عليهما. وبُنيت التحصينات العسكرية. وقالت: "انحطت الحال بوالدي إلى أن صار يبيع البرتقال الإسرائيلي المستورد في السوق."

وسألتها: "كم يكسب من هذا؟"

"إن الإسرائيليين أغرقوا السوق. فعشرة كيلو غرامات من البرتقال تدر أقل من دولار. وهو يعيل أسرة من ثلاثة عشر طفلاً، ويشتري كتبي اللازمة للجامعة. وهو مزعوج لأنني قد أضطر إلى ترك الجامعة. ويريدنا جميعاً أن نكون محامين وأطباء مع التعليم الذي لم يتمكن هو أن يناله قطعاً."

وشرحت لوالدها ما كانت قد قالته لي، واعترض هو. وقالت: "يريدك أن تعرف أنه سيبيع دمه شخصياً ليحافظ على أسرتنا مستمرة."

حين تقابلنا، كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيعون الوصول بها إلى الأرض من خلال مقبرة هي "مقبرة الشهداء" وهي المكان الذي يدفن فيه مقاتلو لجان

المقاومة الشعبية، والمفجرون الانتحاريون يدفنون هنا، ووجوههم الناضرة تطل من خلال شريط من الشواهد البيضاء الموجودة على القبور. ومن بين المدفونين هنا والد هذا المزارع، وهو الذي صودرت أرضه في العام 1948 بطريقة استبدادية، مشابهة. وفي المرة الثانية التي حدثت فيها المصادرة كان ينام بين أشجار البرتقال والليمون على أمل أن يكون وجوده في الأرض مانعاً للجرافات. ولكنه توفي بعد ذلك مباشرة.

ومن خلال فجوة في السياج المحيط، راقبنا أناساً يعملون في الأرض، يشرف عليهم جنود في تحصينات عسكرية. وقالت لي تغريد: "إنهم يطلقون النار حين يحبون ذلك. ومن حين إلى آخر، قبل بزوغ الفجر، تأتي الدبابات وتسير فوق الأرض المزروعة حديثاً."

وسألتها: "لماذا تحافظ أسرتك على ذلك مستمرة في هذه الظروف؟"

"أبي وعمي مصممان جداً. وعمي يرفض أن يذهب إلى السوق ليبيع برتقالاً إسرائيلياً."

وحين كنا نشاهد ما يجري في الأرض، انطلقت الطلقات النارية، وأجبرتنا على الرجوع إلى خلف شواهد القبور. وفي ذلك الوقت تماماً وصل أخو المزارع، وكان رجلاً ضخماً يستشيط غضباً إلى درجة تجعل المحادثة معه مستحيلة. خطا خطوات واسعة إلى الحقل، وصاح بشيء ما علينا، ثم استدار وصرخ صرخة مدوية أفرغت غيظه وتحديه على الجنود الموجودين في التحصينات العسكرية. في العام 1974، صورت في فيلمي مزارع زيتون كان في قبضة مثل هذا التوقد الغاضب نفسه تقريباً. وفي أكثر من ربع قرن، لم يتغير شيء.

الدكتورة منى الفرا طبيبة في مستشفى العودة في مخيم جباليا للاجئين في غزة. وهي تتحدث بإنجليزية سريعة، وتتقافز الكلمات على لسانها سلفاً قبل التحدث بها. قالت لي: "أنا أستطيع أن أبقي (أنقذ) على الحياة هنا، ولكن يجب أن أكون يقظة الانتباه، ويجب أن أكون سريعة." وكانت حماستها متجهة نحو جمع

المال من أجل إجراء عمليات الجراحة التجميلية للأطفال المصابين بجروح من الرصاصات المطاطية. وطلبت منها أن تصف لي متى حدث هذا آخر مرة.

فقالت: "منذ ثلاثة أشهر، وقفت دبابتان أمام المستشفى، وفتحتا النار. فقتل سبعة عشر شخصاً وجرح ثمانية وثمانون، ومن بينهم أطفال يعانون من جروح مروعة. حدث هذا على بعد مائة متر من هنا، كان يمكن أن يستغرق إحضارهم إلى المستشفى دقيقة واحدة، ولكن لم يسمح لأحد أن يتقدم من المصابين، وكان الموظفون الطبيون يشاهدون الناس وهم ينزفون حتى الموت في الشوارع. وأما المساعدون الطبيون، وهم يلبسون زيهم الأبيض الموحد، فقد كانت النار تطلق عليهم في كل مرة حاولوا فيها أن يرسلوا منقذين للمصابين. وفي هذا المستشفى، فقدنا مائة وستين من العاملين الطبيين، جرحى أو قتلى. وحاولنا أن نحصل لموظفينا على صدريات واقية ضد الرصاص فقيل لنا إن هذا غير مسموح به لكم، والعاملون الدوليون فقط هم الذين يستطيعون الحصول على مثل هذه الصدريات الواقية."

"أين ولدت؟"

"ولدت في خان يونس، في أقصى الجنوب من قطاع غزة. ويعيش هناك الآن أكثر من ستين ألف نسمة، في مخيم للاجئين محاط بالمستوطنين وبالدبابات. إنهم قلب المنطقة المركزية لمعاناتنا ولمقاومتنا، ولا يعرف العالم أي شيء عنهم. وأنا أريد أن أريك ذلك."

سقت السيارة مع منى إلى مفترق طرق يقف عنده صف يبلغ طوله ميلاً من المرور بانتظار نقطة تفتيش عسكرية على الطريق إلى خان يونس: شاحنات تحمل طعام حيوانات، وطحيناً وبرتقالاً، وسيارات أجرة فيها طالبات يحاولن الوصول إلى بيوتهن. وربما سيكون عليهن أن يمضين ليلة هناك: لم يتحرك شيء في الحر وفي الغبار. وقام سائق قلق يسوق شاحنة مليئة بالدجاج الحي بصب الماء على الأقفاص. وفي غضون ساعات قليلة، وما لم يبدأ الصف بالتحرك، فسوف يبدأ هذا السائق برمي الطيور النافقة على جانب الطريق.

وفي الأمام كان هناك مجموعة من أنوار المرور وتحصين عسكري. وحين ومض الضوء الأخضر، دام وميضة مدة لا تكفي إلا لمرور بضع سيارات. وأحياناً كانت تومض بانبثاقات تدوم لعشر ثوان. وحين تكون أنوار المرور معطلة، يطلق الجنود طلقات نارية في الهواء: طلقة للبدء بالحركة، وأخرى للوقوف. ولا يستطيع أي فلسطيني أن يمشي عبر الإشارة، ولا يسمح لأي سيارة أن تمر إذا كانت لا تحمل إلا راكباً منفرداً فيها، خوفاً، كما يقول الإسرائيليون، من هجوم انتحاري. ولذلك فإن الفتيان المحليين أجروا أنفسهم للسائقين المنفردين الذين كانوا يريدون أن يتجنبوا إطلاق النار عليهم. وكانت الأولية تعطى لسيارات القمامة، وكان الناس يختبئون في القمامة، لم تكن الرمزية في هذا لتغيب عن أحد.

لماذا كان هناك هذا الانتظار والازدحام؟ لم تمر سيارة واحدة على الطريق المتقاطعة مع الطريق التي وقفنا في صفوفها طوال الساعة ونصف الساعة التي كنت فيها هناك. لقد كانت تلك الطريق "طريقاً أمنية" خاصة من أجل "المستوطنين" فقط، طريق لليهود فقط.

ومسحت آلات التصوير، المحمولة على السيارة، الأرض المحروثة المبوّرة المحيطة بالموقع والتي كانت، قبل وصول المستوطنين، مليئة بالبساتين والمحاصيل. وقالت لي منى: "انظر إلى ما وراء ذلك الخط من النخيل، وانظر إلى المكان الذي يقع فيه الجسر. ذلك هو المكان الذي كان يقوم فيه بيتي. لدي صور له، في اليوم التالي بعد أن جاءت الجرافات. لقد كان بيتي واحداً من ستة وعشرين منزلاً تم تدميرها في بداية الانتفاضة. لقد جاؤوا في الساعة الحادية عشر ليلاً واقتلعوا الأشجار ودمروا بئر مائنا، ثم دمروا بيتنا."

"ومن كان في البيت في ذلك الوقت؟"

"لم يكن فيه أحد. أمي كانت بعيدة في مدينة غزة تزور الأصدقاء. ولم يسمح لها بالعودة لاستنقاذ أي شيء. كل ذكريات حياتنا كانت هناك. طفولتي، وطفولة والديّ. وتاريخنا الذي يعود إلى مئات السنين..."

"وأين أسرتك الآن؟"

"أمي تسكن في كوخ بائس في مخيم اللاجئين في خان يونس. وأختي هناك أيضاً. وأنا لا أستطيع الحصول على تصريح لزيارتهما، ولا أن آتي بأختي المريضة مرضاً شديداً إلى المستشفى. إنني أفكر فيهما طوال الوقت، وأعتقد أن حياتي تقع تحت الهيمنة طوال الوقت. ولا أستطيع الذهاب ولو إلى القدس أو رام الله من دون تصريح يصدره جيش الاحتلال الإسرائيلي، وقد رفضوا منحي هذا التصريح طوال ثماني سنوات مستمرة حتى الآن. وفي أثناء ذلك الوقت، كان ابني يدرس في جامعة بيرزيت في الضفة الغربية. لقد كان على بعد ساعة ونصف من قيادة السيارة. ولكني لم أكن أستطيع أن أذهب لأراه."

"ما هو السبب الذي كان الإسرائيليون يبدونه لك؟"

"من عادتهم أن يقولوا: نحن غير مخولين أن نبدي لك السبب."

"هل اتهموك بكونك إرهابية؟"

"هم يعرفون أنني طبيبة! وفكر في الغضب الذي يسببه هذا. وفكر في الكيفية التي يشعر بها شبابنا. فإنك لكي تذهب إلى المدرسة تحتاج إلى إذن من الإسرائيليين. ولتمتلك بطاقة هوية فإنك تحتاج إلى إذنهم. ولتتزوج، فإنك تحتاج إلى إذنهم. إننا نعيش في سجن مفتوح – لا، إنه ليس مفتوحاً، لأنهم قسموا السجن إلى العديد من السجون الصغيرة. فالشوارع المسدودة تصير سجوناً، والبيوت تصير زنازين. إنها مثل المتاهة في المنام، متاهة لن تستطيع أن تصل فيها إلى المخرج.

"وبالنسبة إلى الإمدادات الطبية الأساسية الخاصة بالطوارئ فإننا انتظرناها خمسة أشهر، لكي تصل إلى هذا المستشفى. لقد وهبها لنا أصدقاء في مصر وخزنت في منطقة الحدود، ولم يسمح لتلك الإمدادات بالعبور إلا بعد أن تلفت في حرارة سيناء. وأنا أتحدث عن محاليل، وأدوية، ومهدئات ألم كنا بحاجة ماسة عاجلة إليها..."

"لماذا يوجد للعديد جداً من الأطفال بطون منتفخة؟"

"لأنهم جياع جوعاً يائساً. قبل هذا الحصار، حصار شارون، كانت الأسرة الفلسطينية باقية حية، لا بل حسنة الحال. إن من واجبي أن أتحدث إلى الناس لأكتشف من هم الذين يعانون، ويجب أن أكون صريحة معك: الجوع في كل مكان. العائلات لا ترى اللحم أبداً تقريباً، وإذا كانوا محظوظين، فسيحصلون على دجاجة واحدة كل أسبوعين. وهم لا يعرفون الفواكه، وهذه هي أرض الفواكه. الأطفال يحصلون على الشاي والخبز، وعلى شيء قليل غير هذا. وكلهم تقريباً يعانون فقر دم غذائياً. ومعظم مياه الصنبور تحت سيطرة المستوطنين وما يصل إلينا غير صالح للشرب."

في المجلة الطبية البريطانية في عدد تشرين الأول/أكتوبر من العام 2004، روى الدكتور ديريك سومرفيلد عن دراسة ميدانية عن غزة والضفة الغربية. وكتب يقول: طوال السنوات الأربع الماضية،

ثلثا الأطفال الذين بلغ عددهم 621 والذين قتلوا عند نقاط التفتيش، وفي الشارع، وفي طريقهم إلى المدرسة، وفي داخل بيوتهم، ماتوا من نيران أسلحة صغيرة، موجهة في أكثر من نصف الحالات إلى الرأس، والعنق والصدر – جرح من سلاح القناص. وثلثا الأطفال كانوا تحت سن الخامسة عشرة. ومن الواضح، أن الجنود مخولون بشكل منتظم عادي بإطلاق النار بقصد قتل الأطفال في مواقف يكون فيها التهديد في حده الأدنى أو لا يوجد فيها أي تهديد. إن هذه الإحصاءات تجتذب دعاية أقل إلى حد بعيد من التفجيرات الانتحارية.

واستشهد الدكتور المذكور بدراسة للبنك الدولي تظهر أن 60 بالمائة من السكان في غزة كانوا لا يلقون القوت إلا قليلاً جداً عند مستوى الفقر، واستشهد بدراسة أجرتها جامعة جونز هوبكنز وجامعة القدس وهي تظهر أن ربع الأطفال تحت سن الخامسة كانوا يعانون من سوء تغذية حاد أو مزمن. إن تماسك النظام الصحي الفلسطيني يجري تدميره." وكتب يقول:

إن الجدار [الذي يجري بناؤه حالياً عبر الضفة الغربية من قبل الإسرائيليين] سوف يعزل 97 مستوصفاً صحياً أولياً و11 مستشفى، عن السكان الذين

تخدمهم هذه المؤسسات الصحية. فمستشفى قلقيلية، وهو يخدم اللاجئين في الدرجة الأولى، قد شهد انخفاضاً قدره 40 بالمائة في حالات المتابعة، لأن المرضى لا يستطيعون أن يدخلوا المدينة... ونقطة التفتيش الموجودة عند المدخل المخصص لبعض القرى يغلق في الساعة السابعة مساء... وقد اقترب من البوابة رجل من قرية أحيطت بالسياج الآن بالقرب من قلقيلية وهو يحمل ابنته المريضة مرضاً شديداً بين ذراعيه، ورجا الجنود المناوبين أن يسمحوا له بالعبور ليستطيع أخذها إلى المستشفى. ولكن الجنود رفضوا، واضطر طبيب فلسطيني استدعي من الجهة الأخرى إلى أن يحاول إجراء الفحص الطبي وأن يعطي الطفلة حقنة من خلال أسلاك السياج.

وخلص الدكتور سومرفيلد في تقريره إلى السؤال: "كيف يتعين علينا أن نؤثر على هذه الحالة الباعثة على الصدمة، حالة هي بالنسبة إلى هذا الطبيب المولود في جنوب إفريقية، قد ذهبت في الإفراط في الشطط إلى أبعد مما كان في عصر التمييز العنصري؟"[74]

حين كنت في غزة، علقت إمدادات الطعام المقدمة من الأونروا إلى غالبية الأسر في مخيمات اللاجئين. وقد قال لي مسؤول: "إن المستودع الرئيسي فارغ." لقد لجأنا إلى الاتحاد الأوروبي من أجل تقديم الدعم المباشر، وإلا فلن يكون لدينا أي شيء في وقت قريب."

شركات المنافع الإسرائيلية، وأقل من سبعة آلاف "مستوطن" يهودي سيطروا، إلى أن تم إخلاء المستوطنين في أيلول/سبتمبر من العام 2005، على موارد غزة، وخصوصاً على توزيع مياهها. وفي درجات الحرارة القياسية في صيف العام 1995، قامت شركة المياه الوطنية الإسرائيلية ميركورت، بقطع إمدادات الماء عن معظم غزة لمدة عشرين يوماً لأن الناس لم يكونوا يملكون أي مال يسددون به فواتيرهم. وحرم ثمانية آلاف نسمة وهم سكان قرية العبيدية من الماء الجاري لمدة ثمانية عشر شهراً في حين كانت المستوطنات اليهودية المجاورة "تزدهر في الصحراء."[75]

وكانت مستوطنة غوش قطيف واحدة من عشر مستوطنات يهودية كانت تحيط بمخيم اللاجئين في خان يونس، وهو المخيم الذي لم تكن تستطيع الدكتورة الفرا أن تزور فيه أمها وأختها. وبعد حرب العام 1967، حين استولت إسرائيل على قطاع غزة، يقال إن موشي دايان كان قد وضع يده المفتوحة في الرمل وقال: "راحتي هي إسرائيل، وأصابعي عرب، يجب أن نسترجع الأصابع." وسواء أكانت هذه القصة موضع شك أم لا، فقد صارت هي المطلب المبتغى. وكان يقال إن دايان ليبرالي. وقد قال في محاضرة له في العام 1969: "إن القرى اليهودية بنيت في مكان هذه القرى العربية. لا بل إنكم لا تعرفون ولو أسماء هذه القرى العربية، وأنا لا ألومكم، نظراً إلى أن كتب الجغرافية لم تبق موجودة بعد الآن. وليست الكتب وحدها التي لا توجد فقط، بل إن القرى العربية ليست هناك أيضاً."[76]

وطوال عشر سنوات كانت غوش قطيف محاطة بسياج مكهرب، وكان هناك جدار مبني بناء جزئياً، وكانت خمس عشرة دبابة من الجيش متمركزة على منصة من الرمل ومتوجهة مباشرة إلى مخيم خان يونس. وكان الفلسطينيون الذين تقع بيوتهم في مواجهة المستوطنة قد اعتادوا أن يفتحوا نوافذهم في الصباح للرشاشات الثقيلة ولفوهات مدافع دبابات الجيش التي تربض على بعد 150 متراً. وعاش فلسطينيون آخرون فوق حطام بيوتهم المدمرة.

وقد كتب الصحافي الفلسطيني الأمريكي توفيق حداد في مجلة خلف الخطوط يقول: "ببساطة لا يكفي القول: إن إسرائيل تقصف خان يونس."

إن الجيش الإسرائيلي يستخدم الرشاشات الآلية الثقيلة التي تؤدي حين تطلق من مثل هذا القرب في المسافة إلى اختراق البيوت من خلال ألواح الإسبيستوس المهترئة والإسمنت المسلح الرخيص لبيوت اللاجئين التي بنتها مؤسسة إغاثة وتشغيل الفلسطينيين من الأمم المتحدة في أواخر الخمسينيات من 1950. وزيادة على ذلك، فإن إسرائيل تستخدم ذخيرة خطاطة حارقة تتسبب بإشعال الحرائق بعد أن يبدأ القصف. وفي إحدى المرات، اشتعلت النار في ثلاثين بيتاً مختلفاً في ليلة واحدة... وإضافة إلى ذلك، فإن القنابل التي تقذف إلى المخيم من دبابات الجيش المتمركزة

في غوش قطيف ومن قوارب الأسطول المتمركزة في البحر، ترسل مئات من قطع شظايا القذائف عند الانفجار وهي مسؤولة عن تشويه أو قتل كل من يوجد في منطقة نصف قطرها 30 متراً... وقد بدأت إسرائيل حديثاً باستخدام ذراع رافعة روبوتية تمتد إلى موقع يشرف على أزقة المخيم. وفي نهاية الامتداد الكامل لهذا الذراع يوجد معقل مدرع يتسع لثلاثة جنود إسرائيليين مجهزين بنيران مدفعية ثقيلة يستطيعون طلب قصفها فوق المخيم.[77]

موشيه دان، وهو دليل سياحي إسرائيلي أمريكي، وافق على أخذي إلى غوش قطيف. لبس قبعة كرة القاعدة (البيسبول) ونظارات طيار، وحمل مسدساً من عيار 0.45. ومع وجود موشيه على دفة القيادة كان يجري التلويح لنا عبر نقطة تفتيش عسكرية بعد نقطة تفتيش. وحين مررنا على عائلة فلسطينية على حمارها قال موشيه "عرب"، نطقها وكأنه يشير إلى الحيوانات المحلية للمنطقة.

وسألته: "لماذا تعتقد أن هذه الأرض متنازع عليها؟"

"بالدرجة الرئيسية لأن اليهود، الإسرائيليين، جاؤوا ليعيشوا هنا. والشيء المثير للسخرية هو أن العرب قد استفادوا فائدة هائلة من حقيقة هي أن اليهود قد بنوا قطاع غزة. وهناك رفاهية هائلة [في صفوف الفلسطينيين] نتيجة للاستيطان اليهودي... أنظر إلى هذا الجسر، هذا المعبر، القادم أمامنا. الآن هذا موضع جدال شديد..."

كنا نعبر تقاطع الطرق الذي كانت منى الفرا قد أخذتني إليه. ومن خلال ضباب الحرارة، كنت أستطيع أن أرى بصعوبة الصف الذي يمتد بلا نهاية من السيارات الفلسطينية، وهي في الأخاديد وفي الرمال، وهم يشاهدوننا ونحن نعبر. وتحت المعبر كان هناك أنقاض بيت عائلة منى الفرا.

"لماذا هو موضع جدل؟"

"هذا الطريق لا يمكن أن يستخدمه إلا اليهود."

"ولماذا؟"

"لكي نحمي المستوطنين من الإرهابيين. يجب عليهم أن يفصلوا المجتمعات، ليس لديهم أي خيار. انظر إلى هذه الحواجز. كانت هناك بيوت سابقاً.ولم يكن بدٌ من جرفها لإيقاف الإرهابيين."

"أليست هذه المستوطنات استفزازات، وقعت على أرض الفلسطينيين، وارتبطت بطرق لليهود فقط؟"

"حسناً، هذا الموقف حديث نسبياً. وهو موجود فقط منذ بدأ عرفات هجماته الإرهابية على اليهود. ولم يكن هناك في الحقيقة أي شيء نستطيع أن نفعله لمنعها، سوى أن نقصف المدن بالقنابل."

"ماذا كان سيحدث لو أن اليهود خرجوا منها؟"

"أعتقد، بالنسبة إلى تنشئة عائلاتهم، أن هذا واحد من أفضل الحلول لهم."

"كيف؟"

"إن التعاون الاقتصادي هو أفضل طريق لخلق السلام. وهذا ما هو جار هنا: التعاون الاقتصادي بين اليهود والعرب..."

وحين وقفنا بالسيارة عند بوابات غوش قطيف، قلت له: "موشيه، هناك الكثير من الناس الذين ينظرون نظرة غضب ويقفون من حولنا هنا بأسلحتهم: وهو نموذج مثير للاهتمام من التعاون الاقتصادي."

بدأ مستوطنان شابان بالصراخ علينا وهما يوجهان سلاحيهما الآليين نحونا. وقال موشيه: "هناك مشكلة صغيرة. ابق هادئاً."

"ماذا يقولون؟"

"انصرفوا بسرعة."

واستدعي، ديفيد ريشيه، المستوطن الذي كان قد وافق على أن يقابلنا، وبعد انتظار متوتر توتراً شديداً، وصل وتحدث مع الصارخين. وقال: "سق إلى الداخل بسرعة." وحين عبرنا كانت الوجوه مكفهرة عابسة.

بعد ذلك، تكشفت لنا بلاد أخرى. فرشاشات الماء انطلقت على المروج الخضراء الناضرة وأحواض الورد تفتحت صفاً بعد صف من أكواخ الضواحي، والعديد منها مزود ببرك السباحة. والأطفال الأصحاء يلعبون في شوارع هادئة، وهناك رجل يقوم بتشذيب سياجه، في حين كانت هناك امرأة تتنزه مع توأميها المحمولين في عربة أطفال. وأومأنا بالتحيات.

ديفيد ريشيه، رجل ذو وجه لطيف في الأربعينيات من عمره، قدمني إلى عائلته وإلى أصدقائه، الذين كانوا قد وضعوا شطائر وأباريق عصير البرتقال على طاولة طويلة. وكانت مودتهم خلابة، وقد أحببتهم. ثم تجول بي ليريني المكان.

"وقال ديفيد، وهو يمد يده ليتناول قبعة ليغطي بها هامة رأسه البيضاء الشاحبة اللون: "آه، شمس الشرق الأوسط!"

وقلت: "نحن كلانا أوروبي أشقر..."

وقال وهو يبتسم للمفارقة الساخرة: "أنا ولدت في حيفا."

"وهي مدينة عربية..."

"نعم، اليهود والعرب عاشوا هناك معاً."

"ولكن والديك جاءا من أوروبة."

"من أوروبة، نعم... ولكني نشأت مع العرب. وتستطيع أن تقول إنني كنت صديقاً مع العرب إلى أن حرك عرفات كل هذا الاضطراب." وبدا الأمر وكأن نكبة العام 1948 لم تحدث وكأن دايان لم يمدد يده في الرمل. عرفات، الشيطان المتجسد، قد محا كل ذلك، وأفسد العرب الوادعين، الذين كانوا سابقاً سعداء على حميرهم.

وحين كنا نمشي إلى جانب "جدار أمني" أعلى من طولنا بثلاثة أضعاف، مع الحرص على الإسراع بالمشي حين نمر أمام الفجوات الموجودة في الجدار، كان ديفيد ريشيه يكافح من أجل أن يجيب عن أسئلتي، وهو مذهول من إخفاقي في فهم نقطته

الثابتة في الإشارة إلى الكتاب المقدس. وقال: "بعد أن تفهم أن كل شيء يجري هنا اليوم هو أمر مقرر من قوة أكبر منا جميعاً، حينئذ سوف تفهم ما هو واضح."

"وما هو الواضح؟"

"حسناً، والداي جاءا من أوروبة، ولكنني هنا لأن هذا المكان هو مكاننا. هذا واضح. أنا لا أستطيع أن أعيد شيئاً ليس من شأني أن أعيده، ولا يستطيع أحد أن يعيده: لا الساسة، ولا البرلمان. إن حركتنا تعود إلى ثلاثة آلاف عام مضت حين جاء بنا موسى إلى هنا ونحن نملك حلم بناء الهيكل في القدس."

"أليس ذلك اعتقاداً دينياً؟"

"لا، إنه أقوى من الدين. إنه شيء أكبر بكثير. وأنا أعني، أن المشاعر ربما تكون هي نفس مشاعر الدين، ولكنه شيء نؤمن به. إن أطفالي يتعلمون أن يؤمنوا به. وعلى الجانب الآخر، فإن الفلسطينيين المتدينين يشعرون الشعور نفسه. اسأل جماعة حماس. إنني أفهم ما يقولونه. هم أيضاً يملكون مثل هذا الإيمان. ولكنها ليست في أيدينا، وليست في أيديهم. إنها أكبر من كل الناس الموجودين هنا."

"وأين ستنتهي إذا لم يكن هناك حل وسط ولا عدالة لشعب مظلوم؟ أهو النزاع الدائم؟"

"حسناً، الحياة مليئة بالنزاعات. ربما يكون ما أقوله شيئاً قوياً جداً. وأنا أعني لعبة يجب أن يكون الربح فيها من جانب مكافئاً للخسارة من الجانب الآخر، واحد لصفر. وسوف نقاتل. إنها إما نحن وإما هم. واحد لصفر، ونحن الذين سنربحها."

"ألا يعني ذلك أن جانباً واحداً يجب أن يسيطر على الآخر؟"

"أرجوك ألا تسألني عن السياسة."

"ولكن هذا كله يدور حول السياسة. فإذا كان يتعين علينا أن نتحدث عن أخذ الأراضي باسم دين، وإيمان، فذلك هو شكل متطرف من السياسة. أين ينتهي؟ هل تسير الطريق كلها إلى دمشق؟"

"حسناً، ذلك سؤال جيد. ولكن اسمع، نحن نبني بلداً يهودياً، كل البلد اليهودي هنا بالضبط. وذلك يشمل القدس. ونحن نريد أن نعطي أبناء عمومتنا، العرب، كل شيء، ولكننا لا نستطيع أن نعطيهم القدس. فلم يكن هنا أي بلد آخر في ثلاثة آلاف عام أبداً. كان هناك بلد واحد فقط، وهو البلد اليهودي. لم يكن للفلسطينيين أبداً أي بلد، صحيح؟ ولا كان للأتراك ولا للرومان."

"هل تعني فعلاً أن الفلسطينيين لم يكونوا هنا؟"

"أفراداً فقط. لم يكن هنا بلد: لا ملك، ولا سلطة. والحدود الحقيقية كانت مكتوبة في الكتاب المقدس. ليس هناك حدود أخرى."

"وماذا عن الأعداد الضخمة من الناس الذين لا يؤمنون بما هو مكتوب في الكتاب المقدس؟"

"حسناً، أنا مؤمن به، وأنا مسؤول عن رأيي فقط. وعلى كل حال، فالقرآن، أو أي كتاب إسلامي آخر لا يتحدث عن بلد هنا. الإرهابيون فقط هم الذين يزعمون أن لهم بلداً على الجانب الآخر. وبلدنا حرب ضدهم."

"هل اليهود إرهابيون، أيضاً؟"

"لا، حين تكون في قتال من أجل حقوق اليهود، فأنت لست مثل ذلك. إنها تختلف. نحن مختلفون."

وحين كنا نتحادث، كنا نستطيع أن نرى على مسافة منا منطقة تعرف باسم المواصي، وهناك تم الإغلاق على اثني عشر ألف فلسطيني إغلاقاً كاملاً بأسوار غوش قطيف. ليس هناك أي شيء مثل هذا في أي مكان في غزة، أو في فلسطين كلها في الحقيقة. لقد كان "معسكر اعتقال داخل معسكر اعتقال [من مخيم خان يونس]."[78]

كان هؤلاء هم الناس الذين تحدثت عنهم منى الفرا: "قلب المنطقة المركزية لمعاناتنا ولمقاومتنا. ولا يعرف العالم أي شيء عنهم." وقد أغلق على المواصي وعزلوا

عن العالم الخارجي. وطوال أشهر في بعض الأحيان، لا يسمح لأي سيارات أو عربات يد أن تدخل إلى المخيم أو تخرج منه. ولا يستطيع المقيمون أن يحضروا معهم إلى داخل المخيم إلا ما يستطيعون حمله بأيديهم فقط. وقد حظر الدخول على غير المقيمين، وعطلت المدارس والمستوصفات المحلية لأن المهنيين الوحيدين في غزة كانوا في أماكن أخرى. لا بل إن الموتى كانوا يحتاجون إلى ترخيص خاص لدفنهم في المقبرة الرئيسية في خان يونس.

في 15 كانون الثاني/يناير من العام 2001، بعد أن قتل مستوطن على يد المقاومة الشعبية – وهي مقاومة لا علاقة لها بالمواصي – عبر 150 مستوطناً السور وذهبوا إلى المخيم وشرعوا في حالة هيجان، يحرقون ويطلقون نيران أسلحتهم على داخل البيوت، والجنود الإسرائيليون يشاهدون ما يجري. وبعد ثلاثة أيام وزع في مخيم المواصي منشور كتب بلغة عربية ركيكة يقول: "عرب المواصي، احذروا اليهود وارحلوا إلى خان يونس." وكان هذا لمحة مما كان قد جرى في أثناء النكبة. وقد وجدت من الصعب أن أتخيل أن ديفيد ريشيه يفعل هذا.

وبعد ذلك الهياج، أمرت إدارة الممتلكات الحكومية عشرين عائلة بإخلاء بيوتهم استعداداً لتدميرها. وكان تدخل مجموعات حقوق الإنسان فقط هو الذي أوقف تدمير ثلاثة عشر بيتاً من تلك البيوت.[79]

وقدم الذين تعرضوا للتعذيب طلبات متكررة إلى الصليب الأحمر الدولي والمنظمات الأخرى لحقوق الإنسان لحمايتهم، ولكن من دون فائدة. وروت مجلة خلف الخطوط: "أخيراً، فإن اللجنة الدولية للتحقيق من أجل خروقات حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة التي رأستها الأمم المتحدة زارت خان يونس، وهي نفسها ... وقعت تحت إطلاق النار الإسرائيلية العسكرية التي أصابت خمسة أشخاص، وهو ما أجبر البعثة على التراجع الفوري."[80]

وحين كنت هناك، هدد شارون بمهاجمة غزة ليكون ذلك الهجوم جزءاً من "عملية الدرع الدفاعي". وقد بنى الناس أهرامات من الرمل في الشوارع، وكأن

ذلك سيوقف الدبابات. وصارت الصفوف التي تنتظر الماء النقي أطول. وكان الخوف مقنّعاً بالتظاهر بالشجاعة: بأطفال يتظاهرون بالشجاعة وهم يصوبون بنادقهم الكلاشينكوف الخشبية إلى السماء، والشباب يتبخترون بالسكاكين وقلة منهم بالمسدسات. وقد عرض محل للوازم الزواج ملصقاً لطائرة اف — 16 إسرائيلية وهي تتحطم مشتعلة بلهيب النار مع حامل البندقية الفلسطيني الأسطوري الذي أسقطها.

في مركز غزة المدينة مجموعة متنافرة من المباني التي ترتفع عالياً وكانت قد بنيت بمنح من الاتحاد الأوروبي قدمت إلى السلطة الفلسطينية في أثناء سنوات "العملية السلمية" عملية أوسلو. وكانت تلك المباني قد تداعت بالسرعة نفسها التي تلاشى بها الحلم بالاستقلال الذاتي الفلسطيني، الذي يؤدي إلى الاستقلال. واستخدمت مصعداً أخذني إلى شقة في الدور الثامن، شقة لمى الحوراني، وهي محامية فلسطينية نشأت لاجئة في بيروت وعادت إلى غزة لتتزوج. ووجدتها فرحة لأنها حامل بطفلها الأول بعد أربعة عشر عاماً، كما وجدتها مذعورة.

"يسألني الناس متى أتوقع مجيء الطفل، وأنا أقول: حسناً، إن الموضوع يتوقف على شارون. هل سيسمح لي أن أكمل حملي بسلام؟ إنه يسيطر على مخاوفي كذلك، فهو يصعّدها في الوقت الذي يريده. إن انتظار الغزو أسوأ من الغزو نفسه. في هذه المباني العالية، نحن هدف الطائرات اف — 16. فأنت تسمعها تطير منخفضة طوال الليل تماماً. وتسمعها قادمة وتنتظر لتسمع الصاروخ. وتسمعها وهي تدور ثانية، تبحث عن الهدف، مهما يكن هذا الهدف. وأول مرة قصفوا فيها غزة بالقنابل، بدأ كل الأطفال في مبنانا هذا بالبكاء. وانقطعت الكهرباء، وأضأنا الشموع وأنا غنيت للصغار."

"هل تعتقدين أن هذا الخوف يقارن مع الخوف من التفجير الانتحاري؟"

"إنه الشيء نفسه"

"كيف شعرت حين رأيت لأول مرة في التلفاز المذبحة التي سببها مفجر انتحاري فلسطيني في إسرائيل؟"

"لقد بكيت. رأيت أطفالاً ونساء أصيبوا إصابات مروعة. لقد كان من عادتي أن أهاتف أصدقائي في إسرائيل وأقول لهم بأنني كنت محتاجة إلى التحدث إلى يهودي بصراحة، لأشعر بأنني مازلت إنسانة: بأنني مازلت أمتلك المبادئ. أنا لا أوافق على حملة الانتحار، لا أخلاقياً ولا سياسياً. إن العمليات الانتحارية لا تساعد الفلسطينيين. ولكن رد فعلي الآن مختلف. إنني مازلت لا أتفق معهم، ولكنني لا أبكي هذه الأيام، لقد رأيت الكثير جداً في جانبنا."

"لماذا لا تبكين الآن على النساء والأطفال؟"

"طبعاً يجب ألا يقتلوا. ولكنني لا أبكي. هذا ما فعله بي الاحتلال، لا بل بنا جميعاً."

"هل سبق أن تحدثت إلى أصدقائك اليهود في إسرائيل عن المفارقات الساخرة — عن حقيقة أنهم هم أيضاً، قد جاؤوا من خلفية الإذلال، ومن تدميرات البيوت؟"

"نعم، أنا أتحدث معهم حول ذلك، ولكنهم حساسون جداً. ويقولون: من فضلك لا تقارني ذلك بالمحرقة. وأنا أقول: لماذا لا ينبغي لي أن أفعل ذلك؟ أنتم تفعلون الكثير من الأشياء نفسها التي سبق أن فعلت بكم... أشياء مروعة... حبسنا خلف الجدران، إجبارنا على الخروج. ولدينا هذا الأمر الآن في غزة. (الإغلاق) كما يسمونه. استمع إلى مسؤوليهم وتستطيع أن تسمع صدى تاريخهم الخاص. فهم يقولون: انظروا، نحن نسمح لهم بإمدادات الطعام، وبالأدوية... انظروا كيف نعاملهم معاملة حسنة. ذلك هو ما قاله هتلر للعالم. ولكنه لم يكن صحيحاً. والآن يقومون بعمل ما سبق أن عمله هتلر: إنهم يدمرون أرضنا، ويصادرون أملاكنا، ويحصروننا في مخيمات اعتقال، لا بل يختمون أرقاماً على أيدينا. إنهم هم، الذين كانوا ضحايا، صاروا الجناة. إنه لأمر غريب أن نرى ذلك. وأرجوك ألا تقول إنني معادية للسامية، وذلك لأنني أنا نفسي سامية، أيضاً. نحن، العرب، ساميون. ولو كان هتلر قد جاء إلى فلسطين، لكان قد فعل الشيء نفسه ضدنا."

"ما الذي يزعجك أكثر من كل شيء؟"

"الحقيقة التي هي أننا نحن منظمة التحرير الفلسطينية في العام 1988، أخذنا المبادرة واعترفنا بإسرائيل، وبالفعل، قلنا إنهم يستطيعون أن يمتلكوا ثمانية وسبعين بالمائة من فلسطين. إن ثمانين بالمائة من الفلسطينيين ما زالوا يوافقون على ذلك الحل الوسط . وكل ما طلبناه هو أن يُعتَرف بنا أيضاً: أي، بأننا نحن كذلك، نستطيع أن نمتلك دولتنا على الاثنين والعشرين بالمائة المتبقية من الأرض. وفي إسرائيل، فإن أولئك الذين قالوا إنهم يؤمنون بالعدالة، وهم اليسار، لم يكونوا صرحاء أبداً مع الجمهور الإسرائيلي الذي استمر يتلقى التغذية بالدعاية التي تقول إننا لم نعترف بهم.

"وإلى هذا اليوم، فإن الإسرائيليين جهلة بالمهاودة الضخمة بالحل الوسط الذي قدمناه. وفي تلك الأيام، ركزت وسائل الإعلام على بضع عمليات خطف طائرات، مثلما هم الآن بالضبط يعطون الانطباع بأننا كلنا مفجرون انتحاريون. إنهم لا يشرحون أبداً الإحباط والإحساس بالخيانة الذي سبب هذه الأشياء. من ذا الذين سبق له أن أشار إلى القناصة الإسرائيليين، في الانتفاضة الأولى، حين لم يكن المهاجمون الانتحاريون معروفين بعد، وكان القناصة يطلقون النار على رؤوس الأطفال الذين كانوا يرمون الحجارة فقط؟ هذا الانحياز لجانب واحد يقلقني قلقاً عميقاً. إذا ذهبتُ إلى أوروبة، فأنا أحتاج إلى ساعات وساعات لإقناع الناس بموقفنا، ولكن الإسرائيلي يستطيع أن يفعل الأمر نفسه في خمس دقائق."

"ماذا تطلبين من العالم الخارجي؟"

"أنا أطلب فقط أن تتم المحافظة على القانون الدولي، وأن نسترجع أراضينا المحتلة: وهي الاثنان والعشرون بالمائة. تلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ شعبي من إسرائيل وإنقاذ أبنائه من الذهاب إلى المتطرفين... لقد مضى علي وأنا أتعالج للحصول على طفل مدة أربعة عشر عاماً الآن، وأنا لا أريد لطفلي أن يرغب في الذهاب إلى مستوطنة يهودية ويقتل الناس وهو في سن العاشرة. ذلك هو ما يحدث

الآن. أطفالنا، وهم في سن العاشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة يريدون أن يقتلوا أنفسهم. عليك أن ترى الأمهات يبكين."

"ماذا ستعلمين طفلك؟"

"سوف أعلم طفلي ألا يكره اليهود، ولكن، مثل كل الفلسطينيين، سوف أحتاج إلى المساعدة من العالم."

إن أربعين بالمائة من سكان غزة هم تحت سن الخامسة عشرة. إنهم من سماهم محمد جار الله "أطفال الغبار": أي، أطفال استحوذ عليهم الفقر وأطفال العائلات الكبيرة التي تبدو قادرة على تحمل المشاق تحملاً فوق العادة، بعد أن بقيت على قيد الحياة بشكل ما بعد سنواتها القليلة الأولى. إن طفولتهم الرائعة، ومشاكستهم، وقهقهاتهم، وجاذبيهم، تناقض كابوسهم. إن 60 بالمائة من ضحايا الانتفاضة من الأطفال أطلقت النار عليهم وهم في طريقهم إلى المدرسة، أو وهم في بيوتهم، أو وهم يلعبون، وليس هذا وحسب، ولكن العنف يدمر نفوسهم الداخلية.

الدكتور خالد دحلان، طبيب نفسي، وهو يرأس واحداً من مشاريع صحة المجتمع العديدة للأطفال في غزة، وقد أراني نتائج دراسة حديثة، وقال لي: "إن الإحصاء الذي أجده شخصياً إحصاء لا يمكن احتماله، وهو أن 99.4 بالمائة من الأطفال الذين درسناهم في المخيمات، تعرضوا للهجوم المستمر، وعانوا جرحاً نفسياً جسدياً. وبعد أن تنظر إلى معدلات التعرض للجرح النفسي الجسدي، تعرف السبب وهو: إن 99.2 بالمائة من بيوت مجموعة الدراسة قد قصفت بالقنابل، و97.5 بالمائة تعرضوا للغاز المسيل للدموع، و96.6 بالمائة شاهدوا إطلاق نار، و95.8 بالمائة شاهدوا قصف قنابل وجنائز، وربع المجموعة تقريباً رأوا أفراد الأسرة يجرحون أو يقتلون، وأكثر من ثلث المجموعة رأوا جيرانهم يقتلون أو يجرحون."

ويظهر بحث آخر أن كل الأطفال الفلسطينيين تقريباً يعانون من كوابيس لا ترحم ومن "مخاوف ليلية"، ومن أرق وبوال ليلي. ويواجه الأطفال الصغار الوقوع في التضارب الذي ينتج من أن عليهم أن يعالجوا هذه الظروف. فمن جهة، هم يحلمون بأن

يصيروا أطباء وممرضين وممرضات "لكي يستطيعوا مساعدة الآخرين"، ثم يلحق بهذا الحلم رؤية كارثية عن أنفسهم بوصفهم الجيل التالي من المفجرين الانتحاريين.

وهم يعانون هذا بشكل ثابت بعد كل هجوم من الإسرائيليين حين تتحول أحاديث الملاعب إلى أحاديث عن "الشهادة" وذلك لأن "المدارس نفسها ليست آمنة." وبالنسبة إلى بعض الفتيان، لم يبق أبطالهم الآن هم لاعبي كرة القدم، بل خليط من "الشهداء" الفلسطينيين، لا بل من العدو أيضاً "لأن الجنود الإسرائيليين هم أقوى الجنود ويمتلكون الطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي."[81]

ودعاني الدكتور دحلان إلى أن أحضر في واحدة من عياداته. وجلس ثلاثون صبياً راوحت أعمارهم بين العاشرة والثالثة عشرة على طاولات مرتبة مثل حدوة الحصان. وقال: "كل واحد فيهم مجروح نفسياً وجسدياً. وكل واحد منهم يعاني القلق الحاد أو الاكتئاب أو إحساساً بالضياع والعزلة. والعديد منهم يعاني من الآلام الثلاثة كلها. والنشاط اليوم هو الرسم الحر. سوف يضعون على الورق ما يدور في أذهانهم. لم أعطهم أي موضوع: لا اقتراحات. وغرضي من ذلك أن أساعدهم على التخلص من مخاوفهم."

بعد نصف ساعة، أنتج الأطفال صوراً عن الموضوع نفسه: العنف والحرب. لقد صوروا طائرات اف – 16 الإسرائيلية وهي تقصف المدارس، وصوروا الدبابات وهي تطلق النار على الأطفال، وعلى سيارات الإسعاف عند نقاط التفتيش والنساء وهن يذرفن جداول من الدموع. صفحة أحد الصبية كانت ملونة كلها بالأسود ما عدا خربشة في منتصف الصفحة ملونة بلون الدم الأحمر القاني. وقال الدكتور دحلان: "نحن، الفلسطينيين الكبار، نشعر في الغالب أن كل هذا العنف والخوف قد سحب منا قدرتنا وحقنا في حماية شبابنا الذين لا يثقون بنا بعد الآن لنعتني بهم: لنحافظ عليهم آمنين."

سقت سيارتي راجعاً على طول طريق الشاطئ، وتوقفت قرب نقطة تفتيش تشرف على مستوطنة نتساريم. إنها قطاع كالشبح، وترتفع فيها واجهات عملاقة

كأسنان المنشار لا فائدة منها لمبان غير مكتملة البناء دمرها قصف بالقنابل مطوقة برمل أبيض عصفت به الريح. والعديد من هذه المباني كان مخططاً لها أن تكون فنادق للسياح. وتشرف على البحر مدينة ملاه، ومتنزه ترفيهي، وهما فارغان ومدمران. أما معداتهما الملونة بألوان زاهية، فقد اخترقتها الثقوب التي أحدثها الرصاص، وهي معلقة تعليقاً خطراً على مفصلاتها الصدئة، وتترنح متمايلة تصلصل في الهواء. وكان دولاب الكراسي الدوار يميل وكأنه يسقط سقوطاً بطيئاً، وسيارات المراوغة الصغيرة ترقد منسوفة بالقنابل على جانبها، ومحاطة بطلقات حية عيار 50، وكل طلقة تحتوي على متفجرات كافية لإفناء شكل إنساني. وكانت مدينة الملاهي هي الوحيدة من نوعها في غزة، وصارت مكاناً من أخطر الأمكنة في غزة.

ومن خلف مبنى من الطوب يسمي نفسه (قاعة أفراح الزواج) برز رجل طويل، ونحيل، وخائف. كان هذا هو الحارس، وليد الديراوي. وحين كنا نتكلم، كان باستمرار ينظر خلفي، نحو الطريق. وقال لي من خلال مترجمي: "على الرغم من أنني أشعر بأمان أكبر حين أكون واقفاً مع أجنبي، فقد يجري إطلاق النار علينا." وقال إن مدينة الملاهي كانت قد بنيت في العام 1997، وكانت محبوبة شعبياً جداً إلى درجة جعلت السلطة الفلسطينية تعتقد أنها كانت تستطيع أن تستعيد استثمارها لمبلغ مليون دولار. وفي العطلات، اعتادت العائلات أن تأتي عند شروق الشمس وتصطف بكل ابتهاج.

وقال: "في أحد الأيام في صيف العام 2000، أز الرصاص ضد ركوب الدوامة الموجودة هناك. وصرخ الأطفال وكان هناك ذعر. وأز المزيد من الرصاص، وجرح العديد من الناس. وتلك كانت نهايتها. وبعد ذلك، استخدم المستوطنون في نتساريم، والجنود، هذا المكان ميدان رماية. ولمدة أسبوع أو أسبوعين، كان الأزواج ما زالوا يأتون ليتزوجوا في قاعة الأفراح، ولكن القناصين كانوا ينتظرونهم، ثم يفتحون النار."

حين كنت أغادر غزة، كوفئت بمنظر أعلام فلسطينية تلوح من داخل المجمعات المحاطة بالجدران من مخيم جباليا. وكما قيل لي إن الأطفال هم

المسؤولون عن هذا. فلا أحد يطلب منهم أن يفعلوا ذلك. وهم يصنعون أعمدة الأعلام من عصي مربوطة معاً وخطوط الطاقة الكهربائية المرتخية ثم يتسلق واحد أو اثنان فوق جدار ويمسكان العلم بينهما، بصمت. وهم يفعلون ذلك حين يكون هناك أجانب في المكان، وهم يعتقدون أنهم يستطيعون بذلك أن يخبروا العالم.

دوري غولد مستشار كبير للشؤون الخارجية لرؤساء وزارات إسرائيل، ولأرييل شارون على نحو بارز، وهو سفير سابق في الأمم المتحدة، ويدير "مركز تفكير" في القدس، هو مركز العلاقات العامة، وهو يسافر كثيراً إلى الولايات المتحدة، وفيها يروج لإسرائيل في جولات لإلقاء المحاضرات. ومشاهدو التلفاز في كل أنحاء العالم يعرفونه بوصفه واحداً من متحدثي إسرائيل الحكوميين الفصحاء، ذوي اللهجة الأمريكية.

وقد رتبت أن أجري معه مقابلة في مكتبه المطل على شارع معرش بالأشجار الكثيرة الأوراق من دارات خاصة (فلل) مطلية باللون الكلسي الأبيض في الضاحية. وهو شخص ودود وكأنه عم أو خال، وواثق من نفسه مع امتلاكه لحجج منقحة تدرب عليها. وبدأ بالحديث عن إسرائيل حديثاً كثيراً بوصفها جزءاً من "الحلف الديمقراطي الغربي"، وتقف كتفاً لكتف مع شركاء متساوين في "حرب على الإرهاب". وقارن ما سماه "مصاعب إسرائيل الإقليمية" بصعوبات بريطانيا في أثناء حرب القصف الجوي الخاطف.

وقلت له: "إن إسرائيل هي رابع أقوى أمة عسكرية في العالم، وبالتأكيد هي قوة إقليمية كبيرة. وهي تستطيع أن تعالج أي تهديد عسكري. أليس السبب الحقيقي لعدم الأمن لدى شعبكم هو الحقيقة المتمثلة في أنكم تديرون احتلالاً عسكرياً يمسك بشعب آخر أسيراً؟"

وأجاب: "تلك الحجة لا تصمد. نعم، من البداية حتى العام 1993، كان الفلسطينيون تحتنا. ولكننا بعدئذ سحبنا حكومتنا العسكرية وأسسنا سلطة فلسطينية تحت ياسر عرفات. ولم يبق الفلسطينيون بعد ذلك تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي، على الرغم من أن الصحيح هو أنهم لم يمتلكوا دولة

مستقلة كذلك. والسبب الوحيد الذي عادت القوات الإسرائيلية من أجله إلى الضفة الغربية في أيلول/سبتمبر من العام 2000 كان هو الانتفاضة التي فرضها عرفات علينا. لو لم يكن هناك انتفاضة لكان هناك حكم ذاتي فلسطيني كامل."

"كثيرون من الفلسطينيين لا يريدون نوع الحكم الذاتي الذي كان مستعمرة إسرائيلية بحكم الأمر الواقع. لقد كانوا يعرفون أن كل ما كان على إسرائيل أن تفعله هو أن تحرك دباباتها متدفقة عبر الخط الأخضر. وهكذا ألم يكن التخويف من الاحتلال موجوداً دائماً؟"

"الاحتلال العسكري معرف تعريفاً دقيقاً جداً في معاهدات لاهاي في العام 1907. وهو يعني أنك تمتلك حكومة عسكرية... وأحد الأسباب التي تجعل الفلسطينيين يتحدثون عن كونهم تحت احتلال هو أن عليهم أن يواجهوا تهمة أنهم منغمسون في الإرهاب. حين يحزم شاب فلسطيني الديناميت حول نفسه ويدخل إلى مقهى إسرائيلي مزدحم بالناس، ويقتل ثلاثين من الشباب الإسرائيلي الذي لم يبلغ العشرين من عمره، فإن هذا يسمى إرهاباً. ولا نحتاج إلى أن تكون محامياً لتفهم ذلك."

"وماذا عن الإرهاب الإسرائيلي؟"

"يجب عليك أن تكون حريصاً مع اللغة... الإرهاب يعني استهداف المدنيين عمداً. وذلك هو ما يدور حوله إرهاب الجيش الجمهوري الإيرلندي في شمال إيرلندا. وهذا ما حدث في 11 أيلول/سبتمبر العام 20001، وذلك هو ما يحدث في المدارس الإسرائيلية، ومحلات المقاهي، والأسواق. إن إسرائيل لا تنغمس في الإرهاب. إسرائيل تستهدف، إلى أقصى ما تستطيع من قدرة، المنظمات الفلسطينية الإرهابية."

"وكيف تفسر قيام قناص إسرائيلي بإطلاق النار عمداً على سيدة مسنة تعرج على عصا، وهي تحاول أن تصل إلى المستشفى لتلقي العلاج الكيماوي؟ سنبقى هنا طوال اليوم نستشهد بأمثلة أخرى. أليس هذا إرهاباً؟"

"من سوء الحظ، هناك في كل نوع من أنواع الحرب، حالات من المدنيين الذين يقتلون عرضاً. الإرهاب يعني وضع شعيرة التسديد في بندقية القناص على المدني بشكل متعمد."

"وذلك هو ما وصفته قبل قليل."

"لا. أستطيع أن أقول لك إن هذا لم يحدث."

"هذا حدث فعلاً في اليوم السابق للأمس أمام صحافة العالم. ألا ترى، تلك هي المشكلة مع حجتك أن الإرهاب موجود فقط في جانب واحد. ألا ترى ذلك؟"

"إذا كنت تخلط الإرهاب مع مكافحة الإرهاب، وإذا كنت تخلق نوعاً من التشويش الأخلاقي، وإذا كنت قد أصبت بالارتباك وتقول: حسناً، فإن الأمريكيين والبريطانيين العاملين في أفغانستان الذين يؤذون مدنياً أفغانياً هم منغمسون في الإرهاب، فإنك، آنئذ ستسحب البساط من تحت كل التحالف الغربي."

"أي بساط؟"

"بساط المحافظة على مجتمعاتنا آمنة."

"ألست مدركاً أن كثيرين من الناس في البلدان الغربية ينظرون إلى قصف المدنيين الأفغان بالقنابل، أي مدنيين، بوصفه إرهاباً."

"يا سيد بلجر، هل ترى أن قصف مدنيين بالقنابل عرضاً دون قصد على يد البريطانيين إرهاباً؟"

"عرضاً من دون قصد؟"

"أنا قلت: – عرضاً من دون قصد– لأنني لا أعتقد أن القوات البريطانية يمكن أن تضع المدنيين في الخطر عن عمد أبداً."

"ذلك اعتقاد مؤثر جداً."

"مؤثر؟"

"لبريطانيا سجل إمبراطوري ضار في الشرق الأوسط، وفي بلدك أنت، نعم أنا أنظر إلى قصف المدنيين بالقنابل بوصفه إرهاباً."

"يا سيد بلجر، إن السبب الذي يجعلني لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث هو أن الحكومة البريطانية ديمقراطية ويتعين أن تكون موضع مساءلة."

"هل لي أن أسأل كيف تبررون سلوك جنودكم العنيف عند نقاط التفتيش، وهي المكان الذي يذلون فيه الناس مراراً، الإذلال نفسه الذي عاناه اليهود؟"

"أنا لا أعرف إلى أي شيء تشير..."

"لقد أجريت مقابلة مع امرأة لم يسمح لها أن تعبر نقطة التفتيش إلى المستشفى وفقدت مولودها نتيجة لذلك. وهناك العديد من حالات مشابهة."

"لقد رأيت بعيني شخصياً الصليب الأحمر الفلسطيني (هكذا !) وسيارة الإسعاف تحمل مفجراً انتحارياً شاباً مع حزام انتحاري حول جسده."

"أين؟"

"لقد أشرت إليه كتابة. أرجو أن تدقق في السجل."

(دققت في السجل. في آب/أغسطس من العام 2001، قال دوري غولد لوكالة الصحافة الفرنسية إن أربعة فلسطينيين قفزوا من سيارة إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني في نابلس بعد إطلاق النار على القوات الإسرائيلية. وقد أطلقت النار على الأربعة وقتلوا. وبعد ذلك، وفي اعتراف غير معتاد، قال متحدث باسم الجيش إن الرجال لم يكونوا في أي مكان قريب من سيارة الإسعاف. "كان هناك غلطة في التقرير الميداني عن الحادثة."[82])

وقلت له: "إن حالات الوفيات في نقاط التفتيش تم التحقق منها من قبل منظمات حقوق الإنسان الإسرائيلية المحترمة، مثل أطباء من أجل حقوق الإنسان."

"سوف تنتهي نقاط التفتيش في اللحظة التي ينتهي فيها الإرهاب."

"يجب أن تكون مدركاً أن الأكثرية الساحقة من المدنيين الذين قتلوا هي من الفلسطينيين، وأن ستين بالمائة قتلوا في أماكن عملهم، أو في مدارسهم أو في بيوتهم."

"لم أطلع على البيانات. وهناك العديد من المنظمات غير الحكومية التي تعمل هنا، وبعضها ممول من كل أنواع المنظمات الغريبة."

"ولكن هناك نمط واضح في أعمال القتل هذه، وهي لو كانت تحدث للإسرائيليين لكنت دعوتها إرهاباً."

"أنت تعرف، أن ونستون تشرتشل كان من عادته أن يقول: لا تخلطوا حارق المباني عمداً مع الإطفائي. ياسر عرفات فرض حرب إرهاب على إسرائيل، وإسرائيل قامت برد الفعل. ويجب عليك أن تفهم أن هناك معركة دعاية مستمرة، وهي لا تقل شدة عن الحرب الفعلية على الأرض. نحن جميعاً علينا مسؤولية بأن نكون مدركين للأكاذيب."

"هل العفو الدولية تكذب؟"

"ماذا تعني؟"

"العفو الدولية وثّقت استخدام إسرائيل التعذيب المنهجي والحصانة الكاملة تقريباً لأعمال القتل غير القانونية للفلسطينيين، والعقاب الجماعي، واستخدام الدروع البشرية، وسجن الناس من دون محاكمة، وهدم البيوت. فهل هم ببساطة مشتغلون بالدعاية؟"

"حسناً، يجب أن تُفحص كل حالة، ويجب علينا أن نرد."

"ولكن هل فهموها خطأ؟"

"أنا أعرف عن إساءات مفزعة لحقوق الإنسان في الجانب الفلسطيني..."

"هل فهموها خطأ عن إسرائيل؟"

"لدينا نظام من القوانين. ولدينا نظام عدالة ومحكمة عالية، وهي تحمي الفلسطينيين..."

"وإذاً فلماذا يوجد مثل هذا العدد الكبير من الفلسطينيين في السجن من دون أن يحاكموا من أجل أي جريمة؟"

"أنا أقول لك، نحن نطبق القانون في هذا البلد."

"إن المادة 49 من ميثاق جنيف تنص على عدم السماح لأي دولة بأن تضع مواطنيها الخاصين بها بصفة مستوطنين في الأراضي المحتلة. وذلك هو قانون الأمم، وإسرائيل تحده. أليس ذلك صحيحاً؟"

"المادة 49 من ميثاق جنيف كان المقصود منها أن تتعامل مع حالات مثل الاحتلال النازي لأوروبة الشرقية، وليس حالة إسرائيل التي تسمح للإسرائيليين ولليهود [الآخرين] أن يعيشوا في الضفة الغربية."

"يا سيد غولد، لا يمكن لذلك أن يكون صحيحاً، لأن مجلس الأمن في الأمم المتحدة في شهر تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2000 دعا إسرائيل إلى احترام ميثاق جنيف، وكان التصويت بالإجماع."

"لدينا نزاع على هذه المسألة. نحن نقول إنه تشويهٌ أن تطبق ميثاق جنيف، وهو الذي عالج أحوال النازيين في أوروبة، على الحالة هنا."

"في الجمعية العامة للأمم المتحدة، كان التصويت ضد إسرائيل في هذه المسألة مائة وخمسين إلى اثنين. فهل العالم كله على خطأ؟"

"انظر إلى ما تصوت الجمعية العامة ضده! لقد وصل الأمر بها إلى أن صوتت ضد إجراءات الولايات المتحدة في برنامج دفاعي صاروخي!"

"هل تقول إن ذلك كان حمقاً؟"

"ما أقوله هو أن الجمعية العامة تضم بلاداً من حركة عدم الانحياز، وهكذا فأنت تشارك في موقفك مع زيمبابوي، وكوبا، واليمن."

"تلك ثلاث دول فقط، وأنا لا أشارك في موقفي مع أي شخص. الأمم المتحدة هي الحكم في القانون الدولي، وإسرائيل عضو في الأمم المتحدة وقد قدم مجلس

الأمن مائتين وخمسة وأربعين قراراً حول سلوك إسرائيل ورصيد الجمعية العامة أكثر من خمسمائة قرار. أليس هذا سجلاً مثيراً للعجب؟"

"هنا هو السؤال الحقيقي: أهذا الانتباه من مجلس الأمن ومن الجمعية العامة لإسرائيل يعكس فداحة المشكلة هنا، أم يعكس تسييس نظام الأمم المتحدة؟"

"أليس يعكس، بناء على سجل إسرائيل، أنكم دولة مارقة؟"

"الجواب هو هذا: هل اجتمع الموقعون على ميثاق جنيف الرابع في السابق مطلقاً لمناقشة الغزو السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا، وغزو السوفيت لأفغانستان، وغزو فيتنام لكمبوديا؟"

"هل تقول إن العالم تعصب ضد إسرائيل؟"

"أنا أبحث عن معيار عادل. إذا كان الموقعون على ميثاق جنيف يتجاهلون مثل هذا الكثير ويجتمعون فقط حين تبني إسرائيل أنظمة الحكم المشتركة في القدس الشرقية، فإن هناك شيئاً ما خطأ في شغل المجتمع الدولي."

"متى ستوافق إسرائيل على المفاوضات مع الفلسطينيين، لا من أجل إلحاق استعماري بل من أجل وطن يكون آمناً ومستقلاً مثل إسرائيل نفسها؟"

"رئيس الوزراء شارون قال إنه سيقبل دولة فلسطينية."

"أي نوع من الدولة الفلسطينية؟"

"هل تريد من إسرائيل أن تسلم بشروط تلك المفاوضات في هذه المقابلة العامة؟ أوليس من الأفضل الاتفاق على المبدأ العام؟"

"وماذا عن المبدأ العام لدولة مستقلة مثل استقلال إسرائيل؟"

"لا نحتاج إلى خيط من الصفات..."

"كيف يمكن أن نبدأ مفاوضات إذا كان مبدأ الدولة المستقلة ليس مشروطاً مسبقاً؟"

"يجب ألا يكون للمفاوضات شروط مسبقة."

"ولكنكم تملكون من قبل الآن شروطاً مسبقة. ماذا عن كل تلك الدبابات وطائرات اف-16 المصوبة إلى فلسطين؟"

"وماذا عن الفلسطينيين؟"

"نعم، لديهم متفجرون انتحاريون، ويمتلكون بعض الأسلحة الصغيرة والأطفال منهم لديهم حذافة حجارة..."

"لا، لا، لا. ذلك ليس مقارنة مناسبة. الفلسطينيون يمتلكون تحالفاً مع الدول العربية."

"هل أستطيع أن أسألك سؤالاً: هل سبق لك أن رأيت أنت بنفسك وخبرت كيف هي الحياة في مخيم لاجئين؟"

"مطلقاً. وكان يجب أن تكون المخيمات قد فككت منذ سنوات، وخصوصاً في سورية، والأردن، وأن يدخل اللاجئون تلك المجتمعات. لقد أخذنا لاجئين من كل أنحاء العالم العربي: لاجئين يهوداً. ودمجناهم في المجتمع الإسرائيلي."

"ما الذي يعطي أمريكياً أو روسياً الحق في الاستيطان هنا في الوقت الذي لا يكاد فيه الفلسطيني يملك أي حقوق على الإطلاق؟"

"بعد قرون من معاداة السامية ضد الشعب اليهودي، اعترف المجتمع الدولي أن اليهود يملكون حقاً في دولة يهودية في هذه الأرض، أرضهم الوطنية التاريخية."

"ولكن ألم تقم إسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني الذي لا علاقة له بالتقاليد المسيحية في القرون الوسطى، وهي مصدر معاداة السامية، والذي لم يكن جزءاً من المشروع النازي؟ لقد كانوا ببساطة هم السكان الوطنيين."

"لقد تم التوصل إلى صفقة بعد الحرب العالمية الأولى وتأكدت على أيدي قوات الحلفاء، وهي أن اليهود سيمتلكون دولتهم في هذه المنطقة وأن العرب سيكونون أحراراً من نير الإمبراطورية العثمانية. والعرب حصلوا على دولهم. وكل ما نريده نحن هو دولة ديمقراطية يهودية تعيش في سلام."

"ولكن هل ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يدفع الثمن لهذه الصفقة بفقدانه الشيء نفسه الذي طلبه الشعب اليهودي – الوطن؟"

"نحن مستعدون لإنشاء كيان حكم ذاتي فلسطيني. قد يسميها بعضهم دولة فلسطينية..."

"يا سيد غولد، أنت استخدمت كلمات (نحن مستعدون لإنشاء) أي حق تملكونه أنتم لإنشاء وطن أناس آخرين؟"

"نحن يجري الطلب منا أن نفاوض على ذلك. ونحن مستعدون أن نعمل إسهاما."

"في اليوم السابق للأمس، قابلت والد الفتاة الإسرائيلية ذات الأربعة عشر عاماً التي قتلت على يد مفجر انتحاري. وقال لي إن الطريقة الوحيدة لإيقاف العنف هي أن نتعامل مع السبب، لا مع الأعراض. والسبب هو نهاية للاحتلال. هل لديه فكرة جوهرية؟"

"لديه فكرة جوهرية وهي أنه محق في إثارتها. ولكن معظم الإسرائيليين صوتوا لرئيس مجلس الوزراء شارون ونحن نملك حكومة وحدة تضم تسعين بالمائة من الجسم الإسرائيلي السياسي. ونحن نعتقد أن الأعراض تهم فعلاً: إن الإرهاب يجب أن يمحى. ليس هناك أي ظلامة، ولا أي إحساس بالحرمان يمكن أن تتوضح عن طريق حزم الديناميت على شاب فلسطيني... لا شيء يبرر ذلك."

"حين قام أولئك الإسرائيليون المشهورون، مثل رئيس الوزراء الراحل مناحيم بيغن بارتكاب أعمال الإرهاب قبل ميلاد إسرائيل مباشرة – مثل نسف فندق الملك داوود وقتل واحد وتسعين شخصاً – كان يمكنك أن تقول الشيء نفسه عنهم. ما الفرق؟"

"نحن نملك الآن فهماً جديداً. بعد 11 أيلول/سبتمبر، تلقى العالم دعوة لليقظة. يجب علينا أن نزيل هذه البلوى [الإرهاب] عن الأرض، سواء أكنت تتحدث عن الصراع هنا أو في شمال إيرلندا أو سريلانكا: وهي الأماكن التي استخدم فيها الإرهاب. والديمقراطيات الثلاث [إسرائيل، والولايات المتحدة، وبريطانيا] يجب أن تقدم التزاماً كونياً لاستئصال هذا التهديد من العالم. نقطة انتهى."

"وهل يشمل ذلك إرهاب الدولة؟"

"ليس من حق أي بلد أن يستهدف المدنيين. نحن نخاطر بحياة الجنود الإسرائيليين في عمليات مكافحة التمرد، وذلك من أجل ألا نتسبب بأي ضرر، وبأي خسائر في الجانب الفلسطيني. لقد مات ثلاثة وعشرون إسرائيلياً في جنين لكي يستطيع المدنيون الفلسطينيون أن يعيشوا."

"هل أنت جاد؟"

"كل العسكريين اليوم يستدعون الضربات الجوية، ويستخدمون المدفعية، ويستخدمون كل أنواع الأسلحة التي نرفض نحن أن نستخدمها. في العملية التي جرت في جنين، اتخذنا القرار بإرسال القوات البرية. لقد مات جنودنا من أجل ألا نستدعي الضربات الجوية..."

"ذلك بيان لا يصدق. فالعسكريون الإسرائيليون هاجموا مخيم اللاجئين في جنين بالدبابات، وبالطائرات، وبالجرافات المدرعة ودمروا البيوت وهدموها والناس في داخلها."

"أنا أكرر: الإسرائيليون ماتوا من أجل أن يستطيع المدنيون الفلسطينيون أن يعيشوا."

الدبابات تدمر بيوت الفلسطينيين لكي يشعر الإسرائيليون بالأمن، وأرض المعارض ترجع أصداء صوت التدريب على إطلاق النار على الأهداف بدل أن ترجع أصوات الضحكات، ورشاشات المياه تروي المروج في القلاع اليهودية في الوقت الذي تصل فيه مخيمات اللاجئين إلى الجفاف: وأنا خبرت الكثير من مثل هذه التغييرات المذهلة التي تعكس النظام الطبيعي في رحلاتي إلى الضفة الغربية وغزة لأخرج فيلماً وثائقياً بعنوان: فلسطين ما زالت هي القضية. وكان هو الفيلم الثاني الذي يحمل هذا العنوان، وكنت قد أخرجت الفيلم الأول قبل ثمانية وعشرين عاماً.

الحقيقة نفسها حول فلسطين قد تم قلبها لمدة طويلة جداً، وعلى نحو ناجح جداً، على أيدي أصدقاء إسرائيل في الحكومات الأجنبية والمروجين لإسرائيل في

وسائل الإعلام وفي كل مكان آخر إلى الدرجة التي تقابل بها أي محاولة لكسر ما سماه إدوارد سعيد "المحرم الأخير" بتلطيخ السمعة وتزييف المعلومات.

الفيلم الثاني – الذي تشكل مقابلاته وبحوثه الأساس الذي قام عليه هذا الفصل – عُرض في أيلول/ سبتمبر من العام 2002 في شبكة تلفزة مستقلة في بريطانيا وفي بلدان أخرى. وهو يعرض النزاع في فلسطين بوصفه ظلماً تاريخياً، وهذا هو المحرم.

في البث الصحافي الإذاعي والتلفازي في بريطانيا وفي البلدان الغربية الأخرى، يُقدّم الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، في أحسن أحواله، بوصفه "نزاعاً" بين فئتين متحاربتين، وكل منهما ملك نفس الحق والخطأ والمسؤولية. ويسمى تيم ليوللين، وهو مراسل سابق في الشرق الأوسط لمؤسسة الإذاعة البريطانية، يسمي هذا الموقف "استبداد التساوي الزائف."[83] وتغطية وسائل الإعلام، مع بعض الاستثناءات، هي تنويعة من أنواع دعاية الدولة في كل من إسرائيل ومن مسانديها الغربيين معاً.

وقد أظهر الفيلم الثاني: فلسطين ما زالت هي القضية الإذلال اليومي للفلسطينيين وتشويه السمعة الثقافية لهم، وهم الضحايا، وصور الفيلم الإسرائيليين والفلسطينيين الذين لم يكونوا منمّطين بلا أصالة، وعبروا عن رغبة في العدالة والمصالحة. ودعي القادة الإسرائيليون للمساءلة مثلما دعي ياسر عرفات، وقد وصفت عملية أوسلو "العملية السلمية" بأنها "حل استعماري كلاسيكي حصل فيه عرفات ونخبته على بهارج السلطة وامتيازاتها في الوقت الذي حصلت فيه جماهير الشعب على ما سماها صحافي إسرائيلي على حكم ذاتي لمعسكر أسرى حرب."

وقد شغل الموقف الرسمي الإسرائيلي جزءاً مهما من الفيلم، وأطول مقابلة كانت مع دوري غولد، المتحدث نيابة عن حكومة شارون. وأخيراً، خضعت فعلياً كل كلمة وخضع كل إطار لفحص قانوني شرعي من أجل الدقة وضمان الامتثال للتوازن ولتعليمات الإنصاف معاً في قانون البث في المملكة المتحدة.

وقد بُث الفيلم في الساعة الحادية عشرة من الليل حين كان معظم الجمهور المحتمل لمشاهدته قد أوى إلى فراشه. ومع ذلك، فإن مليوناً ونصف المليون من الناس قد شاهدوا الفيلم، وكثيرون آخرون قرؤوا عنه. ومن بين أكثر من خمسين فيلماً أخرجتها، فإن الفيلمين اللذين أخرجتهما عن كامبوديا وتيمور الشرقية هما فقط اللذان ولدا رد فعل أكبر من رد الفعل الذي ولده هذا الفيلم. وقد وصلت عدة آلاف من رسائل البريد الإليكتروني (إيميلات) إلى تلفاز كارلتون، وشركة إنتاج التلفزة المستقلة. ومعظم تلك الرسائل التي كانت منتقدة للفيلم جاءت من الولايات المتحدة ومن بلاد أخرى لم يعرض الفيلم فيها. وبعض الرسائل كانت مسيئة إلى درجة غير معتادة. فقد وصِفتُ بشكل متنوع بأني "مضطرب عقلياً شيطاني" وأني "مورّد للبغضاء وللشر" وإني "معاد للسامية من أخطر نوع." وكان يعتبر قتلي أو قتل أسرتي "ليس فكرة سيئة."

وكانت كثرة من الرسائل الإليكترونية متشابهة تشابهاً ملحوظاً، لأنها جاءت من خلال منظمة في نيويورك تسمى بعث التقارير الأمينة. وكان تحقيق قامت به صحيفة الغارديان في شهر شباط/فبراير العام 2001، وتابع حملة عنيفة مشابهة من الاتهامات عن "الانحياز المعادي للسامية" ضد مراسلة الغارديان في الشرق الأوسط سوزان غولدينبرغ (وهي نفسها يهودية)، قد كشف أن منظمة التقارير الأمينة، ولها مشتركون في كل أنحاء العالم، كانت هي المحرك الأول لهذا السخط المفرط النشاط الذي يبدو أنه يميز جماعة الضغط (اللوبي) الموالية لإسرائيل. وهي التي كتبت الشكاوي، ووفرت المادة النوعية، وعلمت الناس كيف يهاجمون العمل "المعادي لليهود" حسب زعمهم وهم لم يروه.

وتدير منظمةَ التقارير الأمينة جماعةٌ يهودية متعصبة تسمى إيش ها توراة (نار التوراة)، وهي كما قالت الغارديان،

تقف على حافة الطرافة في الألوان في بهرجتها. أسسها الحاخام نوح وينبيرغ، الذي يشتكي من أن اليهودية تخسر "20.000 طفل في كل عام" نتيجة الزواج من خارج اليهود، وقد اخترعت منظمة إيش المواعيد السريعة — جلسات لمدة ثماني دقائق

في مقهى لمساعدة سكان نيويورك على إيجاد شركاء يهود مناسبين. وهم يعتبرون على نطاق واسع متطرفين من الجناح اليميني. وهم بالتأكيد ليسوا أناساً مخولين بإزعاج وسائل الإعلام إلى ما يسمونه "الموضوعية."[84]

ولم تقف الحملة الصاخبة في الإنترنت. وجاءت رسالة من هيئة ممثلي اليهود البريطانيين، التي وصفت نفسها بأنها "الهيئة الممثلة للمجتمع اليهودي البريطاني"، وكررت الكلمات التي زودتها بها منظمة التقارير الأمينة. العاملون على مقاسم الهاتف في كارلتون والضباط المناوبون أسيء لهم بكل قوة وهددوا، وأنا تلقيت عدداً من التهديدات بالموت في البيت. وكانت الأصوات الغاضبة تحمل في الغالب اللهجة الإنجليزية للطبقة الوسطى. وقال طبيب يهودي في شيشير "لقد تُركتُ أتعجب كم تحول من ثروة عرفات الشخصية إلى ثروة جون بلجر الشخصية."[85]

وتدخلت المهزلة، فقد هاجم مايكل غرين، وهو الرئيس اليهودي لكارلتون، فيلم شركته الخاصة هجوماً علنياً. وفي مقابلة له مع جويش كرونيكل وصف فيلم فلسطين ما زالت هي القضية بأنه "مأساة بالنسبة إلى إسرائيل بخصوص الدقة" وقال إنه "عزم على التأكد من أنه سيكون هناك برنامج يبين وجهة النظر الإسرائيلية." وبعد أن كان قد نُبه من السفارة الإسرائيلية ومن الأصدقاء المحافظين لإسرائيل، فقد كان رأى الفيلم قبل أن يبث وكان "غير سعيد به للغاية."[86] ولم يكن غرين قد أخبر أي شخص في إدارة الإنتاج في كارلتون بأنه كان قد شاهد الفيلم أو أنه كان غير سعيد به. ولا يملك هو الحق في أن يأمر ببرنامج "موازن" – فتلك كانت مسؤولية شبكة التلفزة المستقلة.

وفي اليوم التالي، وتحت عنوان رئيسي "كارلتون يوبخ رئيسه بسبب مهاجمته الفيلم الوثائقي." نشرت الإنديبندنت بياناً من مدير كارلتون للبرامج القائمة على الحقائق، وهو ريتشارد كليّمو، ومن المنتج التنفيذي، وهو بولي بايد. ويقول البيان: "كارلتون يقف مع برنامج جون بلجر ومع دقته،"

إن الفيلم سار عبر القنوات العادية للتدقيق المتعلق بالتحرير قبل الإكمال ووافق المديرون التنفيذيون الكبار في كل من كارلتون ومركز شبكة التلفزة المستقلة على بثه. إن رأي مايكل غرين يخصه هو. وليس له أي ارتباط في البرنامج أو في بثه. ولقد سعى الفيلم إلى أن يعطي صوتاً للناس في المجتمعات الفلسطينية والإسرائيلية وهو الصوت الذي نادراً ما سمع.[87]

وكتبت إلى غرين أطلب منه تفسيراً لهجومه على فيلمي. ولم أتسلم أي جواب. وفي اليوم الذي ظهرت فيه مقابلته في جويش كرونيكل، قام مساعده بزيارة إلى المكتب الصحفي في الشركة ووجه الموظفين إلى أن يقولوا إن كارلتون لم يتلق إلا الشكاوي حول الفيلم. وحين أشير إلى أن نصف ردود الفعل على الأقل أثنت على الفيلم، كان جواب المساعد أن غرين طلب من الشركة أن تقول إن ردود الفعل كلها كانت سلبية. وحين سئل عن نواحي عدم الدقة التي حددها غرين أجاب "كان هذا رأي مايكل."[88]

كانت موظفة الصحافة المسؤولة عن العناية بأفلامي هي لوريل كيوغ، وهي مواطنة من مواطني، وهي مشاكسة مليئة بالنشاط. وقد استدعاها غرين إلى مكتبه في موقع السلطة في مبنى اتصالات كارلتون في نايتسبريدج. وطلب منها الرئيس أن يعرف "ما هي الجرائد التي تقرئينها؟" (وهو ما فسرته لوريل بوصفه سؤالاً عن انتمائها السياسي) "ما رأيك في بلجر؟ أليس صحيحاً أن الجميع معادون لهذا الفيلم؟" وأجابته بأن هذا لم يكن صحيحاً وطلبت منه أن يقيم الدليل على تهمه، وهو ما رفض أن يفعله. واكتشفت لاحقاً وثيقة من الحكومة الإسرائيلية على مكتبها مع ملاحظة إطراء وتمنيات من غرين. وكانت صارخة في نغمتها، وتعاملت مع العموميات.

وكان تدخل غرين، بوصفه رئيس البث العام، أمراً غير مسبوق في التلفزة البريطانية، وكان له أثر فوري. فقد تلقيت المزيد من التهديدات الشخصية، ومن جملتها تهديدات بالموت. فرئيس كارلتون لم يوفر الذخيرة الملتهبة فقط لحملة منسقة غير مبررة ضد الفيلم، بل عمل على التأكد من أن رد الفعل الإيجابي من

الجمهور قد جرى التعتيم عليه وحجبه. وبعد أسبوعين، فإن أكثرية من الرسائل الإليكترونية (الإيميلات) والرسائل والاتصالات الهاتفية التي تم استقبالها أثنت على شبكة التلفزة المستقلة لأنها عرضت الفيلم، وما اشتكت إلا من الساعة المتأخرة لبثه فقط.

وكان هذا قد شمل رد فعل يهودي ذا مغزى. وقد كتبت الوكيلة الأدبية المتميزة في لندن جاكلين كورن (وهي وكيلتي) إلى غرين:

إن كون الناس يكتبون رسائل بغيضة بشكل مثير للاشمئزاز ورسائل تهديد إلى جون بلجر، سواء من اليهود ومن الأصوليين المسيحيين من الغرب الأوسط، ويتحدثون في مكالمات هاتفية مهددة ومسيئة لأعضاء هيئة الموظفين في كارلتون، يبدو لي شراً تماماً وهو بعيد للغاية عن أي حس أخلاقي مثل أي شيء يمكن أن يكون... لقد حان الوقت الذي يتوقف فيه يهود الشتات عن كونهم دفاعيين على هذا النحو... إنني أجد موقفك في هذا موقفاً غير عادي.[89]

ووصف الكاتب المسرحي هارولد بنتر الفيلم بأنه، "قوي ومتوازن، وضروري، على حد سواء." أما الممثلة ماريام كارلين فكتبت إلى الغارديان: "هل هيئة الممثلين والسفارة الإسرائيلية رأت من البرنامج فقط الأجزاء التي جعلتهم يشعرون، بحق تماماً، شعوراً غير مريح؟ نحن نعتقد أن ثلاثة من الإسرائيليين الذين أجريت معهم المقابلات مثلوا أفضل ما في إسرائيل، الإنسانية، واليهودية الحقيقية."[90] وكتب المستشاران التاريخيان للفيلم، وهما إلان بابي من جامعة حيفا ونور مصالحة، مدير دراسات الأرض المقدسة في جامعة سرّي، إن الفيلم كان "دقيقاً، ومتوازناً ومثيراً للإعجاب."[91]

وكُلفت أنا من الغارديان أن أصف الحدث في مقالة أدبية لصفحات الرأي فيها. وفي اليوم التالي بعد أن نشرت هذه المقالة، ومن دون مشاورتي أو تحذيري، نشرت الصحيفة كلمة تهاجم كلاً من الفيلم والمقالة تحت عنوان رئيسي: "مذبحة الحقيقة." وكان المؤلف هو ستيفن بوللارد، وهو صيهوني نشيط لاذع.[92] إلى مثل هذا الحد تبلغ قوة "جماعة الضغط" الموالية لإسرائيل – والتي، كما يجب أن

أضيف، ليست هي "المؤامرة اليهودية" التي يستخدمها الصهاينة في الغالب لاستدعاء معاداة السامية التي تصرف الانتباه.

وبعد أن تلقت هيئة التلفزة المستقلة نفسها 116 شكوى، وهذه الهيئة هي المجموعة الرسمية التي تنظم التلفزة التجارية في بريطانيا، قررت أن تحقق – على الرغم من أن 553 مشاهداً كتبوا إلى الهيئة يثنون على الفيلم. ومن بين جميع أفلامي، ومن جملتها الأفلام التي جرّت علي النار من الحكومات، كان فيلم فلسطين مازالت هي القضية هو الوحيد الذي أخضع لمساءلة رسمية. وطوال شهرين، أُرهقنا أنا ومنتج الفيلم كريس مارتن، وكبير محامي كارلتون ستيفن رودلف بإعداد دفاع يعادل حجم أطروحة علمية.[93]

ورددنا بالتفصيل على التهمة التي تقول إن الفيلم كان "انتقائياً للحقائق [التاريخية]، إن لم يكن مشوهاً لها." ووافقنا على أن الفيلم تحدى ما هو معروف "بالنسخة الإسرائيلية والوطنية للتاريخ" وهذا التحدي هو الذي دعم إبراز الظلم الكبير الذي وقع على الفلسطينيين. وربما كان هذا هو أهم جزء من الفيلم، لأنه ما من دولة حديثة أخرى سبق أن تأسست عن طريق تجريد شعب كامل من ملكيته وطرده من وطنه.

وتركزت الاعتراضات على تعليقي في قولي إنه في الأشهر والأسابيع السابقة لتأسيس إسرائيل في أيار/مايو 1948، كان الفلسطينيون "قد طردوا من بيوتهم أو أجبروا على الفرار في موجة من الخوف والرعب." وهذا القول ناقض تناقضاً مباشراً "النسخة الوطنية"، وهي التي أنكرت أنه كان هناك طرد كامل وزعمت أن الفلسطينيين فروا من بيوتهم بناء على حث الزعماء العرب لهم.[94]

لقد عالجتُ هذا في الصفحات السابقة، معترفاً بعمل مجموعة من المؤرخين الإسرائيليين "الجدد"، الذي فتحوا المحفوظات العبرية وملفات الحكومة التي كان يتعذر الحصول عليها في السابق. وتكشف هذه أن هرب الفلسطينيين كان نتيجة لتكتيك خطّط له ونفذه جيش الهاغاناه (الجيش اليهودي) قبل أن تقوم الدول

العربية برد فعلها على إعلان دولة إسرائيل – وخصوصاً "الخطة د"، التي هدفت إلى السيطرة على المدن الفلسطينية الرئيسية. وقد كتب آفي شلايم، أستاذ العلاقات الدولية في أوكسفورد ومؤلف كتاب الجدار الحديدي، يقول: "إن المجتمع الفلسطيني تفتت تحت تأثير الهجوم العسكري اليهودي الذي كان جارياً في نيسان/ابريل [1948]... بالأمر بالاستيلاء على المدن العربية وتدمير القرى، [الخطة د] سمحت وبررت معاً الطرد باستخدام القوة ضد المدنيين العرب."[95]

وقد قدمنا الدليل على أن 369 مدينة وقرية فلسطينية أخليت من سكانها أو دمرت قبل إعلان استقلال إسرائيل.[96] وبالرجوع إلى السجلات الرسمية، وثق المؤرخ الإسرائيلي بني موريس مذبحة بعد مذبحة للمدنيين الفلسطينيين في أماكن مثل دير ياسين، والدوايمة، وعيلبون، والجش، والصفصاف، ومجد الكروم، وحولة وسعسع، واللد. وفي اللد والرملة، وهي مشهد أعمال الطرد الكلية، تشير الروايات الرسمية المصرح بها إلى "تطهير عرقي". وكان لواء يهودي قد أمر بما يلي: "يتعين تسهيل الهروب للنساء، وللشيوخ وللأطفال من مدينة الرملة. وأما الذكور فيجب أن يحتجزوا."[97] وحين وصل إلى المشهد، ديفيد بن غوريون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، سأله الجنرال آلون: "ماذا سيفعل بالعرب؟" قام بن غوريون، كما كتب موريس، "بعمل إشارة طرد قوية بيده وقال: اطردوهم." إن الأمر بطرد جميع السكان "من دون الانتباه إلى العمر" كان قد وقعه إسحق رابين، وهو رئيس وزراء مستقبلي.[98]

وقد روى موريس مشاعر الذنب التي عبر عنها بعضهم عن هذه الإستراتيجية. وقال القائد المشارك لحزب مابام مئير ياعاري:

كثيرون منا يفقدون صورتهم [الإنسانية]... كم هو من السهل أن يتكلموا كيف يكون ممكناً ومسموحاً أن نأخذ النساء، والأطفال والشيوخ وأن نملأ الطرقات بهم لأن هذه هي أوامر الإستراتيجية. وهذا، نحن نقول... هو الذي يتذكر من هم الذين استخدموا هذه الوسائل ضد شعبنا في أثناء الحرب [العالمية الثانية]... نحن فرعون.[99]

وفي فلسطين مازالت هي القضية، قلت: "إن الفلسطينيين، في العام 1967، هربوا من بيوتهم مرة أخرى في أثناء حرب الأيام الستة حين احتلت إسرائيل النسبة المتبقية من فلسطين وهي 22 بالمائة، واصفاً هذا بأنه عمل من أعمال الدفاع عن النفس." وقد وصف هذا القول من المشتكين بأنه خطأ ومؤذ. وقالوا: إن كون العرب هم الذين هاجموا أولاً "هي مسألة من السجل التاريخي." وعلى الرغم من أن الدعاية الصهيونية قد ضخمت مسألة ستمائة ألف يهودي وقفوا في القتال ضد خمس دول عربية،• فإن السجل التاريخي يقدم تفسيراً مختلفاً اختلافاً شديداً. إن القوات المسلحة للجامعة العربية، التي تمثل خمس دول، كانت قد حشدت عشرين ألف رجل لا غير. وأثقل دروع معهم تكونت من اثنتين وعشرين دبابة خفيفة وعشر طائرات قديمة من نوع سبيتفاير. وكان لدى اليهود اثنان وخمسون ألفاً من القوات المقاتلة العاملة، والكثير منهم معبأ ومتحرك جداً، مع حرس محلي بقوة ثلاثين ألف رجل، إضافة إلى الأرغون وهي مجموعة "عمليات خاصة" أو مجموعة إرهابية.

وقد كتب المؤرخ باتريك سيل أن الجيش المصري كان أبعد ما يكون عن أن يمثل تهديداً، مع وجود معظمه معوقاً في مستنقع الحرب الأهلية في اليمن. والرئيس ناصر، مع كل صخبه، لم تكن لديه أي رغبة في غزو إسرائيل. وكان هذا واضحاً من قراره بأن يرسل فرقتين فقط إلى داخل سيناء، وهو يعرف أنهما لن تكونا نداً للإسرائيليين. لقد كان القول إن العرب هاجموا أولاً أسطورة. وفي الوقت الذي كان هناك هجوم واحد من الأردن فإن هذا الهجوم جاء بعد "ما دعي عملاً إسرائيلياً (استباقياً)."[100]

وعلى الحدود السورية، كانت إسرائيل هي التي غزت المنطقة المنزوعة السلاح. وقد كتب آفي شلايم في كتابه الجدار الحديدي، أن الحرب كانت قد "أُطلقت بإصدار [إسرائيل] سلسلة من التهديدات... لاحتلال دمشق وإطاحة نظام الحكم

•المقصود في حرب العام 1948 (المترجم)

السوري."[101] وكتب وليام ل. كليفلاند في كتابه المدرسي الممتاز، التاريخ الحديث للشرق الأوسط، أن "أسطورة إسرائيل العاجزة عن الدفاع عن نفسها والوليدة الجديدة التي تواجه الانقضاض عليها من حشود من الجنود العرب لا تتناسب مع الحقيقة."[102]

في كانون الثاني/يناير من العام 2003، أعلنت هيئة التلفزة المستقلة أنها رفضت كل الشكاوي ضد فيلم فلسطين ما زالت هي القضية. وأثنت الهيئة على "الاستقامة الصحفية" التي تمتع بها الفيلم، وعلى "الشمول والحجيّة الموثوقة" لمصادره التاريخية والمصادر الواقعية الأخرى.[103]

وكان الحكم علامة بارزة، لا تقبل فقط أن فيلماً وثائقياً عن عدالة القضية الفلسطينية كان "متوازنا" ضمن شروط قانون البث، بل تقبل أيضاً أنه سعى إلى إصلاح عدم التوازن الكلي في التغطية التلفازية لفلسطين وإسرائيل.

وكان من جملة ما تقدمنا به دراسة أعدتها مجموعة إعلامية طليعية من جامعة غلاسغو، التي توصلت في ختامها إلى أن نقص الفهم لدى الجمهور للأحداث في فلسطين ولجذور الأحداث كان في الواقع نقصاً تزيده رواية التلفزة للأخبار اختلاطاً: وبكلمات أخرى، كلما ازداد الناس مشاهدة للتلفزة قل ما عرفوه.

إن المشاهدين نادراً ما يحاطون علماً بأن الفلسطينيين كانوا ضحايا لاحتلال عسكري غير قانوني، ولم يكن تعبير "الأراضي المحتلة" يُشرح أبداً تقريباً. إن 9 بالمائة فقط من الشباب الذين أجرى معهم الباحثون مقابلات كانوا يعرفون أن الإسرائيليين كانوا هم القوة المحتلة وأن المستوطنين غير الشرعيين كانوا يهوداً، وكان كثيرون يعتقدون أن هؤلاء المستوطنين هم من الفلسطينيين. ووجد الباحثون أن الاستخدام الانتقائي للغة من قبل المذيعين كان حاسماً في إدامة هذا الاضطراب والجهل.

وعلى سبيل المثال، فإن كلمات مثل "القتل"، و"الفظاعة" و"القتل الوحشي بدم بارد" لم تكن تستخدم إلا لوصف موتى الإسرائيليين فقط. وقد كتب الأستاذ الدكتور غريغ فيلو: "إن المدى الذي تبلغه بعض الصحافة في تبني وجهة النظر الإسرائيلية يمكن أن يرى لو أن التصريحات معكوسة ومُثّلت وكأنها أعمال

فلسطينية. [فنحن] لم نجد أي تقارير تنص على أن هجمات الفلسطينيين كانت رداً على قتل المقاومين الذين يقاومون احتلالاً غير قانوني." وتوصلت الدراسة في الختام إلى أن الأخبار في التلفزة البريطانية عكست "انحيازاً ساحقاً نحو سياسات دولة إسرائيل."[104] لقد كانت لمحة من الحقيقة ولمحة تبين السبب الذي يستمر من أجله الظلم في فلسطين.

ويقول تيم ليويللين، وهو مراسل سابق لهيئة الإذاعة البريطانية في الشرق الأوسط، إن الهيئة تخضع لضغط "لا يلين" من إسرائيل وأصدقائها. وإدارة الهيئة تتعرض "بالتناوب للثرثرة معها وإزعاجها" من "سفارة ماهرة ومن العديدين من أصدقاء إسرائيل المؤثرين والمنظمين تنظيماً جيداً." وهذا "منتج، خصوصاً الآن والاتهامات بمعاداة السامية يمكن أن تكون موضع الاستخدام على نطاق واسع." وهو يصف اتجاهاً ثقافياً مطبوعاً في غرف بث الأخبار، يُستغل بسهولة، لكي يُرى العالم على أساس (هم) و(نحن)... فالمجزرة في محلات تسوق تجاري هي نوعاً ما أكثر استفزازاً أو تأثيراً من حيث الأخبار من القنبلة التي تدمر الشقق السكنية الرثة في حي عربي مكتظ قذر. والكلمات التي يستخدمها المذيعون مراراً وتكراراً لشرح تلك الصور تقف في طريقها، وكأن ذلك يحصل لمحاولة منعها أو تخفيفها، بدلاً من الإخبار عن الرعب الذي تمثله الصور.[105]

في اليوم التالي بعد أن عدت من فلسطين، شاهدت على هيئة الإذاعة البريطانية الرئيسية تقريراً من غزة، التي كانت قد هوجمت بالمقاتلات الإسرائيلية اف 16 والطائرات العمودية المسلحة. وشملت الإصابات أطفالاً من ثلاث عائلات. وكان مراسل الهيئة، وهو يقف في الحطام الملطخ بالدم لشقة سكنية، قد وصف الهجوم بوصفه "حرب إسرائيل على الإرهاب". ولم ترن في صوته أي مفارقة ساخرة وهو يقلب الدليل الموجود حوله هو.

وبعد ذلك بقليل، بثت سلسلة مراسل من هيئة الإذاعة البريطانية تقريراً حول حصار كنيسة المهد في بيت لحم، التي كان قد لجأ إليها عدة مئات من المقاتلين الفلسطينيين. وبدأ الراوي بالقول: "إن الإسرائيليين كانوا مصممين على عدم

الإضرار بالمبنى. وقد أبعدت الصحافة من ميدان المذود، ولكن سمح لنا بالبقاء ومراقبة العملية الإسرائيلية." ومع عدم تفسير هذا الامتياز في الوصول، قدم الفيلم نجمه، وهو عقيد إسرائيلي كان قد "ضمن المعالجة الطبية لأي شخص مجروح." وتحدث العقيد بلغة إنجليزية سلسلة وظهر وهو يرسل تحية بروح مرحة في هاتفه الجوال إلى أصدقاء له في لندن.

ومن دون أي دليل أو تحد، وصف الفلسطينيين الموجودين في داخل الكنيسة بأنهم "قتلة" و"إرهابيون". وحقه المقرر في "اعتقال" الأجانب المحتجبين سلمياً الذين كانوا في الكنيسة أيضاً لم يستدع أي تساؤل من منتج هيئة الإذاعة البريطانية الموجود مع المراسل. وحين غابت الشمس خلف شكل العقيد اللطيف أعطي العقيد الطيب الكلمة الأخيرة في الفيلم. فقال: "القضايا" القائمة بين الإسرائيليين والفلسطينيين "كانت وجهات نظر شخصية."

وحين كشفت كلمات الشكر والإقرار بالفضل للمسهمين في الفيلم أن الفيلم كان قد أخرج بالفعل بجهود شركة إنتاج إسرائيلية، هاتفت فيونا ميرتش، المنتج التنفيذي لسلسلة مراسل. وأكدت لي بأنه كان هناك منتج من هيئة الإذاعة البريطانية في الموقع. وقالت: لو أنه كان قد سأل "أسئلة صحافية حقيقية" لما كانت الشركة الإسرائيلية، إسرائيل غولدفشت برودكشنز، قد كسبت "ثقة" الجيش الإسرائيلي. وقالت كانت تلك هي طريقة "طر على الجدار". وكان [الفيلم] يكسر نمطاً ثابتاً، لقد كان يدور حول رجل طيب، محترم."

وسألتها لماذا لم تجر أي إشارة إلى الاحتلال غير القانوني لبيت لحم وبقية الأراضي المحتلة؟ ولماذا لم تجر مقابلة أي فلسطيني؟ فقالت كان يجب علي أن أكون قد شاهدت فيلماً سابقاً من مراسل، "وكان فيه فلسطينيون". من المستحيل أن نتخيل أن هيئة الإذاعة البريطانية تستخدم شركة إنتاج فلسطينية لعمل فيلم يكسر النمط الثابت ويظهر"الرجال الطيبين، المحترمين" الذين كانوا يدافعون عن أرض وطنهم ضد محتلين متوحشين في الغالب.[106]

وليس معنى هذا أن نوحي أن هيئة الإذاعة البريطانية لم تنظر أبداً نظرة نقدية إلى إسرائيل. فتقارير جيرمي باون من لبنان المحتل من إسرائيل تأتي إلى الفكر. (واللازمة المتكررة من الحكومة الإسرائيلية هي أن الهيئة "منحازة" ضدهم انحيازاً دائماً.) ولكن هذه استثناءات، وهي تصير أندر فأندر. في العام 2001، فحصت نسخة جريئة من بانوراما القسم الموثق توثيقاً جيداً الذي لعبه شارون، وهو وزير للدفاع، في المجازر التي وقعت في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في لبنان في العام 1982. وكان رد الفعل الإسرائيلي غضباً مفرطاً، شمل تهديدات بالعمل القانوني، وكله لم يصل إلى أي شيء، ربما باستثناء التأثير الضخم على مديري هيئة الإذاعة البريطانية، ولكن لم يتم إنتاج أي برنامج مكافئ منذ إنتاجه.

أورلا غورين، وهي مراسلة لهيئة الإذاعة البريطانية، ذات سمعة استقلالية بوصفها لا تخاف، وصريحة لا تنحاز، وقعت تحت التدقيق الشديد من الإسرائيليين. ومن وقت إلى آخر، أظهرت أورلا غورين المعاناة الحقيقية للفلسطينيين. ومثلها مثل مراسلة الغارديان سوزان غولدينبيرغ، فإنها تستقبل سيلاً من بريد البغضاء وتستقبل هيئة الإذاعة البريطانية شكاوى "رسمية" في كل مرة كانت تقاريرها توحي بأن الفلسطينيين كانوا ضحايا للاحتلال. وكان لافتاً للنظر أن نراقب التغير التدريجي في مقاربتها للقضية.

في 12 أيار/مايو من العام 2005، شاهدت تقريرها عن يوم الاستقلال الإسرائيلي، وهو بالنسبة إلى الفلسطينيين، يوم للحزن لأنهم يتذكرون أهوال النكبة. ولكن المراسلة لم تقدم أي ذكر للنكبة ولم تقابل أحداً من الفلسطينيين. وقد أعطي المستوطنون اليهود غير القانونيين في غزة وقتاً كريماً على الهواء يشتكون فيه من "رمينا إلى خارج بيوتنا" إذا استمر آرييل شارون ومضى قدماً في خطته لأجل "فك الارتباط" مع غزة. وقالت عن صور في ختام التقرير عن شارون وهو يبكي من حادثة تلويح بالعلم: "إن الأسابيع القليلة التالية ستكون صدمة نفسية وعقلية بالنسبة له [شارون] ولشعبه."

إلى هذا الحد تكون هيئة الإذاعة البريطانية "مطمورة" إلى درجة تبدو معها في بعض الأوقات وكأنها تحاول أن تعوض عن أي اعتراف عابر بالفلسطينيين بصفتهم صانعي سلام. في 7 حزيران من العام 2005، روى راديو هيئة الإذاعة البريطانية أن المسؤولين البريطانيين عزموا على مقابلة المنظمة الإسلامية حماس على "مستويات منخفضة... رؤساء بلديات ليسوا مشاركين في العنف." معظم التقرير لم يكن مكرساً لمغزى الاجتماع (فحماس وافقت على أن تكون جزءاً من وقف إطلاق النار الفلسطيني)، ولكنه تكرس لمسؤول حكومي يشتكي شكوى متكررة من "التعامل مع الإرهابيين". ولم تجر أي مقابلة مع فلسطيني واحد.

لقد كان التقرير مثالاً للكيفية التي يبقى فيها التاريخ السري سرياً، لأن أي ذكر لم يأت إلى الحقيقة المتمثلة في أن الإسرائيليين أنفسهم قد ساعدوا بالفعل لتأسيس حماس وتمويلها ليكون ذلك جزءاً من "محاولة مباشرة لتقسيم الدعم، ولإضعاف هذا الدعم المقدم إلى منظمة تحرير فلسطينية قوية، وعلمانية وذلك باستخدام بديل ديني منافس"، حسب كلام مسؤول سابق في الشرق الأوسط من وكالة الاستخبارات الأمريكية. ودليله مع أدلة أخرى موجودة في وثائق تم الحصول عليها من معهد مكافحة الإرهاب الذي يقيم مركزه في إسرائيل.*[107]

وما يسميه بيتر بيومنت من الأوبزيرفر "الإزعاج النفسي الدؤوب" للصحافيين يتساوى مع التهديدات المادية، وهو أسوأ منها. وعاماً بعد عام، توثق جمعية الصحافة الأجنبية في القدس التخويف، والجرح والقتل الذي يتعرض له أعضاؤها من الجيش الإسرائيلي. وحسب معرفتي، لم يتعرض للأذى عمداً أي صحافي أجنبي، من طرف الفلسطينيين. وفي مدة ثمانية شهور، فإن العديدين من الصحافيين، ومن جملتهم مدير مكتب سي إن إن، قد جرحوا على يد الإسرائيليين، وبعضهم كانت جراحه خطيرة. وفي كل حالة، اشتكت جمعية الصحافة الأجنبية. وفي كل حالة، لم يكن هناك أي جواب.[108]

* مع كل الإنصاف الذي أبداه هذا الكاتب كيف يمكن قبول شهادة العدو الإسرائيلي ضد حماس؟ وكيف يمكن تصديق عميل لوكالة الاستخبارات المركزية ضد الفلسطينيين من حماس؟

وقد وبخ إدوارد سعيد قبل موته بقليل، الصحافيين الأجانب توبيخاً مريراً عن "دورهم المدمَّر" في "حذف السياق الذي يتم فيه العنف الفلسطيني، إنه رد فعل الشعب اليائس والمضطهد اضطهاداً مرعباً، والمعاناة المروعة التي ينبع منها."[109] وبعض الصحافيين قد يناقش في أن طبيعة عملهم هي طبيعة عابرة سريعة الزوال وأن المعنى التاريخي ليس من شأنهم. ولكن جان بول سارتر كان محقاً بالتأكيد حين كتب إن "الاشتراط التاريخي موجود في كل دقيقة من حياتنا". وليس هناك أي معنى في أن نوحي بأن الصحافة، بخلاف أي نشاط إنساني آخر، مجردة من العواقب ومعفاة من المسؤولية. ومثلما كانت حرب غزو العراق "حرباً بوسائل الإعلام"- وربما تكون حدثت بسبب إهمال الصحافيين، وصمتهم وتواطئهم بقدر ما حدثت بسبب السياسيين – وكذلك يمكن قول الشيء نفسه عن "النزاع" وحيد الجانب في فلسطين. ففي كلتا الحالتين، كانت العاقبة هي الدم المهراق لآلاف البشر الأبرياء.

الرقابة بالحذف، بوعي أو بغير وعي، تلعب دوراً رئيسياً. فالانتفاضة لم يقدم عنها تقارير أبداً تقريباً في "مجرى التيار العام للتفكير" بوصفها حرباً مشروعة للتحرير الوطني، وانتفاضة ضد الاضطهاد، مثل أي انتفاضة أخرى. والأسباب الحقيقية تحذف، مثل الأهمية الإستراتيجية المهيمنة لإسرائيل بالنسبة إلى الولايات المتحدة والقمع المتصل بحركة الوحدة العربية القادرة على تحدي السيطرة الغربية على نفط الشرق الأوسط، واستخدام إسرائيل أرض تجربة للأسلحة الأمريكية الجديدة وقناة للعملاء المناوئين للديمقراطية الذين تتردد أمريكا (أو كانت تتردد) في دعمهم علانية.

في العام 1981، قال ياكوف ميريدور، المنسق الرئيسي الاقتصادي للوزارة الإسرائيلية:

نحن سنقول للأمريكيين: "لا تتنافسوا معنا في جنوب إفريقية، ولا تتنافسوا معنا في الكاريبي أو في أي بلد آخر لا تستطيعون العمل فيه علناً. دعونا نفعلها." لا بل إنني أستخدم تعبير، "أنتم تبيعون الذخيرة والمعدات بالوكالة." وهذا سيتم عمله باتفاقات معينة مع الولايات المتحدة في الأماكن التي يكون لنا فيها أسواق معينة، سوف تترك لنا."[110]

لقد ساعدت إسرائيل جنوب إفريقية التمييز العنصري على أن تطور أسلحة نووية، وكانت هي "القناة" الموصلة للأسلحة الأمريكية على الرغم من حظر الأمم المتحدة لذلك. العسكريون في جنوب إفريقية وإسرائيل استخدموا أسلحة من نوع عوزي والجليل، وكذلك فقد جددت سياراتها المدرعة من قبل إسرائيل. وقامت المزارع الجماعية (لكيبوتسات) الإسرائيلية بصناعة الخوذات لشرطة التمييز العنصري. "وقال رئيس الوزراء بي. جيه. فورستر: "إسرائيل مصدر إلهام لنا."

وفي أمريكا الوسطى، سلحت إسرائيل ووكالة المخابرات الأمريكية ودربتا قوات الكونترا في نيكاراغوا، وزمر الموت في غواتيمالا، والعسكريين الفاشيست في السلفادور. وبين الطرفين، تركوا على الأقل مائة ألف قتيل. والقليل من هذا كتبت عنه التقارير. واحتاج الأمر إلى أشجع فاضح للفساد وهو مردخاي فعنونو، ليخبر العالم بالذي كان يعرفه المراسلون في القدس: وهو أن إسرائيل قد طورت ترسانة هي من أكثر الترسانات النووية في العالم هولاً.

"واتفاقات أوسلو" في التسعينيات من 1990 مثال لسوء إعطاء التقارير الإخبارية وحذف الأهداف الحقيقية لإسرائيل وللقوة الأمريكية في فلسطين. وكذلك فإن "عملية السلام" لم تكن أبداً عن السلام، بل كانت بشكل رئيسي عن إضفاء الاحترام الدولي على السيطرة الإسرائيلية الكبيرة على الأراضي المحتلة. ففي العام 1997، كتب إسرائيل شاحاك يقول: "يوجد فهم ضمني بين الإسرائيليين والفلسطينيين الذين حضروا المفاوضات السرية [في أوسلو] مفاده أنه لا يمكن لأي سلطة في الضفة الغربية وقطاع غزه أن تتحقق في صورة مادية ولو كانت اتفاقات أوسلو تأمر بذلك."[111] وفي العام 1995، أعاد واحد من "مهندسي السلام"، وهو شيمون بيريز طمأنة الجمهور الإسرائيلي بالقول: "إن الصفقة أبقت ما يلي في أيدي الإسرائيليين: 73 بالمائة من الأراضي [المحتلة]، و97 بالمائة من الأمن، و80 بالمائة من المياه."[112] والكثيرون من الفلسطينيين فهموا هذا وشكوا في تواطؤ ياسر عرفات ونخبته، الذين كانوا سيتسلمون مبالغ لا حساب عليها من دولارات النفط من دول الخليج، و100 مليون دولار على الأقل من الولايات المتحدة من أجل جهاز "أمني"

كان لديه كل البهارج الخاصة بحرس القصر المدلل الذي كان يتصرف أيضاً نيابة عن إسرائيل*.

أما العملية السلمية فقد نسقها رئيس أمريكي كان يرغب في أن يذكر لأمر آخر غير قضيته مع مونيكا لوينسكي، وكانت ارتباطاته الصهيونية ستساعده على تسديد ديونه، وقد كتب جون شتينباك يقول: "العملية السلمية":

وفرت الغطاء الكامل لتنفيذ السياسة التي صاغها أرييل شارون في العام 1977 وسماها "مصفوفة السيطرة". وقد استدعت هذه السياسة إنشاء مستوطنات إستراتيجية على قمم التلال في كل الضفة الغربية، مع ضرورة أن تربط "بطرق جانبية" مهيأة للاستخدام المقتصر حصراً على المواطنين [وعلى الجيش الإسرائيلي]... وكانت مصفوفة السيطرة هي الذَّنَب الذي هزهز كل عملية كلينتون، "العملية السلمية". لقد أعطت إسرائيل سبع سنوات من النشاط الاستيطاني المحموم (لقد ازداد عدد المستوطنين في أثناء "العملية السلمية" أكثر من الضعف) ومكن إسرائيل من بناء نسيج من القلاع للجيش الإسرائيلي وشق تسعة وعشرين طريقاً كبيراً، يحظر على الفلسطينيين السير عليها، مولتها إدارة كلينتون.[113]

وحين كان مشروع أوسلو يقترب من الاكتمال، وبعد أن تحولت الضفة الغربية إلى سلسلة من "البانتوستانات" (كلمة الغيتوات ربما تكون أدق) وصارت السيطرة العسكرية الإسرائيلية مضمونة، حينها فقط، قدم رئيس الوزراء إيهود باراك "عرضه الكريم" إلى ياسر عرفات في الاجتماع الأخير في كامب ديفيد في شهر تموز/يوليو من العام 2000 (وهو موضوع عالجته سابقاً في هذا الفصل). والأرض الوحيدة الجديدة التي عرضها تكونت من امتدادات من الصحراء تلي قطاع غزة وكانت إسرائيل قد استخدمتها مكباً للنفايات السامة. وكانت بقية الأرض متاهة

* رفض الشعب الفلسطيني بأغلبيته اتفاقات أوسلو، ورأى فيها تفريطاً شديداً بحقوقه. ولعل الانتخابات العامة التي جرت في كانون الثاني/يناير من العام 2006 خير دليل على ذلك. ومع ذلك فكل ما سبق من الاتهامات بحاجة إلى الأدلة، ولا يجوز إلقاء التهم جزافاً. ولم يكن يعرف عن الرئيس ياسر عرفات نقص المال لديه! (المترجم)

من المستوطنات والقواعد العسكرية، وهو ما كان يعني أن الفلسطينيين الموجودين في كانتونات لن يكون لهم وصول مباشر إلى حدودهم الدولية وأن مواطني الكنتونات سيستمرون خاضعين لأكثر من ثلاثة آلاف أمر عسكري إسرائيلي كانت تهيمن على أي تشريع فلسطيني.[114]

الزعم غير المعقول بأن باراك كان قد عرض "90 بالمائة" من الضفة الغربية روته التقارير الإخبارية من دون تحدٍ له عبر العالم الغربي، وكانت العناوين الرئيسية النموذجية: "إسرائيل توافق على الخروج من الضفة الغربية"، و"إسرائيل تنهي مطالبة اليهود بالضفة الغربية حسب الكتاب المقدس". وحين خرج باراك أخيراً، اتهم عرفات "برفض يكاد يكون على حافة التخريب". وترددت أصداء هذا من كلينتون وصارت هي الحقيقة الرسمية وحقيقة وسائل الإعلام، وكانت أكذوبة كذلك.

وقد كتب روبرت مالي، مفاوض كلينتون الرئيسي، بعد عامين، يقول: "إن الحقائق لا تصادق على هذا الزعم".

صحيح أن الفلسطينيين رفضوا نسخة حل الدولتين التي كانت قد عرضت عليهم. ولكن... إسرائيل رفضت حل الدولتين غير المسبوق الذي عرضه الفلسطينيون على الإسرائيليين [والذي أخذ بالحسبان] دولة إسرائيل التي تدمج بعض الأراضي التي استولت عليها إسرائيل في العام 1967، وشملت من ضمنها أغلبية كبيرة جداً من مستوطنيها، وأكبر قدس يهودية في تاريخ المدينة، وحفظ التوازن السكاني لإسرائيل بين اليهود والعرب، والأمن المضمون من حضور دولي تقوده الولايات المتحدة.[115]

إن حذف هذه الرواية الحقيقة من وسائل الإعلام الأمريكي والبريطاني، بالإضافة إلى شيطنة عرفات (للأسباب الخطأ)، مهدت الطريق لانتخاب شارون في العام 2001 ولتنفيذ الخطة التي سماها "المرحلة التالية من إسرائيل الكبرى". وفي العام 2004، أعلن أن إسرائيل سوف "تفك الارتباط" بغزة وتفكك المستوطنات الموجودة هناك. مرحى عزف موسيقي، مجرم الحرب صار صانع سلام! وقال عنوان

رئيسي فوق مقالة كتبها الصهيوني الليبرالي في الغارديان جوناثان فريدلاند، الذي كان مسح على شارون بالزيت لتقديسه، "أنا أساند شارون حامل الراية المستبعد إلى أقصى حد بالنسبة إلى أولئك الذين يتوقون إلى التقدم في الشرق الأوسط."[116]

وكان العكس هو الصحيح. فقد كشف أقرب مستشار لشارون، وهو دوف وينغلاس، الذي اخترع "خطة فك الارتباط"، أن هدفها كان صرف الانتباه عن النقد الدولي لإنشاء إسرائيل الجدار عبر الضفة الغربية، وهو الجدار الذي حكمت محكمة العدل الدولية بأنه غير قانوني. وقال: "إن الخطة مصممة لتجميد عملية السلام، [و] منع تأسيس دولة فلسطينية [مع] إجراء مناقشة حول اللاجئين، والحدود والقدس." وسيعاد تحديد مواقع جديدة للمستوطنات لا أن يعاد تفكيكها، وذلك لكي تتم الموافقة من نظام حكم بوش على إلحاق الضفة الغربية وعلى جدار التمييز العنصري. وقال: "عملياً [فإن هذا يعني أن] هذه الرزمة كلها التي تدعى الدولة الفلسطينية، مع كل ما تستدعيه، قد أزيلت من جدول أعمالنا إلى أجل غير محدد. وكل ذلك مع مباركة رئاسية [أمريكية] ومع تصديق من كلا مجلسي الشيوخ."[117]

وذلك هو ما حدث.

فطوال ثلاثة أسابيع في شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر من العام 2005، استطاعت الحكومة الإسرائيلية والمروجون لها بنجاح أن يصرفوا انتباه الكثير من العالم بعرض مسرحي دعى "فك الارتباط". وبعد أن أعطيت المناسبة تغطية تلفازية حتى درجة الإشباع، ليلة بعد ليلة، أزيلت من غزة "مستوطنات" المتطرفين في حماستهم للمسيح المنتظر، وأغلبهم من الأجانب، والكثيرون منهم ينتحبون ويعرضون أنفسهم أمام آلات التصوير، وقد أوصى الآباء أطفالهم بلف أنفسهم بشالات الصلاة وبأن ينشجوا بالبكاء وأن يصرخوا تحدياً لإزالة المستوطنات.

وقد كتب جوناثان ستيل يقول: "إن أولئك الذين يزعمون زعماً مخلصاً أو مخادعاً، أن وسائل إعلام العالم منحازة لصالح الفلسطينيين قد انهارت حجتهم

هذا الأسبوع." "فالمستوطنون" وهم يقدمون "تضحيتهم المؤلمة" من أجل السلام، كما سماها شارون، قد تم إخلاؤهم على أيدي جنود إسرائيليين تلقوا "تدريباً في الحساسية" للتأكد من أن أعمال الجنود لا تسبب إلا الحد الأدنى من "الألم". وقد أعطي لهم الإنذار المناسب، وتم توفير وسيلة النقل، ودفع لهم التعويض الكريم مقدماً وكانت تنتظرهم بيوت جديدة مدعومة من الحكومة في إسرائيل نفسها.[118]

وقد أبعد حوالي 8.500 "مستوطن". وعلى النقيض من ذلك، ففي الشهور العشرة الأولى من العام 2004، شرد 13.350 فلسطينياً وصاروا بلا بيوت بفضل جرافات عملاقة مدرعة قدمتها الولايات المتحدة. ولم يعط للفلسطينيين أي إنذار، ولم يكن لدى العائلات في الغالب وقت لكي تصعد الدرج وتجمع ممتلكاتها الثمينة. وإن لم يتحركوا فوراً من بيوتهم، كانت مكبرات الصوت توقظهم في منتصف الليل، وكانوا يجازفون بالتعرض للاعتقال أو بإطلاق النار عليهم. ولم يكن هناك تغطية تلفازية على مدار الساعة، وفي الحقيقة، قلما وجدت أي تغطية مطلقاً، ولم يدفع لهم أي تعويض.[119]

وتلقى شارون التهنئة من جورج دبليو. بوش على "أعماله التاريخية والشجاعة"، وتلقى التهنئة على "جسارته" من رئيس اللجنة القومية الديمقراطية، دين هاوارد. وهو الليبرالي،.[120] وقال بلير شيئاً شبيهاً لذلك في المبالغة في التعبير، ومثلهم فعلت معظم الافتتاحيات في الصحافتين الأمريكية والبريطانية. ومع ذلك، فقد حذر جوناثان فريدلاند في الغارديان، من أنه إذا كان هناك المزيد من أعمال إخلاء "المستوطنين" من الضفة الغربية، "فإن شارون لن يبقى بطلاً بعد ذلك."[121]

وما كان يحتاج إلى أن يقلق. فلم يكن هنا، عملياً، أي "فك ارتباط". ومن ذلك الوقت حتى أواسط شهر تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2005، تم نقل أكثر من 5.500 "مستوطن" على الأقل إلى الضفة الغربية زيادة عمن نقلوا من غزة. فقد قامت إسرائيل سراً، بتوسيع وجودها في الأراضي المحتلة، واستولت على مساحة من الأرض أكثر من تلك التي تخلت عنها في غزة. وفي الوقت نفسه، يجري تطويق القدس الشرقية الفلسطينية ببناء بيوت يهودية بشكل مسعور جنوني. مع وجود

حدود بلدية جديدة تمتد 45 ميلاً في عمق الضفة الغربية، وهي بذلك تعزل خمسة وخمسين ألف عائلة فلسطينية وتقطعهم عن الآخرين. وعبر هذه الحدود سوف يمر جدار التمييز العنصري الذي تقوم إسرائيل ببنائه تحدياً لمحكمة العدل الدولية، والذي يقسم العائلات، والناس ويعزلهم عن أماكن عملهم، ويعزل الأطفال عن مدارسهم.[122]

وقد كتب جيف هالبر، وهو رئيس اللجنة الإسرائيلية ضد تدمير البيوت، وقال: بالنسبة إلى شارون، "إنها صفقة تمتّ. [فهو] قد أنجز أخيراً المهمة التي كان قد كلفه بها منذ ثمانية وثلاثين عاماً مناحيم بيغن وهي: اضمن السيطرة الإسرائيلية الدائمة على كل أرض إسرائيل في الوقت الذي تمنع فيه ظهور دولة فلسطينية قابلة للحياة."[123]

لقد فرح أهل غزة برحيل "المستوطنين"، ولكنهم مازالوا معزولين عن العالم الخارجي. ووفقاً لما قال جيمس وولفينسون، الرئيس السابق للبنك الدولي والمبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى المنطقة، فإن إسرائيل "تتصرف تقريباً وكأن فك الارتباط لم يحدث."[124] وقد روت وكالة الأنباء الإسرائيلية، أن الجيش الإسرائيلي، سوف "يبني سياجاً أمنياً آخر حول قطاع غزة. وفي النهاية، سوف يضم النظام ثلاثة سياجات، وأجهزة إحساس إليكترونية وبصرية وفق أحدث ما أنتجه العلم إضافة إلى رشاشات تحت السيطرة من بعد. ويجب أن يكون النظام مكتملاً في أقل من عام مقابل تكلفة إجمالية تصل إلى 220 مليون دولار [وتدفع التكلفة من دافع الضرائب الأمريكي]." وقد وصف الكاتب إسرائيل شامير هذا النظام بأنه "الدفن في اللحد"[125]

وقال جغرافي إسرائيلي، وهو آرنون سوفّر، وهو الذي يشير على الحكومة بشأن "التهديد السكاني" الذي يفرضه الفلسطينيون، لصحيفة جيروساليم بوست "سيكون الضغط على الحدود مروعاً. وستكون حرباً مرعبة. ولذلك، فإذا كنا نريد أن نبقى أحياءً، فسيتوجب علينا أن نقتل، ونقتل ونقتل، كل اليوم، وفي كل يوم."[126]

ومنذ رحيل "المستوطنين"، بدأ رعب جديد. فالقوات الجوية الإسرائيلية تهاجم أهل غزة بإطلاق "أصوات دوي" يصم ويسبب خوفاً واسع الانتشار، ويحرض على الإجهاضات وإصابة الأطفال بالصدمة النفسية والجسمية. وقيام الطائرات بالطيران على ارتفاع منخفض بعد حلول الظلام، يخلق أصوات دوي يرسل موجات صادمة عبر الأراضي ويرسل صوتاً مثل الزلازل أو أصوات انفجار القنابل الضخمة. وقالت وكالة الأمم المتحدة للاجئين إن أكثرية المرضى في مستوصفاتها كانوا تحت سن السادسة عشرة ويعانون من نوبات القلق، والبوال الليلي، وتقلص العضلات، وفقدان السمع وصعوبات التنفس. وفي مستشفى الشفاء في غزة، زاد عدد الإجهاضات بنسبة 40 بالمائة.[127]

إحدى مرات الصوت الداوي سمعت من غير قصد في إسرائيل. وقد روت معاريف، وهي صحيفة يومية في تل أبيب بأن صوت الدوي "كان مثل قصف ثقيل بالقنابل، وكانت الضجة التي هزت الأجواء الإسرائيلية مخيفة. فآلاف من المواطنين قفزوا بحالة رعب من فراشهم..." ومن أجل هذا الخطأ، أجبر العسكريون على الاعتذار للجمهور الإسرائيلي – في حين أنهم مستمرون في إرهابهم لغزة.[128]

لم يقدم أي اعتذار عن قتل إيمان الهمص، وهي طالبة مدرسة فلسطينية بلغت الثالثة عشرة من عمرها وكانت تعيش في مخيم اللاجئين في رفح في غزة. وفي 15 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2005، برأت محكمة عسكرية إسرائيلية ضابطاً في الجيش كان قد أطلق النار على إيمان سبع عشرة مرة بعد أن كان قد تلقى تحذيراً بأنها كانت مجرد طفلة وكانت "خائفة حتى الموت". وبعد أن أطلق ذلك الضابط الذي لم تتحدد هويته النار عليها، وهي تمشي مبتعدة، "أكد القتل" لجنوده، ثم أفرغ مخزناً كاملاً في رأس الفتاة. وعلى شريط مسجل، "يوضح" الضابط لماذا قتل إيمان. وقال: "إن أي شيء متحرك، ويتحرك في المنطقة، ولو كان عمره ثلاث سنوات، يجب أن يقتل." ولم تكن قواته في أي نقطة قد وقعت تحت أي هجوم. وقد برأته المحكمة من تهم صغيرة مثل "سلوك لا يليق بضابط."[129]

وفي الوقت الذي كنت أكتب فيه هذا النص، وقعت حادثتان أعادتا وضع فلسطين ثانية على الصفحات الأولى من الصحف. الأولى، هي أن شارون عانى من جلطة، وهو ما ولد موجة من الدعاية تنافس الدعاية التي رافقت خروج المستوطنين من غزة. وبين عشية وضحاها، جرى تجميل شارون. فهذا الرجل الذي قالت عنه لجنة كاهان إنه حمل "مسؤولية شخصية" عن مجازر صبرا وشاتيلا، وهذا الرجل الذي سبق له أن حقق سوء السمعة في مجزرة قبية، وهذا الرجل الذي دمر لبنان وأشعل عن عمد الانتفاضة الثانية، كان هو الآن التجسيد "للسلام" وكان هو "الآمال المعقلة بخيط".[130] وبالنسبة إلى جوناثان فريدلاند من الغارديان، وهو الذي "تهاوى" قلبه من الأنباء التي تقول إن شارون كان إنساناً فانياً، فإن إسرائيل "فقدت جدها". وذلك لأن تلك الواجهة القاتلة كان خلفها بالفعل رجل مسن عزيز يخطط بانهماك من أجل "تقدم أكبر، – الإنهاء الجزئي للاحتلال وتفكيك المستوطنات غير القانونية – تقدم أكبر من أي وقت مضى طوال أربعة عقود."[131]

ورداً على هذه السخافات المحمومة كتبت كرمة النابلسي، وهي فلسطينية، عن شارون، تقول:

مصيره المحتوم بالنسبة إلينا كان رؤية مثل رؤية هوبز لمجتمع فوضوي: مجتمع مبتور، وعنيف، وبلا قوة، ومدمَّر، ومذعور، ومحكوم من مليشيات يائسة، وعصابات، ومتمذهبين دينيين، ومتطرفين، ومقسوم إلى قبلية عرقية ودينية، ومتعاونين مع العدو مختارين. انظروا إلى عراق اليوم: ذلك هو ما قد أعده بانتظارنا، وهو قد أنجزه تقريباً.[132]

وفي الوقت الذي يرقد فيه شارون في غيبوبة، فإن أكثرية الفلسطينيين أصابت مسانديه بالفزع بالتصويت لحماس لتدير "سلطتهم" في الضفة الغربية وغزة. وقد هددت واشنطون والاتحاد الأوروبي فوراً بالعقوبة الجماعية لشعب مارس الحقوق الديمقراطية نفسها التي سبق أن زعم بوش أنه كان يستحضرها إلى الشرق الأوسط. والمفارقة التي تبعث على السخرية سريعة الزوال. سيتوجب على الغرب وعلى إسرائيل أن تتعامل مع حماس، التي سبق منذ مدة طويلة أن عرضت هدنة متفاوضاً عليها طويلة الأمد، إضافة

إلى قضيتها الخاصة مع الإسرائيليين.[133] وفي 27 شباط/فبراير من العام 2006، قال قائد حماس، إسماعيل هنية، "إذا أعلنت إسرائيل أنها سوف تعطي الشعب الفلسطيني دولة وتعيد إليهم كل حقوقهم، آنئذ نكون نحن جاهزين للاعتراف بهم."[134] هذا البيان الذي يشق أرضاً جديدة لقي الحد الأدنى من التغطية تحت العناوين الرئيسية لآخر التهديدات الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية.

ومن غزة، أرسلت لي الدكتورة منى الفرا رسالة إليكترونية (إيميلاً) تقول فيها: "نحن مستمرون في الكفاح ضد هذا الظلم الكبير، وبفضل مساندة كل الذين يكافحون ضد الظلم، قد نكون قادرين على النجاح. أعتقد ذلك. وآمل ذلك. وأرجو ألا تنسونا."

في العام 1983، عرضت الفنانة الفلسطينية منى حتوم في لندن تشكيلاً غير عادي وسمته "الطاولة المفاوضة". وحين رأيتها بعد عشرين سنة، ذكرتني أن الظلم الذي وقع على بلادها كان يشبه شبحاً: لا يتحرك ويراقب، بغض النظر عن التلاعبات والخداع الذي يمارسه المضطهدون ومساندوهم. "الطاولة المفاوضة" تربط الخداع مع الحقيقة، وتضيء الاثنين. وهذا هو الوصف الذي وصفت الفنانة نفسها ذلك به:

الغرفة مظلمة، ومضاءة بمصباح ضوئي فقط يتدلى فوق الطاولة التي تتمدد فوقها الفنانة بلا حراك. وتحيط بالطاولة كراسي فارغة. جسدها ملطخ بالدم، ومغطى بأحشاء، ملفوفة بالبلاستيك، ورأسها مغطى بإحكام بالشاش الجراحي. وعلى الشريط المخصص لتسجيل الصوت يمكن سماع تقارير أخبار عن حرب أهلية وخطابات يلقيها زعماء غربيون يتحدثون فيها عن السلام.

أصوات المذيعين والسياسيين الغربيين المنبعثة طنّانة، ومنافقة، ومتواصلة، يندمج الواحد منها بالآخر، اقتباساً بعد اقتباس، أنتجت واقعاً زائد الحدة لا ينسى. لقد نجح الفن حيث أخفقت الصحافة، ولا أعتقد أن أي شخص ينظر إلى هذا، وقد سمّرته الدهشة مثلي، سوف يخفق في إدراك الكيفية التي تمت فيها إدامة الظلم في فلسطين.

لقد فهمت فوراً الأثر غير الإنساني للجدار الذي يقوم شارون ببنائه مثل الثعبان يزحف عبر الأراضي المحتلة. واستذكرت القرى الفلسطينية التي سبق أن رأيتها في الجانب الإسرائيلي من الجدار، فكل قرية منها محاطة الآن بجدار منفصل، مثل الحلقة، يحولها إلى جزيرة ومتخلياً عن القرويين ورامياً بهم في نوع من مخيمات الاعتقال. وهناك نفق يستطيع القرويون من خلاله أن يصلوا إلى بقية الضفة الغربية. وفي النفق يوجد حاجز حديدي مشبك تستطيع الحكومة الإسرائيلية أن تنزله في أي لحظة، فتوقع القرويين في مصيدة. ويقول مصممو الجدار إن هذا الشبك "اقتصادي في التكاليف" أكثر من نوع نقاط التفتيش المزودة بالجنود التي اصطادت فاطمة وتسببت في موت وليدها.

وأود أن أضيف إلى العمل الشبحي الذي عملته منى حتوم صوت المؤلف غير المعروف لهذا البيان الصحفي الذي أصدرته إدارة التجارة في لندن:

إن إسرائيل قصة نجاح جديرة بالملاحظة بالنسبة إلى دافعي الضرائب البريطانيين. فعلى الرغم من أن هذه البلاد بحجم ويلز فقط، فإن صادرات المملكة المتحدة لهذا السوق الحي قد نمت نمواً مطرداً. والمصدرون البريطانيون يشعرون، وه في إسرائيل، أنهم في بلدهم والإسرائيليون ميالون ميلاً تفضيلياً جداً نحو البريطانيين العاملين في التجارة والأعمال. وزيادة على ما تقدم، فإن رئيس وزرائنا ورئيس وزرائهم على اتصال منتظم وتقوم بينهما علاقة عمل وعلاقة شخصية جيدة. وهما يقدمان إيجازاً أحدهما للآخر ويتشاوران في التطورات السياسية الحديثة بانتظام.

إن قسماً لا يستهان به من حزب العمال البريطاني كان يساند في السابق العدل من أجل الفلسطينيين. وقد عززت مجازر صبرا وشاتيلا في لبنان في العام 1982 هذه المساندة، وكان أرييل شارون قد تلقى توبيخاً وهوجم على دوره في الجريمة. وهذا ما أقلق الإسرائيليين، وفي التسعينيات من 1990 عين مسؤول عالي الرتبة، وهو جيديون ميير، في السفارة في لندن مع تعليمات تحثه على القيام بعمل اتصالات مع الزعيم الجديد لحزب العمال طوني بلير. ودعا ميير بلير إلى الغذاء مع مايكل ليفي. وهو رجل أعمال من لندن له علاقات حميمة مع المؤسسة الإسرائيلية. ونجحوا نجاحاً

شديداً للغاية. وقال ليفي عن شريكه في لعب التنس "نحن كلانا نلعب لنربح، ليس هناك سجناء". ولم يمض وقت طويل قبل أن يطير بلير وزوجته، تشيري، في الدرجة الأولى إلى إسرائيل، وجميع المصاريف مدفوعة من الحكومة الإسرائيلية.

وقد أعاد ليفي الأعضاء الساخطين من المجتمع اليهودي إلى صفوف الحزب وجمع نوع المال المطلوب الذي يستطيع أن يحرر القيادة من الاعتماد على اتحادات العمال، ونقل بلير حزب العمال الجديد بعيداً عن الفلسطينيين وانحاز إلى إسرائيل. وكان الجالسون في المقاعد الأمامية في البرلمان مثل روبن كوك، وكان آنئذ وزير خارجية في وزارة الظل، مجبرين على أن يأخذوا الموافقة على بياناتهم عن الشرق الأوسط من جوناثان باول، وهو مسؤول سابق في وزارة الخارجية وصار رئيس موظفي بلير. وكان أول أعمال بلير، وهو رئيس للوزراء، هو أن يكافئ ليفي بلقب ويجعله "مبعوثه الخاص" إلى الشرق الأوسط. وهكذا فوضت الحكومة البريطانية مسانداً متحمساً لإسرائيل ليكون ممثلها: السخف اللامعقول الذي قد ترغب منى حتوم في تقديره.

في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، كان معرض للأسلحة معقوداً في دوكلاند في لندن، مدعوماً من حكومة بلير. وقد ألغي الكثير من النشاطات العامة في ذلك اليوم، من منطلق الاحترام للضحايا الذين سقطوا في البرجين، ولكن لم يلغ هذا المعرض الذي يعرض آخر الأسلحة. وكان للإسرائيليين جناح كامل هناك، فشركة إسرائيلية واحدة، وهي رافائيل، عرضت صاروخ جل – سبايك، الذي أثبت سجلاً من الاستخدام ضد المدنيين في جنوب لبنان وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة والذي كانت وزارة الدفاع البريطانية تريد أن تشتريه.

وفي العام التالي، ضاعفت بريطانيا صادرات الأسلحة إلى إسرائيل بعد أن كان نظام حكم شارون قد كسر الضمان المكتوب الذي سبق له أن أعطاه بأنه لن يستخدم التجهيزات العسكرية البريطانية في الأراضي المحتلة. وسمح للأنظمة الأرضية والفضائية الجوية البريطانية بتصدير مكونات عسكرية حيوية لطائرات اف – 16 والطائرات العمودية الأباتشي الأمريكية الصنع، التي كثيراً ما يهاجم

بها الطيارون الإسرائيليون المناطق المدنية.[136] وصار تسليح إسرائيل سرياً وبشكل مخادع إذا لزم الأمر، هو الآن السياسة البريطانية.

وفي شهر نيسان/ابريل من العام 2004، ردت البارونة سيمونز، وهي وزيرة في وزارة الخارجية، على مقالة لي كتبتها في نيوستيتسمان وقالت المقالة إن الحكومة قد رخصت معدات التعذيب للتصدير إلى إسرائيل. وقالت البارونة: "أستطيع أن أؤكد أن هذه لم تكن هي القضية."

ولكن آخر سجل عام عن صادرات الأسلحة وافقت عليه وزارة الخارجية، وهو التقرير السنوي للعام 2002 لضوابط التصدير الإستراتيجي في المملكة المتحدة، يؤكد أن نوعاً من صادرات الأسلحة المعروف باسم بي إل 5001 قد تم الترخيص ببيعه إلى إسرائيل. ويشمل هذا النوع "قيوداً للرجلين، سلاسل عصابة لنقل السجناء، أحزمة صدمة كهربائية، أغلالاً، أصفاد يدين" إضافة إلى معدات "مصممة خصيصاً" لسيارات السيطرة على الشغب. وكما أوردت منظمة العفو الدولية في تقاريرها مراراً وتكراراً، فإن التعذيب شائع في السجون السياسية في إسرائيل.[137]

تسليح بريطانيا لإسرائيل تسليح صغير مقارنة بتسليح أمريكا لها. ويشمل التسليح مقاتلات اف – 16، والطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي وبلاك هوك، وتشكيلة من الصواريخ والمعدات الأخرى: وفي الحقيقة، كل شيء جديد تقريباً على طاولة رسم التقانة العسكرية العالية في أمريكا يصل على ما يبدو إلى إسرائيل. وقد لاحظت ها آرتس في ربيع العام 2005 أن اقتراح وزارة الدفاع الأمريكية لتزويد نظام حكم شارون بعدد جوهري من القنابل مفجرة المنعات "يستدعي القلق فوراً بشأن ضربة أحادية الجانب ضد إيران."[138] وشكراً لواشنطون، فالقوات العسكرية الإسرائيلية الآن هي رابع أضخم قوة في العالم، ومعها قوة جوية أكثر من ضعف حجم قوات السلاح الجوي الملكي والقوات الجوية الفرنسية مجتمعة.

وأسلحة التدمير الشامل في إسرائيل هي محرم آخر. فالزعماء الأمريكيون والغربيون الآخرون لا يذكرون هذه الأسلحة أبداً. وكانت تلك الأسلحة قد طورت

تحت الرعاية الأمريكية، والأسلحة الكيماوية، والحيوية ومن جملتها غاز الأعصاب، تصنع في معهد بحوث للأسرار العليا في نيس – زيونا، قرب تل أبيب.[139] ومع امتلاك إسرائيل بين 200 و500 سلاح حراري نووي ونظام إطلاق متقدم، فإن إسرائيل حلت محل بريطانيا بصفتها خامس أكبر قوة نووية في العالم وقد تنافس كلاً من فرنسا والصين معاً في حجم ترسانتها النووية وتقدمها.[140] وتبجح شارون قائلاً: "العرب يملكون النفط، ولكننا نملك أعواد الثقاب."

إن المسؤولية الأولى عن كل هذا تقع على واشنطون. والصراع في فلسطين هو حرب أمريكية، تشن من أشد قواعد أمريكا الأجنبية تسليحاً وأثقله، وهي إسرائيل. في الغرب، نحن مكيّفون على ألا نفكر في "النزاع" الإسرائيلي الفلسطيني على هذه الأسس، على الرغم من أن الدلائل كاسحة. وليس معنى هذا أن نقلل من حقيقة المبادرات القاسية التي لا رحمة فيها والتي تبادر بها دولة إسرائيل، ولكن من دون اف – 16 ومن دون الأباتشي وبلايين دولارات دافعي الضرائب الأمريكيين، كانت إسرائيل قد صنعت السلام مع الفلسطينيين منذ وقت طويل. وبدلاً من الدور العادي، فإن الدور المعين لها كان واضحاً: تدمير العلمانية العربية والقومية العربية.

إن "المشاريع" الأمريكية والإسرائيلية صارت فعلياً غير قابلة للتمايز. فحين هاجمت إسرائيل مخيم اللاجئين في جنين في العام 2002، كان "المراقبون" الأمريكيون هناك. وبعد عامين، حين هاجمت الولايات المتحدة الفلوجة في العراق، فإن مشاة بحريتها استخدموا الأساليب الإسرائيلية التي تعلموها، مثل جرف البيوت بالجرافات وإطلاق الصواريخ الموجهة بالسلك من طائرات عمودية و"طلقات دبابات مسلحة خصيصاً لتحفر ثقوباً في المباني من دون أن تنهار البيوت انهياراً كاملاً، مثلما حدث في جنين"، وذلك وفق ما كتبه جون كولي.[142] والصور التلفازية للأسرى العراقيين وهم في غماء يغطي رؤوسهم وفي القيود، قد تكون قد أخذت في فلسطين بعد اجتياح إسرائيلي ساحق. وطرق التحقيق مشتركة: فالإساءات الأمريكية في سجن أبوغريب في العراق تشبه شبهاً قريباً الإساءات التي ترويها في تقاريرها منظمة العفو الدولية عن إسرائيل.

وعدم التماثل في "العون" الأمريكي "للنزاع الإسرائيلي – الفلسطيني" أمر كشاف ينم عما خلفه. فإسرائيل بسكانها الذين يبلغون ستة ملايين نسمة، ويمثلون 0.1 بالمائة من الإنسانية تتلقى. 10 بالمائة تقريباً من ميزانية "العون" الأمريكي – من أجل الأسلحة وتجهيزات الحرب فقط. وهذا الرقم يحتمل أن يرتفع إلى 2.4 بليون دولار مع حلول العام 2008. ووفق ما جاء في مصلحة البحث في مجلس الشيوخ فإن ميزانية "العون" نفسها تتضمن 28 مليون دولار "لمساعدة أطفال [الفلسطينيين] للتعامل مع حالة النزاع الحالية"، ولتوفير "العون الأولي الأساسي". وهكذا فأمريكا تسلح الإسرائيليين وتجهزهم، وهم الذين يقصفون الفلسطينيين بالقنابل ويطلقون عليهم النار، وهؤلاء يُعطون آنئذ "العون الأولي" الأمريكي.[143]

ومن الناحية الإستراتيجية، فإن التخطيط الأمريكي والتخطيط الإسرائيلي متماثلان تقريباً. ولقد كانت الاستخبارات الإسرائيلية المشوهة التي أرسلت من خلال وحدة خاصة في وزارة الدفاع الأمريكية ("مكتب الخطط الخاصة") هي التي شكلت الأساس لأكاذيب إدارة بوش حول أسلحة التدمير الشامل العراقية غير الموجودة. وبعد الغزو، حث شارون الولايات المتحدة على الالتفات إلى إيران. وفي العام 2006، فإن الهجوم على إيران إمكانية حقيقية، مع قيام إسرائيل باستلام حوالي خمسة آلاف من "الأسلحة الذكية التي تطلق جواً" من أمريكا، ومن جملتها خمسمائة من قنابل "تفجير المنعات".[144]

وبالنسبة إلى أولئك الذين ألهمتهم الحركة الدولية العظيمة التي ساعدت على إسقاط التمييز العنصري في جنوب إفريقية، فإن المتوازيات بين التمييز العنصري وبين إسرائيل، مهما تكن غير دقيقة، تقدم طريقاً إلى الأمام. وقد قال نلسون مانديلا إن "التمييز العنصري جريمة ضد الإنسانية." إن "إسرائيل قد جردت ملايين الفلسطينيين من حريتهم وممتلكاتهم [و] أدامت نظاماً شنيعاً للتمييز الفاضح." والزعم أن إسرائيل ديمقراطية ليس بعيد الشبه عن الرواية التي كان يتقاسمها بيض جنوب إفريقية. فالانتخابات، والبرلمان، ومحكمة العدل، لا بل ومع ذلك حرية معينة للكلام كلها كانت، وهي الآن، كما يقال بهارج ضرورية. فالدولة

الإسرائيلية تستند إلى التفوق اليهودي، مثل دولة التمييز العنصري التي احتفظت بتفوق البيض العرقي خلف واجهة ديمقراطية.

يستطيع اليهود في أي بلد أن يأتوا ليعيشوا في إسرائيل حياة مواطنين كاملي المواطنة في حين يحرم السكان الأصليون الحق في العيش في وطنهم. وغير اليهود محددون في كمية الأرض التي يستطيعون امتلاكها وأين يستطيعون بناء بيوتهم. وثمانون بالمائة من الأرض المملوكة من العرب الإسرائيليين قد تمت مصادرتها. وبالإضافة إلى الطرق المخصصة لليهود فقط، هناك الآن منشآت للهو لليهود فقط، ومن جملتها الشواطئ. "وقد تم احتجاز أكثر من 1.100، ومن جملتهم أطفال في رحلات مدرسية،" حسب ما جاء في تقارير الغارديان، منذ بدء "العملية الهادفة لإنشاء شواطئ خاصة باليهود فقط."[145]

ومنذ العام 1948، رفضت المحكمة العليا الإسرائيلية النظر في كل القضايا التي تعالج الحقوق المتساوية للفلسطينيين الذين هم مواطنون في إسرائيل، والذين يشكلون 19 بالمائة من السكان (بوصفهم متميزين عن الفلسطينيين الذين توجد بيوتهم في الأراضي المحتلة، أو الذين طردوا إلى الأراضي المحتلة). إن اثنين وأربعين بالمائة من هؤلاء المواطنين العرب الإسرائيليين يعيشون تحت خط الفقر ويتم التمييز ضدهم في التوظيف والتعليم. وتعتبر جريمة إذا جرى التساؤل علناً عن التفوق اليهودي في الدولة، وأولئك الذين يقدمون على هذا التساؤل يمنعون من التقدم إلى أي منصب عام أو إشغال مثل ذلك المنصب.

في 15 أيار/مايو من العام 2005، صوت البرلمان الإسرائيلي على مد التعديلات العرقية لقانون المواطنة والدخول، ومنع بذلك إعادة توحيد شمل ما يقرب من واحد وعشرين ألف أسرة من الفلسطينيين ممن لهم مواطنة إسرائيلية مع الفلسطينيين الموجودين في الأراضي المحتلة. ووفقاً لمركز العدالة القانونية في إسرائيل، فإن التعديلات "تنشئ ثلاثة مسارات عرقية منفصلة للمواطنة في إسرائيل: مسار لليهود، ومسار للعرب، ومسار للأجانب."[146] ونتيجة لذلك، تم فصل العائلات فصلاً دائماً: الزوجات عن أزواجهن، والأطفال عن آبائهم، وبعضهم لا يبعد عن الآخر أكثر من

بضعة أميال قليلة، وفرض عليهم أن يبقوا منفصلين بسلك شائك كشفرات الموسى، وبالمدافع المرابطة في نقاط تفتيش عشوائية، والآن بجدار على طراز جدار "برلين". وفي أثناء عيد الميلاد في العام 2005، ولأول مرة، أحيطت بيت لحم بجدار عازل، وحبس أهلها وكأنهم في حظيرة، وساد شوارعها الصمت تقريباً.

إن هذا العزل المنهجي للعائلات كان ملمحاً للتمييز العنصري في جنوب إفريقية، وهو التمييز الذي ساعدت في قهره عقوبات الأمم المتحدة، والمقاطعة العالمية اقتصادياً، وثقافياً وعلمياً. فأي دولة غير إسرائيل كان يمكن لها أن تتمتع بالغياب الكامل لمثل هذا العار والشّنار الدولي في الوقت الذي تضطهد فيه شعباً آخر طوال أربعة عقود؟ ثم لماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة إلى مقاطعة جامعات إسرائيل، ترتفع الصيحة عن "الحرية الأكاديمية" من أولئك الذين لم ينبسوا ببنت شفة عن حرية الفلسطينيين؟ ولماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة لمقاطعة المؤسسات الثقافية الإسرائيلية، ترتفع الصيحة عن "الحرية الفنية" من أولئك الذين لم يتفوهوا بشيء عن التلطيخ المنهجي بالغائط لرسوم الأطفال في المركز الثقافي في رام الله، ورمي المخطوطات الأصلية في القمامة، وسرقة الأدوات الموسيقية، ومنع الأطفال، يوماً بعد يوم، من الذهاب إلى المدرسة؟

ولماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة لمقاطعة الفرق الإسرائيلية الرياضية، ترتفع الصيحة عن "أبقوا على السياسة بعيدة عن الرياضة" من أولئك المدركين بأن الفلسطينيين قد حرموا في الغالب كرة قدم حقيقية ليرفسوها في غبار مخيماتهم السجون؟ ولماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية، ترتفع الصيحة عن "الحرية في التجارة" من أولئك الذين بقوا صامتين في الوقت الذي يعاني فيه نفس الأطفال، الذين عزلت مجتمعاتهم عمداً عن أي تجارة، من سوء التغذية الحادة؟

وقد قال رامي الهانان، الوالد الإسرائيلي الذي فقد ابنته على يد مفجر انتحاري: "في الوقت الذي يسود فيه هذا الصمت، وهذه الإشاحة بعيداً، وهذه الإساءة الدنِسة لنقادنا بوصفهم معادين لليهود، فنحن لا نختلف عن أولئك الذين

وقفوا جانباً في أثناء أيام المحرقة. نحن لسنا متواطئين فقط في جريمة، بل إننا نتأكد من أننا نحن أنفسنا لن نعرف السلام أبداً، وأطفالنا الذين يبقون على قيد الحياة لن يعرفوا السلام أبداً. وأنا أسألك: هل لهذا أي معنى؟"

* * *

الفصل الثالث

الهند المشرقة

إن الموت جوعاً هو النتيجة الحتمية للعولمة ولسياساتها، فهي التي حولت الطعام من حاجة أساسية، لكل إنسان الحق فيها، إلى سلعة يتم الاتجار بها دولياً.

فاندانا شيفا

الغربان تصفق بأجنحتها على النافذة البارزة، وهي تنتظر لتحلق ثم تغوص. وأصوات نعيقها لا تنقطع، وعصائب الغربان المنذرة بالشؤم هي المختلفة في الهند. وهي ترقص في المطر الأسود ورياح المونسون تلف بومباي، وترفرف فوق البحر بما فيه من طُفاوة حطام السفن المتعفنة من الصرف الصحي وأحشاء السمك، وتحط الغربان على صورة ملصقة على لوحة إعلانات على جانب الطريق، لرجال أعمال شباب، من ذوي البشرة الفاتحة، وهم فرحون ويحتفلون بامتلاكهم هاتفاً جوالاً يظهر على شاشة تلفاز. ورجال الأعمال في الصورة والغربان السمينة يطلون على هرم من النفايات، يسكنه كلب شرس وجرذان مندفعة (وعيونها على الغربان) وتسكنه مخلوقة بشرية ضئيلة جداً، التصق عليها الساري الخاص بها من المطر وكأنه التصق بغراء، وهي تحفر حفراً منهجياً بيديها.

بومباي هي أغنى مدينة في الهند، وهي تعالج 40 بالمائة من تجارة البلد البحرية، وفيها معظم البنوك التجارية وسوقان للبورصة وكثافة سكانية ترتفع إلى مليون نسمة في الميل المربع الواحد. البهجة والصدمة استجابتان متزامنتان معاً. ارفع عينيك تر الصروح الغوطية الرائعة من زمن الحكم

البريطاني لا تكاد تبدو حقيقية إلا قليلاً: وبرج الساعة في راجاباي، الذي كان فيما مضى يدق احكمي يا بريطانيا! عند تمام الساعة، وملذات ملحمية، وأعظم محطة قطارات في العالم، يعبر منها مليون عامل في كل يوم، بفيَلَتِها المرصعة بالزجاج والتي يطل عليها أسد بريطاني ونمر هندي نحتهما طلاب جون لوكوود كبلنغ، والد الشاعر الذي ولد هنا، ومتحف أمير ويلز (ومازال يسمى بهذا الاسم في الشوارع، مثله تماماً، مثل اسم بومباي الذي بقي رغم الاسم الجديد مومباي الذي أهمل تقريباً)، مع مجموعته التي تهمس بتاريخ ثقافي لا تعرفه إلا قلة من الغربيين، وقبته الكاملة التي تسيطر على موقع الهلال الذي يقود إلى بوابة الهند، التي كانت قد بنيت لترحب بالإمبراطور البريطاني ولتشرف على خروجه.

وفي حديقة فكتوريا، ينهمر المطر نازلاً كالملاءة على الأميرألبرت وهو على جواده، والناس يمشون وكأنهم في ساحة تدريب، في دورة بعد دورة، يمرون بالقرب من أيل الرنّة المدهش والنمور اللامبالية. وتقوم عربة بيع آيس كريم بتشغيل أغنية "الأشياء أفضل مع الكوك" باللغة الهندية. وبالقرب من المكان هناك ما يسمى مقاطعة "الطرق الحديدية"، التي نادراً ما يراها الأجانب، وهي تقول لاشيء قد تغير. والناس هنا قد هربوا من إيجارات أرضهم وهم في جوع شديد. فيما مضي، كانت المدينة تقدم العمل في مصانع نسيجها وفيما حولها، ولكنها استبدلت بهذه المصانع "متنزهات آي تي ئي اس، حلول مشاريع تقانة المعلومات" (مراكز الاتصالات و"خدمات نشيطة" أخرى من تقانة المعلومات).

والظروف التي يعيش تحتها هؤلاء اللاجئون الأخيرون هي ظروف لا تكاد توصف: فالأسرة المتدة المكونة من عشرين فرداً تعتصر وتحشر في علبة كصندوق حزم المتاع، ومياه الصرف الصحي في حالة مد وجزر وجريان في موسم رياح المونسون، ولكنها تمكث في الفصل الحار. والغربان السمينة تنتظر، كما سبق لها دائماً، أو تركب على المطرات، والكلاب الشبيهة بالهياكل العظمية

تمضغ اللاشيء. ومع ذلك، انظر لمحة داخل هذه البيوت المبتلاة الضئيلة كأنها من ليلليبوت*، تجد أن هناك نظافة وترتيباً كالدبوس الجديد، وتجد الملابس ملفوفة في البلاستيك والأطفال يرتدون الملابس الملونة بالألوان الزاهية. وإن رؤية مثل هذا الوقار لتنتاب النفس باستمرار على نحو مزعج وتبعث على التواضع معاً، وقار رجل فقير، كما كتب نيسيم إزيكيال** في قصيدته "جزيرة"، "ممتلكاً السكينة والصخب في خطوته المديدة"[1]

ولكن لماذا ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك؟ لقد قابلت رجلاً من البنغال كان يوفر طوال أسابيع لما يعادل ست جنيهات، كانت ستشتري له كرسياً بلا ظهر ولا ذراعين لامعاً كتلميعة الحذاء، وقد ناقش معي مأزقه الحرج، ولم يطلب مني شيئاً. هو، وهم، غرباء بالنسبة إلى الوجوه المشرقة الموجودة على لوحة الإعلانات، والسؤال هو نفسه دائماً: لماذا يكون على مثل هذا المجتمع الثري والمليء بالموارد والحكيم ثقافياً، مع وجود ديمقراطيته وذكرياته عن كفاح شعبي عظيم، أن يعيش مثل هذه المعيشة؟ حين كنت في آخر مرة في بومباي قبل جيل، سألت مخرج الأفلام العظيم في بوليوود راج كابور عن الأسباب التي تجعل الفقر مقاوماً إلى هذا الحد في الهند.

وأجابني: "إن الأجانب يسيئون الحكم علينا. فنحن مجتمع ذو حراك. ولكن معظمنا مجبرون على أن يعيشوا حياة مسبقة التقدير من مجموعات قوية تفرض هذه الحياة علينا لمصلحتها. والنقطة هنا، هي أنهم يحتاجون إلى الفقر، الذي يعتبر جيداً جداً من أجل إثرائهم، ومن أجل رفع الآمال السياسية، ومن أجل تمرير رزم الطعام، كما نقول، ومن أجل تعزيز تقسيمات الدين والمنبوذين. ومع هذا، فكل ذلك صرف للانتباه: تماماً مثلما هي أفلامي صوارف للانتباه. فحين يفهم الناس هذا فهماً كاملاً ويتصرفون، سوف تتغير الأشياء في الهند".

* إشارة إلى أرض الأقزام في رواية رحلات غليفر للكاتب الإنجليزي جوناثان سويفت (1667 – 1754).

** نيسيم ازيكيال (1924 – 2004) شاعر، وكاتب مسرحي وناقد فني هندي يهودي.

وقبل عامين من ذلك، في العام 1971، كنت قد طرحت السؤال نفسه على رئيسة الوزراء إنديرا غاندي. وكانت هي وحزب المؤتمر قد أعيد انتخابهما قبل مدة قليلة بأغلبية ساحقة. وكانت حملتها حملة وعود، وقد صوت الفقراء لها. وقالت: "أنا أدرك، بعد الاستقلال، أن اتجاهنا قد تغير في مكان ما على طول الطريق. لقد امتلكنا الخيار. كان علينا إما أن نشتري سلعاً أجنبية أو أن نساعد الصناعيين على أن يثروا. ولذلك فلدينا الآن طبقة وسطى ولدينا أناس فقراء يعرفون أنهم فقراء. تلك هي البداية لتغيرنا الكبير".

"التغيير الكبير" لم يحدث أبداً، باستثناء فرضها الكارثي لأحكام القانون العرفي الذي تبع اغتيالها. وبدلاً من ذلك، حدث التغيير في التسعينيات من 1990، حين مهد الإثراء المستمر "للصناعيين" تحت حكومات المؤتمر الطريق إلى ظهور سلالة من الرأسمالية الإمبراطورية، التي كانت قد صممت في إنكلترا في أواخر القرن الثامن عشر. في كتاب اكتشاف الهند، الذي كتبه جواهرلال نهرو في العام 1944، توقع وسبق نظره إلى هذه النسخة من الأزمنة الحديثة، نسخة "الفساد، وتقاضي الرشوة، ومحاباة الأقارب، والعنف والجشع نحو المال من هذه الأجيال الأولى من الحكم البريطاني في الهند [التي] تمرر الفهم". وأضاف، لقد كان ذا "مغزى أن إحدى الكلمات الهندوستانية التي صارت جزءاً من اللغة الإنجليزية هي (النهب)"[2]

وكان بذلك يشير إلى شركة الهند الشرقية، أو "شركة الهند الشرقية الشريفة" كما كانت تعرف في الأساطير الإمبراطورية التي عُلّمت لجيلنا. وكان يفترض فينا ألا نعرف أنها ستكون النموذج للمؤسسة المتعددة الجنسيات والنموذج "للاقتصاد العولمي". واليوم، يجري منحها قابلية الاحترام التنقيحية التعديلية نتيجة نظرة من قبل التواريخ والمعارض العامة في المكتبة البريطانية وفي متحف فكتوريا وألبرت. ومع ذلك، فمثل الهند الحديثة نفسها، كما يلاحظ المؤرخ نيك روبينز، هذا الذراع الأشد جشعاً من الإمبراطورية ورائدة نظرية الاستهلاكية الحديثة، يمتلك دروساً أعمق وأشد إزعاجاً ليعلمنا إياها، سوء استخدام قوة السوق، وجشع

الشركات الكبرى، وحصانة القضاء وإفلاته من العقاب، "والحماسة اللاعقلانية" للأسواق المالية، وتدمير الاقتصادات التقليدية... وما من واحد من هذه الأمور جديد. وأكثر الشكاوي شيوعاً ضد رأسمالية أواخر القرن العشرين ومطالع القرن الحادي والعشرين كانت قد بدت علاقتها كلها سلفاً في قصة شركة الهند الشرقية منذ قرنين[3].

وكان المدير التنفيذي الرئيسي لشركة الهند الشرقية هو روبرت كلايف. "كلايف الهند" سلب، حرفياً، خزينة البنغال من كل ذهبها وفضتها وحملها على متن أسطول من أكثر من مائة قارب. وكان "ربح" الشركة 2.5 مليون جنيه إسترليني (أكثر من 200 مليون جنيه اليوم)، والتي خصم منها كلايف 234.000 جنيه إسترليني (20 مليون جنيه إسترليني). لقد ولد "متعدد الجنسيات"، وتم تصوره من سلالة من الناس معروفة باسم المضاربين، وهم الذين رفعوا في العام 1784 أسعار الطعام إلى مستوى يتجاوز القدرة التي يصل إليها فقراء الهند. وقد كتب روبنز يقول: "تختلف التقديرات، ولكنّ ما يصل إلى عشرة ملايين نسمة قد ماتوا من الجوع"[4] ففي البلاد التي كانت في القرن السابع عشر هي "الأم الزراعية لآسيا والمشغل الصناعي للعالم،" والتي كان فيها نساجو القطن قد تمتعوا بمستوى معيشة أعلى من نظرائهم في إنجلترا، في هذه البلاد صارت الحياة تحت الحكم البريطاني سلعة أقل قيمة[5].

في 12 كانون الأول/ديسمبر من العام 1876، حددت التايمز تقريرها عن الإعصار الذي قتل ما يقدر بربع مليون بنغالي بالتالي: "لا يحتمل أن تؤدي الكارثة إلى توليد الكثير من الأسى المادي بين الناس. ومراكز الإغاثة الحكومية قد فتحت و[لكن] لن تصرف مبالغ مالية ضخمة وسوف تتوجه العناية إلى ترك كل شيء إلى أبعد حد ممكن للتجارة الخاصة". وقد كتب نهرو بنظرة ثاقبة تنبئية، عن تراث الإمبراطورية، يقول: "ونحن واقعون في قبضة تشابيكه، ناضلنا بهذا الشكل عبثاً لنخلص أنفسنا من هذا الإرث الماضي ونبدأ من جديد على أساس مختلف"[6] واليوم، يمتلك التراث حياة جديدة في الطقوس الإمبراطورية الحديثة من "الليبرالية الجديدة".

ومع صعود الحكومة الهندية القومية التي قادها حزب بهاراتا جاناتا في التسعينيات من 1990، جُردت الهند من أبوة نهرو، ونال المجتمع المقسوم الذي وصفته ابنته الترخيص من صندوق النقد الدولي. وجرى تدمير الحواجز التي أقامها حزب المؤتمر لحماية الصناعة الهندية وتصنيع السلع. ودخلت الكوك، وبتزا هت، والمايكروسوفت، وروبرت مردوخ ما كانت أرضاً ممنوعة. وقامت شركة إعلانات أمريكية هي غراي غلوبال غروب، باختراع شعار "الهند المشرقة" (أو "إشراقة الهند")، للطبقة نفسها من المخادعين الذين يحتفلون الآن بكلايف الهند والنهابين السلابين الذين كانوا معه: الهند المشرقة سوف تلحق بالصين بصفتها قوة اقتصادية، والطبقات الهندية الوسطى سوف تثري وسوف يستأصل الفقر من جذوره.

وفي الواقع، كانت "الحقيقة" الرسمية في دلهي عند نهاية القرن العشرين هي أن عدد الهنود الذين يعيشون في فقر كامل قد هبط بنسبة تصل إلى 10 بالمائة. وفي الدراسة المهمة التي شكلت معلماً لما بعدها وكانت بعنوان الفقر وعدم المساواة في الهند: الاقتراب من الحقيقة اقتراباً أكبر، يكشف أبهيجيت سن أن الفقراء الهنود قد ازدادوا بالفعل، وأن عقد التسعينيات من 1990 كان بالنسبة إلى الفقراء "عقداً ضائعاً". وفي العام 2002، شكل أولئك الذين يعيشون في فقر كامل أكثر من ثلث السكان، أو 364 مليون نسمة. وقد كتب يقول: "إن التغذية غير الكافية هي بالفعل أكثر انتشاراً من الجوع أو من فقر الدخل كليهما إلى حد بعيد. ونصف الأطفال الهنود هم سريرياً مصابون بنقص التغذية وأربعون بالمائة تقريباً من الكبار يعانون من نقص الطاقة المزمن"[7] الهند وطن لعدد من الناس الذين يعيشون في الفقر أكثر من أي بلد آخر في العالم[8]. وقد كتب الصحافي الهندي بالاغومي سيناث يقول "من الأفضل أن تكون شخصاً فقيراً في بوتسوانا أو في الأراضي المحتلة في فلسطين من أن تكون فقيراً في الهند"[9]

وبالنسبة إلى الفقراء، الذين حرموا من "شبكات الأمن" القليلة التي كانت موجودة في العهد الماضي، كانت الحياة أقسى. وبالنسبة إلى معظم البقية، فإن

القليل هو الذي تغير. ففي أحدث مدينة في الهند، لا يملك 40 بالمائة من السكان الوصول إلى مياه الشرب المأمونة. وقد كتب سوكيتو ميهتا في المدينة القصوى: بومباي فُقدت ووجدت، وقال: "الطعام والماء في بومباي، ملوثان بالغائط. والزُّحار المتموّري (دوسنطاريا آميبية) ينتقل من طريق الغائط. لقد كنا نغذي ابننا بالغائط. قد تكون وجدت في المانغا التي أعطيناها له، وقد تكون وجدت في بركة السباحة التي اصطحبناه ليسبح فيها. وقد تكون جاءت من صنابير المياه في بيتنا الخاص، نظراً إلى أن أنابيب مصارف الماء في بومباي، والتي مددت في أثناء الأزمنة البريطانية، ترشح إلى أنابيب المياه النظيفة التي تسير إلى جانبها وعلى طولها تماماً. وليس هناك دفاع ممكن. وكل شيء يعاد تدويره في هذا البلد القذر، الذي يسمم أطفاله، وينشئهم على غذاء عام من غائطنا الخاص... في البلدان الأخرى، هناك مملكة من المرضى ومملكة من الأصحاء. أما هنا فالمملكتان مملكة واحدة[10].

بالتأكيد، فإن معدل نمو الهند قفز إلى ما فوق 6 بالمائة، ولكن هذا عن رأس المال، لا عن العمل، وعن الأرباح المعفاة المحررة، لا عن الناس. والدعاية المفرطة عن الهند عالية التقانة التي تقتحم فجأة حواجز العالم الأول بشكل كاسح هي دعاية تستند إلى حد كبير إلى أسطورة. وليس معنى هذا التقليل من صعود الهند إلى موقع بارز في تقانة الحاسوب، مع جيلها العارف بالحاسوب في دلهي وبومباي وبانغالور، وهيئة العلماء المتميزين (مثل مخترع الهوتميل)، ولكن هذه الطبقة من الفنيين (التكنوقراطين) طبقة قليلة، وهي، إذا نظرنا إليها من قمم صراع الهند من أجل الحرية، تغدو طرفة محزنة تقريباً تستثير الفضول.

إن مراكز الاتصالات المشهورة (المعروفة في الهند بلقبها الأورويلي* الذي تنبز به، وهو موفرو المصادر من الخارج لبرمجة الأعمال التجارية)، وفيها يتظاهر المتعلمون الهنود بالمعرفة "بطرز الحياة" البريطانية والأمريكية ويتحدثون بلكنات أمريكية ويسمون أنفسهم "جيري" و"سونيا" ليخدموا أمثال الأمريكان أكسبريس،

*نسبة إلى الكاتب البريطاني جورج أورويل(1903 — 1950) وخصوصاً روايته 1984 التي تصور الدولة المستقبلية الشمولية، وله أيضاً رواية مزرعة الحيوان.(المترجم)

هي مراكز توظف حوالي 245.000 نسمة فقط. وبالنسبة إلى أولئك الذين يصلون إلى مستويات أعلى من هذه المراكز، فإن بانتظارهم أقسى طبقة تقوم على الجدارة في العالم. فمن بين مائتي ألف متقدم لمواقع في شبكة الجامعات النُّخبيّة التي تشكل معهد التقانة، ينجح أربعون فقط[11].

منذ العام 1993، ضم ما يسمى بالازدهار الاستهلاكي في الهند، على الأكثر، 15 بالمائة من السكان، الذين عنت لهم الرفاهية الجديدة امتلاك مرافق المعيشة الحديثة الأساسية، وليس السيارات والهواتف النقالة. وبالنسبة إلى أكثرية الهنود، فإن "السوق العولمي" له معنى مألوف لأكثرية الإنسانية. ومثلما ارتفعت الصور على لوحة الإعلانات لنماذج الناس الذين يلعبون الدور المحدد لهم وهم يظهرون بجلدهم الأبيض وبأسنانهم الجيدة، كذلك كانت الخدمات العامة الهشة قد تدهورت من قبل ذلك. ووفقاً لأرقام الأمم المتحدة، تصرف الهند أقل من 1 بالمائة من الإنتاج المحلي الإجمالي على الصحة، وتأتي الهند في ترتيبها في الخدمات الصحية المتوافرة لمعظم الناس في المرتبة 171 من 175 بلداً، أي قبل السودان وبورما مباشرة. ومع ذلك فإن الصرف على الصحة الشخصية، وهو الأمر الذي لا يقوى عليه إلا الموسرون، هو من بين أعلى أنواع الصرف في العالم[12].

وتعكس الصحف الهندية هذه الهوة بطرق لافتة للنظر. وتقدم الإ نديان إكسبرس تحقيقاً مؤلماً جداً عن الأحوال المروعة للمستشفيات، ثم تنفخ في بوق إدراج الهند في قائمة "أفضل بلدان العالم" وهي قائمة سطحية لا عناء في الوصول إليها ألفتها المجلة الأمريكية نيوزويك، بالاستناد استناداً كاملاً إلى "الإصلاحات الليبرالية الجديدة" التي قام بها البلد[13]. وتروي جريدة التايمز أوف إنديا في تقاريرها أن ماهاراشترا مدير الصحة غائب في "منصب مرغوب" أعطي له مكافأة في منظمة الصحة العالمية. وسيكون غائباً لمدة أربعة أشهر، ويدير مسحاً صحياً في جنوب شرق آسيا. وفي أثناء المدة 2003–4، من عمله مات حوالي تسعة آلاف من أطفال القبائل – وهم أفقر الناس للغاية – وكان ذلك نتيجة لسوء التغذية ونقص الرعاية الطبية. ووجه القائم بأعمال رئيس المحكمة العليا بالنيابة في الدولة النقد له على

"إهماله" لواجبه. ورد المدير بالقول: "إن الوفيات شائعة، وأنا فعلت ما يكفي في السنوات العشر الماضية"[14]

هناك الكثير حول هذه القصة يشرح لِمَ قام الهنود بأغلبيتهم بصدم رؤسائهم بواسطة التصويت لتجاهل حزب بهاراتيا جاناتا وإخراج الحكومة التي قادها الحزب في انتخابات العام 2004. فمع حملة هذه الحكومة التي كلفت 100 مليون دولار عن "الهند المشرقة"، فإنها أشبعت وسائل الإعلام برسائل وصور للحياة الاستهلالية: الشباب بأسنانهم الجيدة وصارت أذكى الهواتف الجوالة رموزاً "لعامل أشعر شعوراً طيباً"، وهي صفة أخرى من الفكرة الأمريكانية. والسخف غير المعقول في هذا الحال صار واضحاً حين حاول الناس أن يترجموها إلى لغتهم الهندية المحلية. فكلمة طيب أي "غود" (Good) صارت غور (Gur) أي، قصب السكر باللغة الهندية، وصار الفلاحون يسألون: ما هذا السكر الذي يصنع من (شعور)؟"[15]

لقد صوتت أغلبية من الهنود ضد هذه النسخة من المؤسسة العولمية، التي خلطها حزب بهارتيا جاناتا بإيديولوجيته الهندية الجماعية وإيديولوجية الخوف من الأجانب الهندوسية. وقد دُفع القرويون الفلاحون إلى التفكير في الانتحار بسبب الارتفاع الحلزوني في أسعار حبوب الطعام، التي شح توافرها وهبط إلى مستوى أدنى من المستوى الذي سبق أن سُجل في المجاعة البنغالية الكبيرة في الأربعينيات من 1940، فالنساء اللواتي يحملن الماء لمسافات طويلة واللواتي مات أطفالهن من دون أي اعتراف بهن من الدولة، والشباب الذين لا يملكون الأمل في الحصول على عمل، دع عنك امتلاك الهاتف الجوال الذي يلتقط الصور، كلهم صوتوا لحركة سواديشي: العدالة الاقتصادية التي تؤكد الحاجات الأساسية والحق بالكرامة الإنسانية. وعلى الرغم من أن أصواتهم كانت موجهة إلى نظام حكم أصولي أدت "إصلاحاته" التي قام بها إلى زيادة فقرهم، فإن تلك الأصوات كانت صيحة غاضبة أيضاً ضد نخبة جعلت منهم غير مرئيين تقريباً منذ الاستقلال.

ومثل أنديرا غاندي، قادت زوجة ابنها سونيا غاندي حزب المؤتمر إلى نصره الذي لم يكن متوقعاً بالتحدث ضد الفقر، برغم أنها نادراً ما تحدثت ضد النخبوية التي ضبطت

الفقر ورسخته. وحين تنحَّتْ جانباً بصفتها رئيسة الوزراء الجديدة، فإن الرجل الذي حل محلها، وهو مانموهان سنغ، قالها صريحة واضحة: لن يكون هناك "تراجع" عن "السوق الجديد". وقد فرحت نيوزويك، وقالت إن الهند "متجهة في ما تعتقده الأموال الذكية أنه هو الاتجاه الصحيح". وعرضت المجلة لمحة عن هذا "الاتجاه الصحيح" بأن خصصت صفحتين لهجوم على صناعة الصيدلانيات في الهند لأنها أنتجت عقاقير تنقذ الحياة إنتاجاً رخيصاً. وامتدح "الكشف" قرار الحكومة الجديدة أن تطيع منظمة التجارة العالمية و"تضع نهاية للعقاقير العامة السريعة والرخيصة". من أجل الفقراء[16].

وكان هذا يعني اندفاعاً كالاندفاع الذي جرى نحو الذهب من الشركات الأجنبية لتقوم بعمل تجارب سريرية على الهنود الفقراء. وإذا أخذ ارتفاع تكلفة البحث في الغرب، فإن الهند قد صارت فجأة موقعاً مدراً للربح. إن عرض 100 دولار على شخص فقير، وهذا المبلغ ثروة صغيرة، من أجل استعمال عقار طبي غير مجرب يجعل من روح الموافقة المطَّلعة مهزأة غير مناسبة. لقد قال سريروبا براساد، وهو أستاذ التاريخ الطبي والأخلاقيات الحياتية: "إن الحياة في العالم الثالث تساوي أقل من الحياة الأوروبية، ذلك هو كل ما كان يدور حوله الاستعمار"[17]

في حملة حزب المؤتمر للانتخابات، استخدم الحزب شعار "علامَ يحصل الرجل العام؟" وهو سؤال قد يسأله حزب الحرية لنفسه. فعلى سبيل المثال، ومنذ بداية العام 2005، فإن حكومة ولاية ماهاراشترا التي كان يسيطر عليها حزب المؤتمر دمرت تسعين ألف بيت من أفقر بيوت بومباي، وبذلك أضافت ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة إلى سكان الشوارع. وقد أعلنت سلطة المدينة عن عزمها على جعل بومباي "شنغهاي التالية" بحلول العام 2010. وهذا ما هو معروف باسم "رؤية مومباي" وهو من اختراع الاستشاريين الأمريكيين ماككينزي.

والناس الذين تركوا بلا بيوت عاشوا في أمبيوجورادي وبهيمكايا، على حافة حزام شجري من التين الهندي. وقد نقلوا إلى هناك في العام 1992 من منطقة مكتظة فقيرة أخرى كانت قد دمرت في مخطط سابق. إنهم الناس الذين بنيت على ظهورهم بومباي الحديثة. وكانت الطبقة الوسطى قد اعتمدت عليهم بصفتهم

بنائين رخيصين، ومنظفين رخيصين، ومربيات أطفال رخيصات، ومراسلين رخيصين. وقال الوزير الرئيسي في الولاية، فيلاسروا ديسهميوك: "ليس هناك بديل"، وهو غير مدرك على ما يظهر للصدى السيئ السمعة الذي يتردد في كلماته. "سيكون العديد من الناس منزعجين وسوف يترتب عليهم أن يقدموا تضحيات"[18]

أول مرة وقع فيها بصري على الهند كان في صيف 1966، جهنم. فقد كانت رياح المونسون قد أخفقت تماماً، وأحالت الحرارة الصفراء الأرض الزراعية غير المنتجة إلى غبار. وجثمت الغربان على جدار مستشفى البعثة في ناصرآباد، وهي قرية في ولاية راجستان، وكانت رسمياً في "حالة حاجة كبيرة": وهو تعبير ملطف عن جفاف مفرط للغاية يشير إلى المجاعة. ولم أستطع النوم من الحرارة، فاستمعت إلى ضجيج الناس، صرخات ضعيفة وبعيدة، هي نواح تفجعات أكثر منها صرخات تطلب المساعدة. من كان أولئك؟ امرأة تواجه فقد ابنها الوليد الأول؟ وأخرى تسحب ساريها على صدرها الفارغ، في الوقت الذي تشبث فيه وليدها بصدرها تشبثاً أعمى؟ ورجل قدري يقضي بأن تعاسات شعبه يجب أن يكفر عنها بموته الشخصي؟ أو هو ببساطة شخص ما كان جائعاً وكان يحتضر؟

لم يكن هناك ماء، باستثناء ما ترك منه موحلاً وملوثاً في قعر الآبار القليلة المتبقية، والماء المجلوب على ظهور الجمال والشاحنات. وجاء الناس إلى ناصرآباد مثل مجيء البدو الرحل إلى واحة، وفي الليل يضطجعون خارج المستشفى: رؤوس جلدية في عمائم حمراء نارية، ومخلوقات صغيرة بنية بظهور منحنية وبأطراف بعرض الضفائر التي تتدلى نازلة على ظهورهم، وأيديهم ممزقة من رفع الحبل من أجل نصف دلو من السائل المالح. ما من أحد منهم استجدى. متوسّلون بسبب الحاجة الماسة اليائسة، لقد كان لبؤسهم شرف حين قبل كل واحد منهم أربع أونصات من القمح، وهو ما قيل إنه كان كافياً للاستمرار في البقاء.

على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب كانت هناك عدة قرى لم تكن قد هجرت. وفي أثناء الليل سقط وابل خفيف من المطر وكان الناس مستيقظين منذ الساعة الرابعة يغترفون برك ماء المطر إلى أوعية حمل الماء الفخارية، وهي الأواني الفخارية

الأساسية التي لا غنى عنها المعروفة باسم الماتكا. وقد أعطي معظم الماء إلى عنزتين قيمتين في حين استعدت العائلات للمشي ثلاثة أميال إلى قرية أخرى كانت تمتلك بئراً مازالت تعمل، وهم يقومون بهذه الرحلة في درجات حرارة تصل إلى 42 درجة مئوية ثلاث مرات في اليوم. وجميع الرجال يعانون من وجود حدبة على كتفهم الأيسر تكشف أسرار شقائهم: وهي ورم قرمزي سيئ يسببه حمل الأواني الفخارية (الماتكات) طول العمر. وسألت واحداً منهم: "هل تؤلم؟" فأجاب: "الرأس يؤلم، والأقدام تؤلم، أما هذه فلا، إنها ميتة". الأولاد يعانون من بداية الحدبة. وقالوا لي: في الأوقات الجيدة، حين ينزل المطر، فإنهم يعيشون على خبز من نوع يسمى روتي والمعجنات الحارة والماء، ومن دون الماء، كان الأولاد الصغار قد بدؤوا يموتون. وسألت صبياً في الثانية عشرة من عمره: "ماذا تريد أن تكون حين تكبر؟" فأجاب، وهو يشد جسمه المنحي إلى وضع الانتباه العسكري ويؤدي التحية: "جندي للهند".

إن أكثر من 70 بالمائة من الهنود يعيشون في قرى ويعتمدون على الزراعة. والظروف التي وجدتها قبل أربعين عاماً لم تتغير. وليس سوء التغذية وحده فقط الذي ينتشر في صفوف الأقليات، وهم 70 مليوناً من السكان القبليين و150 مليون نسمة من الداليتيين (المنبوذون)، بل إن "العقد المفقود" كان قد خرب حياة المزارعين الصغار من جميع الجماعات العرقية. وتحمل الصحف يومياً تقريباً قصة انتحار قرية. وقد روت إنديان إكسبريس، أن خمسة وخمسين مزارعاً، في منطقة غونتور من أندرا براديش، قد أنهوا حياتهم في مدة شهرين[19]. وقد قالت لي فاندانا شيفا المهتمة بالبيئة إن "الانتحارات هي فضيحتنا الخبيئة. وهي وبائية، تسري إلى العديد من الآلاف. ولا تجرؤ الحكومات على الإقرار بالرقم الصحيح"[20] فالديون، وهي مملوكة في الغالب لمقرضي المال بمعدلات فائدة ترتفع إلى 120 بالمائة، تزداد سوءاً وتتفاقم "بالسوق الحرة" الليبرالية الجديدة وهي تمنح رخص البذور والمخصبات الطبيعية على أيدي الشركات الحيوية العلمية الأجنبية وهي: "القرصنة لمصدر حياتنا". كما تسميه شيفا.

وتكتب قائلة: "في كل أرجاء الهند يجري دفع الفلاحين إلى أحضان الديون، والفقر المدقع والانتحار بعد أن يكون تم امتصاصهم إلى الأسواق

العولمية من أجل البذور والكيماويات العالية التكلفة. وهذه الأسواق العولمية تزيد تكاليف الإنتاج بنسبة 100 بالمائة، في حين تعمل المنتجات المستوردة المعانة إعانة عالية، والرخيصة رخصاً مصطنعاً على تحطيم أسعار المنتجات المحلية في سوق منحرفة". وإن "تحرير" البذور الذي فرضه البنك الدولي قد أجبر الفلاحين على شراء البذور المهجنة الغالية الثمن والكيماويات الغالية الثمن التي لا يستطيعون تحمل أسعارها. وتكتب شيفا: "تنويعات البذور الملقحة التي يمكن أن تحفظ ويعاد زرعها، قد بدلت وحلت محلها البذور المهجنة التي يجب أن يتم شراؤها في كل عام من الشركات [الأجنبية]".

وهي تستشهد بمنطقتي زراعة قطن تصل فيهما مستويات الانتحار إلى أعلى معدلاتها: بهاتندا في بنجاب وورانغال في آندرا براديش. وفي كلتا المنطقتين دفع "فتح السوق" من أجل البذور الفلاحين إلى الحد النهائي.

لم يتخذ كل الفلاحين المدينين الخطوة القصوى من الانتحار. فالفلاح بوبي فينتاكا ريدي، على سبيل المثال، سقط أعمق فأعمق في الديون حين دمرت البذور المزيفة والكيماويات محاصيله عاماً بعد عام. وبعد أن تعرض للمضايقات المستمرة من المقرضين، سمع ذلك الفلاح عن سمسار كان يساعد الفلاحين على كسب المال عن طريق بيع كِلاهم... لقد كان هذا خياراً أفضل من الانتحار، ولذلك اتخذه.

وتركته العملية ضعيفاً وغير قادر على العمل. وفي الوقت الذي ترفض فيه الحكومة أن تقر بذلك، فإن الآلاف من المزارعين الهنود "المعولمين" يبيعون كلاهم لكي يبقوا على قيد الحياة فقط[21].

ولكن الشعب ليس ساكناً، والبدائل موجودة. فمنذ القرن التاسع عشر، أظهرت الحركات الشعبية في الهند أن لا ضرورة أن يكون الفقراء الهنود ضعفاء، وهم يجسدون صرخة شيللي للحشد: "أنتم الكثرة/ وهم القلة". لقد كانت الجماهير غير المسلحة هي التي أجبرت البريطانيين على الخروج، وتبقى منظماتهم هي المحك للحياة السياسية التقدمية، ابتداء من منظمة النساء للتوظيف الذاتي التي

تبلغ قوتها مليون عضو كلهن نساء، إلى الاشتراكيين الذين يديرون بنغال الغربية. في العام 1978، انتخبت الحكومة الشعبية الشيوعية، فأدخلت وأدارت عملية بارغا، التي تقتفي أثر كل واحد من فلاحي الدولة البالغ عددهم 2.3 مليون وهم الذين يستغلون الأرض بالمزارعه* وتسجلهم. ويجري الوصول إلى كل فلاح مستأجِر وتشرح له حقوقه، وتضمن المنظمة السياسية للحكومة في قريته أنه يستطيع أن يحصل على قروض طويلة الأمد ولا يروعه مقرضو الأموال. وقد اعتبرت العملية بارغا في كل أنحاء الهند عملية ناجحة، وخصوصاً بعد أن حلق إنتاج الرز عالياً في الولاية[22].

والنقيض لهذا موجود على أطراف المدن، وهو نقيض ينذر بتحذير كارثي لما يحدث حين يطرد الناس من أراضيهم. إن الريف الهندي ليس مفرطاً في الاكتظاظ بالسكان، وكثافة السكان فيه أقل من كثافتهم في البلاد الواطئة. ولكن مدن الهند، مثل بومباي وكالكوتا، تبدو على وشك الانفجار.

حين كانت طائرتي تقترب من كالكوتا، كان تقدم الأحداث واضحاً في أثناء الأشهر الخمسة التي مضت منذ كنت آخر مرة في البنغال. كان الشهر هو تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1971. وفيما وراء امتداد المباني غير المكتملة بشكل دائم لمدارج مطار دوم دوم كانت تقع مدينة من اللاجئين سبق أن نمت حتى صارت تقريباً بحجم كالكوتا نفسها. ثلاثة ملايين آخرون جاؤوا من البنغال الشرقية (التي كانت باكستان الشرقية آنئذ)، وهو ما يعادل مدينة مثل بيرمنغهام بنيت فعلياً بين عشية وضحاها. لقد عاش الناس في أنابيب الماء الكبيرة التي كانت تنتظر التركيب، أو في خيام، أو في أكواخ أو تحت ألواح الحديد المموج، والخيش والقش. وكان قد تم احتواء وباء الهيضة (الكوليرا) الذي سبق له أن انتشر بين أوائل الواصلين، وكان الأطفال الآن يموتون من الأمراض الشائعة مثل جديري الماء. كان ذلك في عشية الحرب التي وقعت بين الهند وباكستان وأدت إلى إنشاء بنغلاديش.

* المزارعة: استئجار الأرض نظير جزء من غلتها يدفع بدل الأجرة النقدية. (المترجم)

كانت السخرية قريبة في متناول اليد. فكالكوتا، التي تعيش في الليل في ضباب بني كامل لا يخفف منه شيء والمتشكل نتيجة للدخان المنبعث من آلاف حرائق الأحراج الصغيرة والمختلط في الرطوبة مع القذر الصناعي الذي لا يوقفه شيء، كالكوتا هذه أُمرت أن "تخفف" أو تعتّم الطاقة الكهربائية في حالة وجود هجوم جوي من القوات الجوية الباكستانية. وقامت وحدات الدفاع المدني بخوذاتها المشبهة لصحن الحساء العميق ذي الحافة الواسعة وبملابسهم التقليدية كالتنورة تجوب الشوارع وتعلن تجربة إنذار لغارة جوية، وقالوا للناس: "يجب على كل شخص أن يمكث في البيت وأن يبقى ساكناً في وضع الوجه إلى الأرض إلى أن تتوقف صفارة الإنذار عن العمل". والحقيقة التي لم تخطر على ما يبدو للسلطات ذات العلاقة هي أن ثلث السكان لم يكن لديهم بيوت ليمكثوا فيها، دع عنك أسقفاً ليمكثوا تحتها أو جدراناً ليمكثوا بينها.

وانطلقت نحو شارع فلاور في تالتوللا، وهي أفقر المناطق، وأشدها اكتظاظاً. وشارع فلاور هو العالم الصغير الممثل لكالكوتا. فمعظم الناس هناك عاشوا تحت السماء ومن دون عمل، أو صحة عامة، أو تعليم أو تغذية كافية. وأنابيب الماء، التي كانت شركة السادة جيسوب وشركاه قد مددتها تحت شارع فلاور قبل قرن من الزمان، كانت قد تجاوزت منذ وقت طويل عمرها الافتراضي المتوقع وانفجرت وأحيطت بمياه الصرف الصحي. وقد كُتب على مضخة الماء الوحيدة في الشارع، "لا تبذر، لا تحتاج– 1914".

كان صديقي دودلي غاردنر يعمل في شارع فلاور. وهو رجل من النوع الصخاب الصلب البنية كالدبابة، وكان دودلي رئيس رقباء سابق في فوج البنادق الملكي (فوج مدينة لندن) وكان قد جاء إلى كالكوتا بعد أن شارك في غزو السويس في العام 1956، وهي الحرب التي رأى فيها هجوماً من بلاد غنية على بلاد فقيرة وأحزنته حزناً جعله ينطلق ليقوم بأعمال التكفير الخاصة به للتعويض عن الإساءة. ويقوم في كل يوم، في سيارته اللاندروفر المعطوبة، بجلب الإمدادات الأساسية إلى شارع فلاور. وهو من عادته أن يقول بطريقته الخشنة: "سمها صدقة سياسية، إن أحببت".

ولدودلي رأي غير مألوف بكالكوتا. فقد رأى فيها تعبيراً حيوياً عن الإنسانية ورآى في مواطنيها أبطالاً ثابتين لا يتغيرون، وكان يجادل في أن مجرد البقاء في مثل هذا المكان هو في حد ذاته عمل بطولي. ولم يسبق له أبداً أن رأى نفسه هو في الضوء نفسه. وذكراه ماثلة في ذهني وهو يقف عند صبي معوق اسمه بابول ران، وكان دودلي يطعم هذا الصبي في الشارع الذي تمدد فيه وعاش فيه، ومظلته في وضع الاستعداد ليدفع عن نفسه أذى الكلاب الهجينة الضالة وهجوم الغربان من السماء. وقال لي: "لقد ولد هذا الصبي في يوم ميلادي، وأنا أقوم منذ ذلك الوقت بإطعام هذا المتشرد الصغير، والأمر المزعج للغاية هو أنه سيذهب، حين سأذهب أنا".

كان دودلي يعاني من مرض في الدم سبّب له ورماً قبيحاً في ساقيه وهو يعاني من هذا المرض في الجو الحار. وحين ذهبت إلى بيته، وكان غرفة عارية إلا من سرير، وكرسي وبضع صور له من أيام خدمته في الجيش، كان الباب مغلقاً بالترباس. جاء شخص ما على الدرج وقال إنه مرض ونقل بعيداً، ولكنه لا يعرف إلى أين. تركت ملاحظة تحت بابه ومشيت إلى ركن فلاور ستريت، إلى المكان الذي عاش فيه بابول ران، المتشرد الصغير، ولكنه هو نفسه لم يكن هناك كذلك.

وأنا سوف أقدر دائماً إحساس دودلي بالتاريخ. فقد قال إن بطولة الناس "قد انتقلت" منذ أن بدأ كلايف الهند (كلايف أوف إنديا) بتجريد البنغال الذهبي من "ثرواته التي لا تنضب، ومنذ أن أسس سادة التجارة الفكتوريين على ضفاف قناة هوغلي مانشستراً آسيوية، أغري فيها الناس الذين كانوا في السابق يملكون ما يكفي ليأكلوا إغراء جعلهم يخرجون من أرضهم ليكون بالإمكان صنع الثروات على أكتاف شغلهم في المصانع.

ورثة كلايف الهند يمكن أن يُلمحوا بعد أقل من نصف ساعة من قيادة السيارة من المكان. ونادى تولليغونج، الذي كان يعتبر أقل بقليل، ولكن بشكل له دلالة، من نادي كالكوتا إلى أن تحول هذا الأخير بعد الاستقلال، "تحولاً

وطنياً"، نادي توليغونج هذا كان مشغولا بالاستعدادات لمنافسات السيدات في السباحة على ألعاب كأس الوردة (روز بول) وبالخبراء الذين يجيبون عن أسئلة الجمهور في غرفة الكتابة وبالرقص على ضفاف بركة السباحة وبلعبة البنغو. والأحوال السائدة لم تخفف من خصوصية النادي، الذي شملت عضويته الآن سياسيي المؤتمر المحليين الذين يطمحون إلى أن يكونوا هم نظام الحكم البريطاني الهندي الجديد. لقد قذف رجال حرب العصابات الماوية قنبلة على خيل المسابقة، وهو أمر كان سيئاً للغاية، ثم تبين أن أحد الذين ألقوا القنبلة كان "ذلك الرجل الصغير الطيب" الذي كان يمسك بالمظلة عالياً للأعضاء على المرجة الخضراء، وطبيعي، أنه كان على جميع "صِبْيَة المظلة" أن يذهبوا.

ومن حين إلى آخر، يظهر عادة عميد في الجيش الهندي على شرفة النادي أو في ردهة الفندق الكبير، غراند هوتيل، التي كانت تقابل الميدان، ومنه كان من الممكن أن تتبين الهيئة اللؤلئية للإمبراطورة فكتوريا وهي تظهر من خلال الضباب القذر. وقد وجدت أنا أن هؤلاء الضباط السابقين – الضباط الهنود الذين عينهم الملك – مهجنون دخلاء. فقد كانوا يختالون في مشيتهم ويتحدثون مثلما علمتهم الكلية الحربية في ساندهيرست ومثلما علمتهم فروعها الهندية، وكانوا يقودون أمماً ذات صحة داخل الأمة: معسكرات ضخمة لا وجود فيها للجوع والمرض. وتملك الهند أكثر من مليون رجل تحت السلاح في ثلاثة ألوية، وثلاثين فرقة، وخمسة وثلاثين سرب طائرات، وست وأربعين سفينة حربية، وتستهلك نصف الميزانية الوطنية تقريباً. ومنذ الاستقلال صار تسليح الهند اعتقاداً راسخاً لاشك فيه بالنسبة إلى نظام الحكم البريطاني السابق للهند. لقد قضت حكومة طوني بلير ست سنوات تقريباً وهي تقنع السياسيين الهنود بشراء ست وستين طائرة مقاتلة من نوع هوك النفاثة، التي تساوي البلايين، في بلد هو كما كتب عنه أبهيجيت يقول: "نصف أطفال الهند يعانون من نقص التغذية".

حين تمشي على طول شاطئ تشوباتي، فإنك لا تكاد تلحظ الأشكال المتقوسة المحتشدة تحت نبات القصب والخيش. وقيمة الممتلكات المرتفعة فوقهم

تساوي أكثر مما تساويه في لندن أو باريس. ويسميها المضاربون "الذهب البني". فهذا هو المكان الذي يعيش فيه الأغنياء وتعيش فيه الأنساق العليا من الطبقة المتوسطة الجديدة. في بعض الأيام، كانوا يبدون وهماً صار حقيقة بالإعلان الموجه إليهم فقط وبصحافة ترسل أكثر من أربعمائة مراسل لتغطية عرض أزياء، ومع ذلك فجميعهم تقريباً يتجاهلون الأزمة الزراعية التي تؤثر على 70 بالمائة من الشعب. وفي حفلات العشاء، يتحدث الناس بشوق إلى الحكم الفردي في سنغافورة، وماليزيا، والصين. وهم يعتقدون أن الديمقراطية "تسبب الفرقة والهدر في الهند"[23]

إلى الأسفل تحت شققهم يقع المكان الذي عقدت فيه حركة غادروا الهند في السابق اجتماعاتها الكبيرة من أجل الحرية، وقريباً من المكان هناك لابيرنم رود، والبيت الذي عاش فيه غاندي وتعلم الغزل وأبدع حركته العظيمة، حركة اللاعنف. واليوم، تحول إلى متحف، وتوجد فيه رسالة من الماهاتما إلى هتلر، يحضه فيها على إصلاح طرقه، ولكن ليس هناك أي إشارة إلى اقتباسي المفضل عن غاندي: "أولا يتجاهلونك، ثم يقاتلونك، ثم أنت الذي تنتصر".

في مخزن أكسفورد للكتب في تشيرتشغيت، حضرت إطلاق كتاب ألفه حفيد الماهاتما، راجموهان غاندي، وهو سيرة غفار خان، "غاندي المسلم" الملهم، ومعارض التقسيم. وقد قال لي: "الهند من وجوه عدة بلد عنيف، وحقيقة أن لدينا ديمقراطية اليوم حقيقة تعود إلى حد كبير إلى اللاعنف في حركة الحرية".

الديمقراطية ربما، ولكن الحرية تنتظر.

* * *

الفصل الرابع
التمييز العنصري لم يمت

الغرض من التمرين هو أن نحصل على
بعض الصخور التي سوف تبقى لنا.
وزارة الخارجية، لندن، 1966

نحن، شعبَ جنوب إفريقية، نعلن أن بلدنا
ينتمي إلى كل واحد وأن كل شعبنا
سوف يشترك في الثروة.
ميثاق الحرية، المؤتمر الوطني الإفريقي

ادعوني تاتشرياً وحسب.
تابو مبيكي، رئيس جنوب إفريقية.

إذا لم ينجز المؤتمر الوطني الإفريقي
وعوده، فيجب على الشعب أن يعمل به ما
عمله بنظام حكم التمييز العنصري.
نيلسون مانديللا.

انتصب برج المراقبة عالياً وقد ارتسمت صورته الظلّية على صفحة الجبل المتشكل بشكل الطاولة، وأضاءته الإشعاعات الأولى المنبعثة من ضياء الشمس في مطلع الصباح، وسرحت طيور النورس وعامت في الاتجاه نفسه الذي تهب فيه الريح، ودرجت نعامتان إلى جانب موج البحر المتكسر على الشط تكسراً لطيفاً. وتحتنا كانت ترتفع قمة جبل قديم مغمور بالمياه المالحة منذ مدة طويلة عند رأس طرف إفريقية، وهو مكان من الحجر الكلسي وحجر الصوّان، وحطام اثنين وعشرين

سفينة. وقال طيار الطائرة العمودية الأفريكاني*: "على ما يبدو ذلك هو المحجر الذي كانوا يعملون فيه". قال الطيار ذلك وهو يميل بالطائرة إلى الجانب وقدماً وهو لا يدرك أن واحداً من "أولئك" الذين أشار إليهم في كلامه كان يجلس إلى جواره. ونظر كاثي – أحمد كاثرادا – إلى الأسفل وأومأ برأسه، ونظاراته السوداء تغطي عينيه اللتين تضررتا من وهج الحجر الكلسي في المكان الذي أحسن فيه استخدام الفأس، هو ونيلسون مانديلا، وولتر سيمولو والرجال الخطرون الآخرون، عاماً فوق عام، وعقداً بعد عقد.

وفي 21 آذار/مارس من العام 1960، وقعت مجزرة غيّرت كل شيء تقريباً في جنوب إفريقية التمييز العنصري. وذلك حين أطلقت الشرطة النار وقتلت تسعة وستين شخصاً في مدينة شاربفيل، وأعلن "الكفاح المسلح" كل من المؤتمر الوطني الإفريقي، ومؤتمر كل إفريقية، وتلا ذلك الإعلان اعتقالات في البيوت وبدأ القادة بالعمل السري تحت الأرض. وأدى إلقاء القبض في نهاية الأمر على مانديلا، وسيسولو وكاثرادا مع كل من غوفان مبيكي، ودينس غولدبيرغ، وريموند ملابا، وإلياس موتسوليدي وآندرو مانجيني في مزرعة ريفونيا، وهي المقر السري لقيادة المؤتمر الوطني الإفريقي، أدى إلى "محاكمة خيانة ريفونيا".

في 12 حزيران/يونيو من العام 1964، تبين أن المعتقلين مذنبون بتهمة التخريب ضد الدولة (على الرغم من أن الكفاح المسلح كان في مرحلة التخطيط فقط) وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة. وفي اليوم التالي، أرسل الجميع بالطائرة إلى جزيرة روبن ليبدؤوا تنفيذ أحكامهم، باستثناء غولدبيرغ، الذي أرسل لتنفيذ حكمه إلى سجن فيه قسم للبيض فقط. واستذكر كاثي ونحن نهبط على نفس مهبط الإسفلت المعد للطائرات بعد مرور ثلاثة وثلاثين عاماً بالقول: "لقد كان يوماً من أيام الشتاء الباردة برداً قارساً". وكانت هناك لافتة على القوس تقول: "نحن

* الأفريكان هو من يتحدث لغة جنوب إفريقية وهو من نسل الهولنديين وخصوصاً المستوطنين الهولنديين من القرن السابع عشر وغيرهم من الأوروبيين.

نخدم لنعمل"، وحين رآها كاثي لأول مرة، ذكرته بالقول: "العمل يجعلك حراً"، وهي اللافتة التي سبق له أن رآها على البوابات في أوشفيتز.

"كنت في الرابعة والثلاثين من عمري وكنت الوحيد غير الإفريقي. [فهو من نسل هندي.] ولهذا السبب، كنت الأول الذي يصرف له اللباس الموحد للسجن. فقد كان العرق يقرر كل عمل. وأعطيت القميص النظامي، والكنزة الصوفية، والسترة المصنوعة من قماش القنب(الكتان)، والبنطال، والجرابات، والحذاء. وكان الجو بارداً للغاية، ومع ذلك فقد أعطي مانديللا والآخرون بناطيل قصيرة، ولم يعطوا جرابات، ومنحوا، تفضلاً خاصاً من السجن، أحذية بدلاً من الصنادل المطاطية التي تعطى عادة إلى الأفارقة. ولكن كان يتوجب عليهم أن يلبسوا البناطيل القصيرة، ولم يكن هناك أي تنازل، لا، ولا في الشتاء. والأساس الذي قام عليه التمييز العنصري كان بسيطاً تماماً: فقد كان ينظر إلى الأفارقة بصفتهم أطفالاً. وهذا الأساس مازال صحيحاً. فأنت ستجد البيض، في بيوتهم، يتحدثون عن صبي حديقتهم وعن فتاة مطبخهم".

قادني على طول الممرات الرمادية كلون السفينة الحربية، والتي كان الصمت يسودها باستثناء صوت الريح وصوت المحيط وصوت وقع أقدامنا وهو يرجع الأصداء على الأرضية اللامعة. وقالت لافتة أخرى: "نحن نخدم بكبرياء". وهز كاثي رأسه. وقال: "هذه هي"، وهو يدير المفتاح في باب ما ظهر وكأنه مقصورة حجرية، خمسة أقدام في خمسة أقدام. دخلنا كلانا، وكدنا، نحن الاثنين، نملؤها تقريباً. "نمت على تلك الأرضية طوال أول أربعة عشر عاماً. لم أكن أمتلك فراشاً، مجرد حصيرة من ألياف نخيل الرافية. ذلك كل شيء. حصلت على خزانة كتب وفي نهاية الأمر سمحوا لي بصنع طاولة".

وسألته: "كم بقيت في هذه الزنزانة؟"

"ثمانية عشر عاماً تقريباً... مع بقاء الضوء مشتعلاً، ودائماً يضيء إضاءة ساطعة".

"لم يطفأ أبداً؟"

"أبداً".

"هل بقي هذا المكان، بالنسبة إليك، زنزانة، عبر كل تلك السنين؟"

"لا. كنت أبقى فيه ثلاثاً وعشرين ساعة في اليوم، وأفترض أنني أعطيته بضعة مني. وقد حاولت أن أعطيه بعض اللون. وكان من عادتي أن أطلب أوراق الصرّ في أعياد الميلاد وألصقها على الجدار وعلى خزانة كتبي كلها: كل شيء إلا الرمادي. الحياة ليست رمادية".

"ما الذي افتقدته واشتقت له أكثر من كل شيء؟"

"حضور الأطفال وأصواتهم، وضحكاتهم، لا بل بكاؤهم. أنا نفسي لم يكن لي أطفال... وكان النظام يفهم ذلك التوق، ويفهم الراحة التي يوحي بها مجرد الإيحاء بوجود الوضع الطبيعي، وحين كان السجانون يحضرون عائلاتهم، كنا نؤمر أن ندير لهم ظهورنا. لقد كان ذلك قاسياً".

"كيف كنتم تحصلون على الأخبار؟"

"في السنوات القليلة الأولى، كان يسمح لنا برسالة واحدة وبزيارة واحدة في كل ستة أشهر، وكان يجب أن تكون الرسالة في حدود لا تتجاوز خمسمائة كلمة. وقد منعت عني رسالتي الأولى لأنهم اعترضوا على المحتويات. وبعد ثمانية عشر عاماً، سلمت لي أخيراً وكان الجزء موضع الاعتراض هو: (كان هناك تغيير في الحكومة في بريطانيا العظمى. هارولد ولسون وحزب العمال هم الآن في السلطة.) لقد اعتبر ذلك خطراً. وكانوا يخافون من حصولنا على المعلومات، أكثر من خوفهم من أي شيء آخر.

"وفي العام 1976، احتجت إلى العلاج الطبي الذي لم يكن متوافراً إلا على الأرض الرئيسية فقط. وبعد أن نزلت من المركب المعدية، قيل لي، إن مسار الطريق الذي اتخذته سيارتنا، كان ينبغي أن يتجنب ملصقات الصحف. وفي عيادة الجراحة عند الدكتور، جلسنا في غرفة انتظار، وقد أصيب حراسي بالرعب، حين وصل مرضى آخرون وفتحوا صحفهم. فأمروا بأن يبعدوها، ورفض بعضهم ذلك، طبعاً.

ولـذلك شـكل الـسجانون جـداراً بـشرياً حـولي لكـيلا أسـتطيع أن أقـرأ العنـاوين الرئيسية".

وفي إحـدى الغـزوات علـى زنزانتـه، وجـد الـسجانون صـورة لأمـرأة بيـضاء، هـي سيلفيا نيم. وقد صرح كبير السجانين الملازم فوري بالقول: "إن كـاثرادا هنـدي وأنـا لا أسـتطيع أن أرى أي سـبب لمـاذا يريـد صـورة امـرأة أوروبيـة... لـيس مـسموحاً لـه أن يمتلك صورة امرأة بيضاء في زنزانته". فمزقها ورماها عند قدمي كـاثي. سيلفيا نـيم كانـت حبيبـة كـاثي. وبموجـب التمييـز العنـصري، كانـت العلاقـة الحميمـة بـين الأعراق جريمة. وهي، أيضاً، كانت عضواً في المقاومة وسجنت فيما بعد.

وأخذني إلى زنزانة مانديللا وحدقت برعب في محدوديتها، ثـم خرجنـا منهـا إلى ضوء الشمس وضحكنا حول أشياء لا جدوى منها وتأملنـا فيمـا دعـاه كـاثي "الحـظ المذهل" للسكان البيض بوصفهم المستفيدين من الكـرم الـذي سمـي "المصالحة". وتعجبت كيف كـان ممكنـاً بالنـسبة إليـه أن يخـرج مـن ربـع قـرن مـن الزنزانـة في الـسجن (مـدة سـجنه أقـل بـسنتين فقـط مـن مـدة سـجن مانـديللا) وهـو مخلـوق بـشري عاقل، ومتوازن، ومتسامح، ويمتلك روح الفكاهة.

قال لي إن تأثير غاندي قد علمه أن يتجنب المرارة، وفي رسالة من السجن، سـبق لـه أن كتـب: "مـن سـوء الطـالع، فـإن طبـيعتي لـن تـسمح لـي أن أضـمر البغـضاء لأي شخص، بغض النظر عن مدى العمق الذي قد يكون قد جـرح بـه مـشاعري".1 وحـين سألته كيف استطاع أن يستمر بالاحتمال، كانت الأسباب الثلاثة التي قدمها هـي القوة الداخلية التي استمدها من الناس الذين يحبهم، وشيوعيته، وفـوق كـل شـيء، الكفاح الذي تقاسمه مع رفاقه في جزيرة روبن.

وقال لي: "سأعطيك مثالاً، حين كان أحدنا يصير منخفض الـروح المعنويـة، لم نكن وحدنا أبداً. فكبار الناس، سيسولو ومانديللا، بغض النظـر عـن مـشكلاتهم الشخصية، كانوا دائماً هنـاك لمساعدة أولئـك الـذين هـم منـا بحاجـة إلى المساعدة. فقد كانوا يحضرون معجون الأسنان والصابون لأولئك الـذين نفـدت نقـودهم. وحـين

كان وباء الأنفلونزا يجتاحنا، فإن مانديلا واثنين أو ثلاثة من الآخرين كانوا ينظفون سطول حماماتنا ويفرغونها، وكانوا يحضرون لنا الماء والطعام. وفي إحدى المرات، كنت أتألم ألماً سيئاً من ظهري، وكنت لا أستطيع أن أتحرك لأفرغ المبولة. كان الآخرون يظهرون فوراً، مانديلا والآخرون، وكانوا يأخذونها ويعتنون بي ويتأكدون من أنني كنت على ما يرام".

وفي رسائل كاثي من السجن، يشير بحب إلى مانديلا وسيسولو بوصفهما الشخصين المسنين "العجيبين" لأنهما لم يكونا يوافقان على الثقافة الشعبية التي كانت تهمه. وقد كتب في العام 1988 يقول: "كما ترون فإن العجيبين رجلان متعلمان عموماً في البعثات التبشيرية... وهما يميلان إلى الحشمة بشكل مبالغ فيه، وهذا يحدد المحادثة مباشرة بالموضوعات المناسبة المباحة، ويمنع منعاً باتاً رواية النكات (الفظة) واستخدام النعوت البذيئة رباعية الحروف كذلك – ولو كان ذلك في حالة الغضب!"

وكان ضبط النفس الذي يتحلى به مانديلا وتردده في إظهار العواطف، وخصوصاً بعد زيارات ويني أو أصدقائه القدامى له، يسخط كاثي. وقد كتب يقول: "نحن مقتنعون (وقلنا له ذلك) إنه لو دعي إلى المنصب وقيل له إنه سيطلق سراحه، فإنه سيعود إلى الزنزانة ويقول لنا بعد ساعة أو ساعتين وكأن الأمر كان ببساطة شيئاً من تلك الأشياء التي تحدث كل يوم".

وسألته كيف كان المسنون العجيبون ينظرون إليه. فقال: "لم يكن هناك في أي مرة إظهار لمشاعر عدائية نحوي، والسبب هو أنني بوصفي غيرإفريقي، عوملت من النظام معاملة أفضل بقليل من المعاملة التي عوملوا بها. فقد كنت أحصل على طعام أفضل بقليل منهم: على سكر أكثر وربع رغيف من الخبز، في حين أن مانديلا والآخرين لم يكن يسمح لهم بأي خبز. وبعد احتجاجات دامت سنة أو سنتين، سمح للسجناء الأفارقة بشراء الخبز في وقت عيد الميلاد. تلك هي الطريقة التي يعمل بها الكفاح في السجن. وبعد ثلاث سنين أو أربع، نجحنا في مساواة الملابس، كي يستطيع السجناء الأفارقة أن يلبسوا بناطيل طويلة. أما المساواة في

الطعام فاستغرقت وقتاً أطول – أكثر من عقد فعلياً – ولكننا في النهاية نجحنا. وبطريقتنا تلك، كنا مستمرين في القتال ضد التمييز العنصري".

ولساحة التمرين الموجودة في جزيرة روبن جدار طويل، كان كاثي يلمسه لمساً ينم عن الاحترام تقريباً. وقال لي: "قبل أن يرتفع هذا الجدار عالياً، كان لدينا حديقة هنا. وقد استغرقنا سنوات لنحصل على الإذن من أجلها، وقد كان ذلك كسباً حقيقياً، وخصوصاً لأنها لعبت دوراً كبيراً في كتابة قصة حياة مانديلا، التي كتبها على أرض الجزيرة، سرياً وبشكل غير قانوني. كان مانديلا يكتب عشر صفحات أو اثنتي عشرة صفحة في المرة الواحدة، ثم يعطيها لي من أجل الحصول على تعقيباتي، وإلى والتر سيسولو من أجل تعقيباته، ثم يقوم بكتابة النسخة النهائية، ويسلمها إلى سجين آخر من المؤتمر الوطني الإفريقي، وهو ماك ماهاراج، لينسخها ويحولها إلى خط يدوي صغير. لقد كان ماك رائعاً في ذلك النسخ، وكان يصغر ستمائة صفحة إلى خمسين صفحة أو أقل من ذلك، ثم يخفيها، ولن أتابع إلى أين. وأما بالنسبة إلى الأصل، فقد كانت النسخة تدفن في الحديقة في محافظ بلاستيكية. وكانت الفكرة هي أن يقوم ماك حالما يخلى سبيله بعد اثنتي عشرة سنة بأخذ النسخ إلى لندن ثم يرسل لي إشارة تقول إن النسخة قد وصلت سالمة إلى أيدي الناشرين. آنئذ كنا نستطيع أن نعدم الأصل.

"ولكنهم وبشكل مفاجئ بدؤوا ببناء هذا الجدار، وفي أحد أيام الأحد صباحاً، كان هناك مانديلا وأنا وواحد أو اثنان آخران من السجناء، وكنا نحفر بحدة لننقذ الأصول. وحصلنا على بعضها قبل أن يقبض علينا. وكان جرمنا هو أننا أسأنا استخدام الامتياز الخاص بالدراسة فأخذت منا كتبنا وعلقت دراساتنا".

"طوال كم من الزمن؟"

"أربع سنوات".

لقد كان يتحدث وكأن السنوات كانت أشهراً، لا بل أسابيع. وإن مقابلة من كانوا في جزيرة روبن مثل كاثي، وإلقاء نظرة على حياتهم، يعني أن نفهم كيف

أن الكفاح ضد التمييز العنصري في جنوب إفريقية وفي كل أنحاء العالم قد استمد قوة كبيرة من مثالهم الذي ضربوه في الشجاعة الأخلاقية والمادية وفي الإبداع الذي لا يعرف الحدود. ومن أجل هذا السبب، صارت تعرف جزيرة روبن باسم "جامعة الكفاح". ولكنها كانت أيضاً حفرة من جهنم.

وكتب زميل سجين يقول: إن جونسون مالامبو "كان رجلاً محكوماً بعشرين سنة سجناً، وصدر له الأمر بأن يحفر حفرة كبيرة بما يكفي لتناسبه. ولم يكن يدرك ما الذي كان سيتبع ذلك، وكان ما زال يحفر حين غلبته فجأة بشكل ساحق مجموعة من السجناء. ودفعوه إلى الحفرة وبدؤوا بإهالة التراب عليه لملء الحفرة... وحين انتهوا كان رأس مالامبو فقط هو الذي يظهر فوق الأرض. وقام سجان أبيض، كان هو الذي وجه كل ذلك العمل، بالإبالة في فم مالامبو. وحاول السجناء أن يفتحوا فكيه المغلقين بشدة فلم يستطيعوا... والسجان يبول ويبول... وحين انتهى السجان... أمطره بلكمات شريرة من القبضات والحذاء حول الرأس المشرئب من الأرض بلا حول ولا قوة.

الإهانة والوحشية، المنهجية منها والعشوائية في آن معاً، مثلتا التمييز العنصري مثلما اكتشفتُ بسرعة حين كنت مراسلاً شاباً في مهمة لي في جنوب إفريقية في الستينيات من 1960. في يومي الأول هناك اصطحبني صحفي إلى حانة في جوهانسبيرغ، وهي نموذج للمكان الصغير المتواضع جداً غير المطروق، الكثير الدخان، الذي تنبعث منه روائح عرق رواده، والذي ينذر بالشر تقريباً، والمغطى بالخشب، ويستهلك فيه الزبائن تنويعات وكميات فاسدة من مشروب البراندي الكحولي المحلي. كل واحد من الزبائن كان مخموراً، ومعظمهم بلا رجل. وكان الذي اصطحبني إلى هذا المكان صحافياً محلياً هائلاً وباحثاً عن كشف الفساد. وهو ميش ليفين، وأخذني إلى هذا المكان حسب قوله: كي "نستهل دخولك العمل. يا رجل". وميش هذا، الذي كان يكره التمييز العنصري، كان قد أبرز نفسه قبل بضعة أسابيع بالمشي حتى اقترب من جون فوستر، رئيس الدولة، في مطار جان سمطس وصاح بالرئيس: "أنت لاشيء بل مجرد رجل نازي حقير!"

وبعد أن صرنا في داخل هذا المكان المتعفن، كشر في وجوهنا أحد المرتادين السكارى الذي أصر على أن يخبرنا بتراثه الإسكوتلندي، وهو الأمر الذي يجعله على ما يبدو أعلى من "البوير". وأراد منا أيضاً أن نعرف كيف يعامل السود معاملة حسنة. وقال لنا: "أنتم لا تصدقون هذا الهراء عن كون السود فقراء جداً، أليس كذلك؟" ومن دون انتظار جواب منا صاح لصاحب المكان اليوناني وقال: "يا نيك، أرسل أسْوَدَك!"

وظهر رجل أسود مسن لا يمكن تحديد عمره، وزمجر عليه السكير، وقال له: "خذ، يا ولد، أحضر لي بعض الروثمانز من الآلة هناك". وأحضر الرجل العجوز السجائر وناوله بقية النقود، فرماها السكير على الأرض. وقال له: "تلك النقود لك، يا ولد، جميعها! أترون يا أصدقائي، انظروا كيف نعامل السود معاملة طيبة!" وركع الرجل العجوز نازلاً على ركبتيه وجمع النقود.

كان العام هو 1967. وطرت إلى كيب تاون على متن طائرة الخطوط الجوية لجنوب إفريقية التي كان تتجيدها البرتقالي والذهبي الباهر يتوافق مع القبعات البافارية الطراز التي كانت المضيفات يضعنها. وسألتني المرأة التي جلست في الكرسي الذي يليني عن رأيي بجنوب إفريقية، مثلما سألني عن ذلك كثيرون من البيض، وخصوصاً الذين كانوا يرون أنفسهم ليبراليين. وقالت المرأة: "أليست بلاداً جميلة؟" ولم تكن تهتم سواء أجبت أم لم أجب.

وساق سيارة الأجرة من مطار كيب تاون رجل نحيل، بلا أسنان كان يدخن سلسلة من السجائر بإفراط وكان له جلد ممتقع شاحب وعينان غائرتان مثل الفقراء البيض من جنوب إفريقية. وقال لي، بلمسة من الإنذار، والخليج المتشكل بشكل الطاولة قد امتد أمامنا: "لا يوجد منظر مثله في العالم، أليس كذلك؟ هل ترى رأس الأسد؟ وذلك الشكل هناك، تلك جزيرة روبن، وفيها نحتفظ بالإرهابيين". وكان مانديلا وكاثي قد بدأا، قبل قليل فقط، سجنهما لمدة ربع قرن في محجر الحجر الكلسي.

ذكرتني كيب تاون قليلاً بسيدني، المدينة التي ترعرعت فيها: فوجهها يتجه نحو المحيط والريح، والشواطئ المبيضة كثيرة الأمواج، وطريقة البيض الهادئة المسترخية على ما يبدو، هي هي، فالكثيرون منهم "يحاولون" "أن يحصلوا على تلوين البشرة" على الشواطئ الجميلة، وهي الشواطئ التي حُظِرت في معظمها على الناس الذين تلونت بشرتهم من قبل. والاختلاف الذي تختلفه عن جوهانسبيرغ، كما قيل لي، هو أن بعض الناس "المختلطين" في شهادات ميلادهم عاشوا في كيب تاون مثل البيض تقريباً. وكانوا يكسرون القانون كل يوم بالجلوس في المقاعد المخصصة للبيض فقط في سيارات الركاب، وفي حضور العروض في دور السينما المخصصة للبيض فقط وفي المساكنة مع البيض كذلك.

وبالنسبة إلى أولئك الذين كانوا يجدون هذه الدورة من الخداع أكثر مما يحتمل وكانوا يريدون أن يضعوا الختم الرسمي النهائي على مكانتهم الشرفية البيضاء – أولئك الذين، كما يقال في تعبير محلي حاد، قرروا أن "يحاولوا أن يكونوا بيضاً"– فقد كان هناك مؤسسة تمييز عنصري لا تكاد تصدق تسمى هيئة إعادة التصنيف العرقي: لا يكاد يصدق، أي، بالنسبة إلى الحياديين من الخارج، ولكنه يصدق وحيوي معاً لأولئك الذين قذفوا شرائح مقامرة حياتهم على الأبيض. فإن استطاعوا أن يقنعوا هيئة محكمة مكونة من ثلاثة أشخاص أن مظهرهم كان أبيض وأنهم كانوا على وجه العموم مقبولين من "الجمهور" بصفتهم بيضاً، فإن الهيئة قد تمارس سلطتها لتغيير التصنيف العرقي على بطاقة هويتهم. وكان الأمل المنظور هو امتياز طوال العمر، أو اذلال طوال العمر. وطبعاً، لم يكن للناس من أصحاب الجلود السوداء من حاجة إلى التقدم بمثل هذا الطلب.

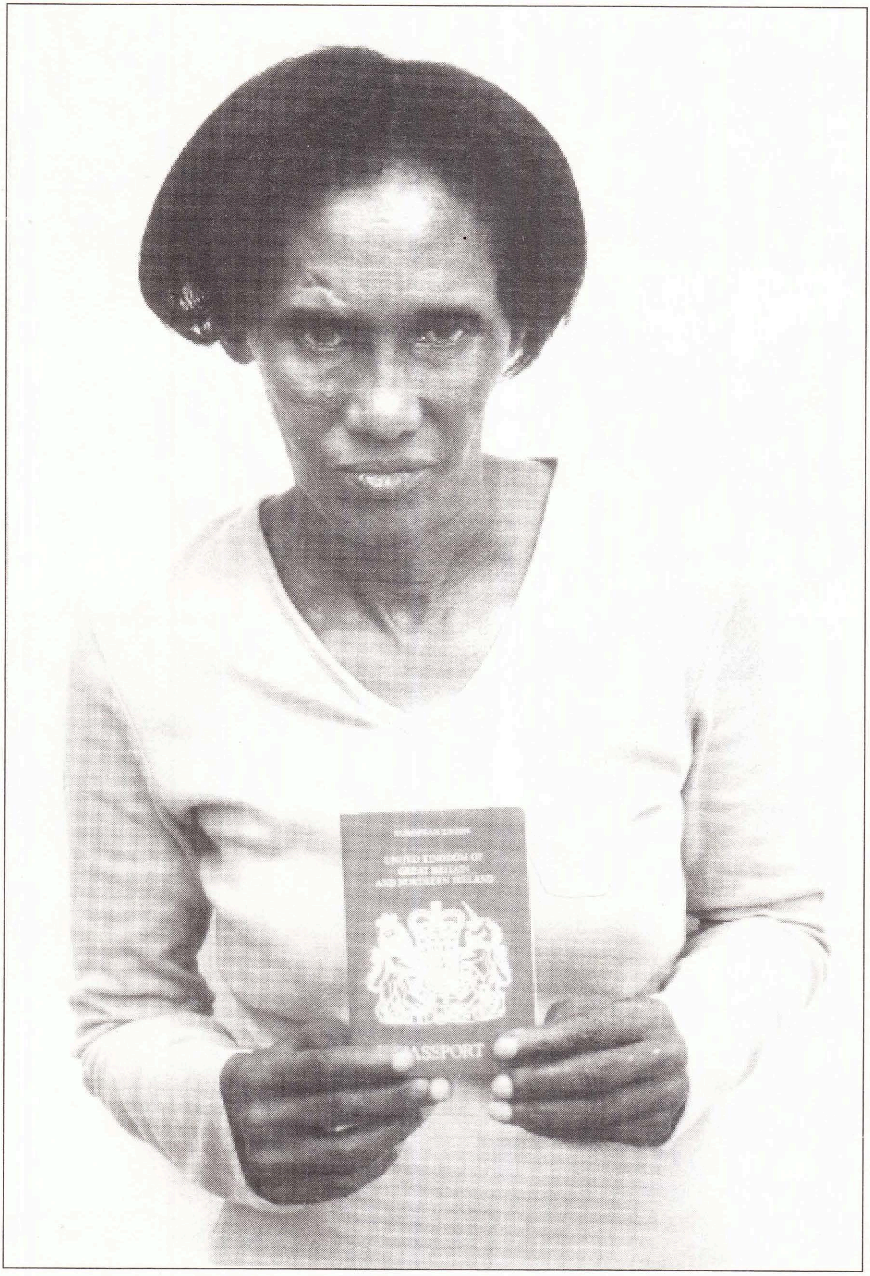

ليزيت تاليت، من سكان جزيرة تشاغوس، وهي التي "ماتت أسرتها من الحزن"
بعد أن طردتهم الحكومة البريطانية

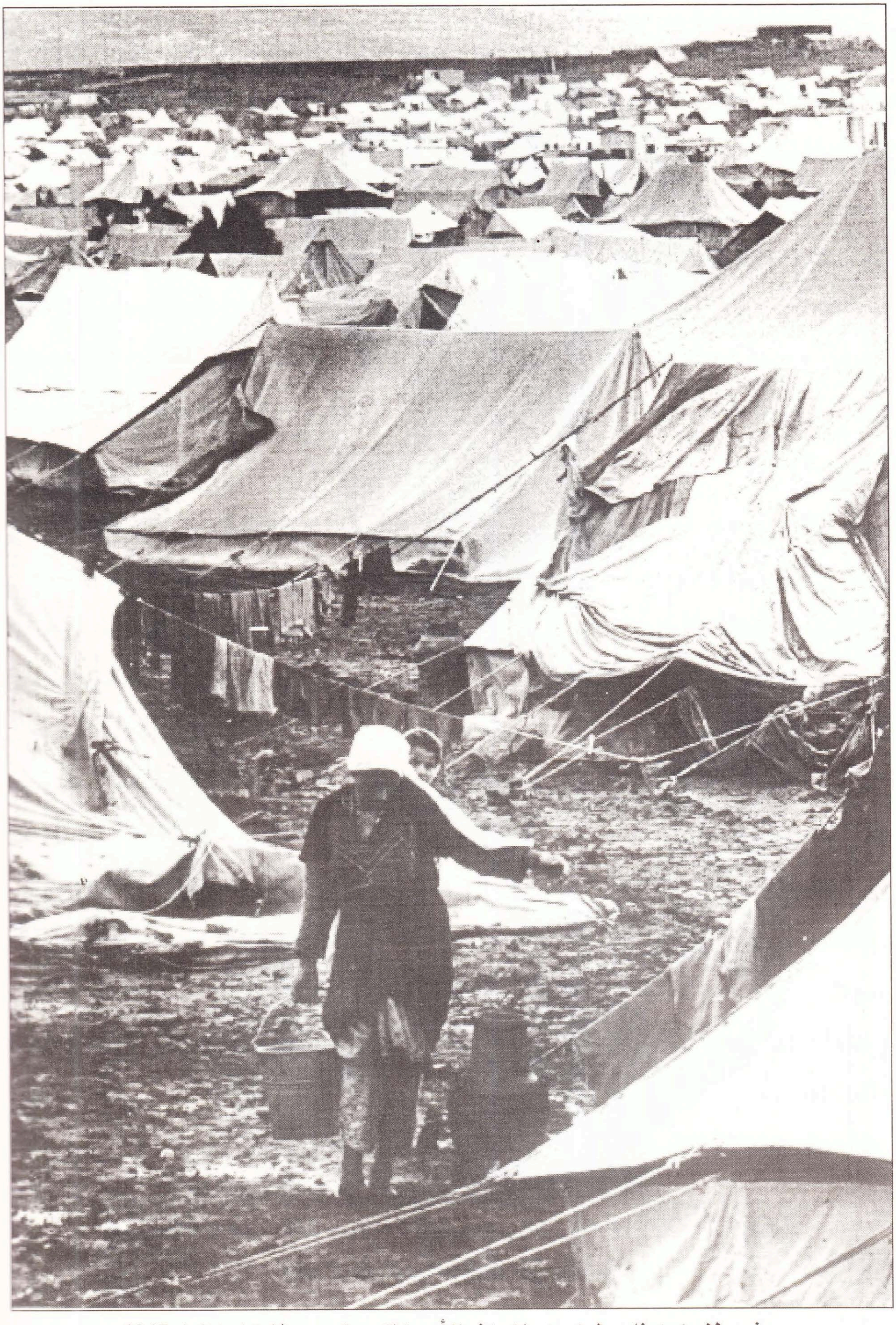

مخيم لاجئين فلسطينيين بإشراف الأمم المتحدة بعد ولادة إسرائيل 1948

فتاة فلسطينية صغيرة، من غزة 2002

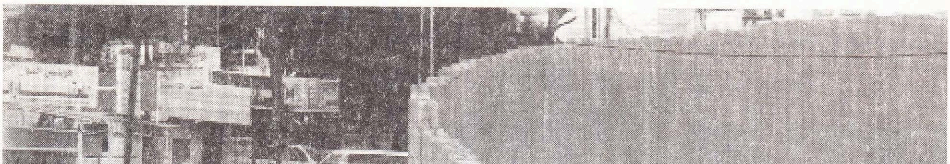

جدار إسرائيل للتمييز العنصري يفصل البلدة الفلسطينية الرام عن طريق إسرائيلي 2006

الملاكم روني فان دير وولت من جنوب إفريقية، تم تدمير مساره الوظيفي حين "أعاد" نظام حكم التمييز العنصري "تصنيف" عرقه من "أبيض" إلى "ملون" في العام 1968

جون بلجر يجري مقابلة مع نلسون مانديللا في كيب تاون 1997

جوناثان شابيرو ("ثابيرو")، الميل والغارديان جوهانسبيرغ 2000

الأغنياء السود الجدد في جنوب إفريقية، ديربان، ديربي 2005

سيارات ركاب كابول، تحولت إلى نفايات على يد أمراء الحرب الذين دعمهم الغرب 2005

الدكتور سيما سامار تقسم اليمين بصفتها أول وزيرة أفغانية لشؤون المرأة. وتعرضت في الحال للمضايقات لتترك المنصب وهي اليوم تخاف على حياتها 2001

جنود أمريكيون يلقون الأوامر على الأفغان خارج قاعدة باغرام، بالقرب من كابول 2005

يوجد في أفغانستان ألغام أرضية غير مزالة أكثر من أي بلد آخر في العام 2001

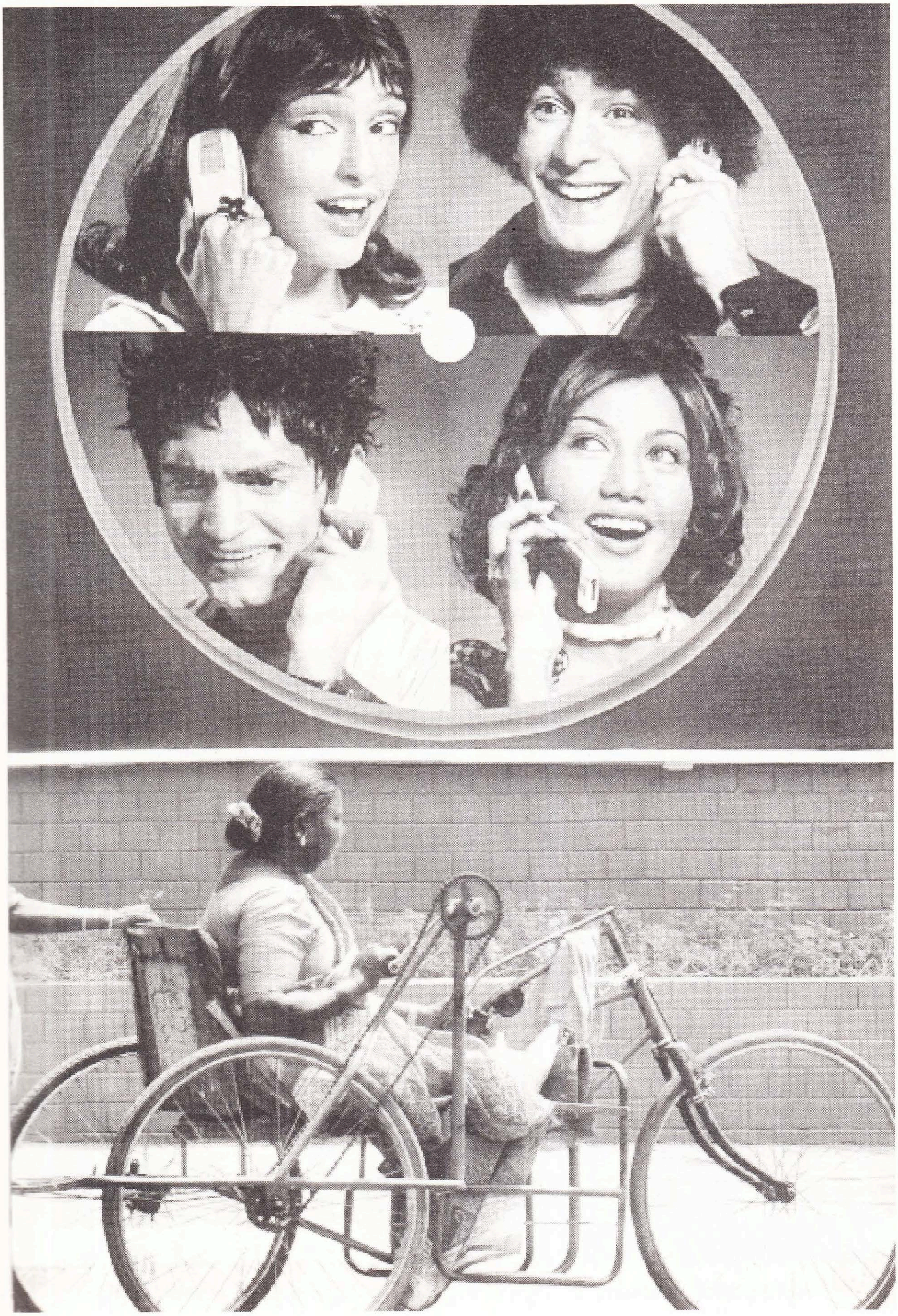

الهند "الجديدة 2004

قبل أن أصل ببضعة أسابيع، كان برلمان جنوب إفريقية قد أصدر تعديل قانون السكان، وهو القانون الذي ضيق التمييز العنصري، وذلك من خلال تطلبه، في الدعوى من أجل إعادة التصنيف العرقي، لا "للمظهر والقبول" فقط بل تطلبه أيضاً "البرهان على سلالة" المتقدم بالطلب، وليس غير الأحمق فقط هو الذي يحاول أن يكون أبيض الآن، لأن القانون الجديد قال إن السلالة "الملونة" كانت تعني "ملونة" طوال الحياة، بغض النظر عن "بياض" جلد الشخص المعني. وبالإخلاص النموذجي المفرط للغاية للتفاصيل، عمل مشرعو التمييز العنصري على جعل التعديل يغطي 353 شخصاً هم الذين كانوا آنئذ ينتظرون "إعادة تصنيف" أعراقهم.

هذا الوسواس بالعرق كان هو القلب الأسود للتمييز العنصري، وكان ضحاياه هم أشد الناس حزناً. وقد توصلت إلى مقابلة واحد من هؤلاء، وهو ملاكم اسمه روني فان دير وولت، تسلم رسالة من وزارة الداخلية قدر لها أن تغير حياته. وبدأت الرسالة بالآتي "من ناحية قانون التوزيع السكاني، فأنت بموجب هذا القانون مصنف بصفتك شخصاً ملوناً".

روني فان دير وولت كان بطلاً محلياً، من وزن 135–147 رطلاً إنجليزياً، وكان قد هزم ويللي لودوك، بطل جنوب إفريقية والمتنافس الأول على لقب العالم لهذا الوزن. وكان يشار إليه على نطاق واسع بأنه البطل الثاني. وكان أفريكانياً واسمه ولغته كانا إنتاج الأفريكانية، وكان الحفيد الفخور لجوهانس فان دير وولت، وهو واحد من أعظم المصارعين في جنوب إفريقية. وقد ذهب إلى المدارس المخصصة للبيض فقط، وأقام مبارياته مع الدوائر الغنية المخصصة للبيض فقط – والملاكمون "الملونون" بغض النظر عن مدى قدرتهم، كانوا محظوظين في الحصول على ما يعادل 5 جنيهات للمباراة – وأهم من ذلك، فقد كان يعتبر نفسه رجلاً أبيض وموهوباً بالإحساس بالخصوصية المركوز في الأفريكانيين. ومن الطبيعي، أنه كان مسانداً طوال عمره للحزب القومي بقيادة الدكتور هندريك فيرووورد.

ومع كل ذلك، فبالنسبة إلى العيون الرسمية التي تابعت مساره العملي والصعود السريع لشعبيته، كان روني فان دير وولت مشبوهاً. لقد كان داكن البشرة، مثلما كان سائق سيارة الأجرة التي استأجرتها ومثلما هم العديدون من الأفريكانيين: وذلك نتيجة، في معظم الأحيان، للاتصال الجنسي المثمر بين أجدادهم المستوطنين البيض وبين الهوتينتوت والخويسان في كيب تاون وبين أجدادهم وبين السود في مناطق الزراعة المعزولة. فإذا وضعنا هذا جانباً، فإن من المحتمل أن يكون شخص ما في عالم الملاكمة قد حمل ضيغنة لروني، وكانت تلك هي الطريقة الأكيدة للتخلص منه. ففي اليوم الذي تسلم فيه الرسالة من الوزارة، كانت قد ذهبت نسخة منها إلى هيئة ضبط الملاكمة في كيب، وكان من المتوقع أن يتبارى روني في دوري مباريات في غرين بوينت ستاديوم في كيب تاون. وفجأة حذف اسمه من البرنامج ومزقت الملصقات التي تحمل صورته.

وقد قال لي سيدني بيك، أمين سر الهيئة: "كان علينا أن نفعلها وإلا فإن روني كان سيغرم أو سيسجن. فالقانون يقول إن الملونين والبيض لا يستطيعون الخطو إلى داخل الحلبة نفسها، وروني البائس المسكين هو الآن ملون".

قابلت روني وزوجته راشيل في بيتهم في المزرعة الاستعمارية الهولندية، التي تبعد ثمانية أميال عن المدينة. وكانت الجدران مليئة بصور روني وهو في مجده: روني بعد الضربة القاضية، روني يتسلم تلك الجائزة. وكان هناك صورة بيضوية لجده فان دير وولت، كان وجهه صارماً شديد البياض. وقال لي روني:"أنا أعتذر عن عيوني الحمر، وأريد أن أكون صريحاً معك، فقد كنت قلقاً ومضطرباً طوال شهور، منذ أن تسلمت رسالة من هيئة تصنيف العرق". وهذه الهيئة: استدعته إلى الغرفة 33 من مبنى كلية التدريب القديم، وأمرته في "ملاحظة هامشية" مكتوبة بخط اليد بأن "أحضر زوجتك وأولادك".

"رأيت رجلين في أوقات مختلفة، حاولا أن يكونا مؤدبين، ولكن ذلك كان صعباً لأنهما كانا يوجهان لي أسئلة من مثل: (من هم أصدقاؤك؟ هل هم بيض؟) وقال أحد الرجلين:(حسناً، إذاً، من هم المتحمسون لك؟ أليسوا هم أصدقاءك؟)

فقلت لهما بعضهم كانوا أصدقاء، ولكن، يا رجل، أنا لا أستطيع أن أتجنب الموقف إذا كان الناس الملونون يحبون أن يروا مبارة جيدة. لماذا لا ينبغي لهم أن يروها؟ ومشى الرجل الثاني حول راشيل، زوجتي، وحول أطفالي محدقاً فيهم من كل زاوية مثلما تفعل حين تشتري حيواناً. لم يقل شيئاً، مجرد تحديق. ثم همس قائلاً: (لا تقلق، سوف أبذل أفضل جهدي من أجلك.) لم يفهم الأطفال ذلك، طبعاً، ولكني أقول لك، نحن بكينا كلنا حين صرنا في الخارج".

وبالنسبة إلى روني، فإن العار المتمثل في كونه قد أعلن رجلاً ملوناً كان يعني أن عليه أن يلبس قبعة لأول مرة في حياته، وهي قبعة واسعة الحافة ومشدودة إلى الأسفل على عينه. "في سيارة الركاب اليوم، قارنت ذراعي العاري مع الرجل الجالس على المقعد بجانبي. إذا كنت أنا أسود، فيجب أن أكون في حلم..".

كانت محنة فان دير وولت في الغرفة 33 خفيفة بالمقارنة مع محنة أولئك الذين استدعوا ليمثلوا أمام غرفة النجمة التابعة للهيئة. ومحنتهم كانت أيضاً قضية واحدة من قضايا قليلة وصلت إلى الصحافة، وذلك بسبب مكانة روني في عالم الرياضة. لا بل حين تصل الحالة إلى المحكمة العليا لمزيد من الاستئناف، لم تكن تنشر أي أسماء، وكانت جلسات الاستماع سرية – وذلك من منطلق الاحترام للناس، كما زعمت الحكومة، الناس الذين أجبروا في استقتالهم من أجل أن يصنفوا بيضاً، على أن يتخلوا عن كل شيء ربما كان أسلافهم فخورين به. مثل هذا الاهتمام الإنساني المعترف به كان احتيالاً، والإجراءات في الغرفة 33 كانت سرية، والسبب، كما عبر عنه ميش ليفين هو "أن التمييز العنصري يكشف عن سوأته ويعرضها هناك".

وبعد تدبير تقديم رشوة، هُرّبتُ إلى داخل مبنى كلية التدريب القديم في شارع الملكة فكتوريا، وإلى الطابق الثاني حيث اتخذت لي مقعداً في مؤخرة الغرفة 33. وهنا كانت شعوذة التمييز العنصري المرعبة معروضة بادية للعيان، وهنا جعلوا الانحراف الأخلاقي والفكري للتمييز العنصري يبدو عادياً مع وجود "الإجراءات" و"الخطوط الهادية" واتخاذ القرارات المستندة إلى "معايير". وقد أخذت الغرفة ترتيب محكمة قضائية فيها قاض، وصندوق للشاهد وطاولات للتشاور تمثل "المتقدمين" بالطلبات

ووزارة الداخلية، وكان يرأسها ثلاثة مسؤولين، وكان يتم التعبير عن احترامهم المتجهم والمخادع عن طريق المجاملة المبالغ بها والتي كانت سلوكاً غريباً ووحشياً.

الأسرة الأولى التي تمت مرافقتها إلى الداخل كانت أسرة رجل متوسط العمر، ومعه زوجته، وطفلاه، وأحدهما عمره عشر سنوات والآخر ثماني سنوات. وكانوا أسرة من الأفريكانيين الترانسفال ولم تكن قضيتهم غير مألوفة: كان الولد الصغير قد ولد بملامح زنجية، وعلى الرغم من أنه كان قد سجل عند مولده بصفته أبيض وعمد في قلعة التمييز العنصري، وهي الكنيسة الإصلاحية الهولندية، فإن الهمسات في المدينة قد وصلت إلى ذروة جعلت مدير مدرسة الطفل يتحرك ليكتب ما يلي إلى والديه: "لا أستطيع بعد الآن أن أتجاهل اهتمامات الآباء الآخرين، وبناء على الصلاحية المخولة لي من إدارة التعليم، فيجب علي أن أعلمكم أن ابنكم يجب أن يسحب من هذه المدرسة إلى أن يتم توضيح حالة عرقه الأوروبي".

بدأ "القضاة" استجوابهم، وسألوا والد الصبي، "بالنسبة إلى معرفتك، هل تساكن أبوك أوجدك مع بانتو؟" (البانتو: هي اللفظة المستخدمة في التمييز العنصري عن كلمة الأفريكاني.) وكانت الإجابة هي الألم المقموع فقط، وتحولت الإجابة إلى إهانة حين سئلت الأم: "هل سبق لك في أي وقت أن ذهبت مع بانتو؟"

وصاحت: "هل سبق لي ماذا؟"

"هل سبق لك في أي وقت أن حبلت من بانتو؟"

"أوقف هذا! ماذا تقول؟"

"أيتها السيدة، يجب علينا أن نثبت إن كان هناك بعض التعدي على مورثاتك؟"

"مورثات؟ أنا لا أعرف ما هذه المورثات..".

ودام التحقيق ثلاثة أرباع الساعة والزوجان يدعوان الله أن يساعدهما. وبعد ذلك نزل المسؤولون الثلاثة عن المنصة ودعوا الصبي للتقدم نحوهم. أحدهم أخرج مشطاً، ومشط به شعر الصبي، مرة بعد مرة، بعد أن يبله في محلول صاف في

قارورة عليها ملصق يعرّفها. وحين انتهى من التمشيط، رفع جفون الصبي وحدق في بياض عينيه، وفتش لثته. وأخيراً، أمَرّ كلتا يديه حول قاعدة جمجمته. وتمتم الثلاثة تمتمة رزينة فيما بينهم، وختموا الإجراءات بتوجيه الشكر إلى "كل شخص له علاقة" وتمنوا لهم "جميعاً الأفضل".

وفي فرصة تناول الغذاء، سألت الأب ماذا هو فاعل إذا صنف ابنه ملوناً. فأجاب: "ماذا أستطيع أن أفعل، غير جعله خادم البيت أو شيئاً مثل ذلك، وإلا، فلن يكون قادراً على العيش معنا، هل يقدر؟"

وبعد ثلاثة أشهر ساندت الهيئة طلب العائلة "على أساس السلالة" واحتفظ الابن بتصنيفه الأبيض. ومع ذلك، فقد وصلت الوصمة والعداوة اللتان دار حولهما الهمس إلى درجة كان معها على العائلة أن تنتقل بعيداً عن المكان الذي كان الجميع منهم قد ولدوا فيه.

ورونى فان دير وولت نفسه قدم أيضاً استئنافاً لدى الهيئة، وبدأ أصدقاؤه يعدون قضية كانوا يأملون في أنها ستبرهن على سلالته البيضاء. ولكنهم، مع ذلك، كانوا على وعي بأن راشيل، زوجة روني، لها أصول "مختلطة" كان بالإمكان تتبعها. وهكذا، ولو أن روني صنف أبيض، فلن يكون بعد الآن مسموحاً له أن يعيش مع زوجته، لأنهما لو عاشا معاً لكانا بذلك يخرقان قانون منافاة المبادئ الأخلاقية الذي حرم المساكنة بين الناس من تصنيف عرقي مختلف. وبعد أن تم تدمير مسيرة روني المهنية في الملاكمة، لم ينتظر روني لسماع الاستئناف وأخذ أسرته ليعيش في بريطانيا.[3]

وللتمييز العنصري ما يسميه الاعتذاريون عنه "الحالات الشاذة". وأكثر هذه الحالات الشاذة حيوية هي المنطقة السادسة، في مركز كيب تاون. وتقبع المنطقة السادسة بين أسفل الجبل الطاولة وبين المحيط الأطلسي، وكانت متاهة من الشوارع المتعرجة والدروب المرصوفة بالحصى، والمباني السكنية فيها المكونة من الشقق هي نسخ من بيوت "هولنديي الكيب" المستوية السطوح التي تعود إلى أواخر

القرن الثامن عشر. فأكثر من خمسة وخمسين ألف آسيوي، وإفريقي، و"ملونين" مختلطي الأعراق، وبيض عاشوا هناك، بوئام إذا تحدثنا عن ذلك بوجه عام. لقد كان هذا ميراثاً رناناً من كيب تاون الأصلية التي كانت طوال قرون موطناً للبحارة من البرتغال، وللفلاحين من هولندا وانجلترا، وللعمال من الهند وولايات الملايو، وللأفارقة المحليين. وأولئك الذين ينحدرون من أعراق مختلطة، الذين يسمون بالملونيين، كانوا هم مصدر فخر المنطقة السادسة بقدر ما كانوا منتجاً لها، وكان يقال: هذا ما كان عليه التسامح في مركز اللاتسامح المأ سس.

وكتب بريان بارو يقول في روح المنطقة السادسة: "إن الناس الذين لم يعرفوا حقاً المنطقة السادسة قطعياً يرفضونها بوصفها حي الفقراء المكتظ،

فهم لم يحرصوا أبداً على نوعية الناس وحيوية الناس الذين كانوا يشكلون دم حياتها. وكان من عادتهم أن يعززوا معتقداتهم بملاحظات مؤذية عن الشوارع القذرة، والجدران المنقشرة، وتهريب المخدرات. فهم قد رأوا المنطقة من الخارج فقط من دون أن يحرصوا أبداً على روحها. وهذا المدخل حمل بذور المأساة المحتومة لأن روح المنطقة السادسة كانت في قلوب أهلها وفي عقولهم... ففي الوقت الذي وجد فيه كثيرون من سكان جنوب إفريقية الفخر والتقدير في روابطهم الثقافية مع أوروبة ومع الأجزاء الأخرى من العالم، فإن سكان المنطقة السادسة كانوا سعداء تماماً في أن يكونوا هم أنفسهم على حال فريد، وهم بفعلهم ذلك، تطابقوا مع تعريف "سكان جنوب إفريقية" مطابقة أكثر أصالة من أي شخص آخر غيرهم.[4]

اصطحبني إلى المنطقة السادسة باسيل أوليفيير، الذي كان آنئذ أعظم لاعب متقن للعبة الكريكت الإنجليزية ولعدة ألعاب أخرى، والذي كان قد ترعرع هناك وتعلم لعبته الكريكت في الشوارع وفي الملاعب الترابية المغبرة. وكان دوللي، كما كان معروفاً في المنطقة السادسة وفي انجلترا، مقيماً في بيت طفولته مع زوجته نعومي ومع طفليه. وقبل سبع سنوات، كان قد قبل عرضاً من نادي ميلدتون في عصبة لانكشاير المركزية، وهو يعرف أنه لن يلعب لجنوب إفريقية أبداً بسبب عرقه. وصار مبعث الإثارة، في مهارة ضرب كرة الكريكت بمضربها، وفي عملية

قذف الكرة نحو الضارب، والتقاف الكرة أو وقفها في طريقه إلى صفحات الرياضة من النوع الثقيل في شارع فليت للصحافة: وكان يضرب مائة نقطة في خمس وعشرين دقيقة ومائتي نقطة في خمس وستين دقيقة. وبعد أن كان قد تقدم بنجاح للحصول على الجنسية البريطانية، اختير ليلعب عن إنجلترا ضد الآنديز الغربية.

وحين قابلت دوللي في كيب تاون، كان نظام حكم التمييز العنصري ونادي ماريلبون لرياضة الكريكيت في أوج المناقشة في "مفاوضات" سرية تدور حول دوللي وهل كان يستطيع أن يجول في الكريكيت في جنوب إفريقية عن إنجلترا في سلسلة اختبار القوة في الكريكيت في العام 1968. كان هذا وقتاً حرجاً بالنسبة إلى الحملة المتنامية لمقاطعة رياضة جنوب إفريقية، وفي المركز من الحملة كان هناك لاعب كريكيت متواضع، وموهوب موهبة عالية ويحمل رسالة كان التشديد فيها أقل من المتوقع ولكن ضعف التشديد هذا كان هو الذي جعلها أقوى. فقد كان يقول: "أنا لا أقول أي شيء، أنا أحاول فقط أن ألعب الكريكيت مع أفضل لاعبي العالم".[5]

في أثناء الشتاء الإنجليزي في 1966 – 67، عاد دوللي إلى المنطقة السادسة ليعلم اللاعبين الملونين الشباب، وقال لي: "لأعيد إلى شعبي ما سبق له أن أعطاني وربما لأساعد أفضل اللاعبين على الخروج". وقد تقابلنا أول مقابلة في بهو فندقي الذي أنزل فيه في مركز المدينة. وكان واضحاً أن هناك شيئاً ما خطأ. فثقته الجذابة اختفت، وبدا مذعوراً. وقال لي: "لقد تركنا العادة في إنجلترا، وقد ارتكبت غلطة. فنحن الآن نخرق القانون. ولو قبضوا علي هنا معك فيمكن أن أنتهي إلى السجن".

وكنا على وشك أن نغادر حين جاء نادل ليأخذ طلبنا. وكان إفريقياً، وعرف دوللي، وضرب بكفه على ظهر دوللي وهمس له: "اسمع، أنا سأخدم باسيل أوليفيير العظيم ولو كان هذا يعني المخاطرة بوظيفتي. ماذا سيكون، أيها الرجل؟ جعة (بيرة)؟" كان الجلوس مع رجل أبيض في فندق مخصص للبيض فقط شيئاً، وأما تناول الكحول معه فكان يعني المخاطرة بحظوظه. وطلب دوللي عصير

فواكه، ولكنه استمر في التلفت حوله. وقال: "أنا آسف، لم أفكر في أني سأشعر بهذه المشاعر ثانية".

وقد ركضنا تقريباً لنقطع مسافة المجمعات السكنية القليلة إلى المنطقة السادسة، وكأننا ركضنا إلى الأمان. ودخلنا شارع هارينغتون، الحي اليهودي بمعابده اليهودية التسعة، وعبرنا شارع فيرنون تيريس، الذي انتظمت فيه صفوف نخله الكبير الذي أحضرت بذوره على يد الحجاج من مكة المكرمة، ومحلات الكاري، ومحلات يتدلى فيها السجق مثل الستائر، ومحلات الصقارين، ومحل الحلاقة كانيون الكبير، والكنيسة المورافية ومسجد شارع موير، الذي علقت عليه الكتابة: "الحماسة أداة حياتي.... الحزن صديقي... المعرفة سلاحي".

والأطفال، شوارع من الأطفال، ومعظمهم يصيحون "دوللي، دوللي رجل العجائب*! ألعب معنا، من فضلك، يا رجل!" وظهر فوراً مضرب وكرة تينس قديمة، والرجل الذي حقق حديثاً ستاً وأربعين ركضة – 6، 6، 6، 6، 6، 6، 4، 6 – من ثماني كرات مقذوفة عليه ضرب كرة نازلة في التل، فالتقفها وأوقفها بخبرة بارعة رجل يلبس طربوشاً. ولحق بنا الجمهور إلى القديس يوسف، وهو المكان الذي كان دوللي قد ذهب فيه إلى المدرسة، وحيانا مدير المدرسة، السيد فينان، وقال: "في الوقت المناسب تماماً للصلاة، يا باسيل! هل سمعت؟ إنهم سيهدمون المدرسة تالياً. وسوف يتسلم البيض إدارتها. كل شيء سينتهي إلى المسطحات الرملية... منزاحاً عن الطريق".

في العام 1950، صنف قانون مناطق الجماعات العرقية الناس حسب العرق وجعل من غير القانوني بالنسبة إلى الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة أن يعيشوا في المنطقة نفسها. وبقيت المنطقة السادسة استثناء مفهوماً من غير كلام عنه. وفي العام 1966، صرح وزير الإسكان، بي. دبليو. بوتا (رئيس الدولة لاحقاً) عن المنطقة السادسة بأنها منطقة مخصصة "للبيض فقط". ولم يؤخذ الإعلان في البداية على

* شخصية في أفلام الصور المتحركة تحارب الشر عند الضرورة بفضل خاتم منحه رجل دين لهذه الشخصية. (المترجم)

محمل الجد من كثيرين من المقيمين، الذين قالوا: "لن يفعلوها أبداً. أين سيضعون أناساً مثلنا؟" والمسؤولون الذين ظهروا في الشوارع، للقيام بمساحة المخططات ودراستها، صاروا محل سخرية متزايدة للنكت من كل جبان. وكانت أسود نكتة هي أنهم جاؤوا من "إدارة تنمية المجتمع".

وقد وصلت أول جرافة مباشرة بعد ذلك وغادرت آخر جرافة في العام 1980. وحولت الجرافات كل بيت وكل محل تجاري وكل ملعب إلى حطام. وقاوم الناس بالدفاع عن أنفسهم، وكثيرون رفضوا أن يغادروا مساكنهم إلى أن أرغموا بالقوة وأخلوا من ديارهم و"نقلوا" إلى شبه الجزيرة الرملية التي تذروها الرياح والواقعة بين الجبل الطاولة وبين جبال "هوتينتوت هولندا" التي تحدد المنطقة النائية خلف الساحل. وكأنما للهزء من طردهم، سمح لهم أن يأخذوا أسماء الشوارع معهم. وكل ما بقي واقفاً من المنطقة هو كنيسة موارفيا الصغيرة، وكنيستان، ومسجد.

طار باسيل دوأوليفيير راجعاً إلى إنجلترا بعد قضائه الشتاء في المنطقة السادسة وكان قد اختير للالتحاق بالفريق الإنجليزي ليلعب في أستراليا من أجل دوري الرماد*. ومباشرة بعد أن سجل 158 نقطة في الاختبار النهائي، أحيط علماً بأنه كان سيستثنى من فريق الاختبار الذي سيجول في جنوب إفريقية في العام 1968. وكان ذلك القرارقد اتخذ ليوفر على نظام التمييز العنصري "الإحراج" من أن يكون عليه أن يمنع باسيل من وطنه بدل أن يسمح لرجل ملون أن يلعب الكريكيت مع البيض. وقد قدم تحقيق قامت به هيئة الإذاعة البريطانية(بي بي سي) الدليل القاطع على أن المؤسسة البريطانية، ممثلة بنادي كريكيت ماريليبون ورئيس مجلسه، رئيس الوزراء المحافظ السابق أليك دوغلاس هوم، قد تواطأت مع

* سمي دوري لعبة الكريكيت بين إنجلترا وأستراليا بهذا الاسم نسبة إلى نعي ساخر نشرته الصحف الرياضية في إنجلترا عام 1882 حين هزمت أستراليا إنجلترا في عقر دارها وقال النعي الساخر إن رياضة الكريكيت الإنجليزية قد ماتت وإن جثتها ستحرق ويؤخذ رمادها إلى أستراليا. وفي العام التالي سمت الصحافة الإنجليزية الدوري باسم السعي إلى "استعادة الرماد". (المترجم)

نظام حكم التمييز العنصري لإبقاء دوللي خارج الفريق في الوقت الذي يحافظون فيه على شعار "يجب المحافظة على الرياضة خارج السياسة"6

لدى عودتي إلى لندن، تلقيت رسالة من سفارة جنوب إفريقية تمنعني من الدخول إلى البلد "حتى أجل غير محدد في المستقبل". ولم يعط أي سبب لذلك. وبعد ثماني سنوات، هاتفني مسؤول في السفارة ليقول لي إنه كان يود أن يقابلني. كان اسمه كريستوفر فان دير وولت، وهو اسم روني. وهو اسم عائلة شائع بين الأفريكانيين، ولكن كم هو مدعاة للمفارقة الساخرة. وتقابلنا ثلاث مرات، وفي أثنائها أخبرني كم كان يكره كلاً من التمييز العنصري و"حرس البوير القديم". وقد أكد لي أن الأفريكانيين الشباب المتنورين، مثله هو، كانوا يتسلمون السلطة. ثم جاء إلى النقطة موضع الاهتمام. وقال لي بطريقة أهل جنوب إفريقية الخجولة بشكل عجيب: "إن الصحافيين من أمثالك الذين كانوا معاندين في السابق، يجب أن ينالوا محاولة ويتقدموا لطلب تأشيرة. وحين تحصل على تأشيرتك، سوف أعطيك قائمة بأسماء الناس المناسبين، الناس المتنورين، لإجراء مقابلات معهم". وقال إنني لن أعرف جنوب إفريقية التي عهدتها في الستينيات من 1960. "فالحالة قد تغيرت تغيراً هو خارج نطاق كل تمييز".

كنت مازلت أنتظر جواباً لطلب تأشيرتي حين انتفضت سوويتو، بقيادة أطفال المدارس، ضد مضطهديها. وكان رد الفعل، في 16 حزيران/يونيو من العام 1976، وقوع مجزرة. ونشرت صحيفة راند ديلي ميل 499 اسماً من الشعب الأسود عرف بأنهم قتلوا. وكانت الشرطة قد أطلقت النار على معظمهم، وكان بعضهم أطفالاً صغاراً بلغت أعمارهم أربع سنوات، وكما في شاربفيل*، فالعديد منهم أطلقت عليهم النار في ظهورهم. ورمي الجرحى منهم في أكوام على يد الشرطة الذين وضعوهم مع القتلى، وتركوهم عمداً ليموتوا.

* مجزرة شاربفيل وقعت في آذار/مارس 1960 حين فتحت شرطة جنوب إفريقية النار على المحتجين السود وأردت سبعة وستين قتيلاً و180 جريحاً وكان معظم القتلى والجرحى من النساء والأطفال. (المترجم)

والتهبت الانتفاضة ثانية في كل أنحاء جنوب إفريقية في الثمانينيات من 1980 وتدفق المحتجون من مدن مناطق العزل العرقي. وقوبلت الاضرابات والمقاطعات بحالات الطوارئ الوحشية غير الفعالة من الناحية السياسية. وكانت جنوب إفريقية تتحول إلى دولة حصار، وبدأ نظام حكم التمييز العنصري يصاب بالذعر. وصار الامتياز الأبيض، الذي أنعم على البيض بمستوى معيشة هو واحد من أعلى المستويات على ظهر الأرض، صار في خطر، وخصوصاً حين قرر الرأسماليون الناطقون باللغة الإنجليزية سرياً أن يخرجوا من الفراش الذي جمعهم مع دعاة التمييز العنصري، وذلك بعد أن صاروا منبوذين دوليين وصارت صفتهم المتنامية هذه أمراً سيئاً للأعمال والتجارة. وسينجم عن ذلك عقد سلسلة من الاجتماعات السرية والأخرى المعلن عنها إعلاناً جيداً، بين رجال الأعمال البيض وبين قادة المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى، وسيكون عقد الاجتماعات أمراً حاسماً في تحويل "الكفاح" إلى مصلحة رجال الأعمال البيض، وفي الإشارة إلى المؤتمر الوطني الإفريقي باحتضان إيديولوجية الرأسمالية الدولية، أي إيديولوجية الليبرالية الجديدة.

في 2 شباط/فبراير من العام 1990، أعلن اف. دبليو. دو كليرك، الذي كان قد تسلم السلطة من بي. دبليو. بوتا، رئيساً للدولة، أن "حظر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، ومؤتمر جميع إفريقية، والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية... هو حظر يجري إلغاؤه". بعد ذلك مباشرة، تم تحرير نيلسون مانديلا. وفي العام 1994، وقف ملايين من جنوب إفريقية في الصفوف، وبعضهم وقف لعدة أيام، كي يصوتوا في أول انتخابات ديمقراطية تحدث في البلاد مطلقاً.

وكان ذلك هو نهاية القسمة القسرية "القانونية" للشعب بحسب لون جلد أبنائه، أما قسمة الشعب بحسب وسائل أبنائه الاقتصادية، وهي القسمة التي تساوي في شدتها القسمة الأولى، فبقيت من دون أي مساس بها. وكان ميثاق الحرية من المؤتمر الوطني الإفريقي قد أعلن في العام 1955: "نحن، شعب جنوب إفريقية، نعلن أن بلدنا ينتمي إلى كل واحد منا وأن كل شعبنا سوف يشترك في الثروة. وستكون

الأرض مشاركة بين أولئك الذين يعملون فيها. وسيكون هناك بيوت، وأمن وحق في العمل..".

بعد غياب ثلاثين عاماً، عدت في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1997. وضمت الآن مضيفات الخطوط الجوية التابعة لجنوب إفريقية في صفهن وجهاً "ملوناً" ولم يبقين يلبسن الآن القبعات البافارية الطراز البرتقالية اللون الضارب إلى الحمرة مثل برتقال طنجة. وحين فتشت جواز سفري امرأة سوداء جنوب إفريقية وأعربت لي عن تحية "أهلاً إلى جنوب إفريقية"، كان هناك أثر مثل اقرصني لأتأكد أنني لا أحلم. فقد كان الوقت وقت أمل ووقت حديث عن "أمة قوس قزح"، مصحوباً باهتمام متزايد بشأن الاتجاه الذي ستتوجه إليه حكومة التحرير.

ولبضعة أميال قليلة، وأنت تغادر مطار كيب تاون، كان الطريق السريع ن 2 يرتفع وينخفض بلطف، وعند كل قمة من الارتفاعات هناك جدار مبنى لم يكن من قبل موجوداً في أثناء التمييز العنصري. وقيل لي إنه بني لحماية السائحين وأهل الأعمال من مناظر ممتدة من الأكواخ المكتظة القبيحة المنظر كانت "قذى في العين". وهذا الاهتمام لحساسيات الأجانب صار يعرف باسم "عملية الهجوم على الأكواخ". وما هو غير عادي بالنسبة إلى كيب تاون ليس هو جمالها الطبيعي بل هو الطريقة التي يعرضها بها الكثيرون من البيض إلى بقية العالم بوصفها مدينة حديقة أوروبية وليس لها إلا ارتباط ضئيل مع إفريقية. ويبدو الأمر وكأن أغلبية السكان ليست موجودة، وهي أغلبية لم تكن موجودة من نواح عدة تحت حكم التمييز العنصري. قليل هو ما تغير.

ذا بروبرتي تايمز ملحق لجريدة كيب تايمز. وهي جريدة تورد ما يستشف منه وكأن كيب تاون هي سوربيتون* أو ميلبورن**. وهي تصف "الترف المطلق" على الشاطئ في كليفتون وخليج هوت المطل وتصف "الدور البهيجة المكونة من طابقين في باينلاندز، فتقول "ورغم كل شيء، فالحياة تبدأ بعد سن 50" في قرية

* ضاحية من ضواحي لندن تلي نهر التايمز. (هذه الهوامش من صنع المترجم)

** مدينة في جنوب شرق أستراليا، بدأ استيطانها في عام 1835.

هيلدربيرغ، مع مروجها الخاصة للعبة الكرات الخشبية (الكروكية)، وبرك السباحة وأربعة مطاعم. إن "الفرص تنادي" ابتداء من أراضي ميدان لعب الغولف المخصصة حصرياً والمنتجعات الموجودة على طول طريق حديقة الكاب ("وادي الطبيعية هو الذي يحتل مكانة القمة") إلى بيوت كونستانتيا* التي تشبه الطراز التيودوري** فوق كيب تاون، وهي مكان من أغنى الأماكن على سطح الأرض.

في بريطان وبوير*** في كونستانتيا، كان هناك القلة من البوير الذين يمكن رؤيتهم، وكانت الأصوات تدل على سكان المقاطعات المحيطة بلندن والمحادة لها ومن حين إلى آخر أصوات سكان مناطق مصب نهر التايمز. وهم ينكرون أنهم حسب اللغة العامية الأفريكانية هم المفحِّجون: أولئك الذين يضعون رجلاً في إفريقية وأخرى في بريطانيا. وهم يعبرون عن عنصريتهم، كما عبروا عنها دائماً، في ترميز كلمات مثل: "متمدن" و"ثقافي" و"عناصر إجرامية" وبعد بضعة كؤوس قليلة، تصير كلمة "الأولاد" تعني الرجال الأفارقة.

في الاتجاه الصاعد من الطريق عاش السير مارك تاتشر – قبل أن يصطدم ببعض الانزعاج وهو يمول انقلاباً عسكرياً في غينيا الاستوائية. وقفت خارج بوابته، وقد كتب عليها تحذير يقول إنني سيطلق علي النار إذا أنا حاولت الدخول. وكان يبدو للناظر شكل منقول من بيت مسقوف بالقش من نوع ديفون، وبعدئذ جاء رجال ضخام وفي آذانهم أسلاك يركضون.

وكان الذي باع هذا الصرح إلى تاتشر هي بام غولدينغ، وهي التي تدير عقارات بام غولدينغ، وهي سلسلة العقارات المتوافقة أكثر من غيرها مع الطراز الحديث في جنوب إفريقية. وقد أرتني بيتاً يشبه الطراز التيودوري في الجوار، وكانت تأمل أن تبيعه مقابل 2.500.000 جنيه إسترليني.

---

* مقاطعة في كيب تاون في مركز وادي كونستانتيا.

** الطراز التيودوري في العمارة الإنجليزية الذي ينتمي إلى الفترة التيودورية 1485 – 1603 نسبة إلى أسرة تيودور الحاكمة في إنجلترا في تلك الفترة.

*** اسم حانة في فندق ألفن في كيب تاون.

وسألتها: "هل ستحصلين على ذلك؟"

"أوه، نعم، فالمشترون، وخصوصاً من إنجلترا، يحبون شيئاً ذا نوعية رفيعة".

"هل فيها محل إقامة للخدم؟"

"نعم... محل إقامة الموظفين كما نسميها الآن... إنها في الخلف، مخبأة بعيداً: لا مشكلة. تدعو الحاجة إلى بضعة حدائقيين نوعاً ما، إلى فريق في الواقع. وقد شبهت الحدائق بحدائق كيو، كما ترى. لقد أنشئت لكي يتجذر قسم من إنجلترا هنا".

"هل تغيرت الحياة بالنسبة إليك وإلى زبائنك منذ نهاية التمييز العنصري؟"

"حسناً، نحن شاعرون كثيراً جداً بالناس المحرومين وكل واحد يعمل أفضل ما عنده لنصير أمة واحدة هي قوس قزح. لقد تغيرت الحياة يقيناً من وجهة نظر الأعمال التجارية. وحين فرضت العقوبات وطبقت، كان قاسية نوعاً ما في هذه البلاد".

"قاسية؟"

"قاسية في الأعمال. كنا معزولين. ومنذ صار المؤتمر الوطني الإفريقي في السلطة، تحسنت الأعمال وهي تزدهر. أعتقد أن الناس ينسون ما كان عليه شأن أمتعة الماضي".

"ما الذي تغير؟"

"المواقف. ليس هناك شك في أن الشركات تريد فعلاً تأكيدياً للعمل: وأنت تعرف، إدخال المديرين السود، ومشاركتهم خبرتنا معهم".

"وماذا عن المشاركة بالثروة، وإعادة توزيعها؟"

"نعم، حسناً... ليست كذلك... أعنى، الشركات المشتركة مثيرة جداً للاهتمام لأن هناك التلاقي معاً، وهناك ثروة في صفوف الناس السود، بشكل واضح".

"هل ترين مطلقاً الجانب الآخر من كيب تاون؟ هل تعرفين مسطحات الكيب، منطقة التمييز العنصري والمناطق المكتظة الفقيرة؟"

"نادراً..".

"يجب أن تعجبي من التناقض بين بيت ضخم مثل هذا، وبين بؤس بيوت الناس غير البعيدة عنه".

"لا أعرف عن التعجب... انظر، في يوم من الأيام، ستكون الطوباوية هي أن يمتلك كل شخص بيته الصغير وقطعته الصغيرة من الأرض، ولكنها ستستغرق زمناً. هناك خطة واضحة في المكان المناسب".

"أنت بعت مارك تاتشر بيته..".

"أوه، نعم!"

"أي نوع من البيت هو؟"

"إنه بيت جميل جداً، إنه من النوع الذي أسميه بيت مدير تنفيذي في القمة. إنه مسقوف بالقش، نعم، ولكنه ليس ما نسميه في هذه البلاد المتجاوز للحدود العادية. وفي الواقع، أن في البيت نوعاً من... جزءاً من المذاق الإفريقي. ولكنه طبعاً ملكية ترف. والأمر، هو أنه كان يريد شيئاً ما حساساً... وأنا كنت مسرورة على وجه الخصوص لمقابلة البارونة تاتشر".

"لقد كانت صديقة عظيمة لشعبك في جنوب إفريقية، على مدى السنوات، أليس كذلك؟"

"أوه، نعم، إنها رائعة، وقد رحبنا بها في نادينا، نادي جبل نيلسون داينرز 100 (مونت نيلسون 100 كلب داينرز). وهو نادٍ للنساء مثل حالتي، نساء أعمال مشغولات..".

"أنت لم تقومي، بأي صدفة، ببيع إيرل سبنسر بيته. هل فعلت؟"

"نعم فعلت ذلك! وكان بيتاً مسقوفاً بالقش أيضاً في طراز إنجليزي وغير رسمي بشكل شديد. وأعتقد أنه سعيد هناك سعادة استثنائية". (بعد بضعة أشهر طلقته زوجته وحصلت على البيت).

"هل نحن في بريطانيا نفقد بعضاً من شخصياتنا المهمة لصالح جنوب إفريقية؟ هل هذا شيء يجب أن نقلق بشأنه؟"

"لا أعتقد ذلك مطلقاً. أعتقد أن الناس يأتون للموسم، إنهم يحبون كيب تاون ويشترون ويستثمرون... أعني، خذ هذا البيت... نعم، إنه بثمانية عشر مليون راند، ولكنه يرتفع تماماً إلى المستوى الإنجليزي. إنه كله مستورد: كل البلوط، والأبواب الجميلة".

"هل يشتاق الناس إلى الأيام القديمة الطيبة قبل 1994؟"

"أوه لا، نحن نحس بعاطفة كاسحة لنكون جزءاً من العالم مرة أخرى! نستطيع أن نذهب إلى أي مكان، إلى أوروبة، في أي مكان، والعبء قد ابتعد عن كواهلنا، لقد ذهبت الوصمة..".

في الطريق إلى شاطئ كليفتون، كانت جزيرة روبن تلمع من مسافة بعيدة. وقالت بام: "هذه هي ريفييرا كيب تاون". وكانت تريد أن تريني "جائزة الممتلكات" التي تخصها، والتي كانت تشرف على الأمواج المتدحرجة بلطف وهي تتكسر على الشاطئ. والمدخل الواقع على الشارع، والذي كان يواجه إفريقية، كان تشكيلاً من قضبان الحديد. وكان البيت مليئاً بالأثاث الأسود الغريب والأثاث المطلي بالذهب.

وقالت لي: "هذا البيت رائع الآن، شاطئك هو حديقتك. وسيذهب في مقابل ثمانين مليون راند، على الأقل". (في العام 2005 ذهب بيت مشابه في مقابل 150 مليون راند.)

وحتى العام 1995، فإن الكثيرين من الأجانب الذين اشتروا أماكن مثل هذه استخدموا "الراندات المالية": وهي راندات مالية كانت قد بيعت بسعر رخيص في أسواق المال في الثمانينيات من1980 من نظام حكم كان يعمل يائساً من أجل اجتذاب الاستثمار وإحباط العقوبات. وهذه الإجراءات كانت تعني أن قيمة الممتلكات كانت قد خفضت تلقائياً بنسبة تصل إلى الثلث، وهو الأمر الذي يجعل المشترين هم المستفيدين من التمييز العنصري مرتين. ومنذ ذلك الوقت، فإن تخفيض قيمة الراند في مقابل الإسترليني قد جعل أملاك جنوب إفريقية تبدو صفقة للمرة الثانية. وزيادة على ذلك، فإن ثروة الملاّك وامتيازاتهم هي الآن مضمونة بالديمقراطية

الجديدة، التي توفر الشرعية: أي، رفع "الوصمة". وبالنسبة إلى السكان المقيمين في كليفتون وكونستانتيا، فإن الحياة لم تتغير. وفي جولتنا، كان العديدون من أغلبية السكان يرون: وهم خدم في طريقهم إلى قلاع الثروة وخارجين منها.

وقالت بام غولدنغ: "هل تعلم أن هذا البيت هو بالفعل محمي من الريح وأن الأثاث الشرقي يأتي معه؟ ضع سيارتك البورش في المرآب فقط، وبسرعة، يكون لديك صفقة مطلقة، استناد حقيقي مقيم بوظيفة مهنية ذات راتب جيد وأسلوب حياة، هنا تماماً في جوهرة إفريقية".[7]

شكرتها وسقت سيارتي نازلاً التل إلى مركز المدينة، على طول طريق دو وال درايف، التي تحاذي أرضاً يباباً وتلتف حولها، ولم أكن قد لحظتها في اليوم الذي وصلت فيه. إنه مكان غريب، وكأن زلزالاً قد ضرب هذه الأرض هناك قبل زمن طويل ثم لم تستصلح الأرض ثانية أبداً. هذه كانت هي المنطقة السادسة.

وكانت كنيسة مورافيا الصغيرة، والمسجد، والكنيستان ما تزال جميعها قائمة، وكان هناك مبنى بلا ملامح هو كلية فنية. وفي ماعدا ذلك، فقد كانت الخطوط المستعصية على الطمس التي مثلت آساس البيوت والشوارع والملاعب ما تزال باقية، ومغطاة بالعشب، مثل موقع هادئ للآثار لم يزعجه أحد. وبعد أن أخليت المنطقة السادسة من مجتمعها، بقيت طوال سنوات عديدة مدينة أشباح. لقد حاول نظام الحكم تنميتها، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على بقاء اهتمام "المطورين" البيض، الذين وجدوا خططهم متوقفة في عدد كبير من التحديات أمام المحاكم. كان هنا شيء ما يوحى بالتحدي، شيء موجود في جذور بيوت الناس وحياتهم، وكأن الأرواح كانت في حالة الاستعداد.

وبالتأكيد، فقد تصاعدت الأصوات من خلف الجبل الطاولة، من المكان الذي ألقي فيه بأصحاب المنطقة السادسة كالنفايات، وهو المكان الذي سماه الكاتب جون ماتشيكيزا "الجانب الأسود من القمر": في أماكن سميت لانغا (الشمس) ونايانغا (القمر)، وأثلون، مانينبيرغ، وغوغوليتيو، وخاييليتشا وسهل

ميتشيلز. هذه كانت مسطحات الكاب (كاب فلاتس)، وفيها حملت الشوارع الأسماء القديمة للمنطقة السادسة – هانوفر بارك، تاين كورت ولافندرهيل – والعائلات الممزقة المذرذرة التي سكن العديدون منها في "مساكن مؤقتة"، كانت تضربها ريح الشمال وتتنابها حالة الخوف الدائمة والحصار والاغتراب.[8]

وولدت منطقة المسطحات الفقر، والمخدرات، والجريمة الخطيرة. وأسماء عصاباتها الآن شائنة سيئة السمعة: "الأمريكيون"، و"المعايش القاسية" و"الصبية المثيرون جنسياً". وكانت سلطة تلك العصابات قد وصلت حداً أدى بفريق كيب تاون، الذي تقدم بطلب لاستضافة الألعاب الأولمبية لعام 2005 ولم ينجح، إلى أن يطلب "المساندة" من العصابات في المحافظة على السلم حين جاءت اللجنة الأولمبية في زيارتها. وبالنسبة إلى كثيرين من الناس، فإن الشرطة قد فقدت الثقة بسبب سلوك رجالها في أثناء سنوات حكم التمييز العنصري حين استخدموا العصابات لتوزيع عقوبة الضرب.

وهكذا فالثقافة التي كانت من قبل ثقافة حية صارت قشرة مشتقة من نفسها. ويمكن للمسطحات (فلاتس) أن تكون لوس أنجيلوس الشرقية، مع رسومها الجدارية التي تثني على الأموات من عصابات الأمريكيين المحبين لموسيقى العنف والهذرمة وأغاني كراهية النساء ورسوم ونقوش "لا تتدخل معي" وموسيقى العنف والهذرمة الكارهة للمرأة وكلام الحي (الغيتو) الأمريكي، مثل التحية بكلمة، "يو" و"... أمك". وقد كتب الصحافي هازل فريدمان يقول إن "تراث المنطقة السادسة، مثل مدينة صوفيا في جوهانيسبيرغ [مجتمع أسود مطرود]، ربما كان تكاملاً ثقافياً في وجه التمييز العنصري. والتراث اليوم هو تراث الدم والدموع مع وجود القليل جداً للموت من أجله والكثير للموت منه. وإذا كان هناك القليل غير ذلك، فيبقى هناك ثقافة الإلهام... للخروج بأي تكلفة".[9]

في 10 كانون الأول/ديسمبر من العام 1994، وهو عام الديمقراطية، افتتح المقيمون السابقون في المنطقة السادسة متحف المنطقة السادسة في البعثة الميثودية المركزية في مركز كيب تاون. ووضعوا على الأرض خريطة عملاقة كتب عليها المقيمون، ومايزالون يكتبون، أسماءهم على البقعة التي كانوا يعيشون فيها. وإلى

جانب ذلك، وفي حزمة على الأرض وهي معلقه من بهو الطابق الأول، توجد لفة من قماش الكتان يكتبون ملاحظاتهم عليها. وقد كتبت إدنا براون: "بوابات الذكريات لا تنغلق أبداً". وفي السبعينيات من 1970 كُلف أحد المسؤولين في المدينة بمهمة أخذ لوحات أسماء الشوارع القديمة المصنوعة من الصفيح والخروج بها إلى خليج الطاولة وقذفها في المحيط الأطلسي، ولكنه بدلاً من ذلك احتفظ بها في بيته، وحين تم الإعلان عن خطط إقامة المتحف، كشف عن مجموعته. وتوجد الآن اللافتات الصدئة معلقة فوق الخريطة إلى جانب شعر لانغستون هيوز*:

استمسكوا بالأحلام بشدة
لأن الأحلام إذا ماتت
صارت الحياة طائراً مهيض الجناح
لا يقوى على الطيران

وفي المتحف، قابلت نور إبراهيم، وهو مسلم كان قد صنف "ملوناً" لأن جده لأبيه كان هندياً وجدته لأمه إسكوتلندية. وقال لي: "كانت المنطقة السادسة رؤية لما كان يمكن أن تكون عليه جنوب إفريقية. وذلك هو السبب الذي دمروها من أجله. لقد بكيت في اليوم الذي جاءت فيه الجرافات". وقد نقل إلى أثلون في المسطحات (الفلاتس) في العام 1975 وأخذ معه حمامات السباق التي كان يملكها. وفي ذلك المساء، كما يستذكر في مذكراته، قصة نور، لم يكن هناك أي أثر يشير إلى طيوره. وبعد ليلة لا نوم فيها، ساق سيارته إلى شارع كاليدون في المنطقة السادسة، وفي هذا المكان "رأيت منظراً هزني حتى أعماقي: حماماتي، كلها 50 حمامة، كانت متجمعة على البقعة الفارغة التي كان يقوم فوقها بيتنا".[10]

بعد العام 1994، تأخرت استعادة المنطقة السادسة نتيجة حدة المرارة في صفوف الناس أنفسهم، الذين انقسموا بين المستأجرين وملاكي الأملاك السابقين المهتمين بالتجديد، وبين المقيمين السابقين ونسل أولئك الذين نقلوا من المنطقة. بمعنى

* لانغستون هيوز (1902 – 1967) كاتب أمريكي أسود. (المترجم)

واحد، كان الموقف هو آخر وقفة للتمييز العنصري.

في 11 شباط/فبراير من العام 2004، تسلم أول مقيمين جديدين في المنطقة السادسة المستصلحة من أعمار 80 عاماً و90 عاماً إبراهيم مرات ودان مدزابيلا مفاتيح بيتيهما الجديدين في شارع الكنيسة الصغيرة (تشابيل ستريت) من الرئيس تابو مبيكي. وكان ذلك التاريخ هو العام الثامن الثلاثون من اليوم الذي أعلن فيه پي. دبليو. بوتا المنطقة السادسة منطقة للبيض فقط وكانت فكرة العودة نفسها قد بدت، لمعظم الناس، حلماً صعب التصديق.

لقد أُرغم ما يقارب 3.5 مليون جنوب إفريقي على الخروج من بيوتهم وأرضهم بين 1960 و1982. وهذا تقدير محافظ. ومعظمهم ما زال ينتظر العدالة والتعويض عن هذه الجريمة التي كانت أطول جريمة ارتكبها التمييز العنصري. ومات عشرات الآلاف من الأطفال حين نزعت ملكية عائلاتهم ومزق شملها بقوة وألم. وقد أخبرني مايكل لابسي، وهو راهب أنغليكاني وعامل نشيط في المؤتمر الوطني الإفريقي. بالقول: "كان لدى جنوب إفريقية حلها النهائي الخاص". وكانت يداه وواحدة من عينيه قد نسفتا برسالةٍ قنبلةٍ من شرطة الأمن.[11] إن الرؤساء فيرورد، وفوستر، وبوتا قد أرسلوا أمة إفريقية كاملة إلى سجن للعمل القسري وبقي مخفياً عن بقية العالم وهو باقٍ إلى حد كبير مخفياً عن التاريخ. فبوتا لم يلاحق أبداً عن جرائمه، وفي وقت كتابة هذا الكلام، يعيش بوتا حياته براحة.

وقد وصلت سياسة "الإزالات" التي اتبعها نظام التمييز العنصري إلى حضيضها مع المهزلة المرعبة عن "البانتوستانات"، وما زعم أنها "أراضي الوطن القبلي" وفيها يمكن أن يستمر "التطوير المنفصل" مع البهارج الزائفة من الحكم الذاتي. وفي العام 1970، أسس قانون مواطنية البانتو عشرة "بانتوستانات" في أجزاء البلاد التي كانت أقلها خصوبة وأشدها بؤساً. ومعظم الناس الذين أرسلوا إلى "أرض الأوطان" هذه لم يكن لهم أي علاقة بها، وفي الوقت نفسه، ألغيت مواطنيتهم في جنوب إفريقية. وكان الهدف النهائي هو ترحيل كل الشعب الأسود من جنوب إفريقية.

ولم تكن "البانتوستانات" مجرد أراضي كب النفايات. كانت مثلها مثل الاحتياطات المحلية التي أقيمت في العام 1913 والعام 1936، مصممة من أجل توفير أرخص عمالة ممكنة. وسمح وجودها – أربعة منها كانت مخصصة باسم "بلاد أجنبية" – للصناعيين البيض بالتظاهر أنهم لا يتحملون أي مسؤولية نحو عمالهم السود، الذين صاروا الآن، وبسرعة "عمالاً مهاجرين". ولم يكن الآن ضرورياً أن يُدفع لهم ولو أقل راتب للمرضى وأقل رواتب التقاعد، دع عنك الدفع من أجل العناية الصحية والمدارس لأطفالهم. وقد كتب باتريك بوند في تكلم يساراً وسر يميناً يقول: "كان الدرس المركزي من هذا الجانب العصيب من سياسة التمييز العنصري هو أن الرأسمالية نهبت مناطق (البانتوستانات) نهباً منهجياً".[12]

في شرق كيب تاون، في منطقة "بانتوستان" سابقة عرفت باسم سيسكي، توجد ديمبازا. وفي كانون الأول/ديسمبر من العام 1967، كُبّت هنا أول سبعين أسرة. وكان على عشرة آلاف نسمة أن يتبعوا، وكان معظمهم من النساء والأطفال المحملين تحميلاً مكتظاً في شاحنات كالحيوانات. ووصلوا في الليل وواجهوا منحدر تلال في مهب الرياح، من دون ماء، ولا كهرباء، ولا مأوى. أحدهم كان ستانلي مبالالا، الذي كان يبلغ الثانية عشرة من العمر. وأخبرني أنه يتذكر غابة صارت حطباً للنار في أثناء الشتاء الأول. وعاش الناس في الخيام وفي بعض الأخواخ المبنية من الخشب مع سطوح من الزنك والأرضيات القذرة. وللواصلين لاحقاً صُنعت صناديق من الأسبيستوس والأسمنت وكانت حارة جداً في الصيف وباردة رطبة في الشتاء وهو ما أدى إلى هلاك الصغار جداً والكبار جداً في هذه الصناديق. وفي العام 1969، شرح هذه السياسة المتحدث نيابة عن رئيس مكتب مندوب شؤون البانتو فقال: "نحن نقوم بإسكان الناس الفائضين عن الحاجة في ديمبازا. فهؤلاء الناس لا يستطيعون تقديم خدمة منتجة في منطقة حضرية".[13]

من الناحية الطبيعية، ديمبازا تسترعي الانتباه. ففي مركزها توجد مقبرة الأطفال، وكأن مجتمعاً كاملاً قد تم ترتيبه حول قبور صغاره، فمعظم الموتى

كانوا من الأطفال الرضع تحت عمر السنتين. ولم تكن هناك شواهد للقبور. هناك لعب بلاستيكية بين الأعشاب والزجاج المهشم من أوعية الورود المبعثرة، وهناك ترعى المواشي الهزيلة. وأنا تعثرت هناك بأنابيب الألمنيوم المرصعة بقطع من الأسمنت المسلح المكسور، التي كانت تستخدم شواهد قبور. على واحد منها خربشة تقول: "العزيز جاك، عمره ستة أشهر، نفتقده بشدة، توفي في 12 آب/أغسطس 1976". معظم الأطفال ماتوا من أمراض كان يمكن منعها، أو أنهم جاعوا حتى ماتوا. خمسمائة طفل على الأقل مدفونون هنا، أو كانوا مدفونين هنا. فقد أخبرني ستانلي أن أمطاراً غزيرة هطلت في السبعينيات من 1970 وجرفت معها الكثير من القبور بعيداً، وظهرت هياكل عظمية صغيرة عند أسفل التل. وقال: "لم يكن لدينا المال قطعياً لعمل أي شيء في هذه الأرض المقدسة".

في العام 1978، صار معسكر الاعتقال الريفي هذا، بحسب كلمات نظام الحكم "خزانة عرض لفرص الاستثمار" (عمالة رخيصة)، وترتيبت المصانع مثل مدرج للمتفرجين يحيط بمقبرة الأطفال. ومنذ ذلك الوقت، أغلقت معظم المصانع أبوابها وصار معظم الناس عاطلين عن العمل. ستانلي، الذي بقي على قيد الحياة، فقد عمله في العام 1996، بعد عامين من حصوله على حق الاقتراع.

علمت لأول مرة عن ديمبازا في العام 1972 بعد قراءة الشعب المنبوذ، بقلم كوسماس ديزموند. وهو صوت مستقل استقلالاً قوياً تحدث لصالح سكان جنوب إفريقية الذين كانوا بلا وطن وبلا أرض. وكان كوسماس في ذلك الحين راهباً ملحقاً من ليفربول في بريطانيا. واختار أن يمكث وترك الرهبانية، ولم يمض وقت طويل حتى ألقي القبض عليه بسبب نشاطه. واليوم، يتابع كوسماس التحدي، كما يقول: "لشعارات القوة، كائناً من كان في السلطة".

في آذار/مارس من العام 1969، انطلق كوسماس ليكشف عن معسكر سجن لأعمال السخرة (غولاغ). سافر أربعة وعشرين ألف ميل، متجولاً جيئة وذهاباً في كل جنوب إفريقية وداخلاً في "عالم خفي... متاهة المجتمعات المحطمة، والعائلات المحطمة والحياة المحطمة التي هي سياسة الإزالات التي أقدمت عليها حكومة جنوب

إفريقية".[14] وفي البداية، واجه صعوبة في تحديد مواقع كانت تدعى "معسكرات إعادة التوطين". وكتب يقول: "إن واحداً من أشد الملامح استثارة للأسى [في الرحلة] هو الجهل، واللامبالاة، والخوف والشك الذي أبداه كثيرون جداً من الناس البيض الذين تحدثت إليهم. وفي الغالب، وعلى سبيل المثال، كان رجال الدين البيض غير واعين حتى بمجرد وجود قرى إعادة التوطين داخل حدود أبرشياتهم، في حين كان آخرون يعرفون عنها ولكنهم لم يروا في ذلك شيئاً خطأً".[15]

في العام 1969، كان أول ثلاثة عشر ألفاً تقريباً من الناس قد كُبوا في لايمهيل في ناتال (هي الآن كوازولو ناتال). ومثلهم مثل أولئك الذين كبوا في ديمبازا، بحسب نظام الحكم، فقد "صاروا، لسبب أو لآخر، غير صالحين بعد ذلك للعمل أو أنهم فائضون في سوق العمالة". وفي كتاب الشعب المنبوذ، وصف كوسماس صدمته لدى رؤيته لايمهيل فقال:

... مكان بائس ومهجور. ليس هناك ما يكفي من الماء ولا ما يكفي من الأرض ولا لمجرد الزراعة اللازمة للعيش الذي يسد الرمق. وليس هناك صناعة ولا عمل في نطاق القدرة على الوصول يومياً. ويكافح السكان ضد المرض على حافة الموت جوعاً. ومن المستحيل القول أيهما هو الأشد إزعاجاً التدهور الجسدي أو التعذيب العقلي من العيش في مثل هذا المكان.[16]

وكذب نظام الحكم بشأن تفشي التيفوئيد، لا بل أنكر أن يكون أي واحد قد مات في "ترحيل المتطوعين". وفي شهر واحد، كما كتب كوسماس، مات ثلاثة وثلاثون شخصاً من الالتهاب المعدي المعوي فقط. وقد صور ستين قبراً جديداً في المقبرة، ومعظمهم كان من الأطفال. "وأنا رأيت الأطفال المصابين بالهزال والحمى ورأيت آباءهم كسيري الأفئدة، وبرغم كل ذلك لم يكن هناك رسمياً أي سبب يدعو للإنذار بالخطر أو للعمل".[17]

بعد ثلاثين عاماً، سافرت مع كوسماس عائداً إلى لايمهيل. وسقنا سيارتنا عبر الريف الذي بدا مقلع حجارة عملاقاً، وعلى بعد كانت تظهر الصور الظلية

لسيارات محطمة ولنساء يسرن صفاً على سرج إحدى التلال، وهن يحملن الماء من المكان الذي كانت تشرب منه المواشي وتلقي فيه ببرازها. والظلال الصغيرة التي مررنا بها على الطريق كانت تخص الأطفال الذين أكدى نموهم وتخص أمهاتهم وهن يمشين، ويحملن. في جنوب إفريقية "الجديدة"، ينتشر نقص التغذية وسوء التغذية على نطاق واسع. ونصف السكان تقريباً يعيشون في فقر، مع اثنين وعشرين مليون نسمة يوصفون بأنهم "يائسون" ومع "5.3 مليون من أطفال جنوب إفريقية يعانون من الجوع". ووفقاً لبرنامج التنمية من الأمم المتحدة، فإن جميع مؤشرات الفقر والبطالة قد أظهرت زيادات ذات مغزى منذ العام 1995. 18 إن لايمهيل شعار يرمز لهذا الحال، مثلما كانت بالنسبة إلى التمييز العنصري.

إن حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي تضمن منحة مساندة للطفل بقيمة 180 رانداً في الشهر تعطى للأطفال الفقراء تحت عمر الرابعة عشرة. وكانت هذه المنحة قد زيدت من 160 رانداً كانت كافية فقط، بحسب التحالف من أجل حق الأطفال في الأمن الاجتماعي، لشراء صرّة صغيرة من السكر، والفاصولياء، والملح، ووجبة ذرة مطحونة، وحليب مجفف، وقالب من السمن،ورغيف خبز، ومرطبان من زبدة الفستق، وأربع علب صغيرة من السمك البحري الصغير، وصرّة من مفروم الصويا، وتفاحة واحدة، وبرتقالة واحدة، وبصلة واحدة وحبة بطاطا واحدة، في كل الشهر.[19]

وبالنسبة إلى الأطفال لكي يكونوا مؤهلين لنيل هذه المنحة، يجب أن يملكوا شهادة ميلاد. وكثيرون من الأطفال الريفيين لا يملكون شهادة ميلاد وتكاليف الحصول على مثل هذه الشهادة – تكاليف الحصول على إفادة كتابية مشفوعة بقسم، وتكاليف السفر إلى أقرب مكتب رعاية – هي تكاليف تفوق دخل الكثيرات من الأمهات، اللواتي يكن عادة المعيلات الوحيدات. ومعظمهن لا يحسنّ قراءة استمارة الطلب، دع عنك إكماله. إنهن خليفات "الشعب المنبوذ".

في تموز/يوليو من العام 2003، أعلنت الجريدة اليومية للحزب، وهي المؤتمر الوطني الإفريقي اليوم، أن "تقدماً ضخماً [هكذا] قد جرى في بناء دولة

ديمقراطية، تعالج الفقر والاهمال، وتضع الاقتصاد على مسار النمو المستدام، وترسخ السلامة والأمن، وتضع جنوب إفريقية في مقدمة تنمية إفريقية والعلاقات الكونية العادلة..".

ويستشهد تشارلز ميث وروزا دياس من جامعة كوازولو ناتال بهذا الزعم في دراستهما، التي تمثل نقطة تحول، وتدور حول الفقر في جنوب إفريقية. وعلى العكس من ذلك، يقولان:

إن ما يقارب أربعة ملايين نسمة التحقوا بصفوف الذين يعيشون في فقر، في المدة 1999—2002. [وهذا يشكل] تقريباً ثلثي عدد الزيادة في السكان في السنوات الثلاث. ومثل هذه النتيجة ليست غير متوقعة، إذا أخذت بالحسبان الزيادة الكبيرة في عدد العاطلين عن العمل... وتبدو مزاعم الحكومة في إنها قد حققت "تقدماً ضخماً في معالجة... الفقر والإهمال" مزاعم ضعيفة نوعاً ما في وجه هذا الصعود الضخم في البؤس الإنساني.[20]

كان المطر يهطل حين وصلنا كوسماس وأنا إلى لايمهيل، وضرب المطر بالقدور والمقلايات التي تراصفت في صف في شوارع الطين. وكان الناس ينتظرون في صف طويل من أجل دورهم عند أنبوب ماء، وكان الكثيرون منهم قد يئسوا وتركوا المكان وذهبوا إلى مكان آخر يستطيعون فيه أن يملؤوا سطولهم بالماء الملوث. لم يكن هناك أن نظافة صحية عامة، وكانت الطاقة الكهربائية تأتي وتنقطع.

قابلَنا رجلٌ يفيض بالحيوية والاحباط، هو سابيلو موليفي، وذلك في مركز لايمهيل للمشورة والموارد. كان يلبس قيمصاً على شكل حرف تي (T) يقول"دعنا نتحادث !" وطوال عام أدار مكتبه من مكان هاتف عملة عام. وقال: "يفترض أن نكون أحراراً، ولكن أين روح الحرية؟ يجب أن يعامل ضحايا الترحيلات القسرية معاملة خاصة فريدة. إن نظام حكم التمييز نفسه في آخر سنواته وعد بالماء المجاني وبالمساكن. والناس هنا الآن واقعون بين فكي ملزمة، فالحكومة ترفض أن

تعطيهم حق الملكية في بيوتهم، ومن دون سند التمليك، لا يستطيعون الاستدانة من المصارف. وهكذا فإن فقرهم مؤكد. وليس ذلك هو ما كانوا قد اقترعوا من أجله".

هناك أناس قال لهم مانديلا حين أطلق سراحه: "إن آمالكم وأحلامكم توشك أن تتحقق". وبالنسبة إلى فقراء جنوب إفريقية الريفيين، وهم أفقر الناس تماماً، كانت الآمال والأحلام تتحى جانباً بشكل منهجي. ويقول دستور المؤتمر الوطني الإفريقي إن التعويض عن الأرض ورد الحقوق يجب أن يعود ليبدأ من تاريخ قانون الأرض في العام 1913، وهو القانون الذي سلب معظم جنوب إفريقية من أكثرية شعبها وأعطاها إلى البيض. وخصص للسود 7 بالمائة فقط من كل الأرض الزراعية – في بلاد لا تكاد تصل نسبة الأرض الصالحة للزراعة إلى 13 بالمائة. ثم أضيفت إليها نسبة 6 بالمائة أخرى في العام 1936. وكان المزارعون البيض آنذاك يمسكون بأكثر من نسبة 86 بالمائة من الأرض الزراعية. وفي العقد الأول من الديمقراطية، كانت نسبة أقل من 4 بالمائة من الأرض الزراعية المملوكة للبيض هي النسبة التي أعيدت.[21]

وقال كوسماس: "إن ما فعله الدستور هو ترسيخ الحق بالملكية الشخصية. وأولئك الذين يمتلكون الأرض منحوا الحق في تحويلها إلى آخر، أو بيعها أو التمسك بها. وللسود الحق في شراء الأرض، ولكن عليهم أن يجدوا شخصاً ما يرغب في بيعها لهم، وهو أمر يضاف كذلك إلى أن عليهم أن يجدوا المال. وذلك يعني أن أقل من ستين ألف مزارع أبيض مازالوا مستمرين في امتلاك أفضل أراضي البلد. وفي الواقع، فإن معظمهم لا يملك الأرض فعلاً، لأن ملكيتهم مرهونة لدى مصرف الأرض، وهو مصرف الحكومة في الأساس. ولو أن الحكومة منعتهم من فك الرهن، لمضي المدد المحددة للدفع، لكانت الأرض قد تم تسليمها. ولكن الحكومة تقول: لا، نحن نحتاج إلى هؤلاء الناس لينتجوا... وفي الحقيقة، فإن معظم زراعتنا تأتي من ثلاثة بالمائة لاغير من الأرض الصالحة للزراعة، وهي مملوكة من مجموعة قليلة من المزارعين التجاريين البيض الأغنياء غنى فاحشاً. تلك هي الكيفية

التي كان عليها النظام تحت التمييز العنصري، تاركاً الريفيين السود أسرى في قبضة الفقر".

حين سقنا سيارتنا نازلين عن الجبل، بعيداً عن أرض الفقراء جداً، كنا نستطيع أن نرى أرض الأغنياء جداً. فالأرض المتقوسة، الغليظة التي كانت تحيط بلايمهيل استسلمت إلى حديقة واسعة مملوكة للبيض، وكأننا حُمِلنا بشكل غامض إلى الحقول الخضراء الموفورة النماء في جنوب إنجلترا.

في أيلول/سبتمبر من العام 2005، قُدّمت دراسة شاملة إلى برلمان جنوب إفريقية وقارنت هذه الدراسة معاملة المزارعين السود الذي كانوا بلا أرض تحت سياسة التمييز العنصري بمعاملتهم اليوم. ففي أثناء العقد الأخير من التمييز العنصري، تم طرد 737.000 نسمة من الأرض الزراعية المملوكة للبيض. وفي العقد الأول من الديمقراطية تم طرد 942.000 نسمة. والنصف تقريباً من أولئك الذين أزيحوا بالقوة كان من الأطفال والثلث منهم تقريباً كان من النساء.[22] وكانت حكومة مانديلا قد سنت قانوناً في العام 1997، هو قانون أمن الحيازة، وكان القصد منه أن يحمي هؤلاء الناس وأن يضع حداً لعمل المياومة والسخرة. في ذلك العام، أخبرني مانديلا بالقول: "لقد عملنا شيئاً ثورياً، ولم نتلق عنه أي اعتراف بالفضل قطعياً. فليس هناك بلد منح فيها العمال المستأجِرون الأمنَ الذي منحناه لهم... فالفلاح لا يستطيع أن يطردهم ".

وثبت أن القانون شكلي. فإن تسعة وتسعين بالمائة من أعمال الطرد لم تصل إلى المحاكم قطعياً. وبعض الفلاحين البيض يستمرون في الإساءة إلى العمال السود بالحصانة التي منحها التمييز العنصري للبيض. في العام 1997، سألت أحد المزارعين، وهو وين كريتسمان، الذي كان يملك آنذاك 920 هكتاراً في ناتال، لماذا استمرت أعمال الطرد، فقال: "إن هؤلاء الناس يملكون عملاً بديلاً، ولكنهم لا يريدونه. وأنا أعطيهم إنذاراً لمدة سنة قبل أن أطردهم".

وسألته: "لماذا تطردهم؟"

"يجب عليهم أن يدفعوا أجرة المسكن الذي يحصلون عليه، وإذا لم يدفعوا، يجب عليك أن تتخلص منهم".

"ولكن مسكنهم أساسي، إذا قلنا أقل ما يقال في هذا. فلماذا تكلفهم بدفع الأجرة عن هذا المسكن في حين أن أجورهم منخفضة جداً؟"

"أنا أدفع رسوم الخدمة. فليست هي مشكلتي إذا كانوا لا يستطيعون الوفاء بهذه الأشياء".

"هناك الآن قانون ضد طرد الناس من دون إمهال".

"انظر، إن الطرد اليوم أسهل مما كان عليه سابقاً".

وجدت مفيندا غيزا يعيش مع عائلته المكونة من ثمانية أفراد في كوخ جدرانه من صناديق ورق مقوى شركة سبار وأرضيته من روث الحيوانات وفيه مدفأة مفتوحة في الوسط. ووصف لنا رحلته من الإقطاع، وقال: "لقد كنت مستخدماً لدى والد المزارع الأبيض. وبقيت هناك أربعين عاماً تقريباً، وقبور عائلتي موجودة على منحدر التل. وحين جاءت الديمقراطية، قررت أن أحسن نفسي، من أجل أسرتي. عدت إلى المدرسة وصرت في النهاية قادراً على القراءة والكتابة بشكل مناسب. واتصلت باتحاد الطعام والعمال المتحالفين، وبدأ الإزعاج حين انتخبت لأكون مستشاراً للمجلس الريفي الانتقالي. لقد قذف بنا جميعنا إلى الخارج، ولا نستطيع أن نصل إلى المزارع ولو لمجرد الرد على رسائل المحامين".

وتقول إحدى النساء الريفيات، في تقرير إلى البرلمان: "لقد قتل زوجي وكان علي أن أغادر لأن المزارع لم يرد نساء من دون أزواج أو آباء لا يستطيعون العمل". وتقول امرأة أخرى: "أراد المزارع الأبيض أن يعتني أطفالي بعنزاته وأغنامه ورفضت، ولذلك ضربني وقال إن علي أن أخرج من المزرعة". وقال واحد من مؤلفي التقرير، وهو، مارك ويجيريف: "إن نزع ملكية سود جنوب إفريقية استمر بكامل شدته في جنوب إفريقية بعد التمييز العنصري... معزِّزاً بذلك ملكية المزارع في أيد أقل".[23]

وينص ميثاق الحرية الخاص بالمؤتمر الوطني الإفريقي على أن "تحديد ملكية الأرض على آساس عرقية سوف ينتهي وسوف تقسم الأرض كلها على أولئك الذين يعملون". وحين جاء المؤتمر الوطني الإفريقي إلى السلطة في العام 1994، أعطيت "أولوية" التعويض ورد الحقوق عن الأراضي نسبة 0.3 بالمائة من الميزانية القومية. وفي العام 2005، كانت النسبة مازالت أقل من 1 بالمائة.24 وحين حضر رئيس زمبابوي، روبرت موغابي، الاحتفال ببدء الفترة الثانية لتابو مبيكي رئيساً لجنوب إفريقية، قدم له الجمهور الأسود ترحيباً حماسياً ونهض الجمهور واقفاً.

وقد لاحظ الكاتب برايان روسترون وقال: "كان هناك مفاجأة ضخمة وخوف كبير في بعض الأوساط، ومع ذلك فربما كان هذا الترحيب تعبيراً رمزياً عن التقدير للقائد الإفريقي الذي يعتقد كثيرون من السود الفقراء، أنه أعطى أولئك البيض الجشعين عقوبة عادلة طال انتظارها أكثر مما هو ترحيب يوافق على استبداد موغابي".

لقد كان إنذاراً أيضاً.[25]

مغارب الشمس في جوهانسبيرغ بهيجة رائعة: إنها تتوهج حمراء كالفرن، ثم تتوهج برتقالياً ويرتسم البرتقالي في ضربات فرشاة عريضة عبر السماء الإفريقية الشاسعة. ويقول المقيمون: "هي مثل ذلك بسبب التلوث والغبار". والمرارة الحلوة لجنوب إفريقية "الجديدة" موجودة دائماً في الفكاهة وهي في الوقت نفسه سخرية من النفس وأسى ساحق للقلب، إذا كانت فكاهة مطلقاً.

حين قابلت إديث فينتر، وهي "شخصية بارزة" في عالم الأزياء في جوهانسبيرغ، كانت تزور مؤسسة الأزياء التي تعمل فيها، وهي الشبان (ذا بويز)، في سوق روزبانك مول. ومن أجل "التجربة"، لبست مجوهرات كانت تقدر بأنها تساوي 100.000 جنيه إسترليني.

وقالت لي: "لقد تم اختياري أفضل امرأة لابسة في جنوب إفريقية، وأنت تعرف، فالناس ينتظرون ليروا ماذا ألبس لأن هناك دائماً شيئاً مختلفاً".

واستفسرت: "أنت لا تملكين خزانة من تلك الخزائن التي كانت لملابس إيميلدا ماركوس، أليس كذلك، وأنت تعرفين، مع كل تلك الأحذية؟"

"نعم، أنا أملك، نعم، أنا أملك. أنا أملك كل الملابس وكل الأحذية. أملك الكثير".

"وهكذا فإن رقماً قياسياً عالمياً آخر قد تم تجاوزه؟"

"بلا أدنى شك".

"لماذا يكون من الصعب أن نجد أي شخص أبيض ساند التمييز العنصري؟"

"جميعنا كنا هناك... وكثير من الناس ساندوه، ولكن لكي تجدهم، فسوف يكون عليك أن تنظر تحت كل سرير وتحت كل شجيرة، وكل صخرة. نعم!... شخصياً، أنا لم أسانده. وأنا شعرت دائماً بأنني غير مرتاحة".

"هل يعرف الناس البيض كيف يعيش الناس السود الآن؟"

وقاطعني واحد من الشبان وقال: "نحن نعرف ولكننا لا نذهب! وأنا أعني، هل أنت مجنون؟"

وقالت إديث: "في الواقع، أنت ستجد كثيراً من الناس السود، الذين يستطيعون أن يحتملوا، وهم الآن انتقلوا إلى مناطق البيض، التي تعتبر خرافية بالنسبة إليهم".

هوتون خرافية بالنسبة إليهم. فهي ضاحية من أغنى الضواحي في جوهانيسبيرغ، وهي لا تنسى لجدرانها: فهي جدران طويلة، وعالية وبيضاء تستحضر إلى الذهن ملاحظة بريتين بريتينباخ حول "دهان نوافذنا بالأبيض لنحتفظ بالليل في الداخل". والخدم الموجودون في كل مكان يسرعون جيئة وذهاباً، وكما في كونستاتيا، فليس هناك أناس بيض في الشوارع. والجدران تعلوها أسلاك كالشفرات، وهي حسب زعمهم اختراع جنوب إفريقي، وتعرض لافتات تقول: "لقد حُذِّرتم – رد فعل مسلح 24 ساعة". وخلفها توجد كلاب ألزاسية كبيرة كالذئاب.

كان مساء ربيعياً مبكراً في سينت ديفيد رود (طريق القديس داوود)، وكان العشب يلمع من رش العديد من الرشاشات في الوقت الذي وصل فيه أوائل الضيوف. وتلاقت سيارات المرسيدس وسيارات بي أم دبليو التي يقودها سواقون ويجلس فيها في الخلف ركاب من ذوي الوجوه السود تلاقت في حفل في حديقة في الرقم 050 وكان معظم الضيوف رجالاً يلبسون بزات الأعمال، ومنهم رجال بيض وسود على حد سواء من الذين يعرف بعضهم بعضاً على ما يبدو وقد تصنعوا دماثة غير مستيقنة عبر الانقسام العرقي القديم. وكانت الحفلة تقام من منظمة تسمى بزنيس ماب (خريطة الأعمال) وهي منظمة تعطي، بحسب كتيبها، "إرشاداً عن... التمكين الاقتصادي الأسود".

وكان ضيف الشرف هو سيريل رامافوسا، الأمين العام السابق للاتحاد الوطني لعمال المناجم، والرجل الذي أمسك مكبر الصوت (الميكرفون) لمانديلا حين أخبر الأمة السوداء في اليوم الذي أطلق فيه سراحه بأن "آمالكم وأحلامكم على وشك أن تحقق". ورامافوسا، الذي كان المفاوض الرئيسي "للحلول الوسط التاريخية" للمؤتمر الوطني الإفريقي، هو الآن رجل أعمال مليونير متعدد الملايين. وحين وصلت إلى مطار جوهانيسبيرغ، كان هناك ملصق ضخم عليه صورة له وهو يبتسم ابتسامة عريضة والكلمات تقول: "سيريل يدعوكم لتشاركونا اهتمامنا في الجعة، والطعام، والأملاك العقارية، والصحف". وكانت هذه إصدار حصة لشركة تسمى استثمارات إفريقية الجديدة. وهي شركة خسرت بعد أن أصدر سيريل دعوته مباشرة أكثر من نصف قيمة حصتها.

وكانت رسالة سيريل على المرج في هوتون هي أن الناس السود كانوا يحتاجون إلى "التقمص الوجداني مع خصومهم السابقين". التقمص الوجداني الآن مع أغنياء رجال الأعمال البيض، ومن أجل تحول سيريل على هذا الشكل الممسوخ فإنه يلقى الثناء والموافقة من البارونة تاتشر: وهي التي وصفت مانديلا سابقاً ومعه المؤتمر الوطني الإفريقي بأنهم "إرهابيون".

سيريل بطل، ويقول بعضهم إنه تجسيد "للتمكين الاقتصادي الأسود" وهو الموضوع الذي يصفه بأنه "فلسفة" لجنوب إفريقية الجديدة. وما تعنيه هذه الفلسفة

هو إدخال مجموعة صغيرة من السود في مؤسسة البناء البيضاء في البلد، وهي التي تستمر في الهيمنة على الحياة الاقتصادية. فمن المصارف إلى التعدين، ومن التصنيع إلى وسائط الإعلام، قامت الشركات المملوكة للبيض، منذ الديمقراطية، بأخذ "شركاء" سود لها. وأبرزهؤلاء الشركاء هم أولئك الذين كانوا أبطال تحرير سابقين، ومعروفين باسم "أرستقراطية الكفاح". وهكذا، فالوجوه السوداء نفسها برزت بسرعة في صور غرفة اجتماع مجلس الإدارة. وهذا الاحتواء سمح للبيض ولرأس المال الأجنبي أن يفي بالتزاماته القانونية تحت مواثيق جديدة للشركات وسمح، وهو الأمر الأكثر أهمية، بكسب الوصول إلى مؤسسة المؤتمر الوطني الإفريقي.

وحين تطرح مناقصة لمشروع تنمية كبير، أو حين يعلن اندماج، فإن المدير الأسود الذي يجلس على رأس الطاولة في الغالب هو الذي يظهر وهو يأخذ المبادرة. والمكافآت جوهرية. فحين ضم مصرف ستاندرد بنك سيريل رامافوسا ومليونيراً آخر ووسيط السلطة للمؤتمر الوطني الإفريقي، ساكي ماكوزوما، فإن الاثنين كسبا كسباً صافياً بالملايين في الملكية الصافية. وروت بزنيس ريبورت أن "شخصين هما غنيان من قبل حصلا لنفسيهما على حصة صغيرة مقبولة في أكبر مصرف في جنوب إفريقية من دون أن يكون عليهما، على ما يبدو، أن يدفعا أي مبالغ نقداً. واستناداً إلى تدفق الأرباح المدفوعة من حصص مصرفهم ستاندرد بنك طوال السنوات الخمس عشرة إلى العشرين القادمة، فهما قد لا يكون عليهما أبداً أن يدفعا أي شيء مطلقاً".[26]

في شهر تشرين ثاني/نوفمبر من العام 2005، أعلن نيكي أوبنهايمر، وهو رئيس شركة دو بيرز، أكبر شركة منتجة للماس في العالم، بيع 26 بالمائة من الشركة إلى مجموعة لتمكين السود، وهي بوناهالو انفسمنت هولندنغز. وقال: "إن دو بيز هنا لتربح، ولكن يجب علينا أن نفيد الناس والمجتمعات التي نشتغل فيها". والناس الذين سيستفيدون فائدة سخية هم بضعة أشخاص من الشخصيات البارزة من المؤتمر الوطني الإفريقي، ومن جملتهم مان ديبيكو، رئيس بوناهالو ورئيس

الوزراء الأسبق في مقاطعة نورثرن كيب (الكيب الشمالي)، الذي كانت حصته 343 مليون راند، وموس ماشيشي، وهو شخصية قيادية تقف خلف اللجنة الأولمبية في جنوب إفريقية، وتشيريل كارولوس، المندوب السامي السابق لجنوب إفريقية في لندن.[27]

وطوال السنوات الخمس الأولى من الديمقراطية، كان نادراً ما يمر أسبوع من دون أن تحتفل مجلة أو صحيفة بالمستفيدين من الطبقة "المُمَكّنة". وتدرج المستفيدون من رامافوسا، وهو الآن واحد من أغنى الأغنياء في جنوب إفريقية، وصهره باتريس موتسيبي، وهو شخص قطب في ميدان التعدين، وبريجيت أخت موتسيبي، وهي أيضاً رجلة* أعمال قوية في التعدين (وهي متزوجة من وزير حكومي من المؤتمر الوطني الإفريقي)، وإلى شخصية أقل شهرة، من مثل تومي موديس، "بارعة المهارة في الأعمال" والتي توصف بأنها "أكثر الرأسماليين في جنوب إفريقية صفاقة وصراحة".

وتومي موجودة في الصفحات الصقيلة من مجلة فمينا (الأنثى) وهي تستند مائلة على سيارتها المرسيدس البيضاء خارج شركتها أفانت – غارد كليننغ (الطليعة للتنظيف)، وهي تقول إن المشكلة مع رفاقها السود، هي أنهم "لا يمتلكون أي أخلاق عمل". وهي لا تدفع إلا الحد الأدنى من الأجر فقط لعاملاتها من النساء، وهي فخورة بأن شدتها في "قتال الشوارع" تبعد الاتحادات.[28]

تابو مبيكي اقتصادي، تدرب في جامعة سسكس. وقبل أن يتسلم الحكم من مانديلا رئيساً، كان قد قال لي إن التمكين الاقتصادي الأسود كان "هدفاً جوهرياً" لجنوب إفريقية الجديدة. وسألته: ولكن لمن؟ فقال: "يجب أن تكون هناك عملية تدريجية. فعلى سبيل المثال، أنا أعتقد أن الشركات الكبرى تفهم ان من مصلحتها أن تَبرز طبقة أعمال سوداء مستقلة أصيلة، بنفس الطريقة، إلى حد كبير، التي ساعدوا فيها على تمكين القوة السياسية الأفريكانية، وذلك عن طريق إدخال الأفريكانيين في الاقتصاد [الذي يهيمن عليه البريطانيون]".

* الرَّجُلة: المرأة. أنظر المعجم الوسيط. (المترجم)

وقلت: "ألم يساعد ذلك الترتيب على مجرد توحيد الأقلية البيضاء في الجور على الأكثرية البيضاء؟"

"نعم، حسناً، أنا أفهم ذلك. دعنا نقل إن اجتثاث العرقية من اقتصاد جنوب إفريقية سوف يستغرق زمناً...

وقلت له إنني قابلت رجل أعمال أسود أخبرني أن شركة بيضاء قد استأجرته ليحصل على المناقصات من الحكومة. ووصف نفسه بأنه لحم الخنزير الأسود في الشطيرة البيضاء، وسألته: "أليست هذه العملية التي تذكرها تدور حول الثراء الشخصي ورموزه سوداء؟"

"ذلك يحدث بالتأكيد. فنحن لدينا كتلة الوجوه البيض الصلبة نفسها التي تأتي لرؤية نيلسون مانديلا. ولذلك فهم يحتاجون إلى وجه أسود معهم. تلك هي الكيفية التي يعمل بها التعيين، وسيكون عليها أن تتغير. نحن نحتاج إلى الوقت، كما ترى".

كان ذلك في العام 1997، ورأى الزمان تعييناً وغنى ينتشر تماماً عبر النخبة السوداء الجديدة. وقال عنوان رئيسي "اليسار ذهب إلى اليمين في الأعمال" وذلك في مجلة أخرى ذات صفحات صقيلة وهي معرض "لرفاق الكفاح" السابقين الذين "يُحضِرون قيماً جديدة وبصائر جديدة إلى قطاع الشركات، ناقلين أخلاقها ومطورين طرقاً جديدة للأعمال ليفاوضوا على تسارعات التحول الاقتصادي لجنوب إفريقية... وهي الحيوية نفسها التي كسرت التمييز العنصري والتي تساعد الآن الأعمال على كسر لغز النمو". هذه الإشارة غير المرتاحة إلى الماضي توافقت مع المواقف التي تشعر بالإحراج شعوراً خفيفاً لأولئك الذين يتفجعون، في بزاتهم المصممة تصميماً جديداً وقمصانهم المخططة الخاصة بالمديريين، "كم كان من الصعب عليهم عبور الخط بين النشاط الكفاحي وبين الأعمال". فهم يتحدثون عن إلهام الفقراء من أجل "العمل باتجاه تحقيق أهدافهم".

وشخص آخر يتحدث أيضاً عن "الأهداف" وعن "القيادة بالقدوة" هو الأمين العام للمؤتمر الوطني الأفريقي كغاليما موتلانثي، الذي يسكن في "بيت ست

أرقام" في غولف الوادي الأزرق (بلو فالي غولف) وعقارات الريف (كنتري إستيت) وهي مناطق، كما يقول موقعها على شبكة المعلومات، تكثر فيها "التأملات في السماوات الكوبالتية، وعقارات البيوت التوسكانية الأنيقة، والسدود والجداول الشفافة". وهي، في الحقيقة، ليست أقل من "ملاذ آمن هادئ" مع ما يخصه من "ميدان غولف مصمم من غاري بلير".[29] وللعقار "بوابة" وهو محاط "بأمن سريع الرد" وبالكلاب.

وهناك القصة المفيدة للسيدة مامفيلا رامفيلي. فحين عُينت في منصب كبير في البنك الدولي كانت قد وصفت بأنها "المثال النموذجي للتمكين الأسود". وهي "امرأة نهضة" من قلب الكفاح ضد التمييز العنصري، وكانت قد أبعدت طوال سبع سنوات بوصفها نشيطة وعي سوداء مع الرفيق/العشيق ستيف بيكو. وفي العام 1999، انتخبت للتعيين في واشنطون. وقال رئيس البنك الدولي: "إنه لأمر تاريخي أن يكون لدينا إفريقية معينة لمنصب المدير".[30]

وفي جنوب إفريقية، تلقى تعيينها جوقة من الثناء في وسائل الإعلام والعالم الجامعي. لقد كانت نائبة رئيس جامعة كيب تاون، وكانت قد نفذت هناك سلسلة من تخفيضات النفقات بين العمال ذوي الرواتب المنخفضة: وهو عمل يعجب به البنك الدولي. فهل كان من منطلق الاحترام لماضيها المتميز أن أحداً لم يتحدث علناً عما عناه فعلاً "تمكينها" الجديد؟ إن التاريخ السيئ السمعة للبنك الدولي في جنوب إفريقية وفي كل أرجاء القارة هو تاريخ موثق. فالبنك الدولي تديره أغنى الحكومات وتهيمن عليه وزارة الخزانة في الولايات المتحدة، وقد أوضح بجلاء أنه "لا بديل" هناك لإفريقية غير "نموذج السوق الحر" الجشع.

وفي العام 1950، في غضون عامين من الإعلان الرسمي للتمييز العنصري، كان البنك الدولي يدعم نظام حكم البيض العنصري التمييزي بقروض ضخمة من أجل البنية التحتية. وعلى سبيل المثال، فإن قروض الطاقة دعمت الطاقة الكهربائية المخصصة للأعمال التجارية والناس البيض فقط. ولم تكن مجزرة شاربفيل في العام 1960 رادعاً، وبعدها مباشرة منح النظام العنصري قرضاً بقيمة 45 مليون

دولار. ومن دعم البنك الدولي لموبوتو القاتل الجماعي في زائير إلى مطالبته الأفارقة أن يدفعوا "دينهم البغيض"* الناجم عن المستبدين الذين ساندهم البنك الدولي، كان البنك الدولي بذلك عميلاً رئيسياً في اضطهاد إفريقية. وبالنسبة إلى مشاريع "تنميته" مثل إمدادات الماء المخصخصة، فإن البنك الدولي اعتبر بتقييمه الخاص الداخلي هو أن 51 بالمائة من مشاريعه الإفريقية باءت بالفشل.

وفي العام الذي عُينت فيه مافيلا رامفيلي، وهو العام 1999، صرح مستشار من البنك الدولي لدى حكومة جنوب إفريقية بأن أجور أفقر العمال في القطاع العام غالية جداً وأوصى ذلك المستشار بألا يدفع للعمال أجر قطعياً وبأن يعطى لهم بدلاً من ذلك "الطعام مقابل العمل".[31] ولا شيء من هذا قطع الترحيبات الحماسية والجمهور واقف. وقد قال صديق من أصدقاء رامفيلي لجريدة صنداي إنديبندنت "إنه توكيد لمُثل الوعي الأسود بأننا نستطيع أن نصل إلى قمة العالم إذا كنا مصممين على ذلك". ومثل إدارة سيريل رامافوسا والبيوت "التوسكانية" الفخمة في غولف الوادي الأزرق وعقارات الريف، فإن الالتحاق بالعدو المؤسسي لإفريقية هو "قمة العالم".[32]

قبل الديمقراطية بزمن طويل احتفت مجلات مثل إيبوني، وتريبيوت، وإنتربرايز بأذواق وبمصالح بورجوازية سوداء كانت بيوتها التي تملك في سوويتو مرآبين للسيارات تُشمل في جولات كان يقوم بها نظام الحكم للأجانب الذين كان يريد أن يؤثر عليهم. ومثل حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي اليوم، فإن نظام حكم التمييز العنصري، في آخر عقد من الزمان له، تفهم قيمة "طبقة وسطى" سوداء بصفتها مخمداً للصدمة في نظام ظالم بشكل وحشي لا نظير له. وطبعاً، لم يكن هناك "وسطى" مطلقاً – وذلك لم يتغير حتى الآن.

بعد أن قوبل بي. دبليو. بوتا في أواسط الثمانينيات من 1980، بمقاومة شعبية متنامية، عرض على رجال الأعمال السود قروضاً سخية من مؤسسة التنمية

* الدّين البغيض في القانون الدولي هو الدين الذي تحمّله نظام الحكم لأغراض لا تخدم مصلحة الدولة. وبموجب هذه العقيدة يعتبر مثل هذا الدين ديناً شخصياً لنظام الحكم الذي تجشمه وليس ديناً في ذمة الدولة.(المترجم)

الصناعية. وهذا ما سمح لهم بإنشاء شركات خارج مناطق "البانتوستانات". وبهذه الطريقة، فإن شركة سوداء مثل نيو إفريقية انفستمنتس ليمتد (استثمارات إفريقية الجديدة المحدودة) كانت قادرة على أن تشتري جزءاً من شركة ميتروبوليتان لايف من مؤسسة سانلان. وفي غضون عقد من الزمان، كان سيريل رامافوسا نائب الرئيس لما كان بالفعل منشأة من إنشاء التمييز العنصري.[33]

وبحسب ما يراه المؤتمر الوطني الإفريقي، فإن الثروة "المتولدة" من المُمكَّنين حديثاً سوف "تجري إلى الأدنى" و"تنشيء الوظائف". ولكن العكس هو ما حدث. وكما برهن الرأسماليون السود فإنهم استطاعوا أن يكونوا بلا رحمة على الدرجة نفسها التي كان عليها سادتهم البيض السابقون في علاقات العمل، وفي المحسوبية للأصدقاء. وملاحقة الربح، وقد فُقِدت مئات آلاف الوظائف في الاندماجات وفي "إعادة الهيكلة". وبين العام 1995 والعام 2000، حين تحرك "الممكَّنون" السود إلى الجيوب البيضاء للثروة والامتيازات، فإن البطالة تضاعفت تقريباً وسقطت أغلبية سكان جنوب إفريقية سقوطاً أعمق في الفقر.[34] وفي الوقت الذي بدأت فيه الفجوة الموجودة بين البيض الأثرياء وبين السود الذين اغتنوا حديثاً تضيق لتنغلق، فإن الخليج الموجود بين الطبقة "الوسطى" السوداء وبين الأغلبية اتسعت اتساعاً لم تكن عليه من قبل قط. والتمييز العنصري الجديد كان تمييز الطبقة، لا تمييز العرق، على الرغم من أن بعضهم سيقول إنه كان مجرد زيادة في الانقسامات الطبقية التي كانت موجودة منذ وقت طويل داخل كل الأعراق.

في السنوات الأولى من الديمقراطية، كان الكثير من الإلهام نحو المحسوبية الجديدة قد أتى من مانديلا نفسه، الذي شكل علاقات شخصية مع رجال الأعمال البيض الأقوياء، بغض النظر عن كونهم قد أثروا في أثناء سنوات التمييز العنصري أم لا. وقد دوّن هذا الموضوع وأرّخ له الكاتب من جنوب إفريقية مارك جيفيسر، ووصف، بجفاف في الغالب، كيف أن مانديلا غذى صحبة "رؤساء الصناعة" واستمتع بها بشكل واضح: بدءاً من هاري أوبنهايمر، قطب التعدين، الذي كان قد عارض مبدأ صوت واحد لرجل واحد، ووصولاً إلى ريموند آكرمان،

رئيس شركة البيع المفرق بك "ن" بي (تخيَّر وادفع) العملاقة، الذي لعب "كرمه" [المانديلا] دوراً جوهرياً في جعل الرئيس ينجز قراراً سريعاً لإضراب شركة بك "ن" بي في العام 1994 بعد أن انتخب الرئيس مباشرة.

وكان هدف مانديلا المباشر هو الحصول على المال للمؤتمر الوطني الإفريقي وللأعمال الخيرية. ومع وجود الرئيس إلى جانب بل فينتر، المليونير المتعدد الملايين، والزوج السابق لإديث، فقد وصف بل فينتر شركته بأنها كانت "باستمرار ملتزمة بحقوق الإنسان وبتمكين الناس المحرومين". وكانت المناسبة افتتاح مكتبة سميت على اسم المقاتل العظيم ضد التمييز العنصري برام فيشر، وهي المكتبة التي قدم لها فينتر المال. وقد علقت ابنة فيشر، روث رايس بالقول: "كانت كلها غريبة نوعاً ما، وكل هذه المادة عن هذا المحب العظيم للأعمال الإنسانية بل فينتر... لقد تركتني أتعجب أين كان يقاتل؟ ولماذا لم أسمع به؟"

وأما بالنسبة إلى مانديلا، فقد كتب جيفيسر،

إنه وضع نفسه بوصفه الراهب – الأب الذي يسمع الاعترافات نوعاً ما للقطاع الخاص: فبخلاف الجنود أو السياسيين، على كل حال، فإن رجال الأعمال لا يحتاجون إلى أن يعترفوا – بأنهم يحتاجون فقط إلى أن يدفعوا المال... إنه لأمر حكيم جداً في الحقيقة... الأطفال يحصلون على المدارس، والناس الريفيون يحصلون على المستوصفات والأعمال التجارية الكبيرة تحصل على مهدئ لضميرها، وتحسين لمحفظة مسؤولية شركتها، والملامسة مرة مع العظمة مع صورة لإثبات ذلك... وبعد أن أعطى برت ويسيلز من تويوتا مسؤولاً في المؤتمر الوطني الإفريقي شيكاً بمبلغ 250.000 راند بعد مناشدة مانديلا لقطاع الأعمال لمساعدة الحزب في التوجه نحو الانتخابات، أعيد الشيك إليه على غداء عمل، من مانديلا نفسه. فلم يكن على ما يبدو كبيراً بما فيه الكفاية.

وقد كتب جيفيسر يقول إن هذا "يحمل مخاطر ضخمة: فقد لايكون مانديلا معروضاً للبيع، ولكن هذا لا يعني أن الأعمال الكبيرة لن تحاول شراءه".[35]

في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2005، أدت جنازة قطب التعدين بريت كيبل في كيب تاون إلى إضاءة ظلال "التمكين الاقتصادي الأسود". فكيبل، الذي كان قد قتل، ربما على يد قاتل محترف مأجور، كان قد أنشأ العديد من شركات الواجهة للتمكين الاقتصادي الأسود. وتم تمويل أكثر من بليون راند في صفقات من شركته في التعدين . جيه سي آي، التي كان قد استقال منها كيبل قبل أن يقتل بوقت قليل. وفي وقت قتله، علقت سوق تداول الأسهم في جنوب إفريقية كلاً من شركة جيه سي آي وشركة أخرى كان يسيطر عليها هي راندغولد ريسورسيس (موارد راندغولد) ورُوي أن أعداداً كبيرة من الحصص كان "مفقوداً"، وفقاً لما جاء في ميل وغارديان جوهانيسبيرغ.[36]

كان كيبل يعقد صفقات مع أشخاص مهمين في المؤتمر الوطني الإفريقي أو بالنيابة عنهم، ومن جملتهم "ذراع الاستثمار" لعصبة شباب المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد شكل أعضاء العصبة حرس شرف في جنازته، وكان كفنه ملفوفاً بالعلم ودوى النشيد الوطني عبر كاتدرائية القديس جورج الرائعة. وكانت مع الجنازة هناك الوجوه المشهورة التي أثرت حديثاً من "أرستقراطية الكفاح". وحضر ممثل عن الرئيس مبيكي، ورئيس وزراء الكيب الغربي، وعمدة كيب تاون، والمتحدث عن البرلمان، وحفنة من أعضاء البرلمان، وحامل السوط* السابق للمؤتمر الوطني الإفريقي، وكان هناك المدانون المحتالون، إلى جانب أعضاء من النخبة البيضاء. ليست أقلهم بام غولدنغ وهي رئيسة السن للممتلكات العقارية، وهي من القلاع التيودورية المغطاة بالقش في كونستانتيا والكامبس بي (خليج المخيمات). وفي خارج الكنيسة، كانت القبضات السوداء ترتفع، والناس ينادون اسم كيبل بالقول "رجلنا الأبيض"، لقد كان في الجنازة كل مسرحية جنازة الثمانينيات من 1980 التي كانت تجري لبطل مقاومة سقط، مثلما روت الميل والغارديان، ولكن القمصان حرف تي T والقبعات (البريهات) تغيرت واستبدل بها زيادات البرجوازية

* حامل السوط: عضو في البرلمان يعهد إليه حزبه بتطبيق الأنظمة الحزبية وبحمل نواب الحزب على حضور الجلسات الهامة. (المترجم)

الجديد: نظارات سوداء من نوع غوشي وبزات تتوافق معها، وبالنسبة إلى النساء، القبعات السوداء الثمينة.[37]

في السبعينيات من 1970، أعلن المؤتمر الوطني الإفريقي: "إنه لملمح أساسي في إستراتيجيتنا أن النصر يجب أن يضم أكثر من الديمقراطية السياسية الشكلية. إن السماح للقوى الاقتصادية الموجودة بأن تحتفظ بمصالحها سليمة... لا يمثل ولا مجرد ظل التحرير".[38] وفي العام 2001، أخبر جورج سوروس منتدى دافوس الاقتصادي العالمي بالقول: "إن جنوب إفريقية في أيدي رأس المال الدولي".[39]

في شتاء جنوب إفريقية من ذلك العام، وقفت هنرييتا مقوكوميسو في خارج بيتها في ناحية مدينة العزل العنصري أليكساندرا في جوهانيسبيرغ. كان الوقت فجراً وكان الجور بارداً برداً قارصاً. وكانت تعرف هي وأطفالها ما الذي سيأتي. لقد رُسِمت على بابها ثلاث شارات صفراء كالصليب، وكان ذلك يعني أن بيتها، وفي غضون ساعات قليلة، سوف يدمر: وهو بيت فيه الكهرباء الثمينة، والماء، وحمام، ومغسلة. ومع آلاف آخرين، سوف تنقل هنرييتا بالقوة إلى بقعة جرداء، وهناك، إن كانت محظوظة، سيكون لها كوخ من دون كهرباء، ولا ماء، ولا حمام، ولا مغسلة. وقالت: "إن التمييز العنصري كان أفضل من هذا".

الإزالات والنقل بالقوة، وهي توقيع التمييز العنصري، شائعة مرة ثانية في جنوب إفريقية. وقد أُعلِمت هنرييتا أن شارعها كان "سيحسن"، ولم يعط لها أي تفسير آخر. فإذا كان نقلها جزءاً من مخطط لإزالة الأحياء الفقيرة المكتظة على طول نهر جوكسكي الملوث، فإن البديل الموحش الذي أعطي لها لم يكن يشكل أي تبرير. فهي لم تستشر ولم يكن هناك أي استئناف، ويبقى النهر ملوثاً.

إن هذا النوع من المعاملة الوحشية، وهي في أسوأ الأحوال، تخريب ممتلكات عامة تقوم به الدولة، أمر لا يختلف كثيراً عن الأعمال التي جرّت من الغرب إدانة الأعمال المخزية لروبرت موغابي في زمبابوي – ولكن ليس في جنوب إفريقية، التي

عـاد فيهـا اسـتثمار رأس المـال الأجنبي إلى المـستويات القياسـية الـتي كـان عليهـا في سنوات التمييز العنصري.

و"البداية الجديدة" المتواضعة التي توقعتها هنرييتا حـين وقفـت تنتظـر لمـدة يـومين تقريبـاً لـتقترع لمانـديلا وللمـؤتمر الـوطني الإفريقـي لم تتجـسد في الواقـع. وهـي تقـول إنها الآن أفقر وأقل أمناً مما كانـت عليـه تحـت التمييـز العنـصري، وهـو رأيٌ كـثيراً ما يسمع في مناطق مدن العزل العنصري.

وفي الوقت الذي ارتفع فيه متوسط دخل الأسـرة البيـضاء بنـسبة 15 بالمائـة، وفقـاً لإحصاءات الحكومة، فإن متوسط دخل الأسـرة السوداء قـد هـبط بنـسبة 19 بالمائـة: وهو نـزول مـن مـستوى معـين مـن الفقـر إلى مـستوى أدنـى. فـواتير الكهربـاء والمـاء قـد ارتفعت ارتفاعاً سـريعاً وهـي الآن تستهلك تقريباً ثلث دخل أفقر العـائلات.[41] ويقـدر أن عشرة ملايين نـسمة قـد عجـزوا عـن الـدفع فقطعـت عـنهم إمـدادات المـاء والكهربـاء. وفي العـام 2004، اتهمـت حركـة النـاس الـذين لا يملكـون أرضـاً الحكومـة بأنهـا تتنكـر وتخلـف في عهـدها "عهـد التحريـر" في إعـادة توزيـع 30 بالمائـة مـن أرض الـبلاد الزراعية من ستين ألف مزارع أبيض إلى الفقراء الريفيين والحضريين. ولكـن الأرض التي نقلت لا تزيد إلا قليلاً على 2 بالمائة في خلال مدة العقد الزمني منذ التحرير.[42]

وقـال ثـابو مبيكـي "سمِّـني تاتـشرياً فقـط". قـال ذلـك في مـؤتمر صـحفي في حزيـران/يونيـو مـن العـام 1996، وفي ذلـك المـؤتمر قـدمت حكومـة المـؤتمر الـوطني الإفريقـي، الـتي كـان عمرهـا قـد بلـغ سـنتين، إسـتراتيجيتها الاقتـصادية المعروفـة بعنـاوين النمـو، والتوظيـف، وإعـادة التوزيـع.[43] وخلـف واجهـة مـن "الثـروة وإنـشاء الوظائف" كانت هذه الإستراتيجية، من كل النواحي مـا عـدا الاسـم، هـي "برنـامج تعديل هيكلي" من البنك الدولي، وفي قيـد العبودية لخطـة تقليديـة (أورثوذوكـسية) تعـرف باسـم "إجمـاع واشـنطون"، وهـي الخطـة الـتي سـبق لهـا أن دمـرت اقتـصادات البلدان الفقيرة في جميع أنحاء العالم، وبشكل ملحوظ بلدان إفريقيـة الواقعـة جنـوب الصحراء.

وفي تلك الخطة سوف تسقط الخدمات العامة في موقع خلف الخصخصة، وفي الغالب في "شراكات عامة – خاصة" وسوف يتلقى الاستثمار الأجنبي "تخفيضات ضريبية" كريمة، وسوف تقوم التعريفات الجمركية المنخفضة بإغراء الواردات الأجنبية، وسيسود التضخم المنخفض فوق الأجور المنخفضة والبطالة العالية (المعروف باسم "مرونة العمالة")، وسوف ترفع الضوابط المفروضة على هروب رأس المال وسوف يتم إخضاع الراند لنزوات "السوق". وفوق كل ذلك، فسوف يتم فرض قواعد المؤسسات واختصاصاتها التي وضعتها الولايات المتحدة والمتعاونون معها – البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. وقد رُفعت التعريفات الجمركية بمعدل أسرع من المعدل الذي حث عليه البنك الدولي، و"توصية" البنك بأن تخصص الحكومة ربع ميزانيتها لتدفع دين التمييز العنصري كانت، كما قال مدير المالية تريفور مانويل، توصية "غير قابلة للتفاوض".

وبدا الأمر وكأن المؤتمر الوطني الإفريقي طمح إلى أن يكون أشد بياضاً من البيض أنفسهم في علاقاته مع حكام العالم. وأما بالنسبة إلى الديمقراطية في الوطن، فلا اللجنة التنفيذية الوطنية للمؤتمر الوطني الإفريقي كانت تستشار، ولا البرلمان، ولا الاتحادات، ولا الجمهور. واستبعد الحلفاء القدامى أو عوملوا معاملة من يقول نحن نعرف أفضل ترتيب للقتال، وأما شريكا المؤتمر الوطني الإفريقي في "الحلف الثلاثي" من الأحزاب وهما مؤتمر اتحادات عمال جنوب إفريقية، والحزب الشيوعي لجنوب إفريقية، فقد أطلعا على العناوين الرئيسية للفصول فقط من أول خطة اقتصادية لجنوب إفريقية الديمقراطية.

وقال مانويل: "نحن نسعى إلى تأسيس بيئة يزدهر فيها الرابحون".[44] وبعد أن تحول مانويل، فمُسِخ من نشيط سياسي طويل الشعر راكب دراجة من مسطحات الكيب (كيب فلاتس)، إلى النموذج نفسه لرأسمالي ولد ثانية، تبجح بعجز منخفض جداً إلى درجة هبط معها تقريباً إلى مستوى الاقتصادات الأوروبية، مع حد أدنى من الصرف العام ليتوافق مع ذلك وتكريس "للنمو الاقتصادي"، وهي كلمة ملطفة غامضة تحل محل تعبير اقتصاد يستلهم الربح.

كان هناك شيء غريب (سريالي) حول كل هذا. هل كانت هذه بلاداً للنشيطين في الشركات يحتفلون فيها بصفقاتهم السرية على صفحات الأعمال الضخمة: من التقانيين المدربين في هارفارد وهم يكسرون ويفتحون الشمبانيا وفق آخر معدل ائتمان من دوف وفيلْبس في نيويورك؟ أم هل كانت بلاداً للمفتقرين فقراً عميقاً من الرجال، والنساء والأطفالْ الذين يعيشون من دون ماء نظيف ولا صحة عامة، ويجري اضطهاد موردها الإنساني غير المحدد وهدره، مع ذلك مرة أخرى؟

أحد رسوم الكارتون المفضلة عندي هو للفنان السياسي العظيم من جنوب إفريقية جوناثان شابير، والرسم عن طفل أسود في منطقة فقيرة مكتظة من مدينة العزل العنصري وهو يقرأ الصفحات المالية لأمه، التي تحاول أن تغسل ملابسهم في حفرة قذرة. وهو يقول: "ستكونين سعيدة بأن تعلمي أن الأساسيات الاقتصادية في المكان الصحيح، بحسب قول المحللين".[45]

كيف حدث هذا؟ قال المحلل الإفريقي بيتر روبنز: "أنا أعتقد أن السبب الذي يكمن خلف ذهاب قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي إلى تفضيل مدخل صندوق النقد الدولي هو أنهم يشعرون بالخجل من أن معظم شعبهم يعيش في العالم الثالث. وهم لا يحبون أن يفكروا بأنفسهم بوصفهم في الغالب في اقتصاد من نوع إفريقي. وهكذا فالتمييز العنصري الاقتصادي حل محل التمييز العنصري القانوني مع العواقب نفسها للشعب نفسه، ومع ذلك فقد وجهت له التحية بوصفه واحداً من أعظم الإنجازات في تاريخ العالم".[46]

في السنوات الأولى لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي، أُخضعت الحكومة "لقصف إيديولوجي كاسح"، كما يصفه الكاتب هين ماريس، مع ضغط "متواصل" من الولايات المتحدة لقبول رسالة "الوفرة من مشاريع البحث التي أطلقها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي".[47] وكان إغواء المؤتمر الوطني الإفريقي وحلفائه جارياً في مجراه بشكل جيد. وقد تساءل باترك بوند في كتابه تحول النخبة، "لماذا شَغلت "المواثيق" و"العقود" و"الاتفاقات" و"العقود الاجتماعية" وما شابهها مثل هذه الطاقة الكبيرة من الحركة الديمقراطية في مطالع التسعينيات

من 1990؟ وكيف يقوم من هم دون الوسط من الباعة المتجولين لليبرالية الجديدة بتملق ومداهنة عدد كبير إلى هذا الحد من القادة السابقين للطبقة العاملة المتميزين بالمواقف القوية ومن المفكرين التقدميين ليصلوا بهم إلى التخلي عن مبادئ أساسية؟"[48]

في البداية، جاهرت قلة بآرائها، فكتبت ماري ميتكالف، وزيرة التعليم في مقاطعة غوتنغ تقول: "المنفعة الوحيدة للنظام غير الموثوق الذي ورثناه هي الفرص التي يوفرها من أجل التغيير الجذري". ووصفت المدارس التي كانت قد "بُنيت عمداً من دون حمامات" و"من دون القدرة على الوصول إلى الماء الجاري ضمن مسافة المشي". ومن أجل كل أربعة مدرسين، كان هناك فصل واحد فقط، ولا توجد أي مكتبة، ولا مختبر، ولا غرفة موظفين، ولا مقاعد. وأخبرتني أن "ما هو صعب هو أن هذه التشويهات التاريخية، تجري معالجتها في ظروف مستحيلة من التقشف المالي... وهو ما يجعل توفير الظروف المقبولةأجأ

للتعليم وللتعلم استحالة مطلقة".

التقشف المالي -"الليبرالية الجديدة"- صارت الآن سياسة. كان محرِّرو جنوب إفريقية قد استنشقوا الهواء الساخن من لغة الشركات، وفي غضون ثلاث سنوات من تولي السلطة، كانت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي تدعى إلى رأس الطاولة في اجتماعات دافوس واجتماعات الثمانية الكبار، وهناك كانت تُقدَّم "إنجازاتها في الاقتصاد الكبير" بوصفها إلهاماً لبقية الإنسانية "النامية". ومن مختصرGEAR (جي ئي إي آر، جير) التي تعني النمو والتوظيف وإعادة التوزيع إلى مختصرات أخرى شنيعة مثل NEPAD (ان ئي بي إي دي، نيباد) وهي الشراكة الاقتصادية الجديدة للنمو الإفريقي. وقد أمر بهذا بوش وبلير، وتم اختراعها في دافوس لتكون إسهام حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي في نشر "الليبرالية الجديدة" في أرجاء إفريقية.

وفي الوطن لم ينس الناس في مناطق مدن العزل العنصري. "فالوعد المستمر" من المؤتمر الوطني الإفريقي كان وعد RDP (آر دي بي) أي، برنامج إعادة الإعمار

والتمية. وكان هذا الوعد واحداً من "التعهدات الرصينة" في بيان الانتخابات الديمقراطية الأولى. وقد اعتبرها الملايين من أبناء جنوب إفريقية، بناء على ميثاق الحرية، إعلاناً عاماً مشرفاً للحقوق التي كانت المنارة لمن رُحِّلوا، ولمن سجنوا، ولمن عذبوا ولجميع أولئك الذين يقاتلون دولة التمييز العنصري.

في نيسان/إبريل من العام 1996، قبل قليل من إعلان النمو والتوظيف وإعادة التوزيع، كان مكتب برنامج إعادة الإعمار والتنمية قد أغلق أبوابه بهدوء وتحولت ميزانيته إلى وزارة المالية وإلى مكتب ثابو مبيكي، نائب الرئيس. وقد أخبرني مستشار في الوزارة بالقول: "من المحزن أنه كان متخلفاً انقضى أوانه". وبعد عامين، وصف برنامج الأمم المتحدة للتنمية، برنامج النمو والتوظيف وإعادة التوزيع بأنه من الناحية الأساسية "غير مختلف" عن الإستراتيجية الاقتصادية لنظام التمييز العنصري قبل عقد مضى من الزمان.[49]

لقد كتب الإفريقي الحالم صاحب الرؤية أميلكار كابرال* يقول: بالنسبة إلى البورجوازية الجديدة في إفريقية فإنها لكي تخدم شعبها عليها أن تقوم "بانتحار طبقي"[50] وبكلمات أخرى، سيكون على البورجوازية الجديدة أن تدير ظهرها إلى إغراءات السلطة: إلى المرسيدسات في الممر الخاص للسيارات، وعضوية المدير، والبيوت "التوسكانية" في غولف الوادي الأزرق وفي عقارات الريف، والتملق للفنيين (التكنوقراط) البيض الواقعين في العبودية لآخر أعلى عبادة للرأسمالية. وسيكون عليهم أن يفكروا بشعبهم أولاً، ولا يفكروا بصفتهم عملاء لقوى هي فوق قدرتهم على السيطرة، بل بصفتهم ممثلين حقيقيين.

وكان هذا في ذهن فرانز فانون حين حذر في كتابه المعذبون في الأرض، من خطر الطبقة الوسطى الجديدة المحررة في إفريقية وهي:

---

* أميلكار كابرال (1924 — 73) مهندس زراعي، وكاتب، وصحافي. ولد في غينيا البرتغالية لوالدين من الرأس الأخضر. تلقى تعليمه في لشبونة في البرتغال التي كانت القوة الاستعمارية في غينيا. عاد من منفاه في أنغولا عام 1956، وخاض حرب عصابات ضد الدولة الاستعمارية وساهم في تشكيل الحركات الطلابية والحزب الإفريقي لاستقلال غينيا والرأس الأخضر واغتيل في عام 1973. وحين استقلت غينيابيساو (1974) صار أخوه رئيساً لها.(المترجم).

تكتشف مهمتها التاريخية: وهي مهمة الوسيط. فرؤيتها لمهمتها من خلال عيونها لا علاقة لها بتحويل الأمة: إن مهمتها تتكون، وبشكل مبتذل، في كون هذه الطبقة خط الانتقال بين الأمة وبين رأسمالية، متفشية جامحة وإن كانت مموهة، وتضع اليوم قناع الاستعمار الجديد. إن البورجوازية [الجديدة] ستكون قانعة تماماً بدور وكيل أعمال البورجوازية الغربية، وسوف تلعب دورها من دون أي عُقد نفسية وبأسلوب هو أكثر الأساليب وقاراً. ولكن هذا الدور نفسه المُدِر للإيراد الوفير، هذه الوظيفة التي يقوم بها البائع المتجول للسلع الرخيصة، وهذه الدناءة في النظرة...هي في الحقيقة بداية النهاية.[51]

هل كانت المسألة ببساطة هي في أن المؤتمر الوطني الإفريقي كان قد بقي في المنفى لمدة طويلة وكان لذلك مستعداً لقبول السلطة بأي ثمن؟ وعلى الرغم من أنه كان هناك من غازل التغيير الجذري، فقد كانت التبشيرية المسيحية، لا الماركسية، هي التي تركت أرسخ علامة لا تمحي على نخبة المؤتمر الوطني الإفريقي في المنفى وفي السجن. وبالتأكيد، فإن مانديلا لم يعبر على ما يبدو تعبيراً واضحاً عن رؤية منسجمة، لم يكن مثل كابرال أو نهرو. لا بل إن ميثاق الحرية الموقر، وهو وثيقة "حقوق إنسان" كان تعبيراً عن ليبرالية مفعمة بالأمل أكثر مما هو مخطط تفصيلي لتحويل مجتمع مضطهد. لقد كانت حركة الوعي الأسود هي التي ألهمت كثيرين من الناس في مناطق مدن العزل العنصري أن يواجهوا الرصاص والغاز المسيل للدموع: وهم الناس الذين كانوا قد أجبروا، منذ العام 1994، على أن يتراجعوا إلى الظلال.

وبقدر ما كانت أحداث شهر شباط/فبراير من العام 1990 مؤثرة دراماتيكية ومفعمة بالأمل – وهي رفع اف. دبليو. دوكليرك الحظر عن المؤتمر الوطني الإفريقي، مع ما تبعه من إطلاق سراح مانديلا من السجن – فإنها أحداث طرحت أسئلة مقلقة للكثيرين في المقاومة. فماذا كانت بدقة الصفقة التي عقدت بين قيادة المؤتمر الوطني الإفريقي وبين بروردربوند(الإخوان الأفركانيين) الفاشية التي كانت واقفة خلف نظام حكم التمييز العنصري؟ وماذا قدم مانديلا ومبيكي والآخرون المنفيون في زامبيا؟ وما هو الدور الذي كان قد لعبه الأمريكيون ورأس المال الدولي؟

في العام 1985، عانى التمييز العنصري كارثتين: انهارت سوق الأسهم في جوهانيسبيرغ وقصَّر نظام الحكم في الوفاء بدَينه الدولي المتزايد. وأصيب رؤساء رأس المال في جنوب إفريقية بالذعر، وفي أيلول/ سبتمبر من ذلك العام قامت مجموعة يقودها غافن ريللي، رئيس الشركة الأنجلو – أمريكية، بمقابلة أوليفر تامبو، رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي، ومسؤولين آخرين في المقاومة، في مفووي، في زامبيا. وكانت رسالتهم هي أن "التحويل" من التمييز العنصري إلى ديمقراطية ليبرالية محكومة من السود كان أمراً ممكناً إذا كان "النظام" و"الاستقرار" مضمونين. وكانت هذه ألفاظ ملطفة للتعبير عن دولة رأسمالية لن تكون فيها العدالة الاجتماعية مضمونة.

إن صفقة قد أُلِّفت معاً في سرية عالية بين شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1987 وشهر أيار/مايو من العام 1990، حين قام مسؤولون من المؤتمر الوطني الإفريقي يقودهم ثابو مبيكي (الذي كان قد حضر اجتماع لوساكا بصفة السكرتير السياسي لتامبو)، بمقابلة عشرين عضواً بارزاً من النخبة الأفريكانية في بيت فخم قرب مدينة باث، في إنجلترا. وحول المدفأة في مللس بارك هاوس، شربوا خمر عنب الموسم والويسكي المصنوعة مع الشعير. ونكتوا حول أكل الأعناب "غير القانونية" من جنوب إفريقية، التي كانت آنئذ خاضعة للمقاطعة في كل أنحاء العالم. وتذكر موف تيريبلاش ذلك بالقول: "إنه عالم متمدن هناك". وهو سمسار أسهم أفريكاني مفرط البدانة وكان صديقاً حميماً لدوكليرك. "إذا تناولت شراباً مع شخص ما وأنت تناقش وتجلس، ثم تجلس ثم تتحدث، ثم تتناول شراباً آخر، فإن كل ذلك يأتي بالتفاهم. حقيقة، لقد صرنا أصدقاء".[52]

وكانت هذه الاجتماعات اللطيفة العشرة سرية جداً إلى الدرجة التي لم يكن أحد قد علم عنها إلا قلة مختارة من المؤتمر الوطني الإفريقي. وخاف مبيكي أن خططه من أجل صفقة – وكان يفضل تعبير "حل وسط تاريخي" – سيرفضها رفاقه الذين يواجهون الغضب الكامل لنظام الحكم في مدن الفصل العنصري بوصفها صفقة بيع. لقد كان هذا قابلاً للفهم نظراً إلى أن المحركات الأولى خلف هذه

الاجتماعات كانوا هم أولئك الذين دعموا التمييز العنصري وانتفعوا منه – من أمثال عملاق التعدين البريطاني كونسوليديتيد غولدفيلدز (حقول الذهب المعززة). وقد التقطت الشركة الفاتورة في مللس بارك هاوس، وهو المكان الذي كان واضحاً فيه أن أهم بند كان ينبغي أن يتقرر حول المدفأة هو النظام الاقتصادي الذي سيرافق "الديمقراطية".

وفي الوقت نفسه، كان مانديلا يدير مفاوضاته الخاصة. وفي العام 1986، نقل من روبن آيلند (جزيرة روبن) إلى سجن بولسمور، وهناك أعطي ثلاث غرف ومنح الفرصة لاستقبال الناس وإكرامهم في خصوصية سرية. وزود بطاه أبيض وقائمة خمور. ثم نقل لاحقاً، إلى بيت آمر السجن الرئيسي في سجن فيكتور فيرستر، وكان فيه هاتف، وناسوخ (فاكس) وبركة سباحة.

وكان هدف نظام الحكم هو شق المؤتمر الوطني الإفريقي بين "المعتدلين" الذين كانوا يستطيعون "الاشتغال بالأعمال التجارية معهم" (مانديلا وتامبو ومبيكي معاً) وبين الأغلبية الذين شكلوا قوة التدمير النهائي وكانوا يقاتلون في الشوارع. وكان واسطة الاتصال الرئيسية لمانديلا مع نظام الحكم هو نيل بارنارد، وهو المؤمن الحقيقي بالتمييز العنصري الذي كان يدير إدارة الاستخبارات الوطنية. وكان بارنارد وزملاؤه يسمون مانديلا "الرجل العجوز"، وهي علاقة انتهازية متبادلة، إذ لم تكن اعتماداً، وقد تطورت ومانديلا يعرض باستمرار تطمينات متكررة بأن البيض ليس لديهم ما يخافونه من تحرير السود. وذهب مانديلا بعيداً إلى حد أنه هاتف بي. دبليو. بوتا في عيد ميلاده.

في 5 تموز/يوليو من العام 1989، أُعطي مانديلا بزة وربطة عنق وحذاء لامعاً وأُخِذ ليقابل "التمساح الكبير" نفسه كما كان يعرف بي. دبليو. بوتا. كان هذا هو الرجل الذي سبب لشعب جنوب إفريقية معاناة هي أكبر من أي معاناة تقريباً سببها أي واحد من المتصلبين المحافظين (المتطرفين أو بالمعنى الحرفي "الضيقين"). وبعد حديث قصير، طالب مانديلا بإطلاق سراح السجناء السياسيين، ورفض بوتا. ولكن التمساح الكبير، مع ذلك، فعل شيئاً كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة إلى

مانديلا. لقد وقف وصب الشاي. وقال مانديلا فيما بعد: "خرجت وأنا أشعر أنني كنت قد قابلت رئيس دولة مبدعاً، حصيف الرأي عاملني بكل الاحترام والكرامة التي كنت أستطيع أن أتوقعها".[53]

وأما دوكليرك، خليفة بوتا، فقابل مانديلا في 13 كانون الأول/ديسمبر من العام 1989. ولكنه لم يصب الشاي. وخلافاً للأساطير المنسوجة حوله، فدو كليرك لم يكن ليبرالياً، أو إصلاحياً. في أثناء الثمانينيات من 1980 كان قد رفض ولو موقف بوتا الذي كان يتطور وناقش ضد مجرد فكرة السود في البرلمان، والرئيس الأسود بالنسبة إليه كان لعنة بغيضة. وتتذكر باتي وولدمير، مراسلة الفاينتشال تايمز، أن دوكليرك في اجتماع عام في 1987، "حث البيض على أن يرفعوا تقارير عن الناس الآخرين من الأعراق الأخرى الذين يعيشون في مناطق بيضاء معزولة — هذا على الرغم من أن الحكومة كانت في ذلك الوقت تغض الطرف إلى حد كبير عن الاندماج غير الرسمي. لقد قاتل دوكليرك ليبقي السود خارج الجامعات البيضاء. وشدد مراراً وتكراراً على التزامه (بحقوق الجماعة)- وهو المبدأ الموجِّه للتمييز العنصري الجديد".[54] لقد كان مبدأ "حقوق الجماعة" هو الذي طالب به المفاوضون البيض في مللس بارك هاوس.

إن ما كان يفرض "الذرائعية" على دوكليرك هو الإشارات القادمة من واشنطون. إن الشركات الأمريكية كانت تضخ 40 بالمائة من النفط الذي وفر الطاقة للتمييز العنصري، وهي التي قدمت الإمدادات من الحواسيب التي أدارت الدولة البوليسية والشاحنات والعربات المدرعة التي كانت تهاجم مناطق مدن العزل العنصري. وفي الأمم المتحدة، كانت الولايات المتحدة قد حمت جنوب إفريقية باستخدام حق النقض ضد قرارات مجلس الأمن المعادية. وحين طور نظام الحكم أسلحة نووية تعامت واشنطون عن ذلك.

وعلى الرغم من أن إدارة ريغان كانت قد منحت دعاة التفوق العنصري البيض كل فائدة من الشك، أي اعتبار الشخص بريئاً حتى يثبت غير ذلك — وهي سياسة معروفة باسم "الاشتباك البناء" — فإن مؤسسة الأعمال الأمريكية قررت في أواسط

الثمانينيات من 1980 أن نظام الحكم كان قد بدأ يصير مسؤولية، تستفز انتفاضة الناس في أهم سوق إفريقية وهو أمر "عكس المطلوب" إنتاجياً. والوثائق الأمريكية التي رفعت عنها السرية توضح ذلك بجلاء. ففي 24 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1985، يصف تقرير سري من الأسرار العليا اجتماعاً للبيت الأبيض الحاجة العاجلة إلى إقامة "مجلس للشركات الأمريكية في جنوب إفريقية" يكون عليه أن يقوم بتنسيق الضغط من الأعمال على بريتوريا كي "تتحرك بعيداً عن التمييز العنصري بسرعة أكبر". وسمح بإعلانات في الصحف على صفحات كاملة، تقول بلغة تختفي تحت حجاب رقيق، إن واشنطون قد حكمت بأن التمييز العنصري صار الآن سيئاً بالنسبة إلى الأعمال.[55]

وفي العام 1985، تذكر بنك تشيز مانهاتن ديونه على جنوب إفريقية وأعلن أنه كان "يتخلص منها"، وتبعه في ذلك آخرون. وأقر مجلس الشيوخ الأمريكي القانون الشامل لمناهضة التمييز العنصري. وحين جاء دوكليرك إلى السلطة في العام 1989، كان رأس المال ينزف بمعدل كبير إلى درجة كانت معها احتياطيات النقد الأجنبي في البلاد لا تكاد تغطي خمسة أسابيع من الواردات. ولا تترك الوثائق التي رفعت عنها السرية مجالاً لأدنى شك في أن دوكليرك وبرودربوند كانوا في حالة إنذار لإنقاذ الرأسمالية في جنوب إفريقية.

في الساعة 4.16 مساء في 11 شباط/فبراير من العام 1990، مشى مانديلا حراً. لقد كان يحتاج إلى أسبوع إضافي في السجن ليعد نفسه، ولكن دوكليرك قال: لا. لقد أخرجوه على عجل. وحين خطا مانديلا إلى شرفة قاعة بلدية مدينة كيب تاون، مد يده ليأخذ نظاراته ولكنه أدرك أنه تركها في السجن. وتحدث، وهو يضع نظارات زوجته، مع وجود سيريل رامافوسا لسنده، إلى الملايين في جنوب إفريقية وفي كل أنحاء العالم. وقال: "الآن هو الوقت لتشديد الكفاح..". وحذر نظام الحكم من أنه إذا استمر عنفه المنسق فإن "الشعب لن يتردد في الرد عليه بالقتال". لقد كان بياناً فخوراً وغاضباً وربما كان أشد خطاب عسكري سبق لمانديلا أن ألقاه.

وفي اليوم الثاني ظهر ليصحح نفسه. وليكرر طمأنة المؤسسة البيضاء بأنه "ليس شيوعياً" وأن حكم الأغلبية لن يؤدي إلى "هيمنة السود على البيض"، وكرر وصفه السابق لدوكليرك بأنه "رجل نزاهة"[56]. وهذا أقلق كثرين في المقاومة، وحين انتشرت الكلمة بأن مانديلا ومبيكي كانا يتفاوضان سراً طوال أكثر من سنتين، انتشرت خيبة الأمل وهلع على نطاق واسع. وتحول هذا الشعور إلى الغضب حين انكشف أن مانديلا كان قد كتب إلى بي. دبليو. بوتا يعرض حماية دستورية خاصة للبيض.

وسألت ثابو مبيكي: "هل تعترف بأن العديدين من الناس نظروا إلى هذا بوصفه خيانة؟"

وأجابني: "لو لم نعمل الحلول الوسط التاريخية لكان هناك حمامات دم ومعاناة كبيرة في كل البلاد".

كان يشير إلى التهديد القادم من "اليمين البعيد". هل وجد مثل هذا التهديد سابقاً؟ إن هزيمة مجموعة مسلحة من فاشيست إي دبليو بي (حركة المقاومة الأفريكانية) حين تراجعوا عن "غزوهم" السخيف لبوفوثاتسوانا قبل انتخابات العام 1994 أشارت إلى فراغ ذلك التهدد. وبالتأكيد، تبين أنه أقل أهمية بكثير، إلى حد بعيد، من أكثر الألاعيب الشريرة خبرة والتي قام بها دو كليرك وزملاؤه. وبالنسبة إلى "المعاناة الكبيرة" التي تم تفاديها، ففي الوقت الذي كان صحيحاً أنه لم تكن هناك حرب أهلية، كانت القرارات السياسية التي اتخذها مانديلا، ومبيكي وصحبهم "المعتدلون"، التي تستبعد حاجات أفقر الناس، قد سمحت باستمرار المعاناة بالاستثناء: التمييز العنصري بوسائل أخرى.

لقد ضُللت الأغلبية السوداء. لقد وعد المؤتمر الوطني الإفريقي أنه بعد أن يصير في الحكومة، فسوف يحترم روح ميثاق الحرية. وكان قد تم تبني برنامج إعادة الإعمار والتنمية بوصفه السياسة الرسمية قبل انتخابات العام 1994. لقد تعهد مانديلا، بأن حكومة التحرير سوف تتولى المسؤولية في المناجم، والمصارف،

والصناعات المحتكرة وأن "التغيير أو التعديل في آرائنا في هذا الخصوص أمران لا يمكن تصورهما".[57] ومع ذلك، ففي رحلات سفره الأولى المنتصرة إلى الخارج، تحدث مانديلا حديثاً مختلفاً جداً إلى جمهور المستمعين من رجال الأعمال.

وقد قال في نيويورك: "إن المؤتمر الوطني الإفريقي سوف يعيد إدخال السوق إلى جنوب إفريقية". ومع تكرار التطمينات من مانديلا، فإن رأس المال الأجنبي، الذي تقوده الشركات الأمريكية، عاد يتدفق إلى جنوب إفريقية، وضاعف حصته إلى ثلاثة أضعاف لتصل إلى 11.7 بليون دولار.[58] وكانت الصفقة التي لا يصح ذكرها هي أن البيض سوف يستبقون لهم السيطرة الاقتصادية في مقابل حكم الأغلبية السوداء: "تاج السلطة السياسية" في مقابل "جوهرة اقتصاد جنوب إفريقية" كما عبر عن ذلك الأستاذ الدكتور علي المزروعي.[59]

طوال مسار ثلاثة أعوام، اتخذت مجموعة صغيرة بضعة قرارات حاسمة وكانت هذه المجموعة حول ثابو مبيكي (الذي كان يشير على مانديلا)، ووزير المال تريفور مانويل ووزير التجارة أليك إروين. وكانت هذه القرارات هي: في العام 1992، إسقاط التأميم، وهو الذي كان عهداً من المؤتمر الوطني الإفريقي كرره مانديلا: وفي العام 1993، المصادقة على موافقة نظام حكم التمييز العنصري على الدخول في الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (غات)، وهي التي سلّمت فعلياً الاستقلال الاقتصادي. وفي العام نفسه، المصادقة على إعادة دفع 25 بليون من الدين الأجنبي الموروث من عصر التمييز العنصري، وعلى منح بنك الاحتياطي الاستقلال الرسمي، وعلى قبول القروض من صندوق النقد الدولي، وفي العام 1995، على إلغاء ضوابط تبادل النقد وهو الأمر الذي سمح للبيض الأثرياء بأخذ رؤوس أموالهم إلى الخارج في ما وراء البحار. وعلى نحو لا يصدق، فإن وزير المال مانويل سمح لاحقاً لأكبر شركات جنوب إفريقية أن تهرب من وطنها المالي وأن تقيم في لندن.

حين قابلت دوكليرك في لندن في العام 1998، سألته إن كانت مخاوف المؤتمر الوطني الإفريقي من حرب أهلية مخاوف مبررة، وسألته عن دوره في إرهاب الدولة الذي سعى إلى تخريب الانتخابات في 1994.

كان يستفيد على نحو جيد من السجائر التي كان يدخنها كالسلسلة. كان يطفئ واحدة ويشعل أخرى، وبدا وكأنه يبتسم. وبدأ وكأنه يبتسم. وبدأ بالقاء سلسلة من الجمل المختصرة التي تبدأ بكلمات مثل "أنا أنكر..". و"أنا لم أعرف شيئاً..".

لقد أنكر أنه كان يعرف أي شيء عن العمليات الإجرامية، الخفية التي أكدتها لجنتان وزاريتان كان هو قد رأسهما. وأنكر معرفته عن زمر الموت في فلاكبلاس، مقر قيادة الأمن الداخلي غستابو جنوب إفريقية، وذلك على الرغم من أن أحد قادتها وهو ديرك كوئتزي كان قد اعترف علناً. وأنكر أنه تسلم رسالة من كوئتزي تنبهه إلى أوامر الاغتيال التي أعطيت باسمه.

وسألته: "كيف يمكن لك ألا تعرف شيئاً، وأنت كنت موجوداً في كل الاجتماعات وكنت مطلعاً على كل التخطيط، وعلى كل الوثائق. أنت كنت رئيس جنوب إفريقية؟"

وقاطعني: "لم أكن أعرف أي شيء".

"عن أي أمر منها؟"

"أي أمر منها".

الدخان والصمت. وأخيراً قال: "أذكرك بأني منحت، مع السيد مانديلا جائزة نوبل للسلام".

وقلت: "إن مانديلا ينظر إليك بصفتك مخادعاً عن عمد، وهو لا يكاد يستطيع النطق باسمك".

هز كتفيه استهجاناً وأخذ نفخة من السيجارة. "هذا أمر يخصه..".

"ويقول مانديلا إنك لم تكن أكثر من رئيس نظام حكم أقلية غير قانوني وغير موثوق، وعنيف".

"يجب أن تفهم أن هناك فرقاً بين غير قانوني وغير مشروع".

"أنت وصفت (التطوير المنفصل) [التمييز العنصري] بأنه (مهمة مثالية)".

"تلك قضية معقدة... وأنا أعتقد أن التاريخ تحرك إلى الأمام. نحن الآن في سلام".

"ألم تربحوا أنت وزملاؤك البيض المؤمنون بالتفوق العرقي فعلاً؟"

تغيرت سيماؤه وكأن حقيقة سرية قد وضعت أمامه. ولوح بيده ليبعد الدخان.

وقلت له: "أنت ضمنت ألاّ يكون على السكان البيض أن يقوموا بعمل تغييرات جوهرية، وفي الحقيقة، كثيرون هم أفضل حالاً، وقوة شركات البيض لم تكن أبداً أقوى سابقاً مما هي عليه الآن".

ورد، وهو يبتسم: "إنه لحق أن حياتنا لم تتغير تغيراً أساسياً. مازلنا نستطيع أن نذهب إلى الكريكيت في نيولاندز ونشاهد الركبي. إننا نسير على ما يرام..".

"بالنسبة إلى الأغلبية، لم يتغير الفقر، هل تغير؟"

ومن الواضح أنه تحمس لهذا النقد الضمني للمؤتمر الوطني الإفريقي ووافق على أن أكثر إنجازاته دواماً كان تسليمه سياسات نظامه الاقتصادية، ومن جملتها حاكم بنك الاحتياطي نفسه، ووزير المالية نفسه في "حكومة الوحدة الوطنية" بعد 1994، وأخوة الشركات نفسها. وتحدث عن السود الذين "يسكنون الآن في بيوت كبيرة" بوصفهم المستفيدين من "العمل الإيجابي".

"أليس ذلك استمراراً للتمييز العنصري بوسائل أخرى؟"

"يجب عليك أن تعرف، أننا الآن حققنا إجماعاً عريضاً على الكثير من الأشياء".

حين سقت سيارتي إلى داخل مدينة العزل العنصري السوداء من مزوبومفيو في الكيب الشرقية كان المنظر أمامي كطيف الأشباح. فالبراميل المحترقة على جانب الطريق تنشر متاهة من خيطان الرماد، والأهرامات الأنيقة من العجلات وطاسات العجلات محروسة من رجال صامتين. وقمامات مبعثرة، متساقطة في شكل سلسلة من شاحنة، تتطاير مع الغبار. وبدا إحساس الفصل كاملاً عن سوق تسوق جنوب

إفريقية "الجديدة". ابتسم الأطفال في ملابسهم المدرسية الموحدة الملونة المكوية، وأما أولئك الذين كانوا أكبر سناً ببضعة أعوام فلم يبتسموا.

وقالت تشارتي كونداي وبدقة شديدة: "كثيرون من الناس هنا لا يملكون مصدراً موثوقاً للعيش والبقاء، ولا أي توقع للعدالة في أشكالها المتنوعة".

وتشارتي معلمة مدرسة، وهي تسكن مقابل المدرسة في بيت هو أصلب من الكثير من البيوت في مزوبومفيو، على الرغم من أنه يستقر على جانب تل يميل مع حركة التربة حين نزول المطر الغزير. جلسنا في كراس كبيرة مريحة في غرفة جلوسها الصغيرة، وصنعت لنا الشاي. وعلى الرف كانت تعرض صور أطفالها، وفي الأغلب صور سيزوي، ابنها، في صور باللونين الأسود والأبيض، وقد خبا اللون وبهت. وظهر ابنها مثل الكثيرين من الشباب في معرض الحزن في غرف جلوس أمهاتهم، من الذين فقدوا من مدة طويلة في "الكفاح".

سيزوي كونداي كان في الرابعة والعشرين حين اختفى ولم ير مرة ثانية أبداً، في وقت راوح بين أيار/مايو وتموز/يوليو من العام 1981. وبصفته شاباً نشيطاً في المؤتمر الوطني الإفريقي، كان قد أخذ إلى محطة شرطة جيفري باي في الكيب الشرقي، وهناك، ادعت شرطة الأمن، أنه حاول أن يقفز من النافذة ويداه مصفدتان خلف ظهره. وقال النقيب ديرك كوئتزي إن زميلاً له قد أخبره "بأنهم أحضروا طبيباً صديقاً [ليرى كونداي]، وأخبرهم أنه كان يوجد دم على الدماغ وأنهم إذا كانوا يريدون أن يتجنبوا حالة ثانية مثل ستيف بيكو، فإنه يتوجب عليهم أن يعملوا شيئاً ما نحو الحالة".

ووصف كوئتزي كيف أنه وزملاءه من "الوحدة الخاصة" فلاكبلاس ساقوا السيارة وأخذوا سيزوي إلى بلومفونتين و"عملوا عرضاً" من عزمهم على إطلاقه. ربطوه إلى شجرة واستخدموا "قطرات فقدان الوعي" لكي "لا يكون عليهم أن ينظروا إليه في عينيه" حين قتلوه. وقال كوئتزي: "أنا قدمت القطرات ووضعناها في شرابه من الجعة أو الشراب البارد. قطرتان تخدرانك، ثماني قطرات تستطيع أن

تقتلك. وبدا كوندايل مشوشاً وفاقداً للاتجاهات. وسقط مستوياً على ظهره. وأطلق عليه أحد الرجال النار في رأسه بمسدس ماكاروف مزود بكاتم للصوت".

ولم يترك أي تفاصيل. وقال لقد حرقت الجثة لمدة سبع ساعات في كوم من الخشب والعجلات. "وكان يجب تدوير العجز والأجزاء العلوية من الرجلين مراراً للتأكد من أنها تحولت إلى رماد". وفي الوقت نفسه، قام هو وزملاؤه بأكل اللحم المشوي وشربوا البراندي والجعة. "يكون من الأسهل الأكل في أثناء احتراق الجثث التي تستغرق سبع ساعات إلى تسع ساعات. وفي كل ميدان كانت واسطة العاملين حفل شواء اللحم والمسكر. والمهام لم تكن مجدولة بخطة، ولكن بعد كل مهمة كنا نعمل حفل شواء لحم. فحين يكون الجندي في حرب يجب عليه أن يأكل".[60]

وقال كوئتزي هذا أمام تشارتي كونداil في صباح أحد أيام الصيف في جلسة استماع أمام هيئة الحقيقة والمصالحة. وكما هو معتاد، افتتحت الإجراءات بتراتيل التسبيح وبعد أن أدى رئيس الأساقفة صلاة لهذه المناسبة. وأشعلت شمعة بيضاء كبيرة، وهي تستدعي طقوساً دينية مسيحية وترمز إلى "استحضار الحقيقة". ثم تقرأ بصوت مسموع أسماء أولئك الذين كانوا من بين القتلى أو المعذبين أو المختفين الذين ستسمع قضاياهم وتفحص في ذلك اليوم. وفي نهاية شهادة تشارتي سئلت، مثلما سئل كل الشهود، إن كانت تستطيع أن تغفر للمجرمين جرائمهم فبقيت صامتة.

لقد قدم اثنان وعشرون ألف شاهد بيّناتهم في جلسات الاستماع أمام الهيئة. وكان أولئك الذين ارتكبوا الجرائم نيابة عن دولة التمييز العنصري قد منحوا العفو إذا استطاعوا أن يقنعوا الهيئة بأن أفعالهم كانت مدفوعة بدوافع سياسية. ومن بين سبعة آلاف من الذين طلبوا العفو أمام الهيئة، كان الثلث فقط ناجحين. وكان النقيب كوئتزي واحداً منهم. وعلى الرغم من أنه كان مداناً بقتل عضو نشيط آخر، فهو اليوم طليق.

وقد كتب المؤرخ توم لودج يقول: "سواء أكان الناس قد قالوا الحقيقة أم لم يقولوها، أو سواء أكان [الضحايا] يستطيعون أن يشعروا بأنفسهم متصالحين مع

معذبيهم السابقين أم لا، فإن هيئة الحقيقة والمصالحة كانت واسطة حاسمة في إعادة بناء السلطة الأخلاقية لدولة جنوب إفريقية، وفي إعادة صنع كيان الأمة".[61]

ومازالت تشارتي كونداايل تنتظر حتى الآن لترى الدليل على "السلطة الأخلاقية للدولة". لقد عرض عليها شكل من أشكال السر المقدس، ولكن لم يعرض عليها أي تعويض. والمبلغ التافه المكون من 30.000 راند (2.700 جنيه إسترليني) ذهب إلى والدة طفل سيزوي. لم تكن هناك أي عدالة. وقالت تشارتي: "ماذا تهم المصالحة لي ولأسرتي؟ والتصالح من أجل من؟ من الذي يقدم التضحيات؟ وكيف يكون من الممكن لضحايا شكل من أشكال إبادة الجنس أن يتصالحوا مع مضطهديهم، الذين لم يعبروا ولو عن أسفهم؟"

وعلى الرغم من أن فكرة الاعتراف كانت قد تلقت القوة من ديزموند توتو، فإن سياسات هيئة الحقيقة والمصالحة انبثقت من صفقات مبيكي وزملائه التي عقدت حول المدفأة في مللس بارك هاوس ومن اجتماعات مانديلا السرية في سجن بولمور. لقد كانت كلمة "المصالحة" هي بند هروب نظام حكم التمييز العنصري.

وسألت تشارتي ماذا كانت ستقول لمانديلا وتوتو، اللذين أصرا على أن العدالة الجنائية لم تكن ضرورية، وأن العفو والمصالحة كانا "كافيين؟"

وأجابت: "يخالج المرء شعور بأن مانديلا لو كان ابنه قد قتل بالطريقة نفسها التي قتل بها أطفالنا، أو لو أن ابن رئيس الأساقفة توتو كان قد قتل، لما كانا كلاهما يتحدثان مثل ذلك الحديث. إن لهما كل الحق أن يغفرا لمعذبيهم ولسجانيهم، ولكنهما لا يملكان أي حق في أن يغفرا لقاتل سيزوي وفي أن يحمياه ويحرما أسرته من العدالة".

"ما هي العدالة بالنسبة إليك؟"

"العدالة هي جلب القتلة إلى المحكمة، ومحاكمتهم، وإدانتهم، ومعاقبتهم. لا أريد لهم أن يشنقوا. ليست هذه هي المسألة. ذلك ليس عدالة: ذلك انتقام".

"بم شعرت وأنت ترين كوئتزي يروي قصته الفظيعة في جلسة الاستماع؟"

"شعرت بالغضب، طبعاً، ولكنني قلت لنفسي: (أنت مقرف) وكل تلك الأقاويل عن محاربة الشيوعية مقرفة محزنة".

"هل سبق لك أن واجهته مطلقاً؟"

"في جلسة العفو أراد أن يقابلني، وأراد كما قال (أن ينظر في عيوني.) وأن يقول كلمة آسف مقرفة. من دون عدالة، كان ذلك إهانة. أنا لا أجالس قاتل ابني، الذي سيخرج طليقاً... هذا الرجل قال إنه حين كان يحرق جسد ابني، كانت الرائحة المنبعثة من اللحم المحترق رائحة طيبة وإنهم كانوا يحتسون الجعة في ذلك الوقت. وكان هذا ما يساوي إلى حدٍ ما أكل لحم البشر، لا بل إلى عبادة الشيطان... قد نحصل على بعض المصالحة في هذه البلاد إذا كان هناك عدالة حقيقية لضحايا المجرمين مثل هذا، وإذا كان هناك عدالة اجتماعية لنا جميعاً، لأننا جميعنا كنا ضحايا".

"كيف تذكرين سيزوي؟"

"كان شاباً يؤمن بمبادئه إيماناً شديداً، وكان واحداً من أولئك الذين لم يتسببوا لنا بأي إزعاج في الأسرة. ولم يكن يحب أي شيء فيه فساد، وأراد دائماً أن يعيش مستقيماً. كان هادئ الحديث، وكان مفكراً. وكان من عادته أن يتحدث عن أنه يجب أن يتقدم إلى الواجهة، وأنت تعرف، خط الجبهة لكفاحنا، لمساعدتنا على أن نكون أحراراً. وطوال تسع سنوات، لم أكن أعرف ما حدث له. لقد تفرست في الوجوه في الشوارع، وكنت دائماً أبحث، وأتشبث بالأمل. وذهبت إلى المكان الذي ظننت أنه قتل فيه وأخذت بعض تراب الأرض، وكنت سعيدة للغاية في أن أسمع من أصدقائه أنه كان قد قال إن أهم شخصين في حياته كانا أمه وأخته. وأنت لا تكون متأكداً أبداً، وحين يحدث شيء مفزع فإنك تتعلق بذلك. إنها ليست عدالة، ولكنها تشفي القلب".

بعد مدة قصيرة من مقابلتي لتشارتي، أُرسل إلي شريط لبرنامج عُرض في التلفاز من قبل مؤسسة جنوب إفريقية للبث، ويدعى شعب جنوب إفريقية. وكان "الضيف الشهير" هو ديرك كوئتزي، وقدمه مضيف العرض بوصفه "القاتل الجدير بالاحترام".

وقال مقدم البرنامج: "وهكذا، يا ديرك، أهلاً، أهلاً".

"شكراً جزيلاً لك. شكراً لك على هذا الشرف في أن أكون في برنامجك وأنا أقدر ذلك".

"ديرك، شرفنا بكل معنى للكلمة. ماذا يمكن أن تقول لشاب يفكر في مسيرة وظيفية في قوات الشرطة؟ أنت تعرف، أن الشاب يقول لنفسه (م م م م، أنا أريد أن أكون شرطيا)".

"أنا أقول، حسناً. إنها مغامرة، إنها مغامرة تحول المرء إلى..".

"مغامرة، إيه؟ حسناً، شكراً لك، يا ديرك!"

لقد منح ديرك كوئتزي العفو عن قتل ستة أشخاص. وهو ليس طليقاً الآن وحسب، بل لقد أعيد توظيفه، في العام 1995، في وكالة الاستخبارات الوطنية لجنوب إفريقية. وتقاعد في العام 2003 وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، يعمل هو لشركة أمنية خاصة في بريتوريا – وهي شركة لتمكين السود. وكان مضيفه المتزلف في محطة التلفاز هو دالي تابو، ابن الراحل أوليفر تابو، رئيس المؤتمر الوطني الإفريقي.

وفي فلاكبلاس، كان القاتل المساعد لكوئتزي هو جو ماماسيلا، الذي تبجح علناً أنه كان يستطيع أن "يتذكر قتل أربعة وأربعين شخصاً". وهو أيضاً طليق حر، بعد أن عمل لإدارة المدعي العام إلى أن تقاعد، على معاش.[62]

في 8 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1997، أخذت سيارة أجرة وذهبت إلى جلسة استماع لهيئة الحقيقة والمصالحة في كيب تاون. لقد كان يوم الجنرالات وما كان يمكن أن يترك. ومن أجل التأهل للحصول على العفو، كان يجب على المتقدمين أن يقدموا كشفاً كاملاً عن جرائمهم وأن يُظهروا أنهم كانوا يتصرفون بتفويض رسمي: كانوا "يتلقون الأوامر فقط". نعم، ولكن بالتأكيد أن جنرالات التمييز العنصري أصدروا الأوامر. ومن خلال ابتسامة خبيثة، قال لي سائق سيارة الأجرة، "أنت تمتع نفسك في الكنيسة، يا رجل".

كان اللواء جوب جوبرت أول من وقف على المنصة. وكان له أنف مسطح لملاكم محترف وعينان مرتبكتان خجلاً كعيني طفل شكس. وبما أن هذا اللواء كان رئيس القوات الخاصة لجنوب إفريقية، فقد كان قاتلاً بامتياز. ولم يكن ضحاياه جنوداً، بل من المدنيين والنشيطين السياسيين. لقد طلب العفو عن قتله لعشرة شباب بالقرب من حدود بوتسوانا، ومنهم الوزير في وزارة بانتوستان بييت نتولي، ونشيط سياسي من المؤتمر الوطني الإفريقي هو الدكتور فابيان ريبيرو وزوجته فلورنس: وفي مجموعهم كانوا ثلاثة عشر قتيلاً.

وقال: "كنت مخولاً السلطة لإرسال قوات لقتل الأعداء المفهومين للدولة وكان ذلك التخويل من رئيس قوات الدفاع، آنئذ الفريق جاني غيلدينهويز".

وسئل: "كيف تم تخويلك السلطة بذلك، يا لواء؟"

"في إحدى الأمسيات في مهمة عمل شرحت الخطة في كلام عام للفريق غيلدينهويز. وأخبرني بأنه كان يعتقد أن الخطة كانت جيدة. وقبلتها بذلك الشكل. وبتلك الملاحظة خولني [هو] سلطة التنفيذ... ومبدأ أن الناس كان يجب أن (يستأصلوا) كان مبدأ (مقبولاً) في أعلى مستوى".

"هل استأصل تعني اقتل؟"

"أعتقد أن علينا أن نكون حريصين جداً حين ننظر إلى كلمة استأصل. فأنا أستطيع أن أستأصل شخصاً بالقبض عليه. وأستطيع أن أحيد شخصاً بالقبض عليه. ويجب التعامل مع كل حالة وفق خصائصها. فإذا كنت تستطيع أن تستأصل شخصاً بألا تقتله فآنئذ تستطيع أن تقبض عليه. وأنا لا أعتقد أن كلمة (استأصل) المقبولة عموماً تعني أقتل".

وبعده جاء اللواء جوهان كوئتزي، المفوض السابق للشرطة، الذي لوح بمعجمين أفريكانيين، أظهرا، كما قال، أن كلمة "استأصل" كانت تعني "نقل" إلى مكان الحجز. وكان يحسب أن مرؤوسيه ربما كانوا قد "أساؤوا فهم المعنى"، لأنهم لم يملكوا المعاجم "لفهم هذه الأنواع من الأشياء".

وبعده جاء اللواء جوهان فان دير ميروي، الذي أعاد كل الموضوع إلى "اختيار مشؤوم للكلمات" ولم يعرف إن كانت كلمة استأصل قد عنت "توصيل رسالة دقيقة". ووافق على أن الناس قد قتلوا، ويا للأسف، لأن الكلمة كانت قد فهمت من "المرؤوسين" بأنها تخول السلطة بالقتل.

واستمر هذا "الحوار" متتابعاً لمعظم جلسات استماع يومين حتى أخذ المنصة العميد وليام شون. وكان يُنظر إلى العميد بوصفه "حجة" في معنى "استأصل" بعد أن كان أدار فلاكبلاس، وهو مقر قيادة زمر الموت لديرك كونتزي وجو ماماسيلا. وبعد أن خرج عن المألوف وكسر المأزق اللغوي قال: "إن كلمات مثل (استأصل) و(تخلص من)... أشارت إلى قتل الناس فقط".[63]

لقد منح الجنرال جوبرت العفو عن قتله ثلاثة عشر شخصاً.

واقتحمت هذه المهزلةَ مناقشةٌ واحدةٌ مؤثرةٌ. وجاءت المهزلة من جاسوس شركة أمن سيئ السمعة، هو كريغ وليامسون، الذي شارك في سلسلة من التفجيرات الإرهابية، ومن جملتها تفجير العام 1992 لمكاتب المؤتمر الوطني الإفريقي في لندن، وعدد من أعمال القتل السياسي. وسأل هذا الرجل، لماذا يتعين على مقترفي جرائم التمييز العنصري أن يتحملوا على كواهلهم كل اللوم؟ وأجاب هو قائلاً: "إن أسلحتنا، وذخيرتنا، وزينا الموحد، وسياراتنا، وأجهزة اتصالاتنا وتجهيزاتنا الأخرى"

كانت كلها قد طورت ووفرت على يد الصناعة. وماليتنا وأعمالنا المصرفية أقامها المصرفيون الذين أعطونا بطاقات ائتمان سرية من أجل العمليات السرية. وقسيسونا صلوا من أجل نصرنا وجامعاتنا علمتنا في الحرب. ودعايتنا حملتها وسائط الإعلام وسادتنا السياسيون حصلوا على التصويت الذي أعادهم إلى السلطة [من البيض] مرة بعد مرة مع أغلبيات متزايدة باستمرار.[64]

لم يطلب أحد من أولئك الذين وردوا في قائمة وليامسون العفو، لأن "عملية المصالحة" لم تتطلب ذلك. وشروط هيئة الحقيقة والمصالحة حُدِّدت تحديداً ضيقاً

لتكون النتيجة أن الحل الوسط السياسي "التاريخي" الذي صنعه المؤتمر الوطني الإفريقي صار حلاً وسطاً أخلاقياً تاريخياً. ولم يسمح فقط لديرك كوئتزي بأن يتبجح عن "مغامراته" على شاشة التلفاز وللجنرالات المدلسين بالدندة حول معنى "استأصل" بل لقد سمح لمعظم بيض جنوب إفريقة ولمؤسساتهم أن يتظاهروا جميعهم، مثل الألمان الطيبين، بأنهم كانوا قد عارضوا التمييز العنصري طوال الوقت. ومع حسٍّ إديث فينتر بالمفارقة الساخرة وبعقدها البالغ ثمنه 100.000 جنيه إسترليني قالت عملياً الشيء نفسه.

وكتب تيري بل في عمل لم ينته: جنوب إفريقية، والتمييز العنصري، والحقيقة، "لم يتم القيام بأي فحص رصين عن النظام الذي أحدث بعضاً من الهندسة الاجتماعية العرقية التي كانت من أشد الأعمال ترويعاً في الأزمنة الحديثة. وبدلاً من ذلك الفحص، كان هناك تركيز على نسبة من الضحايا الفرديين الذين تقدموا بأنفسهم، وعلى معذبيهم المباشرين، وعلى القتلة، وعلى الظالمين المضطهدين. وهذا التكرار المركز تركيزاً ضيقاً على سفك الدماء والوحشية أغمض في الغالب أكثر مما أوضح وجلاً. لقد عُرض التمييز العنصري وكأنه رسم ساخر(كاريكاتور)... [لا] جريمة ضد الإنسانية."[65] ومع ذلك فإن برودربوند الإفريكانية "جعلت طبيعة إدارة التمييز العنصري طبيعة فريدة على ما يرجح". فقد ضمت معظم الساسة الحكوميين القادة، والجنرالات، والقضاة وكبار ضباط الشرطة في التمييز العنصري لجنوب إفريقية. لا بل إن برودربوند لم تفاتح لتظهر أمام الهيئة.[66]

وكانت رسالة "عملية المصالحة" هي أن مقترفي جرائم الدولة لن يعتبروا مطلوبين للمحاسبة ولا مسؤولين، وكانت حصانتهم محمية. وقد كتب محمود منداني، المؤلف والأستاذ الجامعي، يقول: "تخيل أن هيئة الحقيقة كانت قد تعينت في الاتحاد السوفيتي بعد ستالين وأن هذه الهيئة لم تقل أي شيء حول معسكرات الاعتقال (الفولاغ). ما هي الصدقية التي يمكن أن تكون لها؟ والمعادل في جنوب إفريقية لمعسكرات الاعتقال كان يسمى الإزالات القسرية والتي يشكل ضحاياها

3.5 مليون نسمة من المجتمعات التي كانت بلا هوية، لا النشيطين السياسيين الأفراد. إنهم يشكلون كارثة اجتماعية، لا مجرد مأزق سياسي. ألم تكن هذه الإزالات القسرية خروقات فاضحة ضمن الشروط المحددة من القانون؟"[67]

إن معسكرات الاعتقال الريفية في ديمبازا وفي لايمهيل، التي هلك فيها عشرات الآلاف من الأطفال، كانت إنتاج سياسات مكوّنة تكويناً منهجياً حريصاً على أيدي المتعصبين من البرودربوند، ومع ذلك، كما يشير بل، فإن سجلات [البرودربوند] بقيت سليمة. وشعارها (قوتنا تكمن في السرية) تم اتباعه بدقة، وهذا هو ما ضمن أن تاريخها، على خلاف سجلات الدولة، وهو التاريخ الأساسي لنظام معروف باسم التمييز العنصري، لم يكن أبداً تحت التهديد".[68]

وفي 9 و10 حزيران/يونيو من العام 1998، قدم الدكتور شولك جينس فان رينزبيرغ شهادة لهيئة الحقيقة والمصالحة حول مختبر بحوث رودبلات، الذي كان الدكتور في منصب مدير فيه. وكان هذا المختبر سراً من الأسرار العليا، وهو منظمة كانت تدار من العسكريين وهو المختبر الذي طور سموماً قاتلة لتستخدم ضد "أعداء جنوب إفريقية". لقد صنع المختبر متعضيات الكوليرا، والجمرة الخبيثة التي يتعين أن توضع على الطيّات المصمّغة من ظروف الرسائل وفي السجائر، وفي عصي المشي التي كانت تطلق سهاماً قاتلة تعطي شعوراً مثل لسعة نحلة. والاقتباس التالي هو من وثيقة شهادته:

جيرومي تشاسكالسون (عن الهيئة): لماذا لا نأخذ نظرة على واحدة من قوائم مشاريع رودبلات؟ وثيقة هيئة الحقيقة والمصالحة – 30 قد تكون مكاناً مفيداً للبدء.

فان رينزبيرغ: [هذه] قائمة من 163 مشروعاً بدأ بها المختبر في العامين 1985، و1986، وابتداء من العام 1990 فصاعداً. ومن 163 مشروعاً فإن 66 بالمائة اهتمت بإمكانية السموم القاتلة.

تشاسكالسون: هل أستطيع أن أحيلك إلى وثيقة أخرى... في الصفحة الأولى من هذه اللائحة لدينا ثلاث زجاجات من الجعة مع بوتشولاينم وثلاث زجاجات من الجعة مع ثاليوم. ولدينا سكر مع سالمونيللا، ولدينا بعض الويسكي وباراكوات، ولدينا جنين قرد الرباح (البابون)، ولدينا سجائر مع ب – مثبرية، وخمس قطع شكولاتة

قهوة مع ب – مثبرية، وبعض النعنع مع ألديكارب، وشوكولاتات بالنعنع مع السيانيد، والويسكي مع كولشيسين – ويبدو أن اللائحة تستمر على هذا النحو. أتعتبر أن هذه اللائحة يمكن أن تكون قد استخدمت من أجل شكل ما من أشكال البحث العلمي، أم هي لائحة بأسلحة قتل؟

فان رينز بيرغ: هي بلا شك لائحة بأسلحة قتل، ولا قيمة لها في البحث مهما يكن.

تشاسكالسون: يا دكتور، هل أنت واع أن مادتين على الأقل في هذه اللائحة تسببان أزمة قلبية حادة ولهما أيضاً ميزة مبهمة مريبة وهي كونهما لا يمكن تتبع أثرهما؟

فان رينزبيرغ: وتلك ميزة كان الطلب عليها طلباً شديداً للغاية...

تشاسكالسون: هل تستطيع أن تسهب في ذكر الأسباب التي دعتك إلى قول ذلك؟

فان رينزبيرغ: كان أكثر توجيه متكرر [لنا]...هو تطوير شيء ما تستطيع أن تقتل به شخصاً وأن يجعل موته يشبه موتاً طبيعياً، وأن ذلك الشيء كان ينبغي أن يكون غير قابل للكشف عنه في مختبر عادي للطب الشرعي... وكانت هناك حادثة لمنشق أسود كان قميصه قد تلقى لمسة، ربما مع الباروكسون أو مع واحد من سموم الأعصاب، كانت هذه طريقتهم النظامية للتخلص من أولئك الأشخاص، وأعار قميصه إلى صديقه فمات صديقه. [وكانت هناك أيضاً] خطط لتلويث الدواء الذي كان يستخدمه مانديلا بسم معدن ثقيل، وهو الثاليوم. وكان الدكتور باسون [ووتر باسون هو الذي أدار المشروع] قد ذكر أنك إذا أعطيت الجرعة الصحيحة فقط، فإنك تستطيع أن تتسبب بما يبدو أنه تفش لمرض التهاب السحايا أو التهاب المخ. وبهذا الفعل، ذكر أنه في تمرير كان قد أعطى بعض الثاليوم بالفعل– وفي الواقع قال "نحن" – إلى ستيف بيكو.

وقال فان رينزبيرغ إنه تلقى أمراً من الدكتور باسون بأن يطور لقاحاً لجعل السود عقماء. وكان هذا مشروعه الكبير، الذي كان "ضبط السكان" لمكافحة "موجة مد أسود". وكان "الحلم الكبير" في المختبر هو تطوير سلاح حيوي كيماوي

محدد للعرق، "قنبلة سوداء" يكون من شأنها أن تقتل السود أو تضعفهم ولا تفعل ذلك بالبيض. وقال، إن السبب كان هو الخوف من "التمرد والشيوعية". لقد تسلم العمل في المختبر معتقداً أن عمله كان سيحمي جنود جنوب إفريقية ليدافعوا عن بلدهم ضد الشيوعيين.

وقال: "وفي غضون أسبوعين من الالتحاق بالعمل، أدركت أن هذا ليس عملاً دفاعياً، إنه عمل هجومي. لقد كان صدمة لي. وكانت هناك حادثة زعموا فيها أنهم قتلوا شاباً أبيض مجنداً كان مسانداً للمؤتمر الوطني الإفريقي بواسطة مضاهاة عضة الأفعى".

وسئل لماذا لم يترك؟ وأجاب: "إذا غيرت ولاءك فأنت ميت، حقاً؟ فماذا تفعل إذاً؟ تحاول أن تترك بهدوء وعلى أمل أنهم لن يقتلوك". وقال إنني في نهاية المطاف فصلت "بعد أن تمت مواجهتي لباسون بشأن آرائي الليبرالية" – ولكن بعد أن ارتقى إلى مدير المختبرات فقط. 69

وكان فان رينزبيرغ ينتظر ليسمع إن كان قد منح العفو حين رتبت أنا أن أزوره في مزرعته في مقاطعة مبومالانغا، وكانت سابقاً جزءاً من دولة الأورنج الحرة. وكانت أقرب مدينة هي ستاندرتون، التي سمي شارع بييت ريتييف فيها باسم جنرال البوير الذي قتله الزولو، والحصار الكبير في معركة نهر الدم حدث غير بعيد من هناك. وفي فندق توريستو، تعمل "الحانة الخاصة" للبيض فقط، وليس هناك من حاجة إلى لافتات. وهناك ثلاثة محال للرهونات ولافتة جريئة، دائمة على الجسر تقول: "المسيح يحبك".

ومزرعة فان رينزبيرغ تشرف على أرض تنحدر انحداراً شديداً حتى تصل نهر فال. وقال، وكأنه يقول نصف نكتة: "فيما مضى، كان السود إذا جاؤوا فوق تلك التلة، كانوا يتعرضون لإطلاق النار عليهم. والآن، يقتل المزارعون البيض في جميع الاتجاهات هنا". وذكرني قوله هذا "بموجة المد الأسود" التي سبق له أن ذكرها في جلسات الاستماع. رجل ضخم، وهادئ، وصف هيئة الحقيقة والمصالحة بأنها

"طريقة رائعة لتنظيف البلاد من الخفايا غير السارة، ومن الأحقاد، والمظالم، والإشاعات، والمشاعر المتخيلة وغير المتخيلة". كان مفعماً بالأمل على نحو واضح.

"هل وجدت الإدلاء بالشهادة صادماً؟ لقد كنتَ صريحاً".

"نعم، كان ذلك مثل مزج بودنغ، طبق حلو، مع غيمة بعيداً عن كاهليّ [هكذا]. وأنت تعرف، نحن كنا مختبئين... كان هناك تهديد حقيقي بالاغتيال والموت:" كلمة "نحن" كانت تعني هو نفسه، لقد استخدم ضمير جمع المتكلمين استخداماً كثيراً، مثل آخرين كانوا ينشدون العفو عن الجرائم.

"هل حاولت وحذرت أي واحد من الضحايا المتحملين؟"

"لقد حاولت أن أصل إلى رئيس الأساقفة توتو، وأخبره، ولكن ذلك كان صعباً..".

"ماذا كان يتعين أن يحدث لتوتو؟"

"لقد وصلوا إلى بيته وحاولوا أن يلوثوا طعامه، ولكنه بعد ذلك علم بشيء ما ولم يكن يقبل طعاماً ملوثاً كان يعطى له في طائرة. لقد دفعه جانباً وقال: (لست سعيداً بذلك.)

"لماذا عملت في المختبرات؟"

"كانت هناك الجزرة لاتفاقية [راتب] سنوي، وبطاقة السفر وكل ذلك. [وأشار إلى مرسيدس موجودة في مرآبه، كانت قد جاءت مع الوظيفة.] وربما سأكون عاملاً في قضية السرطان".

"ولكنك صرت المدير، تشرف على كل شيء كان يجري هناك".

"حسناً، أنا كنت مدير خدمات المختبر..".

"أحد زملائك الذين أدلوا بشهادتهم قال إنك وافقت معه على معظم العمل الذي كان مكرساً لصنع أسلحة قتل. وأنت أيضاً أخبرت الهيئة بأنك كنت جزءاً من برنامج كان يستهدف خصوبة السود".

"أنت تجد موقفي من الصعب أن ينسجم؟"

"نعم".

"حسناً، لو أنني خرجت وقلت (نعم) للعالم لكنتُ الآن ميتاً".

"كيف يبدو لك الوضع الآن، وأنت تعيش تحت حكومة سوداء، كانت كابوساً لمؤسستك؟"

"تناقض، نعم، تناقض... يجب عليك أن تتذكر، أنا أعرف سوداً وأنا طفل، لقد لعبت معهم، وكنت أعرف أنهم بشر مثلما كنت أنا بشراً".

وفي نهاية المطاف رفضت الهيئة منح العفو للدكتور شالك جانز فان رينزبيرغ. وعلى الرغم من أنه أقر بصنع سموم قتلت الناس، فقد أخبر الهيئة بأنه لم يعرف أبداً بدقة من هم الذين قتلوا بتلك السموم. وكانت القواعد التي تعمل الهيئة بموجبها تقضي بأن العفو يمكن أن يمنح فقط في حالات معينة من الإساءة إلى حقوق الإنسان. ومن الممكن أن يكون الدكتور في يوم من الأيام متهماً بأنه كان متواطئاً مع القتلة، ولكن ذلك غير مرجح. لقد أعطى شهادة من أجل ملاحقة رئيسه السابق في المحكمة، الدكتور ووتر باسون، رئيس البرنامج الكيماوي والحيوي لنظام حكم التمييز العنصري، الذي أنكر كل الخطايا وبرئت ساحته. وبغض النظر عن استعراض الشهود والبينات التي تبدو بلا حدود، فقد صدر الحكم بأنه لا يمكن أن يحاكم من أجل جرائم القتل التي اقترفت خارج البلاد، وعلى نحو ملحوظ في ناميبيا. وباسون، المعروف باسم "د. موت" هو الآن "متحدث حوافز" وهو مطلوب من جماعات من مثل مجلس جنوب إفريقية لنساء الأعمال.

وقرب نهاية حياة هيئة الحقيقة والمصالحة، عقدت ما دعي "جلسات استماع مؤسسية". ودعت في الجلسة الأولى أعضاء قادة من القضاة للإدلاء بشهاداتهم. ولم يستجب ولو قاض واحد. وقال رئيس الأساقفة توتو: "يجب أن أعبر عن كربي". وحين كان على وشك أن ينتقل بالإجراءات إلى المرحلة التالية، ارتقت منصةَ الشهادة شابةٌ محنكة مناهضة للتمييز العنصري، هي بولا ماكبرايد، وألقت مرافعة من نوع إني أتهم لم يكن أحد مهيأً لسماعها. بعد أن كانت قد تزوجت

الناشط السياسي روبرت ماكبرايد وكان من الذين حكم عليهم بالموت في الثمانينات من 1980 في محاولة لإنقاذ حياته [كان قد فجر حانة في ديربان، وقتل شخصين]، وعرفت بولا شيئاً عن التمييز العنصري، وعن القانون، وعن القضاة.

وقالت: "إن القضاة فرضوا تنفيذ كل ناحية من التمييز العنصري من أصغرها وأحقرها إلى أشدها قتلاً وإبادة للجنس. لقد حكموا على الناس بالسجن لأنهم مشوا في شوارع بلدهم الخاص بهم من دون تصريح، ومن أجل استخدام منافع (بيضاء)، ومن أجل حب شخص من اللون الخطأ، ومن أجل محاولة العيش، أو إنشاء عمل خارج الأحياء الخاصة (الغيتوات) والبانتوستانات. لقد أرسلوا الناس إلى المشانق وهم يعرفون معرفة كاملة أنهم لم يكن لهم دفاع مختص. وقبلوا بسعادة بيانات كانت قد حُصّلت بوضوح من خلال التعذيب... وهم أيدوا السرقة الكبرى لبيوت الناس السود ولأراضيهم. وهم عاقبوا خصوم نظامهم – لأنه كان نظامهم – بأقسى سلسلة من الأعمال الوحشية... ومع ذلك، فحتى الآن، نجحوا في المحافظة على السخافة غير المعقولة والدعاية لها وهي أنهم كانوا فوقها كلها نوعاً ما – حياديين".

وبعد أن لاحظت أن قادة حركة التحرير لم يؤمروا بالظهور أمام الهيئة، سألت: "لماذا لم يؤمر القضاة من طرف هيئة الحقيقة والمصالحة ليعللوا ما كانوا قد فعلوه في تاريخنا؟"

واجتمع توتو وأعضاء الهيئة المهتزين في أثناء انفضاض الجلسة للغذاء لمناقشة تحديها. وروت الغارديان أنه "لم يتم التوصل إلى أي قرار، ولكن كان من المعتقد أن العاطفة كانت في صالح مواجهة هيئة القضاء إذا ثبت أن ذلك كان ضرورياً". ولكن لم تصدر أي أوامر استدعاء" ولم تكن هناك أي مواجهة.[70]

نيف وسبعون تقريباً من الشركات، ومنظمات العمل والأفراد قدموا عروضاً مكتوبة. وعكست كلمات بعضها احتقارهم للهيئة. غرفة مناجم التعدين، وهي تمثل أكثر الصناعات طمعاً، وقسوة بلا رحمة، وربحية وقتلاً في العالم، لخصت قرناً من التعدين في جنوب إفريقية في ست صفحات ونصف فقط. وقالت الوثيقة إن

التعدين كان "مساعداً في الأغلب" في تطوير جنوب إفريقية، ووفر التوظيف للناس من "مناطق ريفية عميقة" و"أسهم في النشاط الاقتصادي في تلك المناطق".

الناس السود الجالسون في الشرفة هزوا رؤوسهم، وقال أحدهم: "يا للعار". فالأماكن التي جاء منها رجال التعدين في جنوب إفريقية، من مثل الترانسكي وليسوتو المجاورة، بقيت أكثر المناطق إهمالاً وفقراً على الأرض. فعشرات الآلاف، وربما مئات الآلاف من رجال التعدين وعائلاتهم عذبتهم الآلام الناجمة عن آثار الأمراض المهنية التي بقيت فيهم بلا علاج ومن دون أي تعويض.

وقالت وثيقة غرفة مناجم التعدين: "منذ العام 1960، زادت أجور المستخدمين السود حسب المقياس الحقيقي بنسبة 492 بالمائة". وفي الحقيقة، حتى السبعينيات من 1970، كان يدفع إلى رجال التعدين، بالمقياس الحقيقي، أقل مما كان يدفع لهم في القرن التاسع عشر. والموضوع المفقود من الصفحات الست والنصف هو أي ذكر لتسعة وستين ألف رجل تعدين قتلوا في أثناء العمل، الذي كان يوصف بأنه "خطر" بطبيعته فقط.[71]

وبالنسبة إلى غرفة مناجم التعدين، لم يتغير الكثير في خمسة وثمانين عاماً. ففي العام 1912، صرح رئيسها بالقول: "المطلوب هو بالتأكيد سياسة يجب أن ترسخ بشكل دائم أن ملكية الأرض، ما عدا الاحتياطات الخاصة، يجب أن تكون في أيدي العرق الأبيض، والفائض من الشباب بدلاً من احتلال الأرض في كسل عن العمل... يجب أن يكسبوا معيشتهم بالعمل في مقابل أجر"[72] وفي العام التالي، طرد قانون الأرض الأفارقة إلى "محميات محلية"، وهناك كان عليهم أن يكونوا مصدراً رخيصاً للعمال لصناعة المناجم وللزراعة. و"بيوتات" التعدين، من مثل استطالة الشركة الأنجلو أمريكية، كانت طليعة المجمعات المماثلة للسجون التي استعبدت قوة العمل تقريباً، وسلبت إنسانية رجال التعدين ودمرت أسرهم ومجتمعاتهم.

وبعد أن تم التصديق على مشروعية التمييز العنصري في العام 1948، كانت قوة الشركة الأنجلو أمريكية قوة لا يمكن وقفها. وكان اقتصاد جنوب إفريقية

الصغير نسبياً يمتلك أربعة أعمدة: المجموعات الثلاث المستندة إلى التأمين والشركة الأنجلو أمريكية، وهي بحصصها التي تقرر غالباً نصف التعامل في سوق الأسهم في جوهانيسبيرغ، كانت "الحكم النهائي" لرأسمالية التمييز العنصري. وبالنسبة إلى العالم، روجت الشركة نفسها بوصفها خصماً للتمييز العنصري، وتأسست لها جمعيات خيرية متنوعة ومؤسسات متنوعة لإظهار هذه "الليبرالية".

في أثناء الستينيات من 1960، ازدهر اقتصاد جنوب إفريقية، بغض النظر عن العمل المخزي على مستوى العالم بعد مجزرة شاربفيل في العام 1960. وارتفع الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 9.3 بالمائة، أكثر مما هو في أي بلد في أوروبة أو أمريكا الشمالية. لقد كانت الشركة الأنجلو أمريكية، مع نفوذها العالمي الضخم، هي التي فعلت أكثر العمل لوقف انسحاب الاستثمار الأجنبي في أعقاب شاربفيل وللإنقاذ الفعال للتمييز العنصري.[73]

وفي داخل مجتمع جنوب إفريقية، الشركة ملكية. لقد أسسها السير إرنست أوبنهايمر، والد هاري وخليفة "لوردات الراند"* الذين امتصوا الذهب والماس من جوهانيسبيرغ، ومركز العائلة في برينتهيرست، خمسون هكتاراً مصونة مشذبة في الضواحي الثرية والمحاطة بالجدران من جوهانيسبيرغ. وقد كتب مؤلفو: جنوب إفريقية: هيئة شركة موحدة(آي ان سي)، "لقد كان ميلادهم، وزواجهم، مصدراً لا ينضب لإعجاب وسائل الإعلام".

في أثناء الخمسينيات من 1950، كانت صحف جوهانيسبيرغ تعلن برزانة: "سوف تغادر السيدة هاري أوبنهايمر جوهانيسبيرغ متوجهة إلى لندن في يوم الجمعة، في 18 كانون الأول/يناير... لمرافقة طفليها عائدين إلى المدرسة". وسوف يتذكر البيض في جوهانيسبيرغ لمدة طويلة حفل زواج ماري الأول في العام 1965، حين وقع شغب بين آلاف الناس الذين كانوا يكافحون لنيل لمحة من العروس الشابة، وقد عادت مفعمة بالنشاط من ظهورها الأول في الموسم في لندن. لقد كان هناك 500

* استخدم هذا اللفظ للدلالة على رجال الأعمال الذين سيطروا على مناجم تعدين الماس والذهب في جنوب إفريقية في طوره الطليعي في السبعينيات من 1870 وحتى الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

زجاجة من الشامبانيا من أجل 1000 مدعو، لم يكن واحد منهم إفريقياً... وكانت هدية هاري لصهره سيارة رياضية ماسيراتي ذات بابين (كوبيه)، وهي السيارة الأولى من هذا النوع في إفريقية.[74]

وفي العام 1997، كان ثلاثي الشركة الأنجلو أمريكية يجلس إلى طاولة طويلة مغطاة بقماش أبيض في فندق كارلتون جوهانيسبيرغ، وهو المكان الذي كانت تجتمع فيه هيئة الحقيقة والمصالحة في ذلك اليوم، وثلاثي الشركة الأنجلو أمريكية هو: نيكي أوبنهايمر، حفيد هاري، وبوبي غودسيل وجوليان أوغيلفي – تومبسون. بدوا مسترخين، لا بل شاردي الذهن، وقال غودسيل للهيئة إن التعدين كان "مُنشِئاً للثروة التي نفعت الكثيرين". وبلكنة لغة من عصر قبعات لب الشجر، وصف أوغيلفي تومبسون الشركة الأنجلو أمريكية بأنها "حامل المشعل" ضد التمييز العنصري وقال: "بالتأكيد ما من أحد يريد أن يعاقب النجاح. هل تعتقدون أنتم حقاً أن جنوب إفريقية كان يمكن أن تكون أفضل حالاً لو أن أرنست أوبنهايمر كان قد ذهب إلى أستراليا؟"[75]

وهذه الممانعة نفسها كانت واضحة في مقابلتي مع مايكل سبايسر في وقت جلسة الاستماع. كان سبايسر نائب الرئيس التنفيذي للشركة الأنجلو أميريكية. وتحت حكم التمييز العنصري، لم تشعر الشركة بأي التزام لشرح نفسها علناً. ومع الديمقراطية جاءت "العلاقات العامة"، وولّي المسؤولية سبايسر الهزيل، غير الميال إلى الابتسام.

وقال لي: "أوه، هو أنت، لو علمت أنك أنت لما كنت وافقت على هذه المقابلة".

"لم يكن في الأمر مؤامرة، يا سيد سبايسر. لقد أعطي اسمي إلى سكرتيرك. هل نبدأ؟... لقد قدرت التكلفة الإنسانية لكل طن ذهب استخرج بحياة إنسان واحد واثنتي عشرة إصابة خطيرة..".

"تلك إحصاءات تبعث على الاهتمام الكبير... كل التعدين له مخاطر، وتعدين جنوب إفريقية هو أحفل التعدين بالمخاطر. ما على المرء أن يعمله هو أن يقلل المخاطر

وذلك يتطلب عدداً من التفاعلات: تفاعلات فنية، وتفاعلات إنسانية، وأعتقد، أننا سنقبل الآن بكل سعادة تفاعلات الإدارة/الموظف، والتي ربما لم تكن دائماً قد وجدت إلى الدرجة التي كانت مرغوبة".

واقتبست من تقرير صناعي قال إنه في عام واحد كان لدى الشركة الأنجلو أمريكية أعلى معدل وفيات في تعدين الذهب في جنوب إفريقية.

وقلت: "لا أستطيع أن أجد أي رد من الشركة، هل تود أن ترد الآن؟"

"مؤسف للغاية... مؤسف للغاية... كلمتي النهائية هي أننا مهتمون بشأن سلامة التعدين، نحن نعمل مع الاتحاد، ونحن نعمل كل ما نستطيع..".

واقتبست عن مهندس تعدين حكومي السيد باكيّر: "في كل حادثة تقريباً، يستطيع المرء أن يجد أسباباً داعمة. هناك نقص في الإدارة، والإشراف والتدريب، وهناك إهمال: تطبيق متراخ للمقاييس". وسألت إن كان المهندس قد شرح الموقف خطأ.

"لا، أعتقد أن ذلك بالتأكيد جزء من قضية أوسع بكثير".

"ماذا تعني؟ ما هو رد شركتكم؟"

"لقد أعطيته لك..".

"إن البحث قد أظهر أن ثلث رجال التعدين يعانون مرضاً مهنياً خطيراً، وأنهم ينهون حياتهم بالقليل جداً من التعويض".

"لقد زيدت المبالغ".

"بأي قدر زيدت؟ هل يمكن أن تعطني مثالاً؟"

"لا أملك الأرقام، لا..".

"ألا تجد الأمر غير عادي أن شخصاً في مركزك في شركة تعدين غير قادر على الإجابة عن سؤال بسيط حول تعويض رجال التعدين؟"

"لا أجد ذلك غير عادي مطلقاً"

وعلى نقيض سمعة هاري أوبنهايمر بأنه إصلاحي، وفقاً للكاتب الرسمي لسيرته، أنتوني هوكنغ، فلم يسبق له "أبداً أن شارك في الرأي القائل إن التمييز العنصري خطأ من الناحية الأخلاقية. وفي رأيه، كان في جذره محاولة أمينة للتصدي لمشكلات عرقية كاسحة". وفي العام 1967، قامت مؤسسة جنوب إفريقية، وهي منظمة أعمال كان ينتمي إليها أوبنهايمر، باقتطاع إعلان في صفحة كاملة في جريدة وفيه تتوسل إلى أبناء جنوب إفريقية بأن يتوقفوا عن الاعتذار عن التمييز العنصري وبدلاً من ذلك أن "يحلوا محله نبرة من توكيد الذات الواثقة التي روجت إعلان فرص التمييز العنصري، (التوكيد من الأصل).

وحين تقاعد أوبنهايمر في العام 1982 قال خلفه، غافن ريللي، إنه مثله مثل أوبنهايمر لم يفضل مبدأ "رجل واحد، صوت واحد" لأن ذلك "سيكون ببساطة صيغة للفوضى المطلقة في هذه النقطة من الزمان في تاريخنا".[76] لقد ساند فرْضَ الحالات الشريرة القاسية من الطوارئ بوصفها "ضرورية" من نظام حكم التمييز العنصري في محاولاته للقضاء على الانتفاضة الشعبية.[77]

ومع تقدم الثمانينيات من 1980، وبعد أن تبين أن طرق الاضطهاد القديمة كانت تفشل، ناقش مديرو الشركة الأنجلو أمريكية بشكل خاص خوفهم من أن الشركة سوف "تذكر بوصفها آي. جي. فاربن التمييز العنصري،" وهذه إشارة إلى الشركة الألمانية التي استخدمت عمالة مستعبدة في أثناء الرايخ الثالث وإلى الدور الذي لعبته شركات الأعمال الألمانية في تثبيت النازيين.[78] واليوم، بعد أن نقلت الشركة الأنجلو أمريكية قاعدة حصتها إلى لندن، لم تكن أثرى منها من قبل أبداً. وفي تشرين الأول/أكتوبر من العام 2005، أعلنت الشركة أن حملة أسهمها سوف يتسلمون أرباحاً تصل إلى بليون دولار.[79]

شركات التعدين في جنوب إفريقية استقبلت الديمقراطية وحيّتها بطرد نصف قوة العمل فيها، وكثيرون من الرجال مصابون بأمراض مثل أمراض الرئة الناتجة عن استنشاق غبار السيليكا، ومرض السل، نتيجة الظروف الحارة، المملوءة بالسيليكا، والغبار وغير الصحية في مناجم الذهب. والسعداء هم الذين قد تلقوا

تعويضاً مالياً ضئيلاً. وفي معظم الحالات، تناقصت قدرتهم على المشي وعلى التنفس بسرعة حتى الدرجة التي بدؤوا معها يختنقون. ومعظمهم لا يستطيعون أن يوفروا لأنفسهم خزان أوكسجين ويموتون في الأربعينيات من أعمارهم. وكثيرة هي العائلات التي تكون أحوالها أفقر من أن تدفع تكاليف الدفن.

ولم توفر الشركات أبداً أي بحث وضع عن صحة رجال التعدين، هذا إذا تم القيام بمثل هذا البحث مطلقاً. ولم تجد دراسة أجريت في العام 1997 وضعها الأستاذ الدكتور نيل وايت من جامعة كيب تاون أي انخفاض مهم في مستويات الغبار في مناجم تعدين الذهب في غضون خمسين عاماً، ووجد أن وباء مرض استنشاق السيليكا لا نظير له في أي مكان في العالم.[80]

ويقدر ريتشارد سبور، وهو المحامي الذي قاد الكفاح ضد الشركات من أجل التعويضات، أن خمسمائة ألف رجل من رجال تعدين الذهب أهملوا وتركوا معدمين جداً بعد إصابتهم بمرض استنشاق السيليكا.[81] وقد كتب يقول: "كانت بيوتات التعدين تعرف معرفة كاملة جيدة أن مناجمها كانت تقتل العاملين وتشوههم بمعدل صناعي".

[وهذا] تطلب أن تنتزع إنسانية الناس السود لكي يكون بالإمكان أن يقتلوا وأن يشوهوا من دون إثارة السخط. والإيديولوجيات العنصرية التي كان يجري التحريض عليها وكانت صناعة التعدين تعطيها انتشاراً واسعاً هي التي ساعدت على الوصول إلى هذه النتائج. وتطلبت كذلك، أن تقوم الصناعة، بالتعاون مع دولة التمييز العنصري، بابتكار نظام قانوني من دون تكلفة أو عواقب قانونية... من شأنه أن ينعم بالحصانة المدنية على أرباب العمل.[82]

في السنوات الأولى من الديمقراطية، حين كان الحديث مازال جارياً عن التأميم وعن الوعود الأخرى في وثيقة الحرية، أضيفت أسماء "شركاء" التمكين*

* التمكين في علم الإدارة يشير إلى المشاركة القيادية أو الإدارية التي تمنح للعمال في مؤسسة. أما في علم الاجتماع فتشير إلى أعضاء الجماعات التي استثنتها عمليات التمييز الاجتماعي من المشاركة في اتخاذ القرارات، من خلال التمييز على أساس لعنصر، والعرق، والدين، والجنس. مثل تمكين المرأة، مثلاً. ولهذ التعبير معاني أخرى. (المترجم)

من السود إلى مجالس المديرين في شركات التعدين. ولم تكن وظيفتهم مجرد أن يدردشوا مع الحكومة السوداء الجديدة، بل أن يقنّعوا أيضاً نظام الحصانة الذي تمتعون به. فالموت من مرض مهني، يصنف اليوم، في جنوب إفريقية بأنه موت "طبيعي" – خلافاً لبريطانيا، التي يتم فيها تحقيق رسمي في الوفيات ويتقرر بموجب التحقيق على من يلقى اللوم، ثم يتبع ذلك دفع التعويض. ولم تظهر الحكومة اهتماماً حقيقياً في العدالة لرجال التعدين، وكأن في الأمر إحراجاً.

وكتب سبور يقول: "وعلى الرغم من أن آلاف العمال يموتون في كل عام نتيجة مباشرة لتعرضهم إلى مستويات شديدة جداً من الغبار في المناجم، فلم يجر سابقاً أي تحقيق رسمي في أي حالة من هذه الوفيات، ولم يجر أي سؤال رسمي مطلقاً عن سبب أي وفاة من هذه الوفيات، ولم يلاحق قضائياً أي رب عمل مطلقاً من أجل تعريض عماله إلى كميات مؤذية من الغبار في مكان العمل. وهذه الظروف تجعل من دستورنا مهزلة".[83]

ولهذه القصة ملحق مشؤوم. ففي العام 2002، صار القانون التشريعي للموارد المعدنية والبترولية قانوناً نافذاً، وأعطى الحكومة السلطة لمنح حقوق التعدين بغض النظر عن الحقوق في الأرض. وهذا يعني أن شركات التعدين لم تبق بحاجة إلى صرف مبالغ مالية ضخمة للحصول على حقوق تعدينية جديدة. فطالما وافق وزير صديق للأعمال، فإن الشركات تستطيع أن تعدن في أي مكان مجانياً من دون مقابل، وهذا ما يجعل كل جنوب إفريقية فعلياً "متاحة لأي شخص ليأخذها" من رجال الأعمال أنفسهم الذين طردوا الشعب من الأرض قبل قرن من الزمان.[84]

وتحولت قطاعات من جنوب إفريقية إلى المعادل لمفاعل تشيرنوبيل*. ففي الكيب الشمالي تؤدي نفايات الأسبيستوس المهملة من شركات التعدين – وهي

* يشير إلى الكارثة التي وقعت في عام 1986 في مصنع توليد الطاقة في المفاعل الذري في تشيرنوبل في أوكرانيا. وتعتبر أسوأ حادثة في تاريخ الطاقة النووية. وقد امتد الغبار المتساقط المشع إلى غرب الإتحاد السوفيتي، وغرب شرق أوروبة والدول الاسكندنافية والجزر البريطانية وشمال أمريكا. وتلوثت مساحات شاسعة من بيلاروسيا، وأوكرانيا، وروسيا، وتم ترحيل مئات آلاف الناس. ومات كثيرون.

شركات جينكور، وجيفكو، وشركة الكيب البريطانية المتعددة الجنسيات، شركة عامة محدودة – إلى تسميم الهواء، والماء والطعام لعدد لا يحصى من الناس، وليس أقلهم الرجال الذين سبق لهم أن عملوا في مناجم الأسبيستوس. والمثال النموذجي لهذا الوضع، هو وجود مزبلة لنفايات الأسبيستوس تشرف على قرية بالقرب من بوستمازبيرغ، وهناك تقوم الرياح السائدة بتوصيل المرض. إن خيطاً مجهرياً واحداً يستطيع أن يسبب التهاب الطبقة المتوسطة، وهو سرطان يهاجم بطانة الرئتين، أو الأجزاء الأخرى من الجسم، ويقتل قتلاً مؤلماً جداً. والأطفال على وجه الخصوص هم المعرضون لهذا المرض. ويمكن للمرض أن يستغرق حتى ثلاثين عاماً ليكشف عن نفسه، ولذلك فإن آثار المزابل "غير المستصلحة" مثل المزبلة القريبة من بوستمازبيرغ سوف يشعر بها الناس إلى أجل غير محدد.

في العام 2002، وافقت شركة الكيب، شركة عامة محدودة، بعد أن أخذت إلى المحكمة في لندن، على أن تدفع ما مجموعه أكثر من 7 ملايين جنيه إسترليني موزعة على سبعة آلاف ضحية على مدة عشر سنوات. ومنذ ذلك الوقت خرقت الشركة الاتفاق، متذرعة بالمصاعب المالية، ولم يتسلم معظم الضحايا أي شيء. وزيادة على ذلك، قامت حكومة جنوب إفريقية بالتنازل عن كل الادعاءات المرفوعة ضد شركة الكيب التي تطلب منها تنظيف البيئة وتنظيمها. وفي العام 2003، وافقت شركتا جينكو وجيفكو على تسوية، وفي الوقت الذي وعدت فيه الشركتان أن تسهما في صندوق حكومي للتنظيف والتنظيم، فإنهما كسبتا إيضاً تنازلاً عن كل ادعاءات أخرى تخص إزالة مزابل الأسبيستوس وتنظيف البيئة وتنظيمها .[85]

وما من شركة واحدة عرضت تقديم تعويضات: لا في التعدين، ولا في أي صناعة أخرى. وقد اقترحت مجموعة أعمال أفريكانية، وهي تمثل أمام هيئة الحقيقة والمصالحة، إنشاء صندوق، وكان هذا الاقتراح هو العرض العملي الوحيد من "القطاع الخاص" في جنوب إفريقية لتصحيح أخطاء الماضي. وأما الاقتراحات الأخرى فكانت حياتها قصيرة. وقد اقترح الأستاذ الدكتور سامبل تيريبلانش، وهو اقتصادي، أن تفرض ضريبة على الثروة من شأنها أن "ترفع" الأكثرية التي جعلها

التمييز العنصري فقيرة. وقال إن الحاجة كانت تدعو إلى ضريبة متواضعة من 0.5 بالمائة فقط على الدخول التي تزيد عن مليوني راند. وقد وصف هذا في الصحف بأنه " موضع جدل" ولم يسمع عنه ثانية. [86]

وقد قال وزير المالية تريفور مانويل: مهما كان من أمر، فإن كفاح التحرير لم يكن من أجل المال، ولم يكن التعويض ضرورياً لأن سياسات الحكومة "تنتشل" الفقراء. ولاحظ الوزير أن بعض أولئك الذين مثلوا أمام هيئة الحقيقة والمصالحة وطالبوا بالتعويض كانوا "متنافسين على الأوسكار".[87]

إن معظم الناس الذين بثوا أحزانهم أمام الهيئة لم يطالبوا بشيء غير العدالة. بل إن قلة منهم لم تطلب أكثر من شاهد قبر أو كرسي متحرك. وقد وجهت الهيئة إلى أن عشرين ألف ضحية تقريباً يجب أن تستلم كل ضحية منها مبلغاً وحيداً قيمته 30.000 راند، وهو ما يعادل 2.700 جنيه إسترليني. وبذلك التوجيه، أغلق النظر في الجرائم الملحمية، وحرم من العدالة ملايين من أبناء جنوب إفريقية. ورجال الأعمال، مثلهم مثل القضاة الذين طبقوا قوانين التمييز العنصري، لم يتقدم رجل أعمال واحد متعدد البلايين بطلب العفو، وهو بلا أدنى ريب واثق من أن مثل ذلك الطلب لن يكون مطلوباً. لقد كانوا على حق.

ومع ذلك، فإن مجموعة من ضحايا التمييز العنصري ترفع دعاوى في محكمة أمريكية ضد الشركات التي يقولون إنها أعانت وحرضت على خروق فاضحة لحقوق الإنسان في جنوب إفريقية متحدية بذلك العقوبات الصادرة من الأمم المتحدة في ثمانينيات 1980. وهؤلاء الضحايا يقاضون الشركات بموجب قانون برلماني أمريكي عمره 200 عام عن الاساءة الشخصية للأجانب، وهو قانون يسمح للأجانب في رفع دعاوى حقوق الإنسان أمام المحاكم الأمريكية. وما هو مثير للدهشة في هذه القضية هو أن حكومة جنوب إفريقية تساند الشركات مساندة مذهلة ضد الضحايا.

في العام 2003، طلب الرئيس مبيكي ووزيره للعدل بنيويل ماندونا، من المحكمة أن تسقط الدعوى على أساس أنها سوف تعوق "الاستثمار الأجنبي الذي

تدعو إليه الحاجة إلى حد كبير وسوف تؤخر إنجاز غايات الحكومة. وفي الحقيقة، يمكن أن يكون للمقاضاة أثر مزعزع للاستقرار في اقتصاد إفريقية الجنوبية لأن الاستثمار ليس محركاً للنمو فقط، بل للتوظيف أيضاً".[88] وقد رد الاقتصادي الرئيسي السابق في البنك الدولي، جوزيف ستيغليتز، نيابة عن رافعي الدعوى بأن هذه المحاجّة "لا أساس لها" لأن "أولئك الذين ساعدوا في دعم ذلك النظام، والذين أسهموا في الإساءات إلى حقوق الإنسان، يجب أن يقفوا للمساءلة... وإذا كان لذلك من أثر على جنوب إفريقية، فإنه سوف يسهم في نموها وتنميتها".[89]

في وقت كتابة هذا النص، كانت الدعوى مستمرة في إجراءاتها، وقد صارت هجمات الحكومة على رافعي الدعوة هجمات معادية وحارقة. وقد قال مسؤول كبير في مكتب مبيكي، هو فرانك تشيكين، وهو رجل دين ورجل تحرير سابق: "لقد رأيت ضحايا [التمييز العنصري] وهم يُنَظَّمون في جماعات مصالح وهي جماعات تجعلهم ضحايا دائمين. وهؤلاء الضحايا لن يتوقفوا عن أن يكونوا ضحايا لأنهم أي [(جماعات المصالح)] يحتاجون إلى ضحايا ليحسنوا قضيتهم ويرتقوا بها. أنا أعتقد أنه عمل يجردهم من الصفات الإنسانية".[90]

وكأنما ذلك لم يكن كافياً، فقام نيلسون مانديلا نفسه بتوبيخ أولئك الساعين إلى العدالة من أهوال التمييز العنصري، وذلك بعد أن صار مانديلا الآن المدافع عن "حقوق" رأس المال الدولي. ففي مناسبة اجتماعية حضرها قادة رجال الأعمال ورعاها أثرى أثرياء جنوب إفريقية، وهو نيكي أوبنهايمر (هارو، وأكسفورد والأنجلو أمريكية)، أعطى مانديلا اسمه لمؤسسة جديدة هي "مانديلا رودس"، واستخدم المناسبة ليسخر من قضية المحكمة في نيويورك بوصفها "تدخل خارجي". وقال، وقد خلا كلامه من المفارقة الساخرة المتوقعة، عن أجشع سلاب استعماري لإفريقية: "إنني متأكد من أن سيسيل جون رودس كان سيعطي موافقته لهذا الجهد من أجل أن يجعل اقتصاد جنوب إفريقية في مطالع القرن الحادي والعشرين مناسباً ولائقاً لعصره".[91]

وحين كانت هيئة الحقيقة والمصالحة تقترب من جلسات سماعها الأخيرة ناشد رئيس الأساقفة ديزموند توتو رجال الأعمال، والصحافيين، والآخرين. وقال: "من

فضلكم، أرجوكم أن تغتنموا هذه الفرصة الأخيرة لتخلّصوا أنفسكم من عبء الماضي".[92] ولم يرد عليه أحد. إن توتو وزملاءه أعضاء الهيئة قد ركزوا على المنفذّين – أي، على أولئك الذين تلقوا الأوامر بدلاً من الذين أصدروا الأوامر واستفادوا منها – وتوتو وزملاؤه بتركيزهم بهذا قد عفوا عن السكان البيض في جنوب إفريقية، المستفيدين غير المنازعين من التمييز العنصري. إن استثناءهم سمح لهم بأن يستشعروا الرعب من اعترافات القتلة المأجورين ومقترفي أعمال التعذيب وأن يشعروا أن النظام الذي ساندوه قد خانهم وانتهك حرماتهم، لا بل سمح لهم أن يعرضوا أنفسهم بصفتهم ضحايا.

إن هيئة الحقيقة والمصالحة لم يقصد منها أبداً أن تأتي بالمصالحة وبالعدالة نفسها. وذلك "العمل غير المنتهي" هو مسؤولية الدولة، وهي المسؤولية التي أعطت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي كل إشارة على التخلي عنها لمصلحة "شركائها" الجدد في الأعمال. وبعد أن ووجهت الهيئة بالعداوة الرسمية والمؤسسية، عملت الهيئة بجد وبشجاعة في الغالب تحت ضغط بالغ الشدة. ونظراً إلى أنها حرمت من التمويل المناسب، فلم تستطيع أن تنشر إلا اثني عشر محققاً، ومع ذلك فإن إنجازها البارز هو أن تكون قد كشفت علانية التمييز العنصري وأسقطت عدالته وكذّبته، وذلك لكيلا يستطيع أحد بعد الآن أن يقول إنه "لم يكن يعرف". وكان هذا بسبب استعراض قام به أناس شجعان صدمتهم الأعمال الوحشية التي قام بها النظام، وبرغم ذلك كانوا مستعدين للكلام بحرية وبلا خوف، وكان بفضل ديزموند توتو الدؤوب الذي لا يكل مع زملائه أعضاء الهيئة والمحققين الأقوياء في الحفر على القضايا، مثل جان إيك كيلنغبيرغ وبيبرز بيغو، وبفضل خلاصة جديرة بالملاحظة لجلسات الاستماع سميت تقريراً خاصاً وكانت تذيعها مؤسسة بث جنوب إفريقية على الهواء في كل يوم أحد ليلاً بين عامي 1995 و1997.

وكان مقدم التقرير الخاص صحافياً فظاً، فصيحاً، هو ماكس ديو بريز، ولسانه الوطني هو الذي أنتج كلمة "التمييز العنصري" وهذا الصحافي رفض أن يسمح لمشاهديه البيض أن يهربوا من التواطؤ، وكان يشير إليهم بوضوح مباشرة

بكلمة "أنتم". وحين أدلى هو نفسه بشهادته أمام الهيئة، كان قاسياً مع زملائه. وقال: "لو أن وسائل إعلام المجرى الفكري السائد كانت قد عكست وتابعت اعترافات زمر [الموت] هذه، والإفشاءات التي باحوا بها لكانت الحكومة قد أُجبرت على أن توقف التعذيب، وأعمال القتل والاغتيالات، ولكانت أنقذت الكثير، الكثير من حياة الناس."[93] إن الأصوات التي حاولت أن تستخرج معنى أخلاقياً وسياسياً من جريمة التمييز العنصري، لأصوات من أمثال صوت ماكس دو بريز، وتشارتي كوندايل، وديزموند توتو، وبولا ماكبرايد وكثيرين آخرين كان عليها أن تتنافس مع قوى تواقة إلى أن تروج لنظام كوني "متصالح" في جنوب إفريقية. وكانت النتيجة لذلك حقيقة منقوصة متضائلة.

في جنوب إفريقية "الجديدة"، كما في القديمة، تحتل علاقة التعايش مع بريطانيا مكاناً خاصاً. فقد كان رأس المال البريطاني هو الذي "افتتح" جنوب إفريقية وكان الرائد في القرن التاسع عشر ووضع الأساس للتقسيم العنصري وللسيادة البيضاء. ومع فرض التمييز العنصري قانونياً في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960 ومع سحق المقاومة السوداء بالتدريج، ارتفع الاستثمار البريطاني بالتوافق مع ذلك، إلى أن تضاعف بين عامي 1956 و1970.[94]

في شاربفيل في العام 1960، استخدمت عربتان مصفحتان وردّتهما بريطانيا من نوع سراسن مزودتان بالرشاشات ضد المحتجين احتجاجاً سلمياً. قتل تسعة وستون شخصاً وجرح المئات. وبعد توقف قصير، تدفق الاستثمار الأجنبي إلى جنوب إفريقية، ومعه الشركات البريطانية التي كانت تمثل 61 بالمائة من الاستثمار. وكانت الأرباح ضخمة. ففي ثمانية أعوام بعد شاربفيل كان العائد على الاستثمارات 12 بالمائة، وهو عائد أكبر بنسبة الثلث من كل أنحاء بقية العالم.[95] ومع نهاية الثمانينيات من 1980، وبالرغم من حظر الأمم المتحدة، مثل الاستثمار البريطاني في جنوب إفريقية كمية تصل إلى 50 بالمائة من كل الاستثمار الأجنبي في تلك البلاد.[96]

ومع مجيء الديمقراطية، كانت الأعمال كالمعتاد. وفي الأسبوع الذي افتتحت فيه هيئة الحقيقة والمصالحة جلسات استماعها عن تعاون قطاع الأعمال مع التمييز

العنصري، قدمت تسع شركات أجنبية مناقصات من أجل عقد تزوّد بموجبه جنوب إفريقية بأسلحة وبمعدات عسكرية تصل قيمها إلى 3 بلايين جنيه إسترليني. وكانت الطلبات من أجل الحصول على الطائرات المقاتلة، والطائرات العمودية، والدبابات القتالية، والسفن والغواصات. وليس لجنوب إفريقية أعداء خارجيون، ولكن لديها، على كل حال، الفقر الذي يوصف بأنه "يائس"، مع وجود أكثر من خمسة ملايين طفل جياع، ونظام صحي عاجز عن التصدي للمرض الوبائي، مثل الإيدز والسل.[97]

كسبت صناعة الأسلحة البريطانية أفضل خيار لاثنتي عشرة من طائرات الهوك، ووافقت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي أن تدفع من أجلها 17 مليون جنيه إسترليني عن كل طائرة – وهذا الثمن يعادل ضعف الثمن الذي عرضته شركة صناعة طائرات إيطالية وهو "إلى درجة كبيرة أغلى خيار"، وفق ما جاء في تقرير برلماني.[98] وانسجاماً مع سياسة حكومة طوني بلير في مبيعات الأسلحة إلى "العالم الثالث" عرضت هذه الحكومة على المؤتمر الوطني الإفريقي خطة مارشال "لجنوب إفريقية" من أجل "التعويض" عن التكلفة الباهظة للطائرات، مع موافقة أنظمة بريتش أيروسبيس على "حزمة من المشاركة الصناعية". وضم هذا العرض مخططاً من 270 مليون جنيه إسترليني لإقامة مصنع قطع للطاقة، ومصنع تيتانيوم بقيمة 93 مليون جنيه إسترليني، و"منطقة صناعية" بقيمة 16 مليون جنيه. وإضافة إلى ذلك، فإن أنظمة بريتش إيروسبيس والشركة السويدية المتعاونة معها، ساب، وعدتا بأن تقوما بتوليد ما قيمته 1.3 بليون جنيه إسترليني من الاستثمار الأجنبي.

في كانون الثاني/يناير من العام 1999، طار بلير إلى جنوب إفريقية، وقدم ثناء كريهاً لنيلسون مانديلا وقال للناس في مدينة عزل عنصري فقيرة: "إن العالم كله يريد لكم أن تنجحوا".[99] أما الغرض غير المعلن لزيارته فقد كان هو الضغط على حكومة جنوب إفريقية لتشتري طائرات الهوك بسعرها المضخم ولتقبل "الحزمة". وقد نجح. وقد حيا الصفقة وزير التجارة والصناعة من الحزب الوطني الإفريقي آنئذ، وهو أليك إيروين، "بوصفها بياناً عملياً واضحاً على

قدرة... جنوب إفريقية على تحسين المنافع الاقتصادية من مشتريات الدولة من السلع والخدمات".[100]

مخطط مصنع الطاقة بقيمة 270 مليون جنيه إسترليني لم يحدث أبداً ومصنع التيتانيوم بقيمة 93 مليون جنيه إسترليني من غير المرجح أن يحدث. ويقول تقرير برلماني: "من دون هذين المشروعين، لا تكون بريتش إيروسبيس قد ملكت عملياً أي حزمة مشاركة صناعية. ومبلغ 1.3 بليون دولار من الاستثمار الأجنبي مازال ينبغي "أن يولد"، وذلك على الرغم من أن الشركة السويدية، سويدش ماتش، قد اشترت حصة في شركتي تبغ في جنوب إفريقية، ومنهما شركة تصنع تبغاً يعلك اسمه "تاكسي"، تدور حوله اهتمامات صحية مقلقة.[101]

لقد استُغفِلت حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي وهي اليوم غارقة في فضيحة من النوع الذي يرافق تقريباً كل صفقة أسلحة بريطانية كبيرة. دفعت رشاً بقيمة تزيد عن 160 مليون جنيه إسترليني، وذلك وفق ما كشفته الغارديان وأكدته وزيرة بلير للتجارة آنئذ، باترشيا هوويت. وتعرف هذه الرشا باسم "عمولات" السمسرة، وهي قانونية بموجب القانون البريطاني. وبعد أن اتهم جو موديس، وزير الدفاع في جنوب إفريقية، بأنه قبض رشوة بقيمة 500.000 جنيه إسترليني أعلن أنه سيتقاعد بسبب سوء حالته الصحية.[102]

وكان المصرف الذي خصص لتمويل "الحزمة" البريطانية هو بنك باركليز، وهو المصرف الذي انتفع انتفاعاً مشهوراً من التمييز العنصري (ومن تجارة الرقيق). وفي وقت كتابة هذا النص، يقوم برلمان جنوب إفريقية بفحص البنود المتعلقة بالإهمال والتقصير في اتفاقية قرض بنك باركليز، والتي تتنازل على ما يظهر عن السيطرة على الكثير من حياة البلاد الاقتصادية للبنك، وللحكومة البريطانية ولصندوق النقد الدولي.

كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ قد يكمن الجواب في كل زيارات الحج تلك التي يقوم بها المؤتمر الوطني الإفريقي إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في واشنطون، وفي كل تلك "العروض" في دافوس، وفي كل تلك التزلفات لدى الثمانية

الكبار (جي -8)، وفي كل تلك الجولات المدفوعة التكلفة من مشاريع "المبادرة المالية الخاصة" في بريطانيا، وفي كل أولئك الخبراء والمستشارين الأجانب القادمين والذاهبين، وفي كل تلك التقارير الأكاديمية الزائفة المكتوبة برطانتها "الليبرالية الجديدة" وفي كل تلك الأجواء التي "يزدهر الرابحون" في ظلها.

لقد أوضحت بريطانيا لحكومة المؤتمر الوطني الإفريقي كيف تتعامل مع فقرائها، وذلك من خلال إدارة بريطانية هي إدارة التنمية الدولية، وهو اسم لطيف لشيء بغيض. ويتطلب القانون البريطاني من إدارة التنمية الدولية ألا تصرف الأموال إلاّ بهدف تخفيض الفقر. وهذه الإدارة تكسر القانون باستمرار، وذلك لأنها، في الحقيقة، وكالة خصخصة. ففي العام 2004، أقرت الوزيرة هيلاري بن، بإعطاء 6.3 مليون جنيه إسترليني إلى معهد آدم سميث، وهو مجموعة مصالح من جناح اليمين المتطرف، في مقابل مقترحات من أجل "إصلاح" "القطاع الخاص" في جنوب إفريقية [103] إن إدارة التنمية الدولية تمول "مخطط ترويج الاستثمار البريطاني في جنوب إفريقية". وهذا يروج علاقات "أعمال إلى أعمال" بين الشركات البريطانية وشركات جنوب إفريقية، وهي علاقات لا شأن لها إلا قليلاً بتخفيض الفقر.[104]

لقد تعلمت السلطات المحلية والمنظمات غير الحكومية في جنوب إفريقية أنها من أجل أن تؤمن "العون" البريطاني، يجب عليها أن تبين عملياً تفضيلاً نحو القطاع الخاص. وهكذا، فإن مجلس مدينة جوهانيسبيرغ الذي يديره المؤتمر الوطني الإفريقي عيَّن "شريكيه في الأعمال"، وهما شركة نورثمبريان البريطانية للماء وشركة السويس الفرنسية، بأن تقوما بتركيب عدادات مياه مدفوعة القيمة مسبقاً في مدن العزل العنصري في أورنج فارم وفيري. والناس هناك فقراء جداً إلى الدرجة التي لا يستطيعون معها أن يتحملوا تكلفة الإمدادات المنتظمة من الماء، وهي تكلفة حلّقت عالياً منذ نهاية التمييز العنصري. وحين ركبت عدادات المياه المدفوعة القيمة مسبقاً في كوازولو– ناتال، فإن الفقراء جداً استمدوا المياه من الأنهار، وانتشرت الهيضة (الكوليرا) وأصابت بالعدوى مائة ألف نسمة وقتلت 260 نفساً.[105]

لدى عودة بيتر هين إلى جنوب إفريقية، حيث ولد وترعرع، وهو الذي كان وزيراً في حكومة بلير ومكافحاً سابقاً مناوئاً للتمييز العنصري، قال هين: "لقد كانت جنوب إفريقية في وقت سابق هي النظام الرجعي المنبوذ في إفريقية، أما الآن فهي النموذج الراديكالي التقدمي الذي [يتابع] قيادة ذات رؤية وسياسات اقتصادية حديثة".[106]

وبعد أن قال هين هذا بمدة قصيرة، كتب خمسة وثلاثون رجل أعمال أفريكانيون، وكانوا كلهم ضامنين لنظام حكم التمييز العنصري، رسالة مفتوحة في دعم سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي "السياسات الاقتصادية الحديثة". وفي الوقت نفسه، أعلن بيك بوتا، وهو وزير الخارجية العجوز صاحب أطول خدمة لنظام الحكم القديم، والذي سافر في العالم يدافع عن النظام العرقي وحروبه الوحشية الشنيعة وعن إرهابه ضد النشيطين من المؤتمر الوطني الإفريقي، أعلن عن أنه كان يلتحق بالمؤتمر الوطني الإفريقي. وقال: "أنا أعتقد أنني أستطيع أن أربط نفسي مع المبادئ الأساسية للمؤتمر الوطني الإفريقي [من مثل] حماية الملكية الشخصية".[107]

على جداري في لندن أعلق صورتي المفضلة من جنوب إفريقية. وهي دائماً تثير في النفس هزة حين رؤيتها، إنها صورة امرأة وحيدة تقف بين عربتين عسكريتين مدرعتين، من نوع يعرف باسم "هيبوس"، وهما تدرجان إلى داخل سوويتو. ذراعا المرأة مرفوعان، وقبضتاها مغلقتان، وجسدها النحيل يجتذب العدو ويتحداه معاً. إنه يوم أيار/مايو، في العام 1985، لقد بدأت الانتفاضة وهذه المرأة هي رمز شعبها.

لقد وصف لي المصور بول وينبيرغ كيف جثم في خندق حين غزا رتل من عربات هيبوس سوويتو. وقد رد الناس بالقتال بالحجارة، في مواجهة الرصاص المطاطي والذخيرة الحية. وقال لي: "هناك في الخندق إلى جانبي، كانت تلك المرأة الشبيهة بالطير، واستخرجت زجاجة من الجن، وأخذت رشفة، ثم ذهبت فوق القمة ومشت مباشرة إلى الرتل المتحرك من العربات. لقد كان هذا العمل أمراً من أشجع الأشياء التي رأيتها".

حين عدت إلى جنوب إفريقية بعد غياب ثلاثين عاماً، اكتشفت أن الكثير من روح المقاومة هذه قد بقي على قيد الحياة. ففي صفوف الناس الذين قابلتهم في مناطق مدن العزل العنصري، تم التعبير عن تلك الروح من أولئك المبجلين والمصممين، الذين كانوا يشكلون جداراً من البشر حول بيت الأرملة المهددة بقطع كهربائها، وبرفض الناس للبيوت الحكومية التي تحط من كرامة الناس "بيوت برنامج إعادة الإعمار والتنمية" التي سميت "وجار الكلاب". وكان التعبير عنها من روز مخانجيلي وخمس وعشرين امرأة أخرى كن قد بنين بيوتهن الخاصة الحديثة بأيديهن. وقالت روز: "هذه البيوت حلمنا. في أول مرة سحبت فيها سيفون الماء لغسل المرحاض شعرت بالخوف!"

واليوم، يتم التعبير عن الروح في التظاهرات الجماهيرية النابضة التي تقوم بها "الحركات الاجتماعية" والمنظمات المتحالفة معها وهي من بين أكثر الحركات عدداً، وتطوراً وحراكية (دينامية) في العالم. إنهم منتدى مناوأة الخصخصة، ولجنة أزمة كهرباء سوويتو، ومشروع حقوق التعليم، وحركة شعب بلا أرض، والاحتفال بذكرى الخمسين لجنوب إفريقية، والتحالف ضد الفقر، وحملة عمل العلاج، ومركز المجتمع المدني، ومنتدى المواطنين المهتمين – إذا سمينا بعض هذه المنظمات. وعلى الرغم من أن بعضهم قد يزداد وينقص، فإن قيمتهم السياسية يمكن أن تقاس بالطريقة التي شكلوا بها علاقات مع حقوق الإنسان الدولية وحركة مناوأة الرأسمالية التي تعبر، مع اتحادات العمل المستقلة، عن القوة غير المتشكلة التي تسمى "الرأي العام".

إن ما تملكه جنوب إفريقية بوفرة هو قوة تسمى أوبونتو*، وهي الإنسانية التي لا تكون ساكنة أبداً، وقد بقيت على قيد الحياة برغم وحشية التصنيع والتمييز العنصري وبرغم رعب التمييز العنصري الاقتصادي المتجدد الآن. أوبونتو مفهوم ذكي من لغات نغوني** التي تقول إن إنسانية الشخص تظهر بالتعبير عنها من خلال التقمص والتضامن مع الآخرين: من خلال الجماعة والوقوف معاً. ويقول مثل يتداوله

---

*.Ubuntu

** Nguni مجموعة من لغات البانتو الجنوبية.

شعب الكوصا* "يكون الناس ناساً من خلال الناس الآخرين". وقد سمى ستيف بيكو هذه القوة "الطائفية السوداء الأصيلة".

وليس معنى هذا أن ننكر أنها روح مثالية وأنها تحمل معها مواطن الضعف المعتادة، التي يكون معظمها منتجاً للفقر، ولكن البرهان على مرونتها يبدو، لي، في كل مكان تقريباً في جنوب إفريقية. إن المؤتمر الوطني الإفريقي، في احتضانه لنظام جامد قد بخس العبقرية الخيالية في شعبه الخاص قدرها واستخف بقيمتها.

حين مشينا عبر لايمهيل، وهو المكان الذي قُذِف فيه "الناس المهملون"، ذكر لي كوسماس ديزموند "شيئاً ما أكبر إلى حد بعيد من مجرد البقاء على قيد الحياة ضد الاحتمالات المعاكسة". وقال: "الناس هنا بقوا على قيد الحياة بعد أحوال سيئة في التغييرات في المناخ، والاستعمار، والتمييز العنصري، وقد برزوا وهم يتحلون بجوهر من الإنسانية ومن المهارات في الحياة التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً. ومع ذلك، فإن النخبة في إفريقية الجنوبية، من البيض والسود، تفترض أن الناس هنا لا يعرفون شيئاً، وذلك لأنهم لا يكنون أي احترام لما هو إفريقي ولأنهم لا يملكون أي فهم لمسألة أننا نستطيع أن نتعلم الكثير جداً من الخبرة الإفريقية. إن النخبة تخلط بين المعرفة والحكمة. فالغرب يملك الكثير من المعرفة، وإفريقية تملك الكثير من الحكمة. وكل طرف يحتاج إلى الآخر، ومع ذلك فمن نحن من دون حكمة؟"

الكرم مذهل. لقد أخفقت في مقابلة أي جنوب إفريقي أسود حلم بالانتقام: باضطهاد البيض، مثلما سبق للبيض أن أضطهدوا السود. نعم، الجريمة مشكلة هائلة، وهذا لا يثير الدهشة، إذا أخذنا بالحسبان جرائم الدولة الكبيرة التي دمرت أجيالاً كاملة وذهبت من دون أن تنال العقاب، ومن دون الاعتذار عن أعمال النهب وجرائم الجشع. فخلف جدران أولئك البيض وخلف كلابهم، الذين لم يتوقعوا ولا هم استحقوا مثل هذا الانتقال بلا ألم من أعمال التمييز العنصري الوحشية، ما زال يجب عليهم حتى الآن أن يقدروا الفرصة الثانية التي أعطيت لهم.

---

* Xhosa وهي لغة نيلسون مانديلا.

إن الاستماع إلى الطلاب الشباب البيض الأطباء وهم يشتكون شكوى مريرة من التزامهم القانوني بقضاء عامين من العمل في مستوصف ريفي هو اختبار للتسامح. إن أطباء جنوب إفريقية كانوا متواطئين مع التمييز العنصري. أحد الأطباء الذين رأوا ستيف بيكو وقد أصيب إصابة مميتة ولم يفعلوا شيئاً، لم يمنع هذا الطبيب من العمل إلا بعد سنوات من فعلته فقط، ثم سمح له بالعودة إلى ممارسة عمله. والاختصاصيون بعلم الأمراض الذين قدموا التقارير التي سمحت للمحققين بأسباب الوفيات بألا يكشتفوا شيئاً عن الناس الذين عُذبوا حتى الموت، أولئك الاختصاصيون استمروا في تلقي رواتب تقاعدهم.

كان مبويي نغويندا في السادسة والثلاثين من عمره حين تسلم منصب الأمين العام للاتحاد الوطني لعمال المعادن لجنوب إفريقية. ومثله مثل الكثيرين من قادة اتحاد العمال السود، ولد في الكيب الشرقية المفتقرة. وقد نال دراسة وتلمذة في مهنة البرادة والخراطة في فولكسواجن، والتحق باتحاد العمال وبالمؤتمر الوطني الإفريقي وبالحزب الشيوعي لجنوب إفريقية. وهو مقاتل في المقاومة في الثمانينيات من 1980، وقد سُجن وعُذب. وحين تقابلنا، أحببته فوراً. وعلقت على سمعته بأنه "مِسْعَرُ فتنة" وبأنه "لابس أنيق حريص".

وقال وهو يضحك: "حسناً، أنا ابن مدينة، وأحسب أن عليك أن تبدو مناسباً. أنا مسعر فتنة، بالتأكيد، من أجل أن يجري تقسيم الثروة والتعليم في هذه البلاد بيننا جميعاً. ما هي الحرية إذا لم نمتلك ذلك؟ هذه ألفاظ حمقاء جداً. ما أريده، وما تريده أغلبية الشعب، هو أن تنفتح بوابات لسجنهم الاقتصادي. الحياة قاسية، ولكن لا ينبغي أن تكون قاسية إلى هذا الحد. لقد قاتلنا ولقد تحملنا، والآن لنا حقنا في الكرامة".

"وماذا لو أن الحكومة لم تأت بالكرامة؟"

"أولاً، يجب أن نقنع الناس الموجودين في السلطة بأنهم على خطأ: أي، أن تولي بنية اقتصادية تستبعد الأغلبية وتكافىء أقلية هو أمر خطأ. ولذلك سنستمر في

التحدث والحوار والمناقشة، وإذا فشل ذلك، فسوف ننتفض: سلمياً ولكن بقوة شديدة لا يمكن معها إيقافنا. وفي الواقع، لاشيء يستطيع إيقافنا الآن".

وفي 10 آذار/مارس في العام 1999، مات مبويي نغويندا بعد مرض مفاجئ. كان في التاسعة والثلاثين من عمره.

في جنوب غرب جوهانيسبيرغ، ترتفع أكوام الخبَث المعدني مثل النصب التذكارية للمايا. وبيوت رجال التعدين البيض أنيقة، وحدائقهم مشذبة، وخدمهم السود يأتون ويذهبون. ومجمعات رجال التعدين السود تبشه السجون الفكتورية المتأخرة، التي كان يتقاسم فيها عشرون رجلاً حجرة واحدة وصنبوراً واحداً. وفي مدخل المنجم في كارلتونفيل، كان فرانزي باليني، ممثل اتحاد العمال الوطني لعمال المناجم، قد بدأ يومه بالتجول على الموقع ليكشف كم رجلاً كان قد قتل أو أصيب في الليلة. وقال: "في الليلة الماضية، لم تقع حوادث مميتة. في يوم الجمعة قتل اثنان. كان ذلك نتيجة الإهمال. لقد سمح للعمل بالاستمرار في طبقة معدنية مختلة في الأعلى، وهذا سبب سقوط صخرة. تريد الشركة من كل رجل أن ينتج تسعين طناً أخرى. فإذا لم ننتج نفقد الوظائف، وإذا أنتجنا نفقد الحياة".

"هل جنوب إفريقية حرة حتى الآن؟"

"نحن نصف أحرار".

ورن الهاتف، وتحدث إلى مسؤول في اتحاد العمال عن رجل تعدين مصاب. هز رأسه، وأنهى المكالمة ومال إلى الأمام وقال: "في الواقع ربع أحرار".

من أعلى نقطة في مدينة العزل العنصري أليكساندرا، كنت أستطيع أن أرى القمم الزجاجية لمدينة ساندتون، وهي أثرى بلدية تسوق وسكن في جوهانيسبيرغ. و"أليكس"، أليكساندرا، توفر لساندتون الخدم، والحدائقيين، والسائقين، والحراس الأمنيين. في أسفل الطريق كان يوجد مستوصف سوء التغذية لمخطط إطعام الأطفال الأفارقة. وليس معروفاً عدد الأطفال المصابين بسوء التغذية ويعيشون

في أليكس لأن عدد السكان يتحول من نصف مليون إلى ثمانمائة ألف نسمة، وهو يعتمد على زمان ومكان العمل.

وقال مزوانيل ماييكيسو: "هناك أناس في ساندتون لا يعرفون أبداً إن كانت أليكس موجودة، على الرغم من أنها تبعد مسافة ميل أو ميلين فقط. إنهم يظنون أن أليكساندرا مكان في الشرق الأوسط في مكان ما".

مزوانيل كان قائد منظمة مدنية قومية، قاتلت التمييز العنصري وهي جزء من الجبهة الديمقراطية الموحدة. وقد درس منذ ذلك الوقت في الولايات المتحدة. وقد سألته عما تعلمه من وجوده في أمريكا.

"تعلمت أننا في جنوب إفريقية نموذج لتمييز عنصري عولمي: وأعني، هنا تماماً – أليكس في مقابل ساندتون: الفقير جداً والثري جداً جنباً إلى جنب، ولكنهما في الواقع يفصل بينهما عالم. انظر إلى المدن الأمريكية. إنها مثل جوهانيسبيرغ الآن، وجوهانيسبيرغ تصير أكثر فأكثر مثلها. إن ديترويت تقريباً صورة مماثلة، وفيها الأغلبية السوداء مرتبطة مع الفقر وفي أحياء خاصة (غيتو)، والبيض في جبالهم الزجاجية والضواحي ذات البوابات، وقلة من أثرياء السود يسمح لهم بالدخول إلى ملاعب الغولف. وهذا شكل من التمييز العنصري أفعل بكثير مما حلم به البوير. وخلف قوس قزح وشعارات المصالحة تم حشرنا في ضيق النظام الدولي الجديد".

في آب/أغسطس من العام 2001، أضرب أكثر من خمسة ملايين من العمال، والطلاب، والفقراء وملؤوا الشوارع في المدن الكبيرة لمدة يومين. ومنذ ذلك الوقت كان هناك انفجار من الانتفاضات المجتمعية في كل جنوب إفريقية، مع وجود أناس يشعلون بالمشاعل أكواخهم والمعسكرات على الأرض المغصوبة والمباني الحكومية المحلية. وفي العام 2005، شكلت اتحادات العمال في مؤتمر جنوب إفريقية حركة جديدة، قيل إنها استُلهِمت من الجبهة الديمقراطية المتحدة، التي قادت الانتفاضة ضد التمييز العنصري. ولكن اتحادات العمال مع ذلك كانت مترددة في أن تترك "حلفها" الرسمي مع حكومة مبيكي، وفي الوقت الذي يواجه

فيه قادتهم كلا الطريقين، فهم يمنعون بروز حزب لتحدي دولة الحزب الوحيد والأيديولوجية الوحيدة التي آلت إليها جنوب إفريقية. فإذا لم يكن هناك أي تحد، فإن خيبة الأمل سوف تنمو في واحد من أكثر سكان العالم تسيّساً.

وهذا لا يعني الإيحاء بأن الناس يخفقون في الاعتراف بإنجازات حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي، مثل الماء ووصل الكهرباء، ومِنَح دعم الأطفال وسن التشريعات المتنورة، مثل قانون خيار إنهاء الحمل، الذي جعل الإجهاض قانونياً وأنقذ آلاف الأرواح. ومنذ العام 1994، مع ازدهار حرية التعبير والاجتماع، تغيرت الافتراضات والمواقف المتكلسة. كل ذلك لا ينكر وهو موضع الإعجاب.

ولكن أعظم حرية أساسية، الحرية اللازمة للبقاء على قيد الحياة وللبقاء بقاء لائقاً، قد حُجِزت عن أغلبية مواطني جنوب إفريقية، الذين هم على وعي بأن المؤتمر الوطني الإفريقي لو كان قد استثمر فيهم وفي "الاقتصاد غير الرسمي" الذي يبقى معظمهم بفضله على قيد الحياة، لا غير، لكان المؤتمر استطاع أن يحول فعلياً حياة الملايين. كان يمكن أن تُشترى الأرض وتستصلح من أجل الزراعة على مستوى صغير على أيدي الذين جردوا من ملكيتهم، وأن تدار في الروح التعاونية للزراعة الإفريقية، وكان يمكن أن تبنى ملايين البيوت، ولو حدث ذلك لكانت الصحة الفضلى والتعليم الأفضل أموراً ممكنة. وكان يمكن لنظام ائتمان على مستوى صغير أن يفتح الطريق للسلع وللخدمات التي يُقتدر عليها للأغلبية. وما من شيء من هذا كان سيحتاج إلى استيراد تجهيزات أو مواد أولية، ولو حدث ذلك لكان الاستثمار سينشئ ملايين الوظائف. ومع تنامي رفاهية المجتمعات، كانت ستطور صناعاتها الخاصة بها وتطور اقتصاداً قومياً مستقلاً.

روجر روني واحد من أصرح قادة اتحاد العمال في جنوب إفريقية. وبصفته الأمين العام لاتحاد عمال البلديات الضخم في جنوب إفريقية، فقد شن حملة ضد عودة أعمال طرد المستأجرين التي كانت موجودة في عصر التمييز العنصري وضد تولي الشركات الأجنبية إمدادات الماء. وحين تقابلنا في فندقي في كيب تاون، قال لي: "في مكان الباب التالي كان بيتي. وكنت في السادسة من عمري حين نقلت

أسرتي بالقوة وأرسلت بعيداً إلى نهاية الطريق العام ن 2 إلى حي فقير مكتظ قذر بالقرب من المطار. وفي اللحظة التي ذهبنا فيها، كان يبنى سوق للتسوق".

"أي تعويض ستقبله؟"

"لا أريد من أحد أن يعتذر عن خطاياهم. أنا أريد مصالحة حقيقية، وهي إعادة توزيع الثروة من أولئك الذين انتفعوا تحت نظام التمييز العنصري إلى أولئك الذين عانوا منه. كلما تغير المزيد من الأشياء، بقيت على حالها. انظر إلى الطريقة التي تأتي بها الشرطة وكل آلة الدولة على نحو ثقيل على مناطق مدن العزل العنصري. لم ينس الناس أن التمييز العنصري وأن الاستغلال الرأسمالي كانا وجهين للعملة نفسها. وبسبب ولاء الناس للحكومة الديمقراطية، فقد يستغرق الاحساس بالاغتراب وبالخيانة ما يصل إلى عشر سنوات ليفهم ويتم استيعابه. ولكنه سيفهم".

وتبقى ذاكرة ستيف بيكو هي المحك. ففي الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، يكون قد مر ثمانية وعشرون عاماً منذ أن مات، بعد أن سحب ودفع مئات الأميال، عارياً وفي غيبوبة، من زنزانة شرطة في بورت إليزابيث إلى أخرى في بريتوريا. موته كشف حظر النفط والأسلحة ضد نظام حكم التمييز العنصري وحشد الشباب في كل أنحاء العالم. على جدار في مدينة العزل العنصري تيمبيسا، وبحروف كبيرة، كتبت كلماته التي تبعث الرعدة في العمود الفقري: "أنت إما أن تكون حياً وفخوراً أو أن تكون ميتاً، وطريقة موتك هي نفسها تستطيع أن تكون أمراً مسيّساً. وهكذا فإذا كنت تستطيع قهر الخوف من الموت، والذي هو خوف غير عقلاني، فإنك على طريقك".[108]

حين قرأت للمرة الثانية مقابلة بيكو مع دونالد وودز في العام 1976 – قبل ثمانية عشر عاماً من مجيء الحكومة السوداء المنتخبة – كنت مندهشاً من بصيرته. قال فيها: "بالنسبة إلى الرجل الأبيض [رجل واحد، صوت واحد] سيكون أعظم حل! إنه سيشجع التنافس بين السود، أنت ترى، وسوف يستأصل

الأساس المهم للنقد من الخارج لنظام الحكم الحاضر. ولكنه لن يغير وضع الاضطهاد الاقتصادي للسود. ذلك الاضطهاد سيبقى على حاله". (التوكيد في الأصل)[109].

عند أسفل الجبل الطاولة في كيب تاون يقف نصب تذكاري لسيسيل رودس. وهو مغطى بالكتابات وبذراق نوارس البحر، وإنه لأمر مثير للدهشة أن ذلك النصب مازال هناك. فقد كان رودس، قبل مدة طويلة من إعلان البوير السياسة الرسمية العرقية، قد زرع جذور شكل من أشكال التمييز العنصري أكثر بقاء. وكان قد صرح بالقول: "أنا أفضل الأرض على الزنوج". وحين كان رئيس وزراء الكيب في أواخر القرن التاسع عشر، كان هو القوة الدافعة خلف قانون غلين غراي، الذي أسس أول "أرض محمية محلية" ومهد الطريق لقانون الأرض في العام 1913 الذي أخذ جنوب إفريقية من معظم شعبها وحصره في تجمعات رخيصة للعمالة. وقد كتب يقول: "يجب أن نتبنى نظاماً من الاستبداد... في علاقاتنا مع برابرة إفريقية". كان رودس، فوق كل شيء، رجل أعمال، والعمل "البريطاني" الذي ساعد رودس على بنائه في جنوب إفريقية أنتج كشف الميزانية الذي لم يكن يُحلم به من الأرباح، ومن المعاناة.

ولكن تلك الصورة لم تكن هي التي رأى المؤرخون الاستعماريون رودس بها. فطوال أكثر نصف قرن، كان بطلاً مشهوراً للإحسان الكريم الإنجليزي، الذي يبادر إلى أعمال الخير مثل مِنَح رودس الدراسية للنخبة. كان هو النموذج لأولئك السادة الإنجليز المسيحيين الذين أشرفوا على قرصنة مورست في كل أنحاء العالم في الوقت الذي كانوا فيه "يؤلفون" و"يصلحون" السكان المحليين "نحن معايير الحضارة الأوروبية".

هذه كانت هي الصورة التي عبرت بها جريدة مانشستر غارديان عن رأيها الليبرالي في أيار/مايو من العام 1948، عشية انتصار الحزب القومي، والذي شرّع من بعده التمييز العنصري:

لا يمكن حصر البانتو [الأفارقة] في أراضي محميات لهم، لأن هذه المحميات ليست كبيرة بما فيه الكفاية ولا هي خصبة بما فيه الكفاية لإعالتهم. ولا يمكن أن يستبعدوا من المدن، لأن الحاجة تدعو إلى وجودهم فيها، فصناعة جنوب إفريقية لا تستطيع النمو من دونهم... إن الحقيقة التي لا مهرب منها والتي تهيمن على القارة الإفريقية هي الحركة البطيئة – والبطيئة بطئاً مؤلماً في الغالب – ولكنها الحركة التي لا يمكن مقاومتها في نهاية الأمر من الشعوب الإفريقية نحو مستويات الحضارة الغربية.

وهكذا، فإن جماعة البرجوازية الناطقة باللغة الإنجليزية في جنوب إفريقية (وفي بريطانيا) استطاعت أن تعرض البوير بصفتهم متعصبين "غير مسؤولين" وأن تعرض هي نفسها بصفتها حاملة "اللاعرقية" المتنورة. لقد كانت أسطورة حية جداً حين وصلت لأول مرة إلى جنوب إفريقية في الستينيات من 1960. ويصف المؤرخ التنقيحي تيموثي كيغان ذلك بوصفه "الإنسانية الليبرالية [التي] تبين أنها شيء ضحل، مبهرج، خادع".[110]

إن التراث الملوث لرودس يساعد على شرح العاطفة التي أثارها الدور الذي لعبته الليبرالية البيضاء في جنوب إفريقية. إن صورة (أيقونة) ليبرالية مختلفة جداً عن رودس هي صورة ألان باتون، مؤلف كتاب ابك، يا بلدي الحبيب، الذي نُشر في العام 1948 المضطرب. كان باتون قائد الحزب الليبرالي المتعدد الأعراق، على الرغم من سيطرة البيض عليه. وكان قد تنبأ بأن "جنوب إفريقية سوف ترفض في نهاية المطاف الحزب الليبرالي، ولكنها سوف تقبل سياساته". ربما كان على حق، لأن الليبرالية قد قررت حدود ديمقراطية جنوب إفريقية.

كتاب ابك، يا بلدي الحبيب، باع خمسة عشر مليون نسخة وكان يعتبر "أهم قوة مفردة" أوصل ما كان يعرف تأدباً باسم "إساءة حكم الدومينيون"* – أي، الاضطهاد العرقي – إلى سوء السمعة الدولية. ومع ذلك ففي عالم باتون، لم يقدم تحرير الشعب الأسود أي نهضة سوداء، بل قدم بدلاً من ذلك الخلاص الأبيض.

* كل أمة ذات حكم ذاتي في الكومنولث البريطاني. ولا يخفى أن أصل المعنى هو السيادة والهيمنة.(المترجم)

فالنساء الإفريقيات سيغنين ويصفقن فوق أعمالهن اليومية، والرجال الأثرياء، مثل السير إرنست أوبنهايمر، كانوا شيوخاً بيضاً لطفاء، وحكم الإعدام كان هو الجواب على الجريمة السوداء.[111]

يرتفع مركز ألان باتون على أرض جامعة كوازولو- ناتال في بيترماريتزبيرغ، في المكان الذي عاش فيه. ويسود هناك الهدوء، والنساء اللطيفات يقدمن فناجين الشاي ومعها الكتيبات التي توضح المناسبات القادمة. وفي نسخة طبق الأصل عن مكتب باتون، عُلق معطف المشي الخاص به على كرسيه، وعلى الجدار الرسم الهزلي (الكرتون) الذي كان مفضلاً لديه وهو بعنوان "رجل المصابيح النبيل"، (الجنتلمان). ويصور هذا الرسم قطارين سريعين على وشك التصادم وجهاً لوجه. أحدهما هو "القوة السوداء" والآخر "القومية الأفريكانية" وباتون يلوح بالمصابيح، يحاول أن يوقف القطارين. إنه الموقف الليبرالي الجوهري.

ألقت هيلين سوزمان محاضرة ألان باتون في الذكرى الخمسين لنشر كتاب، ابك يا بلدي الحبيب. وهي أول ليبرالية من عصر التمييز العنصري، وكانت طوال ثلاثة عشر عاماً عضو البرلمان الوحيدة عن الحزب التقدمي في البرلمان الذي كان للبيض فقط. وقالت هيلين: "لقد أثارت الليبرالية ردود فعل سلبية عنيفة في صفوف أولئك الذين يكافحون من أجل التحرير في جنوب إفريقية. وكثيرون من الناس اتهموني بأني أعطي الشرعية لحكومة غير شرعية بمجرد الجلوس ببساطة في البرلمان. وكان جوابي هو أنني استخدمت البرلمان لأستفيد منه خير استفادة من أجل طرح أسئلة سابرة استثارت الأجوبة، التي يمكنني أن أضيف أنها كانت تستخدم بحرية من نقادي".

وقد أثنت في محاضرتها على باتون، وهو، مثلها نفسها،

كان أيضاً في الطرف الذي يتلقى النقد من الناس المشاركين في كفاح التحرير، وخصوصاً من أجل معارضته غير المهاودة لاستخدام العنف في الحملة المضادة للتمييز العنصري وللعقوبات الاقتصادية ولسحب الاستثمارات... لو كان حياً في العام 1995 وراقب الحماسة الجامحة التي اعترت كل الأمة لدى نجاح جنوب إفريقية [الديمقراطية] في لعبة الركبي العالمية، لكان حسب أن أمله "أمل واحد من

أجل بلادنا" قد تحقق بالفعل – مثلما عبر عنه في كتابه ابك – "يكون ذلك حين لا يرغب الرجال البيض والرجال السود لا في السلطة ولا في المال، بل يرغبون فقط في الخير لبلدهم الخاص، ويتحدون معاً للعمل من أجلها".[112]

كأس العالم لنهائي لعبة الركبي في العام 1995، الذي استضافته جنوب إفريقية وكسبته، كان احتفال جنوب إفريقية البيضاء بنهاية مكانتها المنبوذة دولياً. ورأس الاحتفال نيلسون مانديلا، وهو يلبس قميصاً سيئ التلاؤم مع جسمه من ملابس فريق اتحاد الركبي القومي لجنوب إفريقية (سبرنغبك)* ، وكان هذا بالنسبة إلى الكثيرين رمز السيطرة البيضاء، وبدا ذلك إشارة غير ضرورية، ومحرجة تقريباً. ولكن كثير من الليبراليين وافقوا عليها بروح فكرة باتون عن أن البيض الأقوياء والسود المفتقرين "يرغبون لا السلطة ولا المال" ويتحدون معاً من أجل "الخير لبلدهم الخاص" بغض النظر عن أن البلاد مازالت محكومة بالظلم.

كان الليبراليون جزءاً حيوياً شجاعاً من حركة التحرير. ففي العام 1983، أخرجت فيلماً عن هيلين سوزمان ووصفتها بأنها "صوت الاحتشام" في جنوب إفريقية. كانت متماسكة، وفي مدة 104 أيام، ألقت 66 خطاباً، وحركت 26 تعديلاً وطرحت 137 سؤالاً، في سبيل العدالة الاجتماعية، وكل ذلك في "برلمان" كان فيما عدا ذلك منتدى للفاشية وللمتعاونين معها. وهي أيضاً التي جلبت الأمل إلى مانديلا وإلى السجناء الآخرين الذين زارتهم، وهي التي كانت صارمة لا تلين في جعل العالم يعرف مظالم الاضطهاد في جنوب إفريقية.

وكنت قد سألتها آنئذ كيف تعاملت مع تهمة النفاق التي كانت تقول إن الامتياز الليبرالي ساعد على دعم التمييز العنصري، فقالت: "إنني أعمل ما أستطيع أن أعمله، ولكنه محدود. أنا بيضاء ذات امتياز. وكان من الممكن لي أن أغادر، ولكني قررت أن أبقى. الناس الذين يعتقدون أن الثورة قادمة يعيشون على بعد آلاف

* Springbok وهو اسم الغزال النافر الموجود في جنوب إفريقية، وهو شعار فريق اتحاد الركبي القومي في جنوب إفريقية. (المترجم)

الأميال. ونحن لن نحصل على تغيير كامل لنظام الحكم. ذلك ما لن يحدث". كانت على حق.

كان بيكو قاسياً مع الليبراليين. وقد كتب إليهم، يقول: لقد كان التمييز العنصري "قذى في العين يخرب بوجوده منظراً جميلاً". وهو قذى في العين كان يستطيع أن "يقلع عيونهم" في أي حين أرادوا ذلك.[113] وكان ذلك صحيحاً عن أبناء جنوب إفريقية الذين تمتوا تمتمة غامضة عن المظالم التي مارسها "القوميون" (الحزب القومي الحاكم) والذين بقوا فيما عدا ذلك صامتين ومتواطئين. ولم يكن ذلك صحيحاً عن أولئك الذين قاتلوا نظام الحكم، مثل سوزمان، قتالاً بارعاً وشجاعاً.

حين ذهبت لأول مرة إلى جنوب إفريقية، طلبت أن أرى لورنس غاندار، محرر جريدة راند ديللي ميل التي لا تصدر الآن، كان غاندار صوتاً وحيداً ارتفع ضد التمييز العنصري في الافتتاحيات الموقعة، التي وصفها خلفه، ريموند لوو، بأنها "نصيحة لبيض جنوب إفريقية بأن يعملوا الخيار الذي لا مناص منه، ولا مهرب منه. لا يستطيع البيض أن يمتلكوا أفضل ما في العالمين، ويستمتعوا بثمار التكامل الاقتصادي ويتجاهلوا التزاماتهم السياسية. كان عليهم أن يختاروا خياراً". وأدى كشف راند ديللي ميل للأحوال المفزعة للسود في سجون جنوب إفريقية إلى ترجيع الأصداء حول العالم، وكسبت له وللمراسل بنيامين بوغرند، محاكمة لثمانية شهور انتهت في غرامات ومدة سجن معلقة ضد بوغرند.

وقد كتب الصحافي الأسود ثامي مزواي عن غاندار: "من أيام المدرسة الثانوية للمرء، كان لجريدة راند ديللي ميل مكان خاص في قلوب المجتمع الأسود. وكانت أول صحيفة تنظر إلى السود بوصفهم كائنات بشرية. لقد قاتلتْ من أجلهم. وكان مزجها للكتابات الإلهامية والهجومية هو حديث الأزمان".[114] وعلى النقيض، فالكثيرون من القراء البيض لراند ديللي ميل استاؤوا من النور الذي أشعه المحرر في عيونهم، مثلما فعل الأعضاء الرئيسيون من مجلس إدارة الصحف المتحدة (أسوشيتيد نيوزبيبرز) التي كانت تملك الميل والتي فصلت المحرر في النهاية من العمل.

حين قابلت غاندرا كان رئيس التحرير، وهو منصب بلا سلطة. وسألته كيف احتمل صحافي صريح مثل هذه الحالة من الخوف كما في جنوب إفريقية. ونظر إلي بوجهه الأكمد ثم تابع النظر قبل أن يقول: "أنت تنتظر إلى أن ينفتح الباب وهم يدفعونك عبره. أنت لا تفتح الباب لهم أبداً".

ودونالد وودز هو أشهر هذه المجموعة. هو أبيض من الجيل الخامس في جنوب إفريقية الجيل الذي تكلم لغة الكوصا، وقد ترعرع وودز بصفته مؤمناً بالتمييز العنصري. وبعد سماعه لحوار منافق بشكل خاص في البرلمان، غضب جداً، وأدرك أن التمييز العنصري كان "كذبة كبيرة فاحشة". وبصفته محرراً للديللي ديسباتش قابل ستيف بيكو، وتحداه بيكو، وصادقه، وصار بيكو بطله. وربما، مثلما قد يفعل الليبرالي، سعى دونالد وودز بلا كلل إلى إقناع أعضاء في نظام الحكم بالتحدث إلى بيكو.

وحين خُطف بيكو وقُتل، أدى النقد المقذع من وودز إلى "منعه" هو شخصياً لمدة خمس سنوات، وهو ما منعه من الكتابة ومن أن يكون في صحبة أكثر من شخص واحد آخر. وفي نهاية الأمر هرب إلى لندن وتم إخراج فيلم، ابك أيتها الحرية، عنه وعن بيكو. وحين تقابلنا في جوهانيسبيرغ في العام 1998، ساعدني على أن أفهم تردد الليبيراليين العظام في نقد حكومة المؤتمر الوطني الإفريقي، حكومة "هم". وقال: "لا أستطيع أن أتخيل ذلك أبداً، والفرح المطلق وقف في طريق عيني الناقدة".

كانت شكوى بيكو هي أن الليبراليين البيض كانوا يحملون الافتراض بأنهم يتحدثون نيابة عن السود. وكتب يقول: "[وهم] تصرفوا بوصفهم المتحدثين عن السود. ولكن بعضناً آنئذ بدؤوا يسألون أنفسهم، (هل يستطيع أمناؤنا الليبراليون أن يضعوا أنفسهم في مكاننا؟) وكان جوابنا من شقين: (لا! هم لا يستطيعون،) و: (طالما بقي الليبراليون البيض ناطقين باسمنا، فلن يكون هناك ناطقون سود)".[115]

كانت العالم جريدة سوداء لا يمكن كبتها، وقاعدتها في سوويتو، وقد صرحت تحت ترويستها: "صحيفتنا الخاصة، والوحيدة". وقد جلبت العالم على

نفسها غضب نظام الحكم حين ساندت انتفاضة الأطفال في سوويتو في العام 1976، وأعمدة مثل "جوز بيرغ" سخرت من محاولة فرض الأفريكانية على المدارس. وفي جلسات استماع هيئة الحقيقة والمصالحة للصحافة، شكى الصحافون السود بغضب من أن عملهم وشجاعتهم ذهبت من دون الاعتراف بها وتقديرها.

وقد أخبرني هوع لوين، وهو صحافي ومؤلف مشهور، أنه فهم المرارة التي يشعر بها الصحافيون السود "المنسيون". وقال: "هم على حق. أولئك الصحافيون في درم وفي العالم أسسوا تقليدا قويا جداً في ألا يجري تهديدهم بالمعاملة الخشنة، بغض النظر عن المخاطر. وذلك باق اليوم في صفوف الصحافيين السود، وبعضهم يتحلى بقلة احترام صحيّة جداً للسياسيين وللسلطة. وهم لا يثقون بالحكومة السوداء، ولم يسبق لهم أن وثقوا بالحكومات أبداً ولا يرون أي سبب للثقة بهذه الحكومة".

كان لوين صحافياً ومقاتلاً في المقاومة في آن واحد، وهو واحد من الأعضاء البيض في حركة المقاومة الإفريقية، وهي مجموعة منسية إلى حد كبير اليوم. وقد قبض عليه وقضى سبع سنوات في سجن بريتوريا المركزي السيئ السمعة بوصفه سجيناً سياسياً. ومذكراته، قاطع الطريق، أثر أدبي عن الكفاح ضد التمييز العنصري، أثرت في نفسي تأثيراً عميقاً.[116] وهو يصف السجناء السود وهم يصطفون في صف الموت بانتظار الإعدام ويغنون طوال الليل قبل الشنق، ويصف الإذلال المتمثل في أنه كان على السجناء أن يجلسوا يوماً بعد يوم، في دائرة، يخيطون أكياس البريد المتعفنة بخيط مطلي بالقار، ثم يحاولون بعد ذلك حك القار عن أيديهم بماء بارد كالجليد. ونادراً ما رأى زائرين.

وعند إطلاق سراحه، ذهب إلى المنفى طوال واحد وعشرين عاماً. وحين عاد إلى جنوب إفريقية، التحق بهيئة الحقيقة والمصالحة، التي صار عملها موضع إعجابه. وقد أخبرني عن الهيئة: "بأنها سمحت لنا أن نغفر، على الرغم من أن ذلك الموقف لم يكن موقفاً للمصالحة. كانت المصالحة من أجل ديزموند توتو، لا من أجلي".

وذكرني بماكس دو بريز، وهو الذي قامت مجلته التقرير الخاص (سبيشل ريبورت) بما كتبته عن جلسات استماع الهيئة، بإخبار البيض في جنوب إفريقية بما لم يكن الكثيرون منهم يريدون سماعه. وماكس ينتقد الصحافة "البيضاء" تحت حكم التمييز العنصري انتقاداً شديداً. وقال: "إنهم لم يتابعوا رواية الأحداث التي كنا نعلن عنها. وتركونا نتلقى وطأة المسؤولية والضرب. كان بإمكانهم إنقاذ الأنفس". وقام ماكس مع مجموعة من الأفريكانيين ومع آخرين بإصدار فري ويكلي (الحرة الأسبوعية)، وقامت عناوينها الجريئة التي لا تخاف بربط شخصيات موجودة في نظام الحكم مع زمره التي عرفت بزمر الموت .

إن كون فري ويكلي صحيفة أفريكانية جعلها خطرة على نحو خاص، وجعلها معرضة للخطر كذلك. وطوال أربعة أعوام، كانت واحدة من أكثر الصحف قراءة وأكثرها عرضة للاضطهاد في أي مكان. ضربت مكاتبها بالقنابل، وتلقى موظفوها تهديدات بالموت يومياً، وأمطرها نظام الحكم بمقاضاتها بالدعاوى الجنائية والمدنية. وجاءت النهاية حين كسب في الاستئناف رجل شرطة كبير متهم ورفع دعوى في المحكمة بالتشهير. وحين أمِرت الصحيفة بدفع الأضرار، أجبرت على الإغلاق في شهر كانون الثاني/يناير من العام 1994، قبل بضعة شهور من أول انتخابات جنوب إفريقية ديمقراطية.

في العام 1999، أعلن ماكس نفَسه على رؤوس الأشهاد "إفريقياً" في كتاب بعنوان، الوطني الشاحب.[117] وكان رد فعل العديدين من مواطنيه السود غاضباً، وكأن سلالة دمه الأفريكاني لا يمكن أن تغتفر أبداً. وبعد بضعة أعوام، سألته إن كان مازال يرى نفسه إفريقياً، فأجاب: "طبعاً. لا علاقة للون جلدي بذلك".

تقع عقارات غروت سكور على منحدرات ديفيلز بيك (قمة الشيطان) بالقرب من كيب تاون. وكانت هذه العقارات في الأرض مخزن حبوب الحِق بواحد من أوائل البيوت الهولندية التي أقيمت للسكن في المزارع، وقد أعيد بناء هذا المكان في أواخر القرن السابع عشر ليكون قصراً فخماً وأثث تأثيثاً يدل على حماقة مفرطة، ففيه سبع ساعات قائمة مطرزة بالذهب، من القرن الثامن عشر، تدق دقاً غريباً

مخيفاً في حجرات أبقيت مظلمة. وفي العام 1893 اشترى البيت سيسيل رودس، ثم رئيس الوزراء في الكيب، وهو الذي أمر بإحضار ما يكفي من أثاث الفترة من خشب القيقب (مابل) في لندن "لملئه". وأعطى أمراً "لا فكتوريّة!* وأنا أحبها كبيرة وبربرية". ويبقى رودس موجوداً ذا حضور حتى اليوم. فالدَّرج المنحني مثبت بنسخ خشبية طبق الأصل من طير زمبابوي** الذي كان يحتفظ به في غرفة نومه، التي لم يتغير فيها أي شيء منذ أن نام هناك وحيث توجد خزانة تعرض تمثالاً لقالب وجهه الميت.

حين جئت لأول مرة إلى جنوب إفريقية في الستينيات من 1960، كان جوهانيس فورستر، وهو معجب بالنازيين وقائد مساعد سابق لقوات الصاعقة، كان يتربع مستريحاً في محل إقامة رئيس الوزراء في غروت سكور. والآن، حين كنت أنتظر عند البوابة، بدا لي وكأن الحراس لم يتغيروا. فكلهم أفريكانيون بيض، وقد دققوا في بطاقة هويتي بثقة رجال يعملون عملاً موثوقاً. ويقولون بالأفريكانية ما يعني "نحن نتلقى الأوامر فقط". أحد الحراس كان يحمل نسخة من كتاب المسير الطويل نحو الحرية، وهو سيرة نلسون مانديلا. وقال: "أكاد أنهيه تقريباً. إنه يستثير الإلهام جداً". قالها وهو يشدد بلفظه على كلمة الالهام.

كان مانديلا قد نال قبل قليل نوم القيلولة بعد العصر وبدا نعسان، ولم يربط بعد رباط حذائه. كان يلبس قميصاً ذهبياً زاهياً، وتحرك بهدوء إلى الغرفة التي كانت تقيم فيها السيدة فورستر، والسيدة بوتا، والسيدة كليرك حفلات الشاي بالخزف العظمي الذي مازال معروضاً. وقال لي وشفتاه تنفرجان عن ابتسامة: "أهلا

* الفكتورية: اسم يعطي للدلالة على المواقف، والفن، والثقافة في أواخر القرن التاسع عشر، نسبة إلى العصر الفكتوري (1837 – 1901) وهذه مدة حكم الملكة فكتوريا في بريطانيا.(المترجم)

** طير زيمبابوي هو الشعار القومي لزيمبابوي، وهو طائر منحوت من الحجر كشفت الحفريات عن خمسة منه، وأخذها سيسيل رودس إلى جنوب إفريقية. أعادت حكومة جنوب إفريقية أربعة منها إلى زيمبابوي واحتفظت بالخامس في غروب سكور.(المترجم)

بعودتك" إن مجرد الموافقة من الرجل تجعلك تشعر شعوراً طيباً. وقال لي: "يجب عليك أن تدرك أن منعك من دخول بلادي شرف عظيم".

بطل منطقة مدن العزل العنصري في الخمسينيات من 1950، والأرستقراطي، والملاكم، والراقص، ورجل السيدات والمحامي كلها بدت واضحة. وقال لامرأة كانت تنتظر لتقابله: "ألست متزوجة حتى الآن؟" وضاع احتجاجها وجوابها "ولكني متزوجة!" وسط ضحكته. وحين سألته كيف يشعر حين يُنظر إليه وكأنه قديس، أجاب: "لا يسمح للقديسين أن يرتكبوا أخطاء. وذلك ليس هو العمل الذين تقدمت إليه".

وهو معتاد على نحو طيب على المقابلات المحترمة. وقد أغضبني، عدة مرات "أنت نسيت نسياناً كاملاً ما قلته لك" و"لقد سبق أن شرحت لك تلك المسألة". ومن عادته ألا يتسامح بأي نقد للمؤتمر الوطني الإفريقي ويقدم قائمة بإنجازات الحكومة: الدستور، والإمداد بالماء لأكثر من مليون نسمة، وبناء المستوصفات، والرعاية الصحية المجانية للنساء الحوامل وللأطفال. واقتبس مجموعة من الإحصاءات حول التضخم، والعجز والنمو الاقتصادي وهو "صاعد ويسير نحو الأعلى".

وسألته: "ألم يكن هناك نوعان من التمييز العنصري؟ أوَلَم يكن الأرسخ فيهما هو التمييز العنصري الاقتصادي، وهو الذي لم يتغير؟

"يجب عليك أن تتذكر أن أفضل طريقة لإدخال التحول هو أن نفعل ذلك من دون أن نقتلع أي ناحية من نواحي حياتنا العامة. نحن لا نريد أن نتحدى الأعمال الكبيرة التي يمكن أن تصاب بالفزع وتأخذ أموالها وتبتعد".

"ولكن ماذا عن الأثرياء الذين يزدادون ثراء والفقراء...؟"

"بالنسبة إلى فقراء الناس، في ما يلي مثال لك. ليس هناك بلد أعطيت فيه العمالة المستأجرة الأمن الذين أعطيناه لهذه العمالة، وبموجب ذلك فهم يمتلكون الحق بالأرض التي يشغلونها، ولا يستطيع المزارع أن يقوم بالطرد ".

"ولكنهم يقومون بإخلائهم، بغض النظر عن التشريع الجديد. ولمعظم الفلاحين المستأجرين، لم يتغير إلا القليل".

"لا، لا، تلك مبالغة. لقد أنشأنا عملية وهياكل مناسبة..".

"ميثاق الحرية قال إن شعب هذه البلاد سوف يتقاسم كل ثروتها. هل مازال ذلك ممكناً؟"

"لم لا؟ إنهم يبدؤون في تقاسم تلك الثروة. إن لديك الآن سوداً، وملونين، وهنوداً يشتركون في شركات تحكم على بلايين من الأصول، وهو شيء جديد بالكلية في هذا البلد. أنت ترى في جوهانيسبيرغ الكثيرين من السود الآن يشترون الممتلكات في الضواحي الثرية".

"كثير؟"

"مقارنة بالسابق..".

"وزير في الحكومة دعا سياسات المؤتمر الوطني الإفريقي بأنها تاتشرية، كاملة مع الخصخصة وتخفيض سلطة التنظيم الحكومية..".

"تستطيع أن تضع أي تسمية عليها أنت تحبها، تستطيع أن تدعوها تاتشرية ولكن، بالنسبة إلى هذه البلاد، الخصخصة سياسة أساسية".

"وهذا عكس ما قلته أنت قبل أول انتخابات، في 1994".

"هناك عملية. يجب عليك أن تقدر أن كل عملية تنطوي على تغيير".

"هل توجد هناك بلاد قد أرضت حاجات الأغلبية، الفقراء من الناس، بسياسات مشابهة لسياسات جنوب إفريقية؟"

"لماذا يتوجب علينا أن نقارن أنفسنا بأي جزء من العالم؟ نحن لا نحتاج إلى مقارنة أنفسنا مع البلدان الغربية، لأن هذه البلدان متخلفة خلف بلدان الشرق الأوسط، مثل المملكة العربية السعودية، التي يتمتع فيها الطلاب بمنافع لم أر مثلها في أي مكان في العالم، الطلاب هناك يدرسون مجاناً، لا بل يدفع للطالب ثلاثمائة دولار شهرياً من أجل الدراسة مجاناً. أنت لا تجد مثل هذا في الغرب.

"المملكة سجلها في حقوق الإنسان والقضاء مثلما كنتم".

"ماذا يعني (سجل حقوق الإنسان)؟ أنا لا أشارك بالرأي الذي يعرف حقوق الإنسان تعريفاً ضيقاً. هل بلاد [مثل الولايات المتحدة] لديها حقوق إنسان حين يكون قسم كبير من شعبها فقيراً ومريضاً ولا يستطيع توفير الدواء؟ يجب عليك ألا تفكر فقط بالبلدان التي لديها انتخابات".

"كانت المصالحة موضوعك الثابت باستمرار. هل تفكر في الحقيقة التي توضح أنه ما من شخصية قيادية واحدة في نظام الحكم القديم – من العسكريين، أو من رجال الأعمال، أو من القضاة – قد أظهرت أي ندم أصيل عن التمييز العنصري؟"

"ذلك يذهب بعيداً جداً. لقد أثنى رئيس الأساقفة توتو علناً على الكنيسة الإصلاحية الهولندية لاعتذارها. ولديك أفراد مثل ليون وسل، وعمدة مدينة وبعض الآخرين الذين اعتذروا على وجه العموم. ما يريده الجمهور هو أن يقوم أولئك الذين كانوا في المناصب العالية بالاعتراف بأنهم منحوا السلطة لاقتراف جرائم التمييز العنصري. ذلك لم يكن وشيكا... ونعم، إنها لمأساة أن دو كليرك تجنب قبول المسؤولية عما مَنَح السلطة لاقترافه".

إن غموض مانديلا قد استبان في تعاملاته مع الحكومات الأخرى. فهو بصفته أول رئيس للتحرير، أمر بغزو مضحك ودموي ضد ليسوتو الصغيرة. وسمح ببيع أسلحة جنوب إفريقية إلى الجزائر، وكولومبيا، والبيرو التي لها سجلات سيئة السمعة في حقوق الإنسان. ودعا الإندونيسي القاتل الجماعي الجنرال سوهارتو لزيارة جنوب إفريقية ومنحه أعلى جائزة في البلاد (سورهاتو قدم الأموال للحزب الوطني الإفريقي في المنفى). واعترف بالمجلس العسكري البورمي الوحشي بصفته الحكومة الشرعية، على الرغم من أن محنة رئيسها الشرعي، وهو أونغ سان سوو كايي، الذي يقبع تحت الاعتقال الدائم في البيت، كانت تعكس كفاح مانديلا الشخصي. وحين سألته حول هذا، أجاب بمجرد القول إن التمييز العنصري كان "فريداً" – وهو ما ناقض دعمه الثابت للفلسطينيين وللتوازي الذي يرسمه بين التمييز العنصري الإسرائيلي والتمييز العنصري الجنوب إفريقي.

ومع ذلك فإن حكومته قادت الحملة العالمية المناوئة للألغام الأرضية حتى النصر في الأمم المتحدة في العام 1977. وكان في تقاعده، أكثر صراحة منه حين كان رئيساً، ويبدو إحساسه بالظلم أشد مضاضة، وكأنما يشعر أنه حر أخيراً لينفق ميراثه الأخلاقي. في العام 2002، قام بحركة معبرة مؤثرة سياسياً أظهرت عدم موافقته على اللامبالاة الواضحة من خليفته نحو كارثة مرض متلازمة نقص المناعة المكتسبة (الإيدز). وعانق عاملاً نشيطاً في الإيدز، وهو زاكي أكمات، الذي كان معه فيروس نقص المناعة الإنسانية (أتش أي في) إيجابياً. وقد مات كثيرون في جنوب إفريقية من مرض الإيدز من دون إقرار عائلاتهم بسبب الوفيات. وقد كشف هو أيضاً أن ثلاثة أفراد من عائلته الخاصة قد ماتوا بالإيدز. وقال مانديلا وهو يضع ذراعه حول أكمات: "ليس هناك ما يخجل".[118]

وربما لم تقم أي شخصية دولية بتحذير العالم من مخاطر نظام حكم بوش مثلما فعل مانديلا. وعلى الرغم من أنه قد تراجع نوعاً ما لاحقاً، فقد قال إن بوش "يدخل الفوضى إلى القضايا الدولية". (وحين لم يرد بوش على إحدى مكالمات مانديلا، اتصل ببوش الكبير وطلب منه "أن يفعل شيئاً" نحو ابنه.) ووصف مانديلا ديك تشيني ودونالد رامسفيلد بأنهم "ديناصورات لا ترغب [البوش] أن ينتمي إلى العصر الحديث... إن ما يجري مأساة، إن ما يفعله بوش في العراق مأساة. إن ما أدينه هو رئيس لا يمتلك البصيرة، ولا يستطيع أن يفكر تفكيراً صحيحاً، وهو يريد الآن أن يقذف العالم إلى محرقة". ووصفه لطوني بلير بأنه "وزير خارجية بوش" كان وصفاً مؤقتاً توقيتاً حسناً، فثابو مبيكي، خليفة مانديلا، كان يوشك أن يزور بلير في داوننغ ستريت.[119]

وحين وصلت مقابلتي إلى نهايتها، مال مانديلا إلى الأمام وسألني إن كنت أعتقد أنه كان "ليناً جداً" مع إندونيسيا حول تيمور الشرقية. وقلت له نعم، لقد كان ليناً جداً. فقال: "إنه مأزق. لقد ساعدوا المؤتمر الوطني الإفريقي في أثناء كفاحنا". وحين مشيت معه إلى الباب، ومررنا على الخزف العظمي للسيدة فورستر وطيور سيسيل رودس الخشبية من زيمبابوي والساعات السبع القائمة،

قلت له: "لا بد أنك في بعض الأوقات تصدم بالمفارقة الساخرة في موقفك". فقبض بشدة على ساعدي، وقال: "في كل الوقت". وحين كان يدخل إلى سيارته المرسيدس الفضية، لم يكن بعد قد ربط أربطة حذائه، وكان رأسه الصغير الأشيب لا يكاد يرى في مجموعة من الرجال البيض بكروشهم وأسلحتهم الضخمة وبالأسلاك في آذانهم. أحدهم أصدر أمراً باللغة الأفريكانية وذهبت المرسيدس وذهب فيها مانديللا.

ديني من شركة كنغ لسيارات الأجرة ساق بي السيارة إلى سوويتو. وقال لي: "أنا لا أحب أن أكون هنا. إنه مكان للدموع وللدماء". وتقع سوويتو على بعد 20 ميلاً من جوهانيسبيرغ، وهي المسافة التي اعتبرها مجلس المدينة الحد الأدنى من "المسافة المحترمة" عن الضواحي البيضاء. واستُخدِم انتشار الطاعون الدمّلي في العام 1904 ذريعة لتجميع السود خارج المدينة ووضعهم في موقع "محلي" في منطقة شجرية لمزرعة تسمى كليبسروت.

وسقنا السيارة عبر كليبتاون، ومررنا بمحل وندرفول هير صالون (صالون الشعر الرائع) وبمحل نانا ليكور ستور (مخزن نانا للمشروبات الكحولية) ومررنا ببقع من الأرض ذات قش انتشرت عليها ملابس مستعملة معروضة للبيع. لقد كان هذا المكان هو الذي عُرِض فيه ميثاق الحرية لشعب جنوب إفريقية في 26 حزيران/يونيو 1955. أكثر من سبعة آلاف نسمة شاهدوا 2884 مبعوثاً للمؤتمر الوطني الإفريقي وهم يتبنون الميثاق، ثم يتلونه كالصلاة، ننشد "لشعبنا... حق أبنائه المكتسب بالولادة بالأرض، وبالحرية وبالسلام [المسروق] من نوع من الحكومة المؤسسة في الظلم وعدم المساواة".

وعند اقترابنا من سوويتو، كان برج مراقبة للجيش ينتصب فارغاً، والأسلاك الشائكة مقطوعة ومبعثرة، وصدئة، في عشب طويل. على هذا الطريق وقفت تلك المرأة النحيلة بين العربات المدرعة من نوع "هيبوس"، وقبضتاها مغلقتان بشدة. وحين قلت لديني إن هذا المكان كان بالتأكيد مكان الأبطال، هز رأسه وقال: "دموع ودماء..".

كنت قد رتبت أن أقابل سيفيسو ماكسوليسي ندلوفو في مدرسته القديمة، المدرسة الثانوية فيفيني، التي بدأت فيها أعظم انتفاضة سوداء في جنوب إفريقية. في العام 1976، كان سيفيسو واحداً من منظمي مقاطعة الطلاب لفرض اللغة الأفريكانية لغة للتعليم. وكان نظام الحكم قد أمر باستبدال الإنجليزية وإحلال ما سماه سيفيسو "لغة المضطهِد". وكان وكيل الوزير لتعليم للبانتو، وهو الدكتور أندرياس ترونيشت، قد أخبر البرلمان الأبيض وسأله: "لماذا يجب أن يسمح للسود بالدخول إلى المدارس إذا لم يكونوا يرغبون التعلم باللغة التي اختارتها الحكومة؟"[120]

قابلني سيفيسو عند بوابات المدرسة، التي كانت محاطة بلفات من الأسلاك الشائكة "لإبقاء المجرمين في الخارج". وفي مقابل المدرسة من اتجاه قطرها يقوم بيت الشقة المسقوفة التي كان يعيش فيها نيلسون ويني مانديلا في الخمسينيات من 1950. ومقابل 1.7 من الجنيه الإسترليني تستطيع أن تلقي نظرة حول المكان وتتفحص صوراً عائلية حبيبة وتقرأ بطاقات عيد الميلاد التي أرسلها نيلسون إلى أطفاله من جزيرة روبن.

قال سيفيسو: "كنت في الرابعة عشر من عمري. والأولاد الذي كانوا أكبر مني سناً استبعدوا من البرنامج التجريبي [لفرض اللغة الأفريكانية]، وهكذا فإن كل أولئك الذين كانوا مشاركين في المقاطعة كانوا صغاراً جداً. وفي الحال انتشر الموقف إلى بقية المدارس وتم التخطيط لمسيرة في السادس عشر من حزيران/يونيو. وضعنا لافتات قالت: (اللغة الأفريكانية إلى الجحيم.) كنا غاضبين، ولكننا كنا سعداء كذلك. لم نكن نريد مواجهة. كنا نريد أن نُسمع." [121]

في الساعة الثامنة من ذلك الصباح، كان ما يصل إلى عشرة آلاف طالب يسيرون من مدرسة أولاندو الثانوية. وأمام المسيرة كان هناك مئات من الشرطة المسلحة. لم يكن نظام الحكم قد عرف أي شيء مثل هذا من قبل. أولاد وفتيات مفعمون بالحماسة غنوا ورقصوا وأذرعتهم متشابكة. وهتفوا "بعداً

للأفريكان!" وهتفوا مرة تلو المرة. وفتحت الشرطة النار وقتلت أربعين طفلاً في أول رشق من وابل الطلقات. ومن بين القتلى كان هكتور بيترسن الذي كان في الثالثة عشرة من عمره. وتوجد صورة مشهورة لجسده وهو محمول من صديق محزون، وأخت القتيل تركض إلى جانبه. وصارت هذه الصورة رمز المقاومة التي ستعاني المزيد من السنوات العديدة من "الدموع والدماء" في كفاح من أجل حرية لم تكتسب بعد.

* * *

الفصل الخامس

تحرير أفغانستان

ازدحام مرور السيارات علامة على الرفاهية وهذا ما نجحت حكومتي في العمل على تحقيقه.

حامد قرضاي، الرئيس الذي نصبته الولايات المتحدة على أفغانستان، في العام 2003.

لكابل خطوط مناسيب من الأنقاض تحدد هيئتها بدلاً من الشوارع، وفيها يسكن الناس في مبان منهارة، مثل ضحايا زلزال أرضي ينتظرون الإنقاذ. لا يملكون مصدراً للنور ولا للحرارة، ونيرانهم المنذرة بشر مستطير تشتعل طوال الليل. ولا يكاد أي جدار ينتصب واقفاً وهو لا يحمل ندوباً من عيار كل سلاح تقريباً. والسيارات تتمدد ملقاة مدمرة في دوارات الطرق. وأعمدة الطاقة الكهربائية، التي بنيت من أجل أسطول حديث من حافلات الركاب الكهربائية (الترولي)، ملتوية مثل مشابك الورق، والحافلات مكدسة بعضها فوق بعضها الآخر، تذكر بالأهرامات التي أنشأها الخمير الحمر من السيارات التي لم تبق تستعمل في فجر "العام صفر".*

هناك شعور بالعام صفر في أفغانستان. وعلى طرف كابل، كان وقع خطواتي يرجع الصدى في أرجاء ما كان سابقاً قصر ديلكوشا الكبير، الذي بني في العام

* العام صفر: حين نجحت الثورة الفرنسية في عام 1792 اتخذت لنفسها تقويماً جديداً سمّت بموجبه عام نجاحها العام واحد. وحين سيطر الخمير الحمر على كمبوديا في عام 1975 سموه العام الصفر تقليداً لما فعلته الثورة الفرنسية. وبعد استيلاء الخمير الحمر على بنوم بنه سادت أجواء من الرعب لا تقل عن عصر الرعب الذي ساد بعد الثورة الفرنسية. (المترجم)

1910 وفق تصميم مشهور صممه مهندس معماري إنجليزي، وكانت درجات سلالم المبنى الدائرية وأعمدته الكورينثية وحجارة اللوحات الجصية الجدارية من جناحيه ملقاة في خرائب. ومن هيكله الذي يشبه الكهوف، والذي قصف بالقنابل برز أطفال نحفاء كعيدان القصب مثل أشباح صغيرة، ويعرضون بطاقات بريدية مصفرة لما كان يبدو عليه القصر قبل ثلاثين عاماً: مبنى ضخم باذخ في نهاية طريق كأنها شانزيليزيه أفغانية. وتحت مدى بسطة الدرج المهجور كان يوجد دم ولحم لرجلين نسفا بقنبلة في اليوم السابق. من كانا؟ ومن الذي زرع القنبلة؟ في بلد مسترق للقتلة قتلاً جماعياً أو "للقادة المحليين"، مثلما يفضل الأمريكيون أن يسموا أمراء الحرب المجاهدين، يبدو السؤال نفسه غريباً (سريالياً).

على بعد مائة ياردة، كان رجال يتحركون بملابسهم الزرقاء حركة صارمة في رتل أحادي: إنهم مزيلو الألغام. والألغام هنا مثل القمامات، وهي تقتل وتشوه، وهي محسوبة، في كل ساعة من كل يوم. وعبر خط من الأعلام الحمر المرفرفة في سديم ضبابي، مشى شبح رجل، وهو يلوح بذراعيه ويصيح. إنه لاجئ عائد حديثاً من باكستان، وهو مصمم على استصلاح بيته على الرغم من أنه محاط بالألغام. وصاح "إنه حقي!" وقبل يومين من ذلك، قام رجل آخر وعائلته بفعل الشيء نفسه، وجمع الرجال ذوو الملابس الزرقاء بقاياهم في ملاءة.

وبالقرب من ذلك توجد بقايا سينما كابل المشهورة ببنائها الزخرفي الفني الخاص، وفيها يطقطق البناء ويتداعى ويسقط على الأطفال وهم يعلبون في أنقاضه. وهناك ملصقات تحذر من وجود قنابل عنقودية لم تنفجر، "صفراء ومن الولايات المتحدة الأمريكية"، موجودة على مقربة من المكان. وكان الأطفال يطارد بعضهم بعضاً إلى الظلال، وكان يراقبهم فتى دون العشرين برجل اصطناعية، وبوجهه الذي فقد جزءاً منه. فالناس مازالوا يخلطون بين أوعية القنابل العنقودية وبين الصرر الصفراء للإغاثة التي سبق أن ألقتها الطائرات الأمريكية في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2001، بعد أن قام "التحالف" الغازي بإيقاف قوافل الإغاثة العابرة من باكستان.

وسألت شرطياً: "هل يقرأ أحد هذه الملصقات؟"

وأجابني: "هؤلاء لا يحسنون القراءة".

في الوقت الذي يقدر فيه عدد المدنيين الذين قتلوا مباشرة بالقصف والغزو الأمريكيين بعد 11 أيلول/ سبتمبر تقديراً محافظاً، بعدد يراوح بين ألف وثلاثمائة وبين ثمانية آلاف فقد كتب جوناثان ستيل تحقيقاً لجريدة الغارديان يقول فيه: إن ما يصل إلى عشرين ألف أفغاني، "ربما كانوا قد فقدوا حياتهم بنتيجة غير مباشرة، وإن القصف... سبب اقتلاعاً ضخماً للسكان من مواقع سكناهم عن طريق الحث الفوري لمئات من الأفغان على الهرب من بيوتهم. وأوقف القصف إمدادات المعونة التي كانت تقدم إلى ضحايا الجفاف الذين كانوا يعتمدون على إغاثة الطوارئ. واستثار القصف جيشاناً في القتال... أدى إلى هرب المزيد من الناس حتى ذلك الوقت... وهم، أيضاً، ينتمون إلى حساب الموتى"[1].

حين سقطت أول القنابل، تحدث الرئيس بوش إلى ضحاياه من المكتب البيضاوي وقال: "سوف يعرف شعب أفغانستان المضطهد كرم أمريكا. ففي الوقت الذي نضرب فيه الأهداف العسكرية، سوف نقوم أيضاً بإسقاط الطعام، والدواء، والإمدادات للرجال وللنساء وللأطفال الذين يتضورون جوعاً ويعانون في أفغانستان. إن الولايات المتحدة صديقة للشعب الأفغاني". ووعد الرئيس بتكرار خطة مارشال التي تلت "النصر الأخلاقي" للحرب العالمية الثانية.[2]

وفي الأسبوع السابق، في مؤتمر حزب العمال، كان طوني بلير قد قال بطريقة مشهودة لا تنسى: "إلى الشعب الأفغاني، نقدم هذا الالتزام. نحن لن نتراجع... وإذا تغير نظام الطالبان، فسوف نعمل معكم لنتثبت من أن خليفتهم هو حكم يستند إلى قاعدة واسعة، وهو حكم يوحد كل الجماعات العرقية ويقدم طريقة ما للخروج من الفقر الذي يشكل وجودكم البائس"[3].

كل كلمة تفوه بها بوش وبلير كانت زائفة تقريباً. وتصريحاتهما عن الاهتمام كانت أوهاماً قاسية مهدت الطريق لقهر العراق وأفغانستان معاً. ومع تكشف ألغاز

الاحتلال الأنجلو أمريكي للعراق، فقد يثبت، أن الكارثة المنسية في أفغانستان، وهي "النصر" الأول في "الحرب على الإرهاب" تكوّن دليلاً محسوساً أشد فظاعة وصدماً على العواقب الحقيقية للقوة الاستعمارية المعاصرة.

ومن بين كل الأزمات الإنسانية التي تعيها الذاكرة الحية، فما من بلد أسيء له أكثر مما أسيء إلى أفغانستان، وما من بلد عانى أكثر منها، وما من بلد كان يتلقى عوناً أقل مما تلقت. في العصبة الدولية للضحايا ذوي القيمة وللضحايا من غير ذوي القيمة، الأفغانيون هم أقل الضحايا قيمة. فالبوسنة، وفيها ربع السكان ولكنها احتُضِنَت بصفتها قضية ليبرالية من الغرب، تتلقى 356 دولاراً لكل شخص، أما أفغانستان فتحصل على 42 دولاراً لكل شخص. و3 بالمائة فقط من كل العون الدولي الذي صرف في أفغانستان كان من أجل إعادة الإعمار. ويذهب 84 بالمائة من العون إلى "التحالف" العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة. وهذا هو الذي دفع المال اللازم من أجل الغزو، ولتأسيس القواعد العسكرية وتدريب جيش مذعن وتجهيزه.[4]

و"العون" الأجنبي الآخر جهز المكاتب الحديثة التي تقيم فيها 1,025 وكالة للأمم المتحدة و"المنظمات غير الحكومية" الدولية في ضاحية كابل الخاصة فقط، المشهورة بإجاراتها الباهظة، وبسيارات الجيب المكيفة، وبمحلات الطعام المستورد للأجانب فقط. وبمخازن المشروبات الكحولية. والنادي الإيرلندي للأجانب فقط محروس من رجال يحملون بنادق إي كي-47، والموظفون والأفغان أطلقت عليهم أسماء إيرلندية: شين، وكيفن، وجيمي، وجورج.

بعض المنظمات غير الحكومية تقوم بعمل قيّم، وكثير منها لا يفعل ذلك. يصف عاملان بريطانيان في العون هما كرس جونسون وجوليون ليزلي كيف أن منظمة غير حكومية أمريكية تسمى كرييتف أسوشيتس إنترناشيونال إنكوربوريتيد (المشاركون الإبداعيون الدوليون المساهمة)، وهي من دون أي خبرة سابقة في أفغانستان، كسبت عقداً تعليمياً كبيراً بوصفها جزءاً من اتحاد مؤسسات (كونسورتيوم) ليس لديها إلا القليل لتبرزه في ميدان التعليم مقارنة

بالمنظمة المتقدمة الثانية التي رفضت. والمنظمة الأولى، أسوشيتس كرييتف تقوم الآن "بتطوير التعليم" في العراق المحتل في مقابل عقد يمكن أن تكون قيمته 157 مليون دولار. وكما عبر عن ذلك مدير شركة أخرى تقدم عرضاً من أجل شريحة من الفطيرة: "نحن لا نستطيع أن نخسر – والرجال في واشنطون لم يضمنوا لنا أصولنا في هذا المكان وحسب، بل ضمنوا لنا أرباحنا أيضاً"[5].

في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2002، وحين كانت طالبان تلوذ بالفرار، اجتمع قادة العالم الثري في طوكيو وتعهدوا بدفع 4,5 بليون دولار إلى أفغانستان على مدى خمس سنوات. وكان هذا المبلغ أقل من نصف المبلغ 10 بلايين دولار الذي صرف على قصف البلاد وغزوها. وبعد ثلاث سنوات، لم يصل منه إلا القليل إلى الحكومة الأفغانية، التي يطير رئيسها المعين حامد قرضاي طيراناً منتظماً إلى واشنطون ليستعطي من أجل المزيد. وما أعلن بعدئذ بصفة "عون جديد لإعادة الإعمار" كان جرة العسل نفسها التي ارتشف منها الأمريكيون المتعددو الجنسيات العقود في أفغانستان والعراق بقيمة زادت عن 8 بلايين دولار. وفي العام 2003، تلقى قرضاي وعداً بالحصول على 50 مليون إضافية أخرى من أوفرسيز برايفيت إنفسمنت كوربوريشن (شركة الاستثمار الخاص وراء البحار)، وهي وكالة حكومية، ولكن على شرط أن يذهب مبلغ 35 مليون دولار إلى إنشاء فندق الحياة في كابل من فئة خمس نجوم.[6]

والأرباح المتوافرة من الفندق، الذي سيكون في معظمه للأجانب، سوف تعود من أفغانستان إلى موطنها. وعلى بعد بضعة مجمعات سكنية، يجري بناء السفارة الأمريكية في كابل بتكلفة 300 مليون دولار، وهو رقم خصصته، بالصدفة، واشنطون وغيرها من "البلدان المانحة" الغنية الأخرى من أجل إعادة إنشاء كل الطرق الرئيسية في أفغانستان، وهي لا تكاد تكون موجودة، ومبلغ 300 مليون دولار سيبنى 50 ميلاً من الطرق فقط. وللإضاءة على الكيفية التي صدرت بها أمريكا "الديمقراطية إلى العالم"، وصف رئيس العون الأمريكي، آندرو ناتسيوس، "العون" بأنه "أداة رئيسية للسياسة الخارجية". وانطلاقاً من رغبته في ألا

يترك أي شك حول ما عناه، قال: "المساعدة الأجنبية تساعد على تطوير الأمم وتحريك انتقالها نحو الأنظمة الديمقراطية واقتصادات السوق، وهي تساعد الأمم على الإعداد من أجل المشاركة في نظام التجارة العولمية ولتصير أسواقاً أفضل للصادرات الأمريكية"[7].

حكومة قرضاي واجهة، اختارتها الولايات المتحدة بيدها و"انتخبت ديمقراطياً" كما ينبغي في انتخابات هزلية في العام 2004، وهي حكومة لا تملك أي سيطرة على الاقتصاد وهي محرومة من وجود ميزانية مناسبة. وقد أخبرني عمر زاخيوال، وهو مستشار لوزير الشؤون القروية، أن الحكومة قد تسلمت أقل من 20 بالمائة من العون الموعود لأفغانستان من "المانحين". وقال: "نحن لا نستطيع أن ندفع حتى الأجور".

وسألته: "كم تملكون من أجل إعادة الإعمار؟"

"لا شيء".

"لا شيء؟"

"حكومة أفغانستان لا تملك أي مال. نقطة على السطر"[8].

ومع ذلك، فإن تجارة الأفيون، التي حظرتها طالبان، هي في أعلى مستوى لها من النشاط. وملايين الدولارات تمر عبر كابل بوصفها نقود مخدرات، والكثير منها يكون الحصول عليه بصفة رشا الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى أمراء حرب المافيا الذين يمسكون بالسلطة الحقيقية في "الديمقراطية الجديدة"، كما سماها بوش. هؤلاء هم المجاهدون السابقون الذين كان جيشهم من العصابات قد أنشيء بشكل فعال على أيدي الأمريكيين في الثمانينيات من 1980 ليكون أداة في الحرب الباردة. وفي الوقت الذي كانت إدارة بوش تعد فيه من أجل الهجوم على أفغانستان في أعقاب 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001 – على الرغم من كل الدلائل التي تربط الهجوم على مركز التجارة بالمملكة العربية السعودية – فقد اجتمع عملاء الاستخبارات المركزية الأمريكية مع عملائهم القدامى على الحدود مع

باكستان وسلموا لهم ملايين الدولارات نقداً. وكان مسؤول في الاستخبارات المركزية الأمريكية قد أخبر جريدة وول ستريت جورنال بالقول: "كنا نحاول أن نتواصل مع كل قائد استطعنا إليه سبيلاً".

وكان يعني بكلمة "نتواصل" رشوتهم ليتوقفوا عن قتال أحدهم للآخر وليقاتلوا الطالبان بدلاً من ذلك. وفي تاريخه شبه الرسمي يروي بوب وودورد، مراسل الواشنطون بوست، أن الاستخبارات المركزية الأمريكية صرفت 70 مليون دولار في الرشا.[10] ويصف بوب اجتماعاً بين عميل للاستخبارات المركزية الأمريكية معروف باسم "غاري" وبين أمير حرب يسمى أمنيات – مللي فيقول:

وضع غاري ربطة من النقد على الطاولة: 500.000 دولار في عشر رزم بارتفاع قدم واحد من فئة 100 دولار. وكان يعتقد أنها ستكون أكثر تأثيراً من مبلغ 200.000 دولار المعتاد، وأفضل طريقة للقول: نحن هنا، نحن جادون، وها هو المال، ونحن نعلم أنكم بحاجة إليه... ثم يطلب غاري في الحال من قيادة الاستخبارات المركزية الأمريكية مبلغ 10 ملايين دولار نقداً ويستلمها.[11]

سمّى أمراءُ الحرب أنفسَهم تحالف الشمال، وقاموا هم والقصف الأمريكي بدفع رفاقهم المجاهدين السابقين، الطالبان، إلى الجبال. واليوم، وبغض النظر عن مزاعم حكومة قرضاي، التي لا تسري أوامرها إلى أبعد من بوابات كابل، فإن الطالبان يعودون خلسة. وفي الوقت نفسه، يحكم أمراء حرب الاستخبارات المركزية الأمريكية أفغانستان بالخوف والابتزاز.

وأمير الحرب العميل المفضل لدى أمريكا هو الجنرال رشيد دوستم، وهو زعيم حزبي أوزبكي يحكم إقطاعيته من المدينة الشمالية مزار شريف. وسمعته بالقسوة الوحشية تتضمن ربط أعدائه بالسلاسل تحت سُرَف (جنازير) الدبابات، وهو سيئ السمعة نتيجة حصار كوندوز في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2001، وهو الحصار الذي انتهى في قلعة قذرة، هي قلعة جهانغي، وفيها جُمِع آلاف من أسرى الحرب الطالبان على أيدي رجال دوستم، ثم قصفوا بالقنابل العنقودية من

الطائرات الأمريكية. والذين كتب لهم البقاء على قيد الحياة من الأسرى صُبّ الزيت عليهم وأشعلوا بالنار، أو أطلقت النار عليهم وأيديهم مصفدة خلف ظهورهم. وبحسب ما جاء في فيلم وثائقي أخرجه مخرج هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) السابق جامي دوران، فإن ثلاثة آلاف أسير، من أصل ثمانية آلاف أسير كانوا قد استسلموا، اختنقوا أو ماتوا من جروخهم في حاويات مغلقة، ودفنت جثثهم في قبور جماعية. ويقول أحد جنود دوستم في فيلم دوران: "كنت شاهداً حين كسر جندي أمريكي عنق أحد السجناء وصب حمضاً على آخرين. لقد فعل الأمريكيون ما شاؤوا. ولم نكن نحن نملك السلطة لإيقافهم"[12].

وقد كتبت إيزابيل هيلتون، وهي كاتبة عمود في الغارديان:

من المؤكد أن المعنى الذي تدور حوله الحضارة هي أنها لا تنحدر باستخفاف إلى الرعب والبربرية... فنحن نسمع، أن لدى الأفغان نزعة نحو الهمجية وأنه سيكون من غير المعقول أن نتوقع حرباً في أفغانستان يتم القتال فيها وفق قواعد كوينزبري*. ولكن حرب من هذه؟... هل كان [الأمريكيون] يقاتلون وفقاً لقواعد دوستم أم وفقاً لقواعدهم؟ أو أننا لسنا بعد الآن نهتم بالتمييز؟[13]

لم يتغير أي شيء: لم تتغير القنابل العنقودية، التي سبق أن جربت في فيتنام، ولم يتغير العملاء البرابرة، الذين يعود نسب أسلافهم إلى البريطانيين في أفغانستان، ولم تتغير الصدمة الدائمة الممتدة إلى الضمير الليبرالي حين أجبر على الاعتراف بأن "الرعب والبربرية" هما ممارسة معيارية تماماً في جانبنا "نحن".

ومنذ ذلك الوقت أعلن الجنرال دوستم نفسه ركناً من أركان "الديمقراطية الجديدة"، لا بل إنه يترشح للرئاسة في انتخابات العام 2004. وقوته هي المال، ومعظمه دولارات، وقواته العسكرية، المنتشرة في نقاط التفتيش الحدودية مع أوزبكستان، تنهب ثروة عوائد الجمارك. لقد أضاف بركة سباحة داخل المنزل

* إشارة إلى قواعد الملاكمة التي وضعها المركيز كوينزبري (1800 – 1900)، مثل لبس القفازات، وتخصيص 3 دقائق للجولة، والعد 10 للاعب الذي سقط...إلخ. (المترجم)

على الطراز الروماني، وهي كاملة مع الثريات، إلى واحد من قصوره، وقد دشن بركة السباحة هذه بالسباحة فيها مع رفاقه من قوات العمليات الخاصة الأمريكية، المعروفين باسم "فريق النمر 02".

إن أفغانستان اليوم هي ما دعته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في أيامها الفيتنامية "الوهم الكبير" "للقضية" الأمريكية. وبحسب ما يقوله جورج دبليو. بوش، فإن البلاد قد دخلت في "عصر جديد من الأمل". وبالنسبة إلى قلة من الأفغان، هناك بعض الحقيقة في هذا الكلام، في كابل، فإن حريات معينة أنكرتها الطالبان قد عادت مؤقتاً: ومنها عزف الموسيقى والرياضة البدنية، وإعادة فتح مدارس البنات، مع دستور جديد يعطي النساء حقوقاً أساسية مثل حق الاقتراع. وفي انتخابات العام 2004، فإن أول صوت اقترع أمام آلات تصوير التلفاز كان من سيدة في التاسعة عشرة من عمرها، وظهرت صور النساء وهن يصطففن لتسجيل أصواتهن على الصفحات الأولى من الصحف الأمريكية. وزعمت حكومة قرضاي أن 40 بالمائة من المقترعين كانوا من النساء. وفي الحقيقة، مثلما روى المراقبون، بلغ الرقم في انخفاضه إلى 10 بالمائة، والكثيرات من النساء اللواتي سجلن منعن من الاقتراع.[14]

وفي انتخابات العام 2005 – للمجلس النيابي (البرلمان) وللمجالس المحلية – سيطرت المهزلة. فبعد أن حظر قرضاي على الأحزاب السياسية المشاركة، فإنه بذلك خفض الاقتراع إلى منافسة في الشعبية بين 5800 شخص. وأكثر من نصف المقاعد في المجلس الأدنى ذهب إلى أمراء الحرب، وإلى الجهاديين وزعماء الطالبان السابقين، وكثيرون منهم في حالة حرب أحدهم مع الآخر. وشملوا أمثال الحاج مولوي قلم الدين، رئيس إدارة طالبان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومصدر أقسى أوامر طالبان، مثل إغلاق مدارس البنات، ورجم الزناة المحصنين حتى الموت. وفي أثناء الحملة الانتخابية، تعرضت المرشحات للتخويف وهوجمن، وفي مقاطعة هلمند، وضعت ملصقات تعلن عن جائزة قدرها 4000 دولار لمن يقتلهن. ويقال إن الفوضى كانت لضمان أن يحافظ الأمريكيون على السيطرة النهائية. ولكنها بدلاً من ذلك تضمن أن يكونوا هم الملومين وأن تجعلهم الأعداء الجدد.

بالنسبة إلى 90 بالمائة من السكان الذين يعيشون خارج نطاق المدن، ليس هناك أي تحرير. وبالنسبة إلى كثيرين، يبدو الأمر وكأن طالبان لم ترحل أبداً، وبالنسبة إلى بعضهم، فإنهم يفتقدون شيوخ طالبان في اللباس الأسود المتطهرين للغاية والذين عاقبوا قطع الطرق، والاغتصاب والقتل. فمن بعدهم، قام أمراء الحرب "بشكل أساسي بخطف البلد"، كما تقول جماعة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش). فالجنود والشرطة يخطفون القرويين ويتمتعون بحصانة يفلتون بها من العقاب ويمسكون بهم من أجل دفع الفدية في سجون غير رسمية. وأما اغتصاب النساء، والفتيات، والصبيان، والنهب المسلح والقتل العشوائي فهي جرائم منتشرة على نطاق واسع. وكثير من مدارس البنات تحرق حالما تفتح. وتروي جماعة حقوق الإنسان في تقاريرها: "نظراً إلى أن الجنود يستهدفون النساء والفتيات فإن الكثيرات منهن يبقين في بيوتهن، وهو ما يجعل من المستحيل عليهن أن يداومن في المدرسة [أو] أن يذهبن إلى العمل".

في المدينة الغربية هيرات، تعتقل النساء إذا سقن سيارة، فهن ممنوعات من السفر مع رجل غير قريب لهن، ولو كان سائق سيارة أجرة، ويخضعن "لاختبار العفة" إذا قبض عليهن، مبدّدين بذلك خدمات طبية ثمينة، وهي خدمات تقول عنها جماعة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) "لا تكاد النساء والفتيات يملكن أي وصول إليها، وخصوصاً في هيرات، التي تلد فيها نسبة أقل من 1 بالمائة من النساء على يد قابلة مدربة". وبحسب ما تقوله اليونيسيف (صندوق الطفولة في الأمم المتحدة)، فإن نسبة الوفيات في الأمهات الأفغانيات اللواتي يلدن هي أعلى نسبة في العالم. ويحظر على الرجال تعليم النساء والبنات. ولا يسمح للفتيات وللفتيان أن يكونوا في المباني المدرسية في الوقت نفسه.[15] وحتى العام 2004، كانت هيرات تحكم من أمير الحرب إسماعيل خان، الذي وصفه وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بأنه "رجل مُعجِبٌ... ومفكِّرٌ ومُقدَّر وواثق بنفسه"[16].

قال جورج دبليو. بوش في خطابه عن حالة الاتحاد في العام 2002، "في آخر مرة تقابلنا في هذه الحجرة كانت أمهات أفغانستان وبناتها أسيرات في بيوتهن،

ممنوعات من العمل أو الذهاب إلى المدرسة. أما اليوم، فالنساء حرَّات، وهن جزء من حكومة أفغانستان الجديدة. ونحن نرحب بالوزيرة الجديدة لشؤون النساء، الدكتورة سيما سامار"[17].

سيدة نحيفة، متوسطة العمر تضع إشارياً على رأسها وقفت واستقبلت الترحيب الحماسي المنسق الإيقاع. وهي طبيبة درست الطب بعد أن تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها، وكانت نشيطة في المقاومة في أثناء الغزو السوفيتي. وحين قبض على زوجها في العام 1984، ولم يُرَ من بعد ذلك مطلقاً، فرت هي وابنها الصغير إلى باكستان، وهناك أسست أول مستشفى للنساء اللاجئات الممنوعات من زيارة الأطباء. وصارت ناقدة شديدة للحجاب وللبرقع وكشفت أن الكثيرات من النساء كن يعانين من لين العظام، وهو تلين في العظام ينجم عن التغذية غير الكافية والتعرض القليل لضوء الشمس، وهو نتيجة لسجن النساء في بيوتهن. وعادت بجرأة إلى أفغانستان، وأنشأت أربعة مستشفيات وعشرة مستوصفات في المناطق الريفية وأدارت برامج للتعليم ودورات تدريب طبية لعشرين ألف طالبة، وكان ذلك في الغالب سراً. لا بل حين أغلق الطالبان اثنين من مستشفياتها، فإنهم عجزوا عن متابعة إسكاتها.

ولكن استخلاص بوش لها كان اختياراً قصير الحياة. فما إن تلاشى الهتاف في المجلس حتى كانت قد لُطِّخت بتهمة باطلة بالتجديف وأجبرت على الخروج من وزارة قرضاي الانتقالية. فأمراء الحرب لم يكونوا يتسامحون ولو بإشارة إلى تحرير المرأة. واليوم، تعيش الدكتور سيما سامار في كابل، في خوف مقيم على حياتها. ولديها حارسان شخصيان مخيفان مسلحان ببنادق آلية، واحد منهما يقف عند بوابتها، والآخر عند باب مكتبها. وهي تسافر بسرعة في عربة مقفلة مظللة معتمة. وقد قالت لي: "طوال السنوات الثلاث والعشرين الماضية، لم أكن آمنة، ولكني لم أكن أبداً مختبئة أو أسافر مع مسلحين، وهو ما يجب أن أعمله الآن... لم يبق هناك أي قانون رسمي يوقف النساء عن الذهاب إلى المدارس والعمل، وهناك قانون [جديد] عن نظام الملابس، ولكن الحقيقة الواقعة هي أنه لم يكن هناك، تحت حكم الطالبان نفسه، ضغط على النساء في المناطق الريفية مثل الموجود عليهن الآن"[18].

التمييز العنصري بين الجنسين قد يكون انتهى قانونياً، ولكن بالنسة إلى ما يصل إلى 90 بالمائة من النساء الأفغانيات، فإن "الإصلاحات" على الورق هي إصلاحات بلا معنى بمثل ما هي إشارة بوش إلى بطلهم. فالبرقع يبقى موجوداً في كل مكان. وكما تقول سيما سامار، فإن محنة النساء الريفيات هي في الغالب أكثر يأساً الآن، وذلك على خلاف الطالبان، الذين عاقبوا الجرائم المقترفة ضد النساء، فإن أمراء الحرب الآن هم الذين يقترفون هذه الجرائم مع وجود "حصانة تعفيهم بمعدل كبير"، بناء على ما تقوله منظمة العفو الدولية.[19]

في إحدى الأمسيات، عند مصنع أحذية مقصوف بالقنابل في كابل الغربية، وجدت سكان قريتين مجتمعين يجثمون على أرضية مكشوفة من دون إنارة ومع صنبور واحد يصب الماء قليلاً كالقطرات. وكانوا كأنهم مجتمع مختبىء، ومحروسون من كل نقطة دخول برجل عجوز ثابت، فالشباب كانوا قد اختطفوا على أيدي "القادة" ليقاتلوا مع القوات العسكرية. والأطفال يجلسون القرفصاء حول النيران المفتوحة على متاريس متداعية: في اليوم السابق، سقط طفل ومات، وفي اليوم الذي كنت فيه هناك، سقط طفل آخر وأصيب اصابة بالغة. ووجبة الطعام لهم هي الخبز المغموس في الشاي. وعيونهم التي تشبه عيون البوم هي عيون اللاجئين المذعورين في أرضهم الخاصة بهم. لقد سبق أن هربوا من بيوتهم، وشرحوا أن ذلك كان لأن أمراء الحرب نهبوهم، وخطفوا زوجاتهم وبناتهم وأولادهم، ويقومون باغتصابهم والاحتفاظ بهم لدفع الفدية. وأشاروا إلى امرأة تجلس القرفصاء مثل طائر مجروح.

وقال رجل عجوز: "مغتصَبة".

"ممن؟"

"قائد... أخذ عشر نساء من قريتنا".

"ماذا سيحدث لها؟"

"نحن نراقبها، ولكنها قد تقتل نفسها".

"هل حدث هذا تحت حكم الطالبان؟"

"لا. لم نكن نملك أي شيء، ولا حقوق، ولكن بيوتنا كانت مصونة، والطرق مأمونة"[20].

وقد عزز مارينا هذا القول. و"مارينا" هو الاسم الرمزي لشخصية قائدة من راوا* وهي الرابطة الثورية للنساء الأفغانيات، وهي التي كانت منذ العام 1977 قد نبهت العالم إلى معاناة النساء الأفغانيات. ونساء راوا مازلن يسافرن سراً في كل أنحاء البلاد، مع آلات التصوير المخبأة تحت الملابس الواسعة. وفي أثناء حكم الطالبان، صورت العاملات في راوا تنفيذاً رسمياً للأحكام وفظاعات أخرى، وهربن شريط الصور (الفيديو) إلى الغرب. وقالت مارينا: "لقد أخذناه إلى كل الجماعات الرئيسية من وسائل الإعلام. إلى رويترز، وإلى إي بي سي، وإلى أستراليا على سبيل المثال، وقالوا لنا: (نعم، إنه حسن جداً، ولكننا لا نستطيع أن نعرضه لأنه سيكون صادماً جداً للناس في الغرب)".

كان هذا قبل 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، حين اكتشف جورج دبليو. بوش ووسائل الإعلام الإمريكية نساء أفغانستان. وقالت مارينا: "صار الطالبان فجأة العدو الرسمي لأمريكا. نعم، لقد كانوا يضطهدون النساء، ولكنهم لم يكونوا فريدين في هذا، ونحن أبدينا سخطنا ضد الصمت في الغرب بشأن الطبيعة الوحشية لأمراء الحرب المدعومين من الغرب، والذين لا يختلفون أي اختلاف عن سابقيهم. ومن بعض النواحي، كنا أكثر أمنا تحت حكم الطالبان. كنت تستطيع أن تعبر أفغانستان في البر وتشعر أنك آمن. أما الآن، فإنك إن فعلت تحمل حياتك على راحتيك".

وتقابلنا خفية، وكانت تلبس خماراً لتخفي هويتها. وقالت لي وهي تفتح ملفاً سميكاً: "هذا هو ما يحدث في الريف تحت هؤلاء المدعوين قادة. في شهر آذار/مارس، قتلت فتاتان ذهبتا إلى المدرسة من دون البرقع الفضفاض ووضعت جثتاهما أمام بيتيهما. وفي الشهر الماضي، قفزت خمس وثلاثون امرأة في نهر مع

---

* Rawa.

أطفالهن وماتوا، وكان ذلك لإنقاذ أنفسهن فقط من القادة في هياج الاغتصاب. هذا ليس أمراً غير مألوف، إنها أفغانستان اليوم، فالطالبان وأمراء الحرب من التحالف الشمالي وجهان للعملة نفسها. ولو أن أمريكا لم تطور أمراء الحرب هؤلاء وتقويهم، لما كان أسامة بن لادن وكل قوات الأصوليين في أفغانستان في أثناء الغزو الروسي، ولما هاجموا السيد في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001"[21].

في ذروة الإمبراطورية البريطانية، في العام 1898، كتب اللورد كيرزون، نائب الملك في الهند يقول: "أعترف أن [البلدان] قطعٌ على رقعة الشطرنج، يجري اللعب عليها حتى النهاية لعبة كبيرة من أجل الهيمنة على العالم"[22]. وكان بهذا يشير إلى أفغانستان بشكل خاص، وهي التي كان البريطانيون ينظرون إلى طرق تجارتها الإستراتيجية بصفتها حيوية لإمساكهم بالسيطرة على آسيا الوسطى وحوض بحر قزوين. إن القسوة التي لا تعرف الرحمة و"الأوهام الكبيرة" في "اللعبة الكبيرة" محفورة في صفحات التاريخ الحديث لأفغانستان، وهي تخبرنا بالكثير عن أصول "الحرب على الإرهاب". إن الفصل السري هو دعم أمريكا وبريطانيا للجماعات القبلية المعروفة باسم المجاهدين والتواطؤ على الغش مع هذه الجماعات، والدور الحاسم الذي لعبته في شن الجهاد والتحريض عليه، وهو الأمر الذي أدى إلى الهجوم على "السيد" في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001.

إن المجاهدين الأفغان – الطالبان والقاعدة – أنشئوا في الحقيقة الفعلية على أيدي وكالة الإستخبارات المركزية، ومعادلتها الباكستانية، خدمات الاستخبارات الداخلية (آي اس آي)، والبريطانية م 16. وكان زبغينيو برجينسكي، الذي كان مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر في أواخر السبعينيات من 1970، قد اعترف بذلك، وكشف عن التعليمات السرية للرئيس كارتر لتمويل المجاهدين وتعاون أمريكا "مع السعوديين، والمصريين، والبريطانيين، والصينيين [البدء] توفير الأسلحة للمجاهدين"[23]. وكان برجينسكي، الذي ينظر إليه في واشنطون بوصفه المعلم في مسألة السلام الأمريكي، يعتقد أن حركات التحرير بعد الاستعمار ومكاسبها في كل أنحاء "العالم الثالث" مثلت تحدياً للولايات المتحدة، كما استبان ذلك عملياً

بالإذلال الحديث لأمريكا في فيتنام. وزيادة على ما تقدم، فإن أنظمة الحكم الأنجلو أمريكية العميلة في الشرق الأوسط والخليج، وبشكل بارز في إيران تحت حكم الشاه، كانت أنظمة معرضة للخطر من القوات المتجمعة للتمرد.

وكانت المشكلة الفورية، على كل حال، هي مجيء أول حكومة علمانية تحديثية إلى السلطة في أفغانستان، وهي الحكومة التي وعدت بإصلاحات اجتماعية لم يسمع بها من قبل. وقد شكل هذه الحكومة حزب الشعب الديمقراطي لأفغانستان، الذي كان قد عارض الحكم المطلق للملك ظاهر شاه، وقام بالتعاون مع ضباط عسكريين تقدميين بقلب نظام حكم ابن عم الملك، وهو محمد داوود، في العام 1978. وروت نيويورك تايمز، أن معظم الصحافيين في كابل، وجدوا أن "كل أفغاني قابلوه تقريباً قال [إنهم كانوا] فرحين بالانقلاب"[24].

وربما كان هذا صحيحاً في المدن، وأما في الريف فإن الانقلاب قد أثار مقاومة مريرة من المسلمين التقليديين، وعلى وجه الخصوص حين لخصت الحكومة برنامج إصلاح احتوى على إلغاء الاقطاع، وعلى حرية الدين وعلى حقوق متساوية للنساء. كانت التغييرات جذرية (راديكالية) جداً إلى الدرجة التي ما زالت معها باقية حية في ذكريات أولئك الذين كانوا المستفيدين منها. وتسترجع سيرا نوراني، وهي جراحة هربت من الطالبان في سبتمبر 2001، وتقول:

كانت كل فتاة تستطيع أن تذهب إلى المدرسة الثانوية أو إلى الجامعة. وكنا نستطيع أن نذهب إلى المكان الذي كنا نريد الذهاب إليه ونلبس ما أحببنا... وكان من عادتنا أن نذهب إلى المقاهي ودور الخيالة (السينما) لنشاهد آخر الأفلام الهندية في يوم الجمعة... ولكن ذلك بدأ يبور ويخفق حين بدأ المجاهدون يكسبون... كان من عادتهم أن يقتلوا المعلمين وأن يحرقوا المدارس... لقد كان مضحكاً ومحزناً أن نفكر في أن هؤلاء المجاهدين هم الناس الذين كان الغرب يساندهم.[25]

وبالنسبة إلى واشنطون كانت المشكلة مع حكومة حزب الشعب الديمقراطي هي أنها كانت حكومة مدعومة من الاتحاد السوفيتي. وبناء على حث

برجينسكي، خول الرئيس كارتر، من دون أن يكون ذلك معروفاً للرأي العام الأمريكي ولا لمجلس الشيوخ، بصرف 500 مليون دولار لتمويل وتسليح المجاهدين: وفي الواقع، لإنشاء ما سيصفه الأمريكون الآن بأنه منظمة إرهابية. وكان الهدف هو إطاحة الحكومة الأفغانية وجر الاتحاد السوفيتي إلى أفغانستان.

وفي مقابلة أجريت مع برجينسكي في 1998، قال:

بحسب الرأي الرسمي للتاريخ، فإن عون وكالة الاستخبارات المركزية للمجاهدين بدأ في أثناء العام 1980، أي، بعد أن غزا الاتحاد السوفيتي أفغانستان في 24 ديسمبر من العام 1979. ولكن الحقيقة الواقعة، التي استمرت محروسة سراً حتى الآن، هي خلاف ذلك بشكل كامل. وفي الحقيقة، كان ذلك في 3 تموز/يوليو من العام 1979 حين وقع الرئيس كارتر أول التعليمات من أجل تقديم العون السري لخصوم نظام الحكم الموالي للسوفييت في كابل. وفي ذلك اليوم نفسه، كتبت ملاحظة إلى الرئيس شرحت له فيها رأيي في أن هذا العون سيؤدي إلى استفزاز التدخل العسكري السوفيتي... نحن لم ندفع الروس إلى التدخل، ولكننا وعن معرفة زدنا احتمال قيامهم بذلك.

وسئل برجينسكي إن كان شعر بأي أسف، بعد أن رأى العواقب. فأجاب: "أسف علامَ؟"

العملية السرية كانت فكرة رائعة. لقد كان لها الأثر في استدراج الروس إلى الفخ الأفغاني... وفي اليوم الذي عبر فيه السوفييت رسمياً الحدود، كتبت إلى الرئيس كارتر أقول: "نحن نملك الآن الفرصة لنعطي الاتحاد السوفيتي حربه الفييتنامية". وفي الواقع، طوال عشر سنوات تقريباً، كان على موسكو أن تنفذ نزاعاً سبّب لها كسر الروح المعنوية وجلب عليها في النهاية تفتيت الإمبراطورية السوفيتية.[26]

وطوال سبعة عشر عاماً، نمّت الولايات المتحدة عمداً تطرفاً تعلن ضده لاحقاً "الحرب على الإرهاب". وقد كتب نافيذ مصدق أحمد في كتابه الحرب على

الحقيقة: 11/9 والتزييف العمد للمعلومات وتشريح الإرهاب يقول: الأمر "المركزي للعملية التي رعتها الولايات المتحدة"،

هي المحاولة لصنع إيديولوجية متطرفة دينية عن طريق خلط التقاليد الإقطاعية الأفغانية المحلية مع البلاغة الإسلامية... والإيديولوجية المتطرفة الدينية "الجهادية" التي تمّت تنميتها في برامج التدريب التي رعتها وكالة الاستخبارات المركزية كانت إيديولوجية قد تخلّلتها الأعراف القبلية، وهي تبعث على ظهور نظام لقيم الحرب مشوه تشويهاً متميزاً ومكسو برطانة "إسلامية"... ومن بين مجموعة السياسات المصممة لتوليد المستوى المرغوب من التطرف، مولت الولايات المتحدة — في سلسلة من المبالغ تصل إلى ملايين الدولارات — إنتاج الكتب المدرسية في أفغانستان وتوزيعها، وهي كتب تروج القتل والتعصب.[27]

هذه الكتب المدرسية الأولية، كما كشفت عن ذلك الواشنطون بوست في العام 2002، "كانت مليئة بالحديث عن الجهاد وأبرزت رسومات للمدافع، وللرصاص، وللجنود وللألغام. لقد خدمت تلك الكتب منذ ذلك الوقت بصفتها لب منهج النظام المدرسي الأفغاني. لا بل إن طالبان استخدمت الكتب المنتجة أمريكياً". وبحسب ما قاله مسؤولون أمريكيون صريحون حياديون فإن الكتب المدرسية "غمست جيلاً في العنف"[28].

لقد صبت الإدارات الأمريكية 4 بلايين دولار في جيوب بعض أشد المتعصبين في العالم قسوةً وحشيةً. رجال من أمثال قلب الدين حكمتيار تسلموا عشرات الملايين من دولارات وكالة الاستخبارات المركزية. وكان اختصاص حكمتيار هو تهريب الأفيون والتحرش بالنساء اللواتي رفضن أن يلبسن الخمار. وحين دعي إلى لندن في العام 1986، أثنت عليه رئيسة الوزراء تاتشر بوصفه "مقاتلاً في سبيل الحرية". وبعد سقوط حكومة حزب الشعب الديمقراطي لأفغانستان في العام 1992، هاجم أمراء الحرب المجاهدون كابل بضراوة على قدر من الوحشية قتلت ما يقدر بخمسين ألف نسمة. وروت جماعة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) أنه "في العام 1994 وحده، قُتل ما يقدرون أنه 25.000 نسمة في كابل، معظمهم من

المدنيين، في هجمات صواريخ ومدفعية. وثلث المدينة تحول إلى كوم من الأنقاض"[29]. وقام حكمتيار، وكان أمير الحرب المفضل عند الغرب في ذلك الوقت، بإمطار كابل بالصواريخ التي زوده بها الأمريكيون، وقتل ألفي نسمة في يومين، إلى أن وافقت الفئات الأخرى على جعله رئيساً للوزراء.

وكانت لعبة برجينسكي، "اللعبة الكبيرة" قد توافقت مع طموح الدكتاتور الباكستاني الجنرال ضياء الحق، للهيمنة على المنطقة. وفي العام 1986، وافق مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليام كيسي على خطة قدمتها وكالة الاستخبارات الباكستانية، خدمات الاستخبارات الداخلية، لتجنيد أناس من جميع أنحاء العالم للالتحاق بالجهاد الأفغاني. وتم تدريب حوالي مائة ألف مقاتل إسلامي في باكستان بين عامي 1982 و1992، وهؤلاء كانوا هم الطالبان، التي تعني الطلاب. وكانت معسكرات المجاهدين تدار على أيدي وكالة الاستخبارات المركزية والبريطانية ام 16، مع قيام قوات خاصة بريطانية، وهي الخدمة الجوية الخاصة، بتدريب القاعدة المستقبلية ومقاتلي طالبان على صنع القنابل وعلى الفنون السوداء الأخرى. وفي الولايات المتحدة، تم تجنيد العاملين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين سيلتحقون في نهاية الأمر مع طالبان ومع أسامة بن لادن في كلية إسلامية في بروكلين، في نيويورك – على مرآى من البرجين – وتلقوا تدريباً شبه عسكري في معسكر وكالة الاستخبارات المركزية في فرجينيا. وسميت هذه العملية بالاسم الرمزي عملية الإعصار.

وسوء سمعة أسامة بن لادن كانت إنتاج هذه العملية. ففي أفغانستان، كتب جون كولي في حروب غير مقدسة: أفغانستان وأمريكا والإرهاب الدولي، إنه عمل

مع الموافقة الكاملة من نظام الحكم السعودي ووكالة الاستخبارات المركزية... لقد أحضر المهندسين من شركة والده ومعدات الإنشاءات الثقيلة لبناء الطرق والمستودعات للمجاهدين. وفي العام 1986، ساعد في بناء مجمع نفق مولته وكالة الاستخبارات المركزية، ليكون مستودع تخزين سلاح كبير، ومنشأة تدريبية ومركزاً طبياً للمجاهدين، في منطقة عميقة تحت الجبال بالقرب من حدود

باكستان... وأعطت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أسامة (بن لادن) الزمام الكامل في أفغانستان، مثلما أعطاه ذلك جنرالات استخبارات باكستان.[30]

وبحسب ما قاله مايكل سبرنغمان، الرئيس السابق لمكتب التأشيرة في جدة، كانت السياسة هي "إحضار المجندين الذين جمعهم أسامة بن لادن، إلى الولايات المتحدة لتلقي التدريب الإرهابي من وكالة الاستخبارات المركزية"[31].

وقد كتب نافيذ أحمد يقول إن عملية الإعصار:

زودت وكالة الاستخبارات المركزية بالقدرة على تجنيد الجماعات الإرهابية في كل أنحاء العالم الإسلامي، وتمويل تلك الجماعات وتدريبها. وكانت الغاية من هذه السياسات هي زعزعة استقرار الحركات القومية والشيوعية التي هددت المصالح الأمريكية... وهكذا فقد تم حشد المتطرفين في باكستان على أيدي وكالة الاستخبارات المركزية بالمشاركة مع السعوديين لنشر الطوائف المتطرفة في أفغانستان، وباكستان، والجزائر، واليمن، وإندونيسيا، والفلبين وغيرها من البلدان. وفي الوقت نفسه، فإن مراكز مالية غير قانونية متضافرة مع هذه الأخيرة تأسست في ماليزيا، ومدغشقر، وجنوب إفريقية، ونيجيريا، وأمريكا اللاتينية، وسويسرا، والمملكة المتحدة، وتركستان وفي غيرها من الدول.[32]

في أثناء هجوم حلف الأطلسي (الناتو) على صربيا في العام 1999، التحق مقاتلو القاعدة بجيش تحرير كوسوفو وقاتلوا إلى جانبه، وكان ذلك الجيش أيضاً ممولاً ومسلحاً من الولايات المتحدة — ومن القاعدة. وكانت الفريسة الطريدة لإدارة كلينتون آنئذ هو سلوبودان ميلوسوفيتش وكانت الغاية التي تتغياها الولايات المتحدة هي التمزيق النهائي ليوغوسلافيا "الاشتراكية" المتعددة الأعراق. وهذا ما تم إنجازه على أيدي العشيرين الصابرين على العناء: السياسة الخارجية الأمريكية (القصف بالقنابل) و"الإرهاب الإسلامي". مثل هذه المفارقة الساخرة المهمة التي ساعدت على تفسير صعود الجهاديين، غابت عن نظر وسائل الإعلام التي روت "تحرير" كوسوفو.

ويكتب برجينسكي في كتابه في العام 1997، وهو رقعة الشطرنج العظيمة: الأوليّة الأمريكية وأوامرها الجغراستراتيجية، ويقول: "منذ أن بدأت القارات بالتفاعل سياسياً، منذ ما يقرب من 500 سنة، كانت أوراسيا هي مركز قوة العالم"[33]. ويعرف برجينسكي أوراسيا بأنها كل الأرض الواقعة إلى الشرق من ألمانيا وبولندا، والممتدة عبر روسيا والصين إلى المحيط الهادئ ومن جملتها الشرق الأوسط ومعظم شبه القارة الهندية. والمفتاح إلى السيطرة على هذه المساحة الشاسعة من العالم هو آسيا الوسطى. فالهيمنة على تركمانستان، وأزبكستان، وطاجيكستان، وقيرغيزستان لا تضمن فقط مصادر جديدة للطاقة وثروة معدنية، بل هي أيضاً "مركز حراسة" للسيطرة الأمريكية على نفط الخليج الفارسي.[34]

ويقول برجينسكي إن الأولية الأولى قد تحققت. وهذه هي الإخضاع الاقتصادي للقوة الكبيرة السابقة. فحالما انهار الاتحاد السوفيتي، نهبت الولايات المتحدة 300 بليون دولار تقريباً في أصول روسية، وزعزعت بذلك استقرار العملة وضمنت أن روسيا التي أُضعِفت لن يكون لها خيار سوى النظر غرباً إلى أوروبة من أجل الانتعاش الاقتصادي والسياسي، أكثر من النظر جنوباً إلى آسيا الوسطى. وما يدعوه برجينسكي "حروباً محلية بصفتها ردود فعل على الإرهاب"، من مثل غزو أفغانستان، هي بداية لنزاع نهائي يقود على نحو لا يرحم إلى حل الحكومات الوطنية والهيمنة على العالم من طرف الولايات المتحدة. الدول الأمم سوف تدمج في "النظام الجديد" الذي تسيطر عليه سيطرة منفردة المصالح الاقتصادية حسبما تمليها المصارف الدولية، والشركات الكبيرة والنخب الحاكمة المهتمة بصيانة قوتها (بالتلاعب وبالحرب). ويكتب بريجينسكي "ولنضعها في مصطلحات تنصت باهتمام إلى الماضي إلى عصر أكثر الإمبراطوريات القديمة وحشية، فإن الأوامر العظيمة للجغراستراتيجية الاستعمارية هي لمنع الصدام ولإدامة الاعتماد الأمني بين الأتباع، ولإبقاء دافعي الجزية سلبيي الانقياد ومحميين ولمنع البرابرة من الاتحاد معاً"[35].

وبعد أن أنعم النظر في رماد الاتحاد السوفيتي الذي ساعد على تدميره، وفي الجهاد الإسلامي الذي ولده والإرهاب الذي سانده، قال بريجينسكي وهو يستغرق

في التفكير: هل كان مهماً أن هذا قد أوجد "قلة من المسلمين المستَفَزين؟" وفي 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، "قلة مستفزَّة من المسلمين" قدمت الجواب. وحين قابلت بريجينسكي في واشنطون في العام 2003، سألته إن كان قد أسف من العواقب. غضب جداً ولم يجب.

إن الإمكانات الكامنة من احتياطيات النفط والغاز لحوض بحر قزوين قد أثارت الاستعماريين منذ اكتشاف النفط هناك في نهاية القرن التاسع عشر. ولم تكن أمريكا والقوى الأوروبية فقط هي التي أرادت حقول النفط القزويني. إن هتلر، في غزوه لروسيا، وقبل أن ينفد الوقود منه ويهزم أمام ستالينغراد، كان قد خطط "لأخذ الجائزة المنقِذة من المصادر القزوينية، ويندفع بعدئذ جنوباً من أجل الجائزة الكبرى وهي من فارس والعراق"[37]. وبالنسبة إلى الغرب، فإن الاتحاد السوفيتي قطع الطريق إلى بحر قزوين، البحر الداخلي الشاسع الذي قيل عنه، ربما قولاً متفائلاً، بأنه يحتوي على ثلث نفط العالم وغازه.

ومع ذهاب الاتحاد السوفيتي، آلت الهيمنة في "اللعبة العظيمة" و"رقعة الشطرنج" الخاصة بها إلى إدارة بل كلينتون. وصرح وزير الطاقة بل ريتشاردسون، أن الجمهوريات السوفيتية السابقة في آسيا الوسطى هي "كلها حول أمن طاقة أمريكا. ونحن نود أن نراها معتمدة على الاستثمارات التجارية والسياسية الغربية في بحر قزوين، ومن المهم جداً لنا أن تأتي خريطة أنبوب النفط والسياسات المتصلة به في النتيجة على الوجه الصحيح"[38].

وما كان يعنيه هو أن نفط المنطقة وغازها سيكون بلا قيمة من دون الوسائل اللازمة لحمله إلى موانئ المياه العميقة. كان هناك ثلاثة مسارات يمكن لخط الأنابيب المتوجه إلى الغرب أن يسلكها وهي: عبر روسيا، أو إيران، أو أفغانستان. وبالنسبة إلى واشنطون كان الاعتماد على روسية لعنة، وإيران كانت هي البلاد التي أمضت أمريكا في عزلها أكثر من عقدين من الزمان. فلم يكن مثيراً للدهشة أن الطالبان، حين تولوا السلطة، في كابل في العام 1996، وهم آخر طفرة في

عملاء أمريكا المجاهدين، وجدوا أنفسهم محاطين بتودد جماعة الضغط (اللوبي) الخاصة بالنفط وأصدقائه في الإدارة وفي وسائل الإعلام.

ولاحقاً لأحداث 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، لم يكن أحد أكثر حماسة في الدعوة إلى الإطاحة بطالبان من وول ستريت جورنال. ومع ذلك، فإن هذه الصحيفة، وهي الصوت الأصيل لرأس المال الأمريكي، كانت قبل خمس سنوات من أحداث ايلول/سبتمبر، قد ضربت نغمة مختلفة اختلافاً كاملاً. فالطالبان، كما صرحت الصحيفة "هم أقدر اللاعبين على تحقيق السلام في أفغانستان في هذه اللحظة من التاريخ". وزيادة على ما تقدم، فإن نجاح هؤلاء الأصوليين للغاية كان حاسماً من أجل ضمان أفغانستان لتكون "الطريق الأول للشحن العابر من أجل تصدير نفط آسيا الوسطى الهائل وغازها والمصادر الطبيعية الأخرى"[39].

وفي شهر شباط/فبراير من العام 1999، قام جون جيه. ماريسكا، نائب الرئيس للعلاقات الدولية في شركة الاتحاد للنفط (يونيون أويل كمباني) يونوكول، بإعادة طمأنة تحقيق من مجلس الشيوخ بالقول: "إن الطالبان لا تمارس نموذج الأصولية المناوئ للولايات المتحدة الذي تمارسه إيران". ولم يأت على ذكر لتطرف طالبان، وبشكل ملحوظ اضطهادها للنساء. وكانت شركة يونوكول قد وقعت سراً عقداً لتصدير ما قيمته 8 بلايين دولار من الغاز الطبيعي عبر خط أنابيب قيمته 3 بلايين دولار كانت الشركة ستبنيه من تركمانستان، عبر أفغانستان إلى باكستان.[40] وكانت طالبان ستتلقى خمسة عشر سنتاً عن كل ألف متر مكعب تضخها الشركة عبر أفغانستان.[41] إن مشكلة سمعة طالبان كانت معروفة سلفاً، فبعد وقت قصير من استيلاء الملالي على السلطة في العام 1996، أسقطت وزارة الخارجية أفغانستان من قائمة الحكومات التي "تحمي الإرهابيين وتروج لهم". وكون نظام الطالبان في ذلك الوقت يؤوي أسامة بن لادن لم يكن عاملاً في الموضوع. وحين سئل دبلوماسي أمريكي كبير عن سجلهم المرعب في حقوق الإنسان، قال إنه كان من المحتمل أن " يتطور الطالبان مثل السعوديين، " يديرون مستعمرة نفط مع عدم وجود ديمقراطية و"الكثير من أحكام الشريعة" مثل الاضطهاد المشروع للنساء. وقال: "نحن نستطيع أن نتعايش مع ذلك"[42].

في دراسة أحمد رشيد في جامعة ييل بعنوان طالبان، كتب يقول: "إن وزارة الخارجية ووكالة استخبارات الخدمة الداخلية لباكستان وافقتا على أن توجه الأسلحة والتمويل إلى طالبان في حربهم ضد التحالف الشمالي الطاجيكي عرقياً. وحديثاً، في العام 1999، دفع دافعو الضرائب الأمريكيون الراتب السنوي الكامل لكل فرد رسمي من طالبان"[43].

وكانت الخطط الأولى لخط الأنابيب قد رسمتها شركة إنرون، وهي أضخم شركة طاقة في العالم، وكانت ستنهار في العام 2002 تحت وزن فسادها. وبحسب ما يقول مسؤول في المكتب الاتحادي للتحقيق، "حين كان كلينتون يقصف معسكرات بن لادن في أفغانستان في العام 1998، كانت إنرون تقوم بالدفعات الكاملة إلى العاملين من الطالبان ومن جماعة بن لادن للمحافظة على مشروع خط الأنبوب حياً. وليس هناك أي طريقة يستطيع بها أي شخص أن يقول إنه لم يكن يعلم بعلاقة الطالبان وبن لادن في ذلك الوقت، وخصوصاً شركة إنرون"[44].

وفي العام 1997، وبعد الموافقة على "مذكرة تفاهم" عن خط الأنبوب، طار قادة طالبان بسرية عالية إلى الولايات المتحدة، وهناك استقبلوا وأحيطوا بالتودد واستضيفوا استضافة سخية. وكانت زيارتهم سرية جداً إلى درجة أن بحثاً في محفوظات أخبار التلفزة أخفق في الكشف عن بند واحد عن الزيارة. ومع ذلك فالطالبان أنفسهم لم يكونوا خجولين جداً، واستأجروا مستشارة للعلاقات العامة وهي ليلى هيلمز الأفغانية جزئياً وابنة أخت المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية ريتشارد هيلمز. والرجال الذين يلبسون القميص والسروال التقليدي السابغ والفضفاض، والعمائم السوداء، والذين كانوا قد اعتادوا على الحياة من دون كهرباء ولا مياه جارية في البيوت تناولوا الطعام في البيوت المترفة لرجال أعمال النفط التكسانيين. وفي حفلة على شرفهم استضافها نائب رئيس شركة يونوكول مارتي اف. ميللر، عبروا عن دهشتهم من بركة سباحته الواسعة، وست غرف حمام ومناظر تطل على ملعب غولف. وقال ميللر: "في اليوم الأول، كانوا جامدين وحذرين، ولكنهم قبل مرور وقت طويل، كانوا مسترخين تماماً وسعداء. وسألوا

عن شجرة الميلاد لم هي؟ وكانوا مهتمين بمعرفة ماذا كانت النجمة". وكانت هذه "الضيافة التكسانية القديمة الجيدة". هي التي حسمت صفقة خط الأنبوب.[45]

وفي احتفال في مقر قيادة يونوكول، أُعطي الزوار هدية هي أول آلة فاكس سبق لهم أن حصلوا عليها، مع مولد لتزويد الآلة بالطاقة. وأول وثيقة جاءت تتلوى تنبأت أن خط الأنبوب يمكن أن يعطيهم 100.000 دولار صافياً على الأقل في السنة. ولإكمال خبرة الطالبان الأمريكية، طاروا إلى مركز الفضاء، مركز ناسا وإلى جبل رشمور، الذي حفرت فيه وجوه رؤساء الولايات المتحدة في صفحة التل، وأخيراً إلى سوق للتسوق، وهناك ذهبوا في نزهة في مخزن يبيع بتكلفة أقل من سلسلة حوانيت شركة تارغيت، واشتروا معجون أسنان، وصابوناً، وأمشاطاً، وما يبعث على الاهتمام، جوارب نسائية.[46]

وبالنسبة إلى "المجلس العسكري للغاز والنفط" الأمريكي، كما تعرف جماعة الضغط الخاصة بالنفط هذه الأيام في واشنطون، فإن كل شيء كان يجري بيسر ونجاح. وحين تدبرت يونوكول صفقتها بنجاح مع طالبان، فعلت ذلك نيابة عن اتحاد شركات (كونسورتيوم) من إنرون، وأموكو، وبريتش بتروليوم، وشيفرون، وإكسون، وموبيل. وكان صناع الصفقة الرئيسيون هم ديك تشيني، وزير الدفاع السابق ونائب الرئيس في المستقبل، وكان آنئذ رئيس شركة هاليبرتون، الشركة العملاقة لتسهيلات النفط، وجيمس بيكر، وزير الخارجية السابق تحت رئاسة جورج بوش الأب. وأما كوندوليزا رايس المستشارة المستقبلية للأمن القومي لجورج دبليو. بوش، والتي تشغل الآن منصب وزيرة الخارجية، فكانت آنئذ نائبة الرئيس لشركة شيفرون للنفط مع المسؤولية عن آسيا الوسطى.

يدخل أسامة بن لادن، وهو من قبلُ عدو صريح للولايات المتحدة يعيش في أفغانستان. وقد صار بن لادن قلقاً من أن الطالبان، إذا تقدمت صفقة خط أنبوب النفط، قد ينتهون إلى أن يكونوا في المعسكر الأمريكي، ويُظَن أن بن لادن كان قد خطط لقصف سفارتين أمريكيتين في شرق إفريقية في العام 1998 ليكون ذلك تحذيراً للأمريكيين لكي يخرجوا من "البلدان الإسلامية"، ومن أفغانستان على

وجه التحديد. ولم يكن رد الفعل الأمريكي مهاجمة أفغانستان، التي كان ابن لادن يختفي فيها، بل كان الرد إرسال الصواريخ إلى الملاذ السابق، إلى السودان. والهدف من هذا الهجوم وكان "ستار دخان" هو مصنع الشفاء للأدوية، الذي وصفته واشنطون بأنه "منشأة للأسلحة الكيماوية".

وكان هذا أمراً غير معقول، فمصنع الشفاء كان مشهوراً في كل أنحاء القارة بأنه مصنع الكلوروكين، وهو أفعل علاج للبرداء (الملاريا)، ومصنع الأدوية المضادة للسل التي كانت خطوط الحياة لمئات آلاف المرضى في إفريقية جنوب الصحراء. وكان المصنع أيضاً هو المصدر الإقليمي الوحيد للأدوية البيطرية التي كانت تقتل الطفيليات التي تنتقل من المواشي إلى الناس، وهي سبب رئيسي من أسباب وفيات الأطفال الرضع. وبحسب ما تقوله مؤسسة الشرق الأدنى (نير إيست فاونديشن)، فقد كانت النتيجة المباشرة للهجوم الأمريكي هي أن "عشرات آلاف الناس — والعديد منهم من الأطفال — عانوا الألم وماتوا من البرداء، والسل، والأمراض الأخرى القابلة للعلاج"[47].

وفي الوقت نفسه، صرحت إدارة كلينتون تصريحاً يبدو غريباً قالت فيه إن القاعدة "لم تكن مدعومة من أي دولة". وكان هذا يعني أنها كانت تحاول أن تنقذ علاقتها مع الطالبان، وصفقة خط أنبوب النفط.[48] ومرة أخرى، أُبرِقَت الدعوات فجأة إلى كابل، وفي شهر آذار/مارس من العام 2001 — بعد مدة قصيرة من إغضاب طالبان للرأي العام الدولي من جراء قيامهم بنسف تماثيل بوذا القديمة في منطقة باميان — طار إلى واشنطون مستشار لزعيم طالبان الملا عمر، وهو سيد رحمة الله هاشمي. ومثل حليف قريب، تم الترحيب به في مقر القيادة العامة لوكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، في فرجينيا، وهناك قابل أعضاء من ذوي الرتبة العالية في مديرية الاستخبارات المركزية. وفي وزارة الخارجية، اجتمع وتشاور مع رئيس مكتب الاستخبارات والبحث.[49] وحين سئل عن بن لادن أجاب بأنه "ضيفنا" و"لا يوجد أي إرهابيين"[50].

وحين أنهت 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001 في نهاية الأمر علاقة أمريكا مع طالبان، فإن المدعي العام في وزارة العدل الأمريكية، وهو جون لوفتوس، كشف

عن أن عضواً من القاعدة قُبض عليه، وصف بالتفصيل "عملية إخفاء [وهي] أن شركات الطاقة الأمريكية كانت تتفاوض سراً مع الطالبان لبناء خط أنبوب النفط" وأن "مصادر متعددة تؤكد أن وكالات تطبيق القانون الأمريكي أُبقيت عن عمد في الظلام ومنعت منعاً منهجياً من ربط النقاط قبل 9/11 من أجل مساعدة مفاوضات إنرون السرية وغير الأخلاقية مع طالبان"[51]. وقد كانت إنرون هي الدافع الكبير للمال النقدي للحملة الرئاسية لجورج دبليو. بوش.

وكان السبب الذي قدمته الولايات المتحدة لغزوها لأفغانستان في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2001 هو "تدمير البنية التحتية للقاعدة، المسؤولة عن اقتراف 9/11". وعلى كل حال، هناك دليل على أن الغزو كان قد خطط له قبل شهرين، وأن أشد المشكلات ضغطاً لم تكن ارتباطات الطالبان مع أسامة بن لادن، بل احتمال فقدان الملالي للسيطرة على أفغانستان لفئات المجاهدين الأخرى في تحالف الشمال. ومع كل هكتار من الأرض تنازل الطالبان عنه، كان يحكم على طالبان في واشنطون بأنها تفتقر إلى "الاستقرار" المطلوب من عميل مهم. لقد كان ثبات علاقة هذا العميل، لا كراهية طالبان لحقوق الإنسان، هو الذي أزعج إدارة بوش.

حين اعتقد الطالبان أن وجود أسامة بن لادن كان مفسداً لعلاقتهم مع واشنطون، حاولوا التخلص منه. وبموجب صفقة تم التفاوض عليها مع قادة الحزبين الإسلاميين في باكستان، كان يتعين أن يحتفظ بأسامة بن لادن تحت الاعتقال المنزلي في بيشاور. وقيل إن الخطة كانت موضع موافقة من بن لادن نفسه ومن الملا عمر. وستقوم بعدئذ محكمة دولية بالاستماع إلى البينات وتقرر إن كانت ستحاكمه أو ستسلمه إلى الأمريكيين. وتحت ضغط من الأمريكيين، اعترض رئيس باكستان مشرف على الخطة ونقضها.[52] وبحسب قول وزير الخارجية الباكستاني نياز نياك، فإن دبلوماسياً أمريكياً كبيراً أخبره في 21 تموز/يوليو من العام 2001 أنه قد تقرر التخلص من الطالبان "تحت سجادة من القنابل"[53].

هب الغبار في عصفات وأنا أسوق السيارة إلى داخل قرية بيبي ماهرو. تحت حكم الطالبان، كان من الممكن السفر خارج المدن بأمن نسبي، وأما الآن،

فالريف متاهة خطرة من نقاط التفتيش وقطع الطرق. وحين وصلت قافلتنا وكانت من سيارتين، كان القروبون يقفون وكأنهم صور مؤطرة في ظلال المداخل الطينية لدورهم، ونظروا بعيداً عنا في حين أسرع عديدون منهم إلى الداخل. إنهم أفقر الفقراء، وقبورهم معلمة بقطع فقط من الصخر الغضاري، وبالأعلام الخضراء الممزقة. هنا ركعت أوريفا على قبور زوجها، غول أحمد، نساج السجاد، وسبعة أعضاء آخرين من أسرتها، ومن جملتهم ستة أطفال، ومعهم طفلان كانا قد قتلا في البيت المجاور.

كان الوقت وسط النهار في 7 تشرين الأول/أكتوبر في العام 2001 حين ظهرت طائرة اف – 16 أمريكية من سماء صافية زرقاء وألقت قنبلة "الدقة" من نوع أم كي 82 زنة 500 رطل على البيت الصغير المبني من الطين، والحجارة والقش. وكانت الحفرة التي حلت محل البيت بعرض 500 قدم. كانت أوريفا بعيدة عن البيت تزور أقارب لها، وحين عادت، قيل لها أن تذهب إلى المسجد وأن تجمع أشلاء جثثهم.

وقالت: "لم أستطع أن أتذكر ماذا حدث بعد ذلك. صرت غائبة عن الوعي من الصدمة. وحين فتحت عيني، كنت في المسجد، وكانت سيارة أجرة قد أوصلتني. كان زوجي مسجّى على فراش نقالة الموتى. ولم يكن هناك مكان لغسل الجثث، وكان أولادي وبنتي في حالة مروعة. أحدهم كان محترقاً كله، والأخرى كانت مهشمة إلى درجة لم أتمكن معها من معرفتها. وإحدى الفتيات الأخريات كانت بلا رأس تقريباً. والأخرى، كان قد زال عنها كل اللحم الأسود. ووجدت نفسي أجمع أشلاء من اللحم، وأضعها في أكياس وأسميها من أجل الدفن. عملت حتى منتصف الليل إلى أن دفناهم أخيراً. وحينئذ فقط أدركت أنني بلا بيت، لا أملك شيئاً، لا أملك إلا رحمة الله تعالى ثم يد ابني الذي بقى على قيد الحياة".

والابن الذي عاش، واسمه جواد، كان في الرابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت. وكانت في وجهه قطع من الشظايا وكان يجب اقتلاعها باليد من وجهه، وهو مليء بالندوب بشكل دائم. والولد صامت، ويجلس وذقنه في يده خلف أوريفا وهي تعمل على ماكينتها، ماكينة الخياطة القديمة في كوخهم خلف الحفرة.

وهي تستأجر ماكينة الخياطة، التي تدر عليها دخلاً يساوي أقل من دولار يومياً. وقالت إن ممتلكاتها الوحيدة هي صور زوجها الميت وأطفالها مرتبين على رف بارز لنافذة حول زجاجة فارغة تقريباً، من صابون الشعر السائل (شامبو)، زرقاء اللون.

وسألتها: "هل حصلت على أي تعويض؟"

"حصلت [على حوالي 400 دولار] وذهبت كلها على العناية الطبية لجواد".

وسألتها: "هل الأمريكيون هم الذين أعطوك ذلك؟"

"لا، الطالبان. لقد جاؤوا وصلوا وأعطوني المال في حقيبة قماش... بعد ذلك، جاء أحد عشر أمريكياً وتفحصوا الحفرة التي كان بيتي مبنياً عليها. وكتبوا الأرقام على قطع الشظية وتحدث كل واحد منهم معي ودونوا ملاحظات. وحين كانوا يغادرون، أعطاني مترجمهم ظرفاً فيه خمس عشرة ورقة نقدية: خمسة عشر دولاراً. وهذا ما يساوي أقل من دولارين عن كل واحد قتل من أسرتي".

"هل سمعت ما حدث في أمريكا في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001؟"

"نعم. وأنا لا أعرف كل التفاصيل لأنني امرأة أمية. لقد سمعت أن الكثيرين قتلوا: ومن جملتهم الأطفال. ولكن لماذا يجب أن تموت أسرتي أيضاً؟ ما هذه الحرية التي يقول الأمريكيون إنهم أحضروها إلينا؟ أرجو منك أن تشرحها لي"[54].

في الساعة 7.45 صباحاً من 21 تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2001، كان غلام رسول، مدير مدرسة المشروع الجديد في مدينة خير خانا، قد أنهى تناول طعام الفطور مع أسرته. ومشى إلى الخارج للدردشة مع جار له. وداخل البيت كانت تقيم زوجته شيكريا، وعمره خمسة وثلاثون عاماً، وأبناؤه الأربعة وأعمارهم راوحت بين ثلاثة أعوام وعشرة أعوام، وأخوه وزوجته، وأخته وزوجها. وكان هناك انفجار والتفت مدير المدرسة ليرى دخاناً يتصاعد بعيداً نحو 100 متر، وطائرة تغزل في السماء، وتتجه نحوه. وانفجر البيت في كرة من النار خلفه. تسعة أشخاص، ومن جملتهم صبي قتل بالجوار، مات في هذا الهجوم الذي قامت فيه طائرة اف — 16 بإسقاط قنبلة "دقة" أخرى زنة 500 رطل. والوحيد الذي بقي على قيد الحياة هو ابن غلام البالغ تسعة أعوام، أحمد بلال.

جلست مع مدير المدرسة وابنه على شرفة بيت مجاور. وتكلم بسرعة، وبطلاقة، وهو ينظر إلي مباشرة وهو يتلو أسماء أبنائه القتلى وأعمارهم... "أحمد خالد، وعمره عشر سنوات، أحمد حارس، وعمره ست سنوات، وأحمد تامر، وعمره خمس سنوات، وأحمد ساحل، وعمره ثلاث سنوات...

"معظم الناس الذين قتلوا في هذه الحرب التي يسمونها تحريراً لم يكونوا من الطالبان، كانوا أبرياء. إذا فكرنا تفكيراً عميقاً حول ثورة طالبان فإننا ندرك أن أمريكا كانت هي التي طورتهم وغذتهم، وكانت أمريكا هي التي دمرت سلطتهم، وكان ذلك فعلاً إرهابياً، لأننا نحن الذين ندفع الثمن، نحن الشعب. هل كان قتل أسرتي غلطة؟ لا، لم تكن كذلك. هم يطيّرون طائراتهم وينظرون إلى أسفل إلينا، مجرد الشعب الأفغاني، الذي لا يملك أي طائرات، وهم يقصفوننا بسبب حقنا الطبيعي المكتسب بالولادة، وبكل الاحتقار".

"وما هو التعويض الذي تسلمته؟"

"لاشيء. وما من أحد جاء. ما من أحد أرسل شيئاً. صديقي، رئيس الشرطة ذهب إلى السفارة الأمريكية. ولم يفهموه، وأغلقوا الباب بوجهه"[55].

في 29 كانون الأول/ديسمبر من العام 2001، كانت قرية نيازي قلعة تقيم حفل زواج لابن مزارع محترم، هو باهرام جان. وسافر أعضاء من عائلة العروس عبر السهل الجنوبي الشرقي الكبير الجاف. وبحسب كل الروايات، كانت مسألة واضحة صاخبة، مع وجود موسيقى وغناء وبنادق قديمة يجري تفريغها في سماء الليل. وفي الصباح، كان هناك دمار: على سياج، هناك ملابس ممزقة وأشلاء اللحم البشري تتأرجح في الهواء، والبيوت مدمرة، ووسط الآجر، هناك المزيد من اللحم البشري وخصلات شعر الأطفال.

كان زئير الطائرات قد بدأ في الثالثة في الصباح، بعد أن انسحب كل شخص بمدة طويلة ليأوي إلى الراحة في الليل. ثم بدأت القنابل بالسقوط – زنة 500 رطل تقود الطريق، تجرف الأرض وتدمر صفاً من البيوت. وبحسب رواية الجيران الذين

كانوا يراقبون من مسافة، طارت الطائرات ثلاث طلعات فوق القرية وحوّمت طائرة عمودية قريبة من الأرض، وأطلقت مشاعل، ثم صواريخ. وشوهدت النساء والأطفال وهم يركضون نحو بركة جافة، ربما بحثاً عن الاحتماء من نيران الأسلحة، ولكنهم قتلوا رمياً وهم يركضون.

وقال القائد الأمريكي في قاعدة باغرام العسكرية، بالقرب من كابل، إن قائدين من طالبان كانا من بين ضيوف العرس وكانا "هدفاً عسكرياً مشروعاً". ولم يجدْ تحقيق قامت به الأمم المتحدة أي دليل على هذا، واستنتج التحقيق أن الادعاء بأن الطائرات قد طاردت النساء والأطفال كان ادعاء مبنياً على "أساس صحيح". وقال تقرير الأمم المتحدة، إنه في أثناء ساعتين من الهجوم، قتل اثنان وخمسون شخصاً: سبعة عشر رجلاً، وعشر نساء، وخمسة وعشرون طفلاً. وقد أخبر رجل كبير في السن المحققين، وهو شير خان، الذي فقد سبعة أقرباء، أن هناك ثمانية وأربعين شخصاً كانوا ما يزالون مفقودين.

ما كان غير عادي حول تلك الفظاعة الوحشية هو أنها لم ترو في الغرب.[56] ومثل مذبحة عائلات أوريفا وغلام رسول، هناك عدد لا يحصى من الهجمات الأخرى على قرى معزولة لم ترو ولم يتم دفع أي تعويضات عنها. ومنها سيارة ركاب كانت تحمل لاجئين هاربين ونسفت الطائرات الأمريكية هذه السيارة ومات من ذلك خمسة وثلاثون شخصاً. وقرية كارام قصفت مراراً وتكرارا، وقتل منها 160 نفساً على الأقل. والطائرات من نوع إي سي- 130 المنخفضة الطيران، والمصممة لتدمير الدبابات، هاجمت بالرشاشات والمدافع المحمولة عليها قريتين هما بوري تشوكار وتشوكار - كاريز، وقتلت ثلاثة وتسعين شخصاً.

والقلة من الصحافيين القادرين على جمع البينات وتقديمها والراغبين في ذلك قيل لهم مراراً وتكراراً في واشنطون: "إنها لم تحدث". وفي حالة تشوكار - كاريز عبّر ناطق باسم وزارة الدفاع عن خيبة أمله من نصه. وقال: "الناس هناك كانوا أمواتاً لأننا نحن أردناهم أمواتاً"[57]. وفي الوقت الذي كانت التكتيكات القاتلة قد عرفت في الهجوم على العراق، فإن النمط المماثل من الفظاعات

الوحشية في أفغانستان لم يعرف. وفي زمن الكتابة، منع المحققون المستقلون من الدخول إلى المناطق المصنفة "عملياتية" وفقدت وسائل الإعلام الغربية الاهتمام بعد ذلك.

وفي جامعة كابل، قابلت الأستاذ الدكتور كاظم أهانغ، وهو عالم اجتماع، وسألته عن نقص التعويض للمدنيين الذين قتلوا. وأجاب بمفارقة ساخرة جافة كجفاف الغبار: "يجب أن تفهم، أن كثيرين من الأجانب جاؤوا ليساعدونا. وهناك أحد عشر ألف وكالة غير حكومية دولية هنا. والكثيرون من موظفيها يحصلون على عشرة آلاف دولار في الشهر. فلإبقاء مسؤول واحد فقط هنا لمدة عام واحد، فإن الأمم المتحدة تصرف مائتين وخمسين ألف دولار".

ووقفت خارج مدرسة الغازي الثانوية في كابل الغربية المدمرة لأتحدث مع الطلاب. وقال لي أحدهم: "أخبرني من فضلك، أين سبق لك أن رأيت مدرسة مثل مدرستنا؟" كانت المدرسة أنقاضاً تقريباً. مع وجود قطع من الخيش وصفائح البلاستيك تغطي الفصول العاملة. وحين كنت أدردش مع الطلاب، خطا رجل إلى خارج البوابة.

وسأل قائلاً: "من أنت؟"

"أنا صحفي من بريطانيا".

"ما هو الراتب الذي تكسبه؟"

"لماذا؟"

"حسناً، أنا أحصل على ثمانية وثلاثين دولاراً في الشهر، وأنا مدير هذه المؤسسة. وأنا أسألك: لماذا يجب أن تحصل أنت على أكثر مما أحصل عليه، ولماذا يجب أن تأكل كل مساء في حين أفتقد أنا فيه وجبة لكي تستطيع أسرتي أن تأكل؟ نحن كلانا من بني البشر، ألسنا كذلك؟"

"نعم".

"أنا آسف إن كنت أهينك".

"أنت لا تهينني: أنت على حق. هل يمكنني أن أرى مدرستك؟"

"نعم، من فضلك، أنت ضيفي، تعال إلى الداخل..".

جلس الأطفال على حصر وتقاسموا كتاب تمارين واحد، وكان هنا وهناك كتاب نصوص، قديم ومصفر وممزق وبصفحات مفقودة. وحين قرع المدير جرساً نحاسياً كبيراً، تبادل الأطفال مكاناً مهجوراً للتعليم بآخر. وراقبت وهو يقوم مع العدد القليل من هيئة التعليم بالقراءة لهم، كيف كانوا يدأبون على العمل بشكل بطولي. وأخبرني: "بأن هذه الحروب قد كان لها آثر بالغ الخطورة على معنوياتنا جميعاً، خذ حالتي أنا نفسي مثلاً: منذ سنوات قليلة، كنت أستطيع أن أتحدث الإنجليزية بطلاقة، ولكنني الآن نسيت كل شيء. الحروب تجعل المرء ينسى لغته، وتعليمه، وتعاليمه. والطالب اليوم يحتاج إلى تكرار وتكرار الموضوع له، وإلا فإنه لن يفهم، والسبب هو أن الفتيان قد تعرضوا للغزو عاطفياً وتركوا مع الألم فقط. إنهم يقلقون باستمرار بشأن هجمات قذيفة أو قنبلة، أو بشأن لغم يدوسون عليه، وهم مذعورون من الطيران. إن هذه الحروب قد أخذت أذهاننا بعيداً، وأخذت الروح من حياتنا، وتركتنا مع غلاف أجسادنا فقط.

نادراً ما سمعت أي إنسان خائف وفصيح وشجاع مثل هذا الرجل صاحب المبدأ. وبكتفيه المربعين، وشاربه اللطيف، كان يمتلك ما كان يعرف سابقاً بحسن الهيئة. ومع ذلك فإن حذاءه قد تفتق وانفتح في درزاته. وعرضت عليه المال "من أجل المدرسة"، ولكنه رفض المال حين كان يمد يده ليصافح يدي. وأنا متأسف لأنني أضعت اسمه، وكان قد كتبه لي بخط إنكليزي منمق، وكتب في نهايته و"السلام عليكم"[58].

وفي أثناء قيادة السيارة إلى قاعدة باغرام، ارتفعت الجبال التي يغطي الثلج قممها فوق مشهد أرضي كأنه من سطح القمر وسار عبره طريق فارغ ضيق كالشريط، أنشأته القوات العسكرية السوفيتية حين بنت القاعدة في الثمانينيات من 1980. والقاعدة الآن جيب أمريكي يتمتع بتكييف الهواء، والأفلام السينمائية،

والبريد الإليكتروني، وكل الطعام والماء المستوردين. والعربات الأمريكية تدخل وتخرج مسرعة، وهي ترفع أعلاماً أمريكية كبيرة. هناك إحساس من البند — 22 (كاتش — 22)*: من جنود متجهمين، وميالين للتمرد قليلاً، بحجم الخنزير ومن ضباط محترفين إما أنهم يتظاهرون بجنون معين ساخر أو أنهم مضطربون بالفعل.

وسألني الجندي عند البوابة: "كيف وصلت إلى هنا؟"

"سقنا السيارة من كابول".

"وأين تلك؟"

"إنها عاصمة البلاد، وهي على بعد ساعة".

"مفهوم".

في غرفة الإيجازات في القاعدة كان هناك سبورة وقد كتب عليها بخط متعجل "ما من شيء أمقته أكثر من نتن الأكاذيب — كيرتز، المعروف أيضاً باسم مارلون براندو". وإلى جانب هذا تدلت راية لامعة صفراء تقول "مدرسة جيمس بوكانن الثانوية تحب الوحدة 109. نحن فخورون بأن نكون أمريكيين. شكراً من أجل حماية حقوقنا". وتحت هذه كان مكتوباً "لا صور خليعة في حاسوب الحضن النقال (اللابتوب)!" ثم إن ضابطاً له رأس لامع وابتسامة ثابتة وعريضة بشكل نادر دخل إلى غرفة الإيجازات وهو يقفز وصعد إلى المنبر.

"صباح الخير! أنا العقيد رود ديفيز، مدير العلاقات العامة في وحدة سي جيه تي اف 180 (قوة الواجب المشترك للتحالف 180). هذا الصباح سوف آخذكم في جولة في قاعدة باغرام الجوية، مبتدئاً بما نشير إليه باسم مدرسة باغرام الثانوية، التي يحضر إليها الفتيان الأفغان المحليون. وهي المدرسة الوحيدة في المنطقة وهي

* إشارة إلى رواية بهذا الاسم للكاتب الأمريكي جوزيف هيللر، ويشير هذا البند مجازاً إلى أي ترتيب غير معقول يضع الفرد في مأزق لا حل له، مثل القول إن الشخص لا يستطيع أن يعمل من دون الحصول على خبرة، ولكنه لا يستطيع أن يحصل على الخبرة من دون أن يعمل. (المترجم)

مدعومة من الحكومة الأمريكية. والمدرسة جزء من التزامنا بالعمل المدني، وعملنا الإنساني. ونحن نسمي هذا العمل الالتزام بالعمل المدني".

وسألت: "هل هي مثل وحدة كسب القلوب والعقول؟"

"عفواً سيدي؟"

"كسب القلوب والعقول، مثلما كان لدى الجيش في فيتنام".

"هيه، أنا أحب القلوب والعقول: أحب مغزاها، والسباق إليها"[59]

وصاح الرقيب ميلفن مريل عبر مكبر صوت: "تعالوا اخرجوا، نحن أصدقاؤكم!" ولكن ما من ظل تحرك.

"تعالو اخرجوا كلكم كل واحد منكم، معنا رز وحلوى وفراشي أسنان لنعطيكم".

كان الرقيب مريل قد أحضر وحدته، وحدة كسب القلوب والعقول، إلى قرية توآلون في فيتنام المركزية. والآن تمتم في صمت ساخن، "استمعوا، إما أن تأتوا وتخرجوا أيها الفيتناميون من حيث أنتم وإلا فنحن سنأتي إليكم وندخل ونصل إليكم وقد نقتلكم!"

وهكذا فإن الناس في توآلون خرجوا من حيث كانوا سابقاً ووقفوا في صف لاستلام رزمهم من رز معجزة العم بن (أنكل بنز ميراكل رايس)، وقوالب الشوكولاتة وبالونات الحفلات، و7000 فرشاة أسنان، وفي حفل خاص يناسب مكانة رئيس المنطقة أهدي له أربعة مراحيض تصب الماء صفراء محمولة تعمل بالبطاريات.[60]

وقال العقيد ديفيز وهو يقودني، بخطوة شديدة عبر "مدرسة باغرام الثانوية": إن شعب أفغانستان ممتن لنا". وكانت الوجوه الغامضة تراقبنا باهتمام، وما من أحد نبس ببنت شفة. وكان مساعد العقيد يحمل بندقية ام – 16 آلية. وقال العقيد ديفيز "هيه، يجري إطلاق النار علينا في كل مرة نغادر فيها القاعدة". ولتوضيح

ذلك، أخذ مسدساً من قراب مربوط إلى فخذه ونصبه. "أنا أحب أن يكون أصبعي على الزناد في كل الأوقات..".

"ولكنك أيها العقيد قلت إن هؤلاء الناس ممتنون..".

"سيدي، نحن حررناهم. نحن أعطينا نساءهم الحرية... بالتأكيد لدينا الكثير من عمل الالتزام المدني لنقوم به، أو كسب القلوب والعقول. هيه، أنا أحب أن يكون: الأقل من الدوي والأكثر من كسب القلوب والعقول!"

وحين أسرعنا بعيداً عن المدرسة، بدا العقيد مسترخياً. وسألته: "هل أستطيع أن أرى مركز التحقيق؟"

"وو واه!... لابد أنك تشير إلى منشأة الاحتجاز".

"من لديكم فيها هناك؟"

"نحن نشير إليهم بصفتهم أفراداً تحت الحراسة، ومن المؤكد ليسوا أسرى حرب".

"أليس الكثيرون منهم أناساً أبرياء، اعتقلوا في الحرب على الإرهاب، وهم ليسوا إرهابيين، وهم يختفون في هذا المكان، ثم ينتهون في خليج غوانتنامو؟"

"هؤلاء أناس غير شرعيين".

"تحت أي قانون هم غير شرعيين؟"

"إنها نوعاً ما مسألة معقدة وأظن أن هناك نوعاً من السلسلة المتصلة أو الطيف، إن شئت، مع وجود أسرى الحرب في أقصى اليسار أو أقصى اليمين وهذا يتوقف على منظورك السياسي، وشيء ما أقل من ذلك الأقصى إلى النهاية الأخرى القصوى... أمريكا موجودة في مكان ما على ذلك الطيف".

"أيها العقيد، أنا لم أفهم كلمة واحدة من ذلك".

وساد صمت طويل.

"أنا مسيحي، يا سيدي".

"نعم؟"

"أنا سأقتل ولكنني مسيحي".

كنا الآن واقفين خارج "منشأة الاحتجاز"، وهي خطيرة طائرات بلا نوافذ حولت لهذا الغرض. وهنا يحقق مع "المشتبه بهم من القاعدة" قبل أن يطيروا إلى خليج غوانتنامو أو، إذا استخدمنا رطانة وكالة الاستخبارات المركزية قبل أن "يعادوا" إلى بلد مثل مصر، التي يمكن أن يعذبوا فيها خارج نطاق وصول القانون الأمريكي. وقد وصف سجينان سابقان، هما عبد جابر وحكيم شاه، كيف فُرض على ما يصل إلى مائة نزيل أن يقفوا وعيونهم مغطاة، وأذرعتهم مرفوعة للأعلى ومربوطة بالسلاسل في السقف، وأقدامهم مصفدة، وغير قادرين على الحركة، نهاراً وليلاً. عبد الجابر عانى هذا العذاب لمدة ستة عشر يوماً، وهو واقف لمدة عشرة أيام متواصلة إلى أن تورمت ساقاه إلى درجة أوقفت الأصفاد الموجودة حول كاحليه انسياب الدم. وكان عارياً طوال الوقت، وتكييف الهواء مفتوح على أكمل تبريد له. وأبقاه مستيقظاً، مع وجود الحراس الأمريكيين الذين كانوا يرفسونه ويصرخون به لمنعه من النوم. ثم أطلق سراحه فجأة، من دون تقديم الشرح. وأما مصير الآخرين فليس معروفاً.[61]

روى معظّم بيك، وهو البريطاني الذي أفرج عنه من خليج غوانتنامو في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2005، روى أنه في أثناء عام أودع فيه السجن في قاعدة باغرام شهد وفاة اثنين من زملائه السجناء "على أيدي الأفراد العسكريين الأمريكيين"[62]. وقد كشفت التقارير الداخلية العسكرية التي حصلت عليها جماعة مراقبة حقوق الإنسان (هيومان رايتس ووتش) أن فلاحاً يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً اسمه ديلاور كان قد ضرب ضرباً قاسياً في أثناء يومين من الاستجواب في "منشأة" باغرام إلى درجة أنه "لو بقي على قيد الحياة، لكان يتعين بتر ساقيه الاثنتين". وتقول شهادة وفاة مؤرخة في 13 كانون الأول/ديسمبر من العام

2002، وموقعة من الرائد إليزابيث راوس، وهي اختصاصية عسكرية أمريكية في علم الأمراض، إن الرجل مات نتيجة "أضرار القوة الفظة التي وقعت على الطرفين السفليين محدثة بذلك تعقيدات في مرض الشريان التاجي". ووصفت الاختصاصية موته بأنه "قتل إنسان"[63].

وقال العقيد ديفيز: "نحن نعامل الناس هنا معاملة إنسانية وعادلة. ليس هناك أي إساءة أو تعذيب..".

"أيها العقيد، هناك دليل من اختصاصية في علم الأمراض منكم، وصفت كيف قتل رجل أفغاني اسمه ديلاور. وسجينان سابقان رأياه عارياً، ومغمى العينين ومصفداً، ومحروماً من النوم لعدة أيام في النهاية. هل تعرف تلك القضية؟"

"أنا على اطلاع على المزاعم وما سأقوله لك هو أننا غير معروف عنا أننا نقترف الفظاعات الوحشية. ليست تلك هي الطريقة نقوم بها بالعمل".

"ولكن وكالة الاستخبارات المركزية وصفت أساليبها هنا بأنها "رمي القفازات"،أي، الهجوم بلا هوادة.

"كل المزاعم يجري التحقيق فيها".

"لماذا لا تسمح لمنظمة العفو الدولية بتفتيش المنشأة؟"

"دعني أشرح موقفنا بهذه الطريقة. إن أحد الأمور القاسية حول حرب الأيام الحديثة، هذا العصر من الإرهاب، هو أن الخطوط رمادية. فالإرهابيون ليسوا عاملين رسميين تمت الموافقة عليهم، فهم ليسوا مزودين بكل الحقوق الموجودة في ميثاق جنيف..".

"من الذي يقول إنهم إرهابيون؟"

"نحن نقول ذلك".

"أيها العقيد، أنا قابلت أخا الرجل الذي كان اسمه وزير محمد. كان سائق سيارة أجرة واستفسر في نقطة تفتيش عن صديق له، عن سائق سيارة أجرة آخر،

كان قد اختفى في باغرام. من أجل ذلك فقط، تم اعتقاله، واحتجز هنا وهو الآن في خليج غوانتنامو. وأن وزيراً سابقاً في الحكومة الأفغانية الحالية يعرف الرجل تمام المعرفة. وهو الذي أخبرني أن ذلك الرجل لم يكن بريئاً وحسب، بل هو معروف معرفة جيدة بأنه معارض للطالبان وسبق أن سجنوه. ولكنه الآن في قفص أمريكي في غوانتنامو..".

"سيدي، ما هو قصدك من إخباري بهذا؟"

"القصد هو أن أسرته لم تحط علماً بأي شيء، وهم لا يتمالكون أنفسهم من القلق. وجميعهم حرموا من حقوق الإنسان الأساسية. فماذا تقول لهم ولكل أولئك الذين هم من أمثالهم؟"

"سيدي، أنا لا أشك في صدقيتك أو صدقية ذلك الفرد، أنا فقط لا أستطيع أن أعلق..".

"كيف كنت ستحبها لو أن جيشاً أجنبياً غزا الولايات المتحدة وعوملت أنت وأسرتك بهذه الطريقة، وحرمت من أي معلومات؟"

"أنا لا أفهم أسئلتك..".

"كيف تحبها لو أنك كنت محبوساً ولم يعرف أحد عنك في الخارج شيئاً، ولم يحط أحد علماً عنك بأي شيء؟"

"أنا لا أفهم الدافع وراء هذه الأسئلة".

"إنه بسيط: كيف كنت ستحب ذلك؟"

"أنا أمريكي، وأنا مسيحي".

إن الإجابات البارعة التي يجيب بها العديد من عقداء "العلاقات العامة" قد خدمت عملية صرف انتباه الصحافيين عن أهم مرحلة من حرب أمريكا "الحرب على الإرهاب" منذ غزوها لأفغانستان. وهذه هي مرحلة إنشاء معسكرات الاعتقال والسخرة (الغولاغ) و" منشآت " التعذيب عبر العالم وأفغانستان هي مركز النشاط.

وقاعدة باغرام هي النموذج لنظام يضم ما يصل إلى عشرة آلاف سجين كانوا ومازالوا تجري "معالجتهم" و" إعادتهم" غير محميين بالقانون الدولي أو بقانون أي بلد.

وكما في أمريكا اللاتينية في السبعينيات من 1970 والثمانينيات من 1980، فقد "اختفى" الكثيرون. وبحسب قول مدير هيئة حقوق الإنسان الأفغانية المستقلة فإن "عدة آلاف من الناس كانوا قد جُمِعوا واحتُجِزوا. وأولئك الذين حُرِّروا من الحجز يقولون إنهم قد قبض عليهم معاً إلى جانب المحتجزين الأجانب الذين كانوا قد أحضروا إلى هذا البلد لتتم معالجتهم. لا أحد متهم. ولا أحد محدد الهوية. ولا مراقبين دوليين مسموح لهم بالدخول إلى [هذه] السجون الأمريكية". وهؤلاء الناس معروفون باسم "المحتجزون الأشباح"[64] وقال مراسل أفغاني لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) وكان قد أعتقل من دون تقديم شرح: "في كل مرة نقلت فيها، كنت مغمى العينين مرة أخرى. وعلى كل سجين أن يحافظ على الصمت المطلق. وكنت أستطيع أن أسمع الطائرات العمودية تئز وتدوم فوقي. وكان السجناء يصلون ويغادرون في كل وقت. وكان هناك زنزانات تحتي أيضاً، تحت الأرض"[65].

على متن رحلات جوية سرية لوكالة الاستخبارات الأمريكية، كان السجناء يتحركون جيئة وذهاباً كالمكوك بين أفغانستان ومصر، والأردن، وسورية، وماليزيا، وتايلند، وإندونيسيا، وباكستان، وأزبكستان، وبين القاعدة الأمريكية في المحيط الهندي في جزيرة دييغو غارسيا، كما يعتقد، وهي التي كانت مستعمرة بريطانية. وهنا كان السجناء يسلمون إلى "مقاولين" أمريكيين أو إلى محققين محليين من ذوي السمعة المرعبة. وكتب أندريان ليفي وكاتي سكوت – كلارك في تحقيقهما الخاص لصحيفة الغارديان: "إن ما لُمح في أفغانستان هو خطة راديكالية (جذرية) لاستبدال خليج غوانتنامو. وإن البينات التي جمعناها، على أي حال، تظهر أن كثيرين آخرين من أولئك الذين زج بهم قسراً إلى الشبكة ليس لديهم إلا القليل من الاتصالات التي يمكن البرهان عليها مع أي منظمات تعتبر

خارجة عن القانون: والخبراء في هذا الميدان يصفون قيمتهم في الحرب ضد الإرهاب بأنها (تافهة)[66] "

طرت إلى نيويورك وركبت سيارة أجرة إلى الطريق الأول (فيرست أفنيو) في مانهاتان إلى ما كان في العادة حياً للطبقة العاملة، الجانب الشرقي الأسفل (لور إيست سايد) وهو الآن القرية الشرقية (إيست فيلليج) ذات الطراز الحديث حسب الموضة. ريتا وتيد لازار انتقلا إلى شقة صغيرة في الطابق الخامس عشر هنا مباشرة بعد أن تزوجا. ريتا جاءت من أسرة يهودية متدينة وأما خلفية تيد فكانت علمانية. قالت ريتا: "إن أسرتي لم تغفر لي أبداً في الحقيقة، فتيد وأنا كنا زوجين سياسيين بمعنى أننا كنا مهتمين بشأن هذه الحياة، وبشأن بلدنا وبالعالم".

على الرفوف، بين صور العائلة، كانت توجد مجموعة من الكتب الممتازة: هيروشيما، وحرب فيتنام، ونيكسون، وعناوين للكاتب غور فيدال*، ورواية كينغزلي آميس** جيم المحظوظ. وكتاب جيرمين غرير*** الأنثى المخصبة، وكتاب جيبون**** انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

كانت إحدى الصور لرجل ضخم مشرق الوجه، يستريح رأسه على كتف ريتا. كان هذا هو أخوها إيب، الذي عمل عند شركة التأمين الطبية بلو كروس (الصليب الأزرق) في الطابق السابع والعشرين من مركز التجارة العالمي، البرجين التوأمين.

قالت ريتا: "في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، كنت أجلس إلى طاولة مطبخي، مثل كل صباح يوم آخر، أدخن سيجارتي الأولى وأتناول فنجاني الأول من القهوة واستمع إلى المذياع، وقبل الساعة التاسعة بقليل قطع مذيع البث وقال إن طائرة قد ضربت قبل قليل أحد البرجين من مركز التجارة العالمي. وركضت عبر القاعة إلى شقة

* غور فيدال (1925–) كاتب أمريكي روائي ومسرحي وممثل.(الهوامش من صنع المترجم)

** كينغزلي آميس (1922 – 1995) كاتب بريطاني روائي وشاعر.

*** جيرمين غرير (1939–) كاتبة أسترالية معروفة بكتاباتها النسوية.

**** إدوارد جيبون (1737–1794) مؤرخ بريطاني.

صديقتي وكانت نوافذها تطل في الخارج على مركز التجارة العالمي. ووصلت إلى النافذة في الوقت المناسب لأرى الطائرة الثانية تضرب المبنى الثاني. وحينئذ فقط، وهو أمر غريب للغاية، قلت: (يا إلهي، أخي موجود في ذلك المبنى.)

"وركضت عائدة وهاتفت أكبر إخوتي الذي كان يعيش معه إيب، وقال لي إنه كان يتحدث مع إيب على هاتفه الجوال ويصيح به ليخرج، وإن إيب كان قد قال له: (أنا سابقى هنا لأن إد، صديقي، مشلول اليدين والرجلين في كرسي مقعدين وأنه لم يكن ليستطيع الخروج.) واستمر إيب بالإصرار على أنه لن يترك صديقه، واستمر كل واحد بالصراخ رداً عليه في الهاتف الجوال. (اخرج من هناك!) وهو يقوم بإنهاء المكالمة معهم. واستمر مرور الزمن في اليوم، ومن المستحيل وصف كيف كان الحال هنا في نيويورك في ذلك اليوم، وخصوصاً بالنسبة إلى الناس الذين كان لهم شخص ما في المبنيين. بعدئذ بدأت الرائحة تدخل عبر باب شرفتي، وبعد ذلك انهار المبنيان. تلك اللحظة هي الشيء الوحيد الذي لم أكن متماسكة واضحة بشأنه..".

"هل كان لديك إحساس بالزمن؟"

"لا أعتقد ذلك. يبدو أنني كنت أتحدث في الهاتف باستمرار، أهاتف كل المستشفيات، هنا، ونيوجيرسي، وفي جميع الأنحاء، أبحث عن أخي. وهاتفني داني، وهو أفضل صديق لإبني، وقال: (هل شاهدت خطاب الرئيس؟) وأجبته لا. فقال: (الرئيس ذكر أخاك.) وقلت له: (عم تتحدث أنت؟) وبعدئذ، فكرت، يا إلهي، لابد أنه كان هناك الكثير من الناس الذين تخلفوا عن الخروج وبقوا مع أصدقائهم الذين يستخدمون كراسي المقعدين. وأنت لا تظن أنه كان أخوك، ولكنه كان أخي. وفوراً، فوراً، عرفت أن بلادي كانت ستستخدم موت أخي لتبرير قتل الناس الأبرياء في أفغانستان وفي أي مكان غيرها سينظرون".

"ماذا قال الرئيس بوش؟"

"قال إن شخصيتنا القومية قد اختبرت. واستخدم كلمات مزخرفة وقال: (رجل كان يستطيع أن ينقذ نفسه اختار بدلاً من ذلك أن يبقى ليساعد على إنقاذ صديقه

المشلول اليدين والرجلين في كرسي للمقعدين)، أو قال شيئاً مثل ذلك. لم ألق كبير انتباه له. ولكنني ألقيت الانتباه إلى المراوغة، والوقاحة في استخدام أخي لتبرير قتل الآخرين حين علمت أن بلدي كانت تحاول أن تمتلك خط أنابيب عبر أفغانستان للغاز وللنفط وأن أي شيء كنا سنقدم على عمله لن يكون للانتقام لموت أخي، بل للحصول على بعض الموارد التي يبدو أن هذه البلاد تعتقد أن الله تعالى يقول إنها يجب أن تملكها. وأنت تعرف، هناك شيء ما متشابه بين إدارتنا وبين القاعدة في قناعتها بأن الله تعالى هو إلى جانبها، ذلك مثير للضحك".

وكانت ريتا إحدى المؤسسات لمجموعة من المفجوعين سميت "عائلات 11 أيلول/سبتمبر من أجل مستقبلات سلمية". واقتبسوا هذا الاسم من خطاب ألقاه مارتن لوثر كنغ في العام 1967 وقال فيه إن "الحروب أزاميل مفلولة لنحت مستقبلات سلمية".

وحين بدأ بوش بقصف أفغانستان، عرفت أنه كان علي أن أذهب إلى هناك. كنت في السبعين من عمري في ذلك الوقت. ولم يسبق لي أن رأيت الحرب أبداً. وقال لي أخي الكبير إنه سيتبرأ مني إن أنا ذهبت. قال لي: (إذا كنت ذاهبة لتلقي عليهم قنبلة ذرية، فذلك رائع). ولكني ذهبت، وهو ما غير حياتي تغييراً كاملاً. أولاً وقبل كل شيء، حين نزلت من طائرة الأمم المتحدة في مهبط بديل، بدا لي وكأنني كنت أهبط على سطح القمر. كان كل شيء غباراً وأنقاضاً. ثم بدأت أقابل الناس الذين فقدوا أعضاء من عائلاتهم في قصفنا.

"قابلت الكثيرين جداً ممن فقدوا أحبابهم. قابلت امرأة التي فقدت كل عائلتها. كانت تقف في حقل وتبكي، وقالت إنها حملت رسالة إلى السفارة الأمريكية في كابول، تسعى فيها إلى الحصول على تعويض، وقالوا لها: (ابتعدي، أنت شحاذة.) يجب على كل أمريكي أن يذهب إلى المكان الذي تسقط فيه قنابلنا. في أفغانستان، كرم أفقر الناس في العالم غمرني، وأهدي إلي صندوق منحوت جميل كتب عليه (إلى ريتا) وكان من زوجة رجل، قصف حتى الموت، قبل أسابيع قليلة وهو مضطجع في الفراش. كيف تفسر هذا الكرم حين لا يكون له أي علاقة بالمال والمكانة والسلطة، إنهم من أفضل الناس تماماً؟"

مشيت مع ريتا عبر الشارع الأول إلى مكان مجاور لمحل بيرغر كنغ وفيه تناولنا فنجاناً من القهوة الحامضة. كان اليوم حاراً ورطباً، ورجال التوصيل وسائقو سيارات الأجرة يصدرون الأصوات في أبواقهم، والأولاد الراكبون للزلاجات يمرون بنا.

"هل تعتقدين أن الناس في الشارع سيتوصلون إلى مشاركتك وجهة نظرك؟"

"نعم، في نهاية المطاف سيتوصلون، نظراً إلى أنه لا يوجد بديل. وإذا كان هناك بديل، فأنا أود أن أعرف ماذا يكون. كل ما لدينا هو الوعد، كما قال نائب الرئيس تشيني، بحرب بلا نهاية"[67].

لحقت في الوقت المناسب برحلة طيران مكوكية إلى واشنطون، وكنت قد طلبت مواعيد مع الأعضاء القياديين في إدارة بوش. وكنت أريد أن أسألهم عن الألوف الذين لم يذكروا في التقارير والذين قتلوا في غزو أفغانستان، والآن يقتلون في العراق. وطلبت أن أرى دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع، ولكنهم قالوا لي إنه لا يعطي الصحافيين أكثر من خمس دقائق. وكان هذا الإجراء، كما قالت متحدثته الصريحة، لضمان أنه لن يقول أي شيء قد يندم عليه.

وجميع الذين طلبت أن أراهم كانوا من "المحافظين الجدد"، وهي الصفة التي تطلقها الرطانة على الجمهوريين من أقصى اليمين الذين خدموا رونالد ريغان. وبصفتهم المؤسسين لتحالف يضم الأكثرية الأخلاقية المسيحية الأصولية، وجماعة الضغط (اللوبي) الصهيوني الداعية "لإسرائيل الكبرى"، و"مجلس النفط والغاز"، فهم يؤيدون الغايات الإيديولوجية التي يتغياها "مشروع من أجل قرن أمريكي جديد"، الذي انطلق في وثيقة تحديد للسياسة كتبها أعوانهم قبل مدة قصيرة من وصول جورج دبليو. بوش إلى السلطة في العام 2000. المفارقة الساخرة عند وضع ذلك قيد العمل، هي أن المنشق الإسرائيلي الكاتب أوري أفنيري وصف هذه الغايات وصفاً دقيقاً بأنها: "إمبراطورية عالمية أمريكية وإسرائيل الكبرى كذلك [تظهر من] صراع بين أبناء النور، وهم الولايات المتحدة وإسرائيل، وبين أبناء الظلام. وهم العرب والمسلمون"[68].

دوغلاس فيث، وكيل وزارة الدفاع وكبير المستشارين السياسيين لرامسفيلد في وزارة الدفاع، وافق على أن يراني. وهو شاب، ومسعر حرب صريح في إدارة ريغان، وكان قد عارض المعاهدة المضادة للصواريخ البالستية، ومعاهدة الحظر الشامل للتجارب، وميثاق الأسلحة الكيماوية وتأسيس المحكمة الجنائية الدولية.[69] وبصفته من دعاة سياسات الحرب في حزب الليكود في إسرائيل، كان قد عارض اتفاقية كامب ديفيد، وعارض في الحقيقة أي خطة من أجل وجود وطن قومي للفلسطينيين، لا بل عارض كلمة "فلسطين" نفسها.

هو ابن دالك فيث، العضو القيادي في منظمة باتار المتطرفة الصهيونية العسكرية، التي يلبس أعضاؤها أزياء بنية غامقة وينشدون أناشيدهم بشعارات نازية، وكان دوغلاس وأبوه قد كُرما من منظمة صهيونية من أقصى اليمين في أمريكا في العام 1997.[70] وفي العام 1982، استقال من مجلس الأمن القومي تحت ظلال من الاتهامات الموجهة إليه بأنه كان مرتبطاً بإسرائيل ارتباطاً حميماً أكثر مما ينبغي.[71]

أرجعه دونالد رمسفيلد إلى وضعه السابق في وزارة الدفاع في العام 2000، وأنشأ المكتب السري للخطط الخاصة الذي "تنافس" مع وكالة الاستخبارات المركزية عن طريق جمع "معلومات استخباراتية من مسار ثان" عن العراق، والكثير منها خيال فيه تلاعب من المؤتمر الوطني العراقي المغترب، الذي فقد الثقة الآن، وفيه تزييف معلومات قدمها الإسرائيليون. وهذا عزز الأساطير القائلة إن العراق كان يخطط لاستخدام أسلحة نووية، وكيماوية، وحيوية وإن له صلات مع القاعدة: تزييف معلومات – أكاذيب – يكررها ويندفع بها 10 دوانِنغ ستريت وتزود بها الصحافة البريطانية.[72]

وزارة الدفاع الأمريكية هي أضخم مجمع مكاتب مفرد في العالم، ويوظف ستة وعشرين ألف نسمة، وأحدهم العقيد مايك هَمْ. وهو شخص ممتلىء الجسم، ومضغوط، ومهموك سريع التأثر ويشبه الشخصية التلفازية في الخمسينيات من 1950 للرقيب بيلكو، ولكن من دون الفكاهة، وكان العقيد هَمْ مكلفاً بواجب

الموافقة على المقابلات مع كبار المسؤولين، والإشراف عليها، وإذا اقتضت الحاجة، قطعها.

وقال لي العقيد هَمْ، حرفياً، ونحن نمشي، على طول الممرات اللامعة للسلطة العسكرية الأمريكية: "لك عشرون دقيقة، لا أكثر". وكانت خطواتنا ترجع الأصداء حتى وصلنا إلى مكاتب هيئة رؤساء الأركان المشتركة، التي تَتَرَّف في سجادة زرقاء سميكة. وعلى طول الجدران، كان أمراء الحرب الأمريكيون المزدانون بالأشرطة والأوسمة ينظرون إلى الأسفل وهم صارمون، لطفاء، فارغون من أي انفعال، وكأنهم أغلفة نورمان روكويل* لصحيفة ساترداي إيفننغ بوست.

وقال لي العقيد هَمْ: "عشرون دقيقة، هل تفهم. لقد رفضت سبعين طلباً للمقابلات مع السيد فيث. واتفقنا، مع ذلك، على أن علينا أن نرى البريطانيين، رفاقنا في السلاح".

ومشينا إلى داخل حجرة بلا نوافذ مثل الزنزانة، وكانت عارية إلا من ثلاث "مساعدات" مسرحية: خريطة للعالم، وختم خشبي لوزارة الدفاع أكبر من المألوف وعلم الولايات المتحدة.

وقال لي العقيد هَمْ: "ستنتظر هنا، أتفهم؟ لا تتحرك إلى موقع آخر. ولا تتخط ذلك الباب".

وبعد انتظار طويل، سمعت همساً في خارج الباب الذي لا يمكن تخطيه. كان العقيد هَمْ وشخص آخر. وقال العقيد هَمْ: "نحن نحدد هذا، يا سيدي. ووضعنا هذا تحت سيطرة ملائمة". وبعد ذلك مشى إلى الداخل، وتبعه دوغلاس فيث، وهو رجل ذو نظرة مذهولة متوسط العمر في بزة مخططة تخطيطاً خفيفاً. جلس أمام الختم الكبير لوزارة الدفاع وعلى جانبه خريطة العالم والعلم الأمريكي، وواجهني وواجه العقيد هَمْ الذي وقف عند كتفي.

---

* نورمان روكويل (1894 – 1978) فنان رسام شارح أمريكي ظهرت معظم أعماله على غلاف ساترداي إيفننغ بوست ثم مجلة لوك. (المترجم)

وقلت لـه: "إن نائب الرئيس، تشيني، تكلم عن حربٍ على الإرهاب تدوم خمسين عاماً أو أكثر. ما الذي كان يعنيه بهذا؟"

"الفكرة في أن الحرب على الإرهاب يمكن أن تستمر طوال عقود من الزمان تشير إلى الحقيقة المتمثلة في أن هناك قسمين كبيرين للحرب. واحد منهما هو دمر ومزق: أي، مهاجمة الإرهابيين وبنيتهم التحتية... والثاني هو معركة الأفكار... مواجهة أنواع الأفكار التي تجعل الناس يعتقدون أن عليهم أن يكونوا إرهابيين، وأن الاستهداف العمد للمدنيين أمر جيد، وأخلاقي... وهكذا فإن من الحيوي الحاسم أن [نعمل] نحن على تغيير الطريقة التي يفكر الناس بها، وذلك مشروع لمدة عقود".

"لماذا يكون من الخطأ بالنسبة إلى الحكام المستبدين وإلى الإرهابيين أن يقتلوا المدنيين الأبرياء ومن الصواب أو المعذور بالنسبة إلى الولايات المتحدة أن تفعل الشيء نفسه تماماً؟"

"الولايات المتحدة لا تستهدف المدنيين مثل ذلك. وجوهر الإرهاب هو أن الإرهابيين يمسحون هذا الفرق المهم للغاية بين المحاربين وغير المحاربين... قانون الحرب. ذلك الفرق أساسي، إنه ركن من أركان الحضارة".

"ذلك هو السبب الذي جعلني أطرح الموضوع، يا سيد فييث. لقد كنت في أفغانستان حديثاً وقابلت عدداً من الناس الذي فقدوا عدداً يصل إلى ثمانية أفراد من أسرهم لأنهم قصفوا بالقنابل من الطائرات الأمريكية التي استهدفت بيوتهم. ثلاثة آلاف نسمة ماتوا في 11 أيلول/سبتمبر، ولكن أكثر من هذا بكثير قتلوا منذ ذلك التاريخ على يد أمريكا. أليس هناك معيار مزدوج في ذلك؟"

"الأرقام التي تتحدث عنها مشكوك فيها".

"لماذا هي مشكوك فيها؟"

"أنا لا أقبل أننا قتلنا آلافاً من الناس الأبرياء..".

"هناك الآن الكثير من الدراسات التي تقترح [في أفغانستان وفي العراق] حوالي عشرة آلاف. من المؤكد أن الآلاف تبدو تقديراً منصفاً".*

"دعني أذكر هذا. إن ما تفعله قواتنا العسكرية يترك أثراً كبيراً. فالعسكريون يقومون دائماً بحسابات دقيقة حريصة تزن القيم العسكرية، والخطر الذي يتعرض له الناس الأبرياء. وهذه عملية دقيقة والنتيجة، كما هي الحالة في العراق، هي إنجاز عسكري ضخم مع وقوع ضرر قليل جداً للبنية التحتية المدنية وللناس الأبرياء".

"يا سيد فييث، هذا يبدو حسناً وأنت جالس هنا في واشنطون، وأما في العراق وفي أفغانستان، وهي خبرتي الحديثة، فهو ليس كما يبدو قطعياً".

وأمر العقيد هَمْ بالقول: "أوقف التسجيل! ودعني أعرف متى أوقفت الشريط. هل أوقفنا الشريط الآن؟ لم أكن تحت الانطباع بأن هذه المقابلة ستكون تصادم مواجهة".

وبدا الذي أجريت معه المقابلة مصدوماً. وقلت له: "يا سيد فييث، يبدو أنك مجهز تجهيزاً كاملاً لتجيب عن أسئلتي. وأنا مندهش من أن شخصاً على مثل مستواك يشعر أنه مذعور من الأسئلة المباشرة".

"أنا لست مذعوراً. ولست سلبياً لا أشارك أو زهرة جدار!"

وقال العقيد هَمْ، وكان قد شعر بعزلته: "أنا اتخذت القرار!"

"أنا لا أقابلك، أيها العقيد".

وقال العقيد "لقد كنت تصادم مواجهة".

وقال السيد فييث "ربما كان يلح..". وأضاف بنبل هازيء، "أنا مستعد للمتابعة".

---

* الدراسة التي تمت في العام 2004 وقامت بها الصحيفة الطبية البريطانية ذا لانسيت وجامعة هوبكنز في الولايات المتحدة قدرت أن 100.000 مدني على الأقل قتلوا في العراق، والأغلبية الساحقة على يد العمل العسكري الأنجلو – أمريكي (المؤلف).

وهكذا تابعت.

"يا سيد فييث، في أفغانستان، اصطنعت الولايات المتحدة مجموعة من أمراء الحرب الذين يعتبرون في السوء مثل طالبان. هل تصف أمراء الحرب هؤلاء بأنهم إرهابيون؟"

"لا أصفهم".

"وجد محققو الأمم المتحدة أن هؤلاء الناس مذنبون بارتكاب المجازر، والاغتصاب وكل أنواع الجرائم ضد الإنسانية".

"هناك أناس طيبون في مواقع القيادة. ولكنها حقيبة مختلطة تلك التي نعمل معها... وأنا أستطيع أن أؤكد لك أننا نعمل في اتجاه الديمقراطية في أفغانستان".

"مجلة تايم أجرت استطلاعاً للرأي العام في كل أوروبة، وسألت مائتين وخمسين ألف شخص عن أي بلد يرونها أعظم تهديد للسلام. ثمانية بالمائة قالوا العراق، وتسعة بالمائة قالوا كوريا الشمالية وثلاثة وثمانون بالمائة قالوا الولايات المتحدة. هل تتفهم هذا الخوف؟"

"حسناً، تاريخنا كتاب مفتوح، تاريخ يستطيع الأمريكيون أن يكونوا فخورين به، والناس حول العالم يعجبون به. دورنا في العالم لم يكن اغتصاب الأشياء التي لا تنتمي لنا. دورنا لم يكن أن نستعبد ونستعمر. لقد صرنا قوة كبيرة من أجل ترويج الاحترام لكل بني البشر وللمبدأ الذي يرى أن كل البشر خلقوا متساوين. نحن لاعب رحيم قد ساعد على تحرير البلاد..".

"وكيف ينسجم ذلك مع التهديدات الأمريكية المستمرة والهجمات على البلدان الأخرى، من أفغانستان إلى العراق، وسورية، وإيران وكوريا الشمالية؟"

"هذه البلدان العصبية لا ينبغي لها متابعة الحصول على أسلحة التدمير الشامل".

"ألم تتحدر كل مسألة أسلحة التدمير الشامل إلى مهزلة؟"

"نحن نرى الإيرانيين [يبنون] برنامجاً نووياً. ونحن نرى الكوريين الشماليين يتبرؤون من معاهدة عدم الانتشار..".

"حكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا كذبتا علينا بشأن أسلحة التدمير الشامل في العراق. فلماذا يجب علينا أن نصدقكم؟"

"أنا لا أعتقد أن ذلك كان كذباً. لقد ذهبنا إلى الحرب في الجزء الأكبر بسبب قلقنا من أن أسلحة التدمير الشامل في يدي نظام حكم صدام حسين، وهو نظام استخدم غاز الأعصاب..".

"... والذي كان مورداً إليه من الولايات المتحدة وبريطانيا".

"لا. ذلك غير صحيح".

"نعم، إنه صحيح. معظم أسلحة صدام حسين للتدمير الشامل لم تصنع من قبله. والأدوات الآلات والمواد الداخلة في أسلحته الحيوية كلها جاءت من بلدان أخرى، والكثير منها جاء من الولايات المتحدة ومن بريطانيا".

"أنا لا أعتقد أن ذلك صحيح".

"إنها في السجلات. انظر فقط في مكتبة مجلس الشيوخ".

"يجب عليك أن تفهم التهديد الموجه إلى الولايات المتحدة، التهديد..".

"ولكن بالتأكيد فإن أكبر تهديد، وأكبر مصدر لأسلحة التدمير الشامل، هو هنا تماماً في الولايات المتحدة؟"

"أنا لست متأكداً أنني أفهم سؤالك".

"شكراً لك، يا سيد فييث"[73].

على الجانب الآخر من واشنطون توجد وزارة الخارجية، الجهاز الإداري (البيروقراطية) للسيادة المطلقة الأمريكية. كان لي موعد مع جون بولتون، الذي كان لقبه، وكيل وزارة الخارجية لضبط الأسلحة وللأمن الدولي، وكان هذا

العمل خلقاً أورويلياً* من إدارة بوش، وكانت وظيفته هي بشكل واضح نقيض اسمه هذا. وربما يكون جون بولتون أخطر المحافظين الجدد وأشدهم اندفاعاً، فهو وحده من دون مساعدة قاد الولايات المتحدة في مسار إلى الحرب النووية مع كوريا الشمالية.

وبولتون هو من صنع أقصى اليمين نفسه من الحزب الجمهوري. وبصفته محامياً في وزارة العدل تحت رونالد ريغان، روّج للغايات الإيديولوجية للمجتمع الفيدرالي المبهم. وكانت هذه الغايات من أجل "دحر" "السيطرة" المفترضة "للمؤسسة الليبرالية" على السلطة القضائية. وبتقدمه إلى معهد المشروع القومي، وهو مجموعة مصالح وضغط متطرفة من الجناح اليميني، عارض بولتون مبدأ الاتفاقية الدولية نفسه. وقال: "ليس هناك شيء اسمه الأمم المتحدة. هناك مجتمع دولي يمكن أن يقاد بالقوة الفعلية الوحيدة الباقية في العالم، وتلك هي الولايات المتحدة، حين يناسب ذلك مصالحنا وحين نستطيع أن نجعل الآخرين يتحركون معنا... وإذا فقد مبنى الأمم المتحدة في نيويورك عشرة طوابق، فلن يؤدي ذلك إلى أي تغيير طفيف"[74] ومع ذلك، فإن عداوته للأمم المتحدة لم تمنعه من الدعوة إلى غزو العراق بسبب إخفاقه المزعوم في احترام قرارات الأمم المتحدة.

وبولتون المعروف باسم "قاتل المعاهدات"، مسؤول إلى حد كبير عن انسحاب إدارة بوش من معاهدة مضادة الصواريخ البالستية وتبنيها "درع" صواريخ "حرب النجوم"، التي كان الغرض منها إعطاء الولايات المتحدة "هيمنة الطيف الكامل". وعارض بولتون اتفاقيات حظر الأسلحة الكيماوية والحيوية والحد من انتشار الأسلحة الصغيرة. وفي خطاب له بعنوان "ما وراء محور الشر" زعم، من دون دليل، أن كوبا كانت تطور أسلحة حيوية وتتقاسم بحوثها مع أعداء أمريكا، وهو زعم حقق فيه واستبعده الرئيس السابق جيمي كارتر. وتخلى عن أي دور أمريكي في المحكمة الجنائية الدولية و"احتفل"، كما عبر هو عن ذلك، بموت معاهدة الحظر

* نسبة إلى جورج أورويل (1903 – 1950) كاتب بريطاني نبه إلى خطورة الحكم المطلق، واهتم بالعدالة الاجتماعية. أشهر كتبه رواية مزرعة الحيوان ورواية 1984. (المترجم)

الشامل على التجارب، في التجارب النووية تحت الأرض. وقال عضو مجلس الشيوخ جيس هيلمز وهو أقدم اليمين القمري " إن جون بولتون هو نوع الرجل الذي أود أن أقف معه في آرمجدون، إذا كان قدري أن أكون حاضراً من أجل ما هو متنبأ له أن يكون المعركة النهائية بين الخير والشر في هذا العالم.

وبولتون رجل له مظهر لافت للنظر، وله شارب يتدلي مثل شارب زاباتا* من طراز السبعينات من 1970 ويلبس خصلة من شعر مستعار قديمة الطراز بشكل غريب، وقد تحركت للأسفل بشكل محسوس على جبهته في أثناء مقابلتنا. وبدأت بأن قرأت له مديح جيس هيلمز له بوصفه "رجل آرمجدون".

وقال: "أنا أشعر جداً بالرضا".

"لقد مددت تعريف الرئيس بوش (لمحور الشر) إلى عدد من البلدان الأخرى. كيف تقسم أنت وزملاؤك العالم بين الخير والشر؟"

"أولاً، نحن نحدد من أي مكان كما نعتقد يأتي أخطر تهديد إلى حريتنا. ونحن نعرف أن التهديد يأتي من أسلحة التدمير الشامل: من الأسلحة الكيماوية، والحيوية، والنووية، ومن وسائل توصيلها".

"ولكنك عارضت معاهدة لتحديد هذه الأسلحة".

"تلك المعاهدة كانت موجهة إلى الولايات المتحدة، وليس إلى الدول المارقة".

"الولايات المتحدة استثنائية؟"

"نعم".

"كثيرون الآن يعتبرون الولايات المتحدة دولة مارقة".

* إميليانو زاباتا (1879؟ – 1919) رجل ثوري مكسيكي قاد ثورة (1910 – 1919) من أجل الإصلاح الزراعي، وفي أثناء ذلك احتل مدينة مكسيكو سيتي ثلاث مرات. (المترجم)

"حسناً، إنهم على خطأ صريح لا غير. لقد فعلنا عبر تاريخنا لننشئ ظروفاً يستطيع فيها الأفراد أن يكونوا أحراراً حول العالم أكثر من أي بلد آخر في التاريخ".

"دعنا نعد ثانية إلى الخير والشر. خذ أفغانستان. لقد وصف الطالبان بأنهم شر، وهو أمر مفهوم، ولكن أمراء الحرب، الذين يعتبرون على الدرجة نفسها من السوء، لا يعتبرون على الدرجة نفسها من الشر هنا في واشنطون. لماذا؟"

"أفغانستان بلد صعب. ونحن لا نتوقع الديمقراطية الجفرسونية أن تتبع هناك بين عشية وضحاها. ولكني أؤكد لك: نحن لا نمول أمراء الحرب".

"نعم، أنتم تمولونهم، ومازلتم تفعلون ذلك طوال خمسة وعشرين عاماً".

"نحن ساعدنا المجاهدين حين كانوا يقاتلون الاتحاد السوفيتي".

"إنهم أمراء الحرب أنفسهم، والمساعدة لم تتوقف أبداً. وفي العام 2001، كانت وكالة الاستخبارات المركزية ترشيهم ليوقفوا مقاتلة أحدهم الآخر وليطيحوا طالبان. فإذا كان الطرفان يقترفان جرائم مروعة فلماذا يصنف جانب واحد فقط بأنه شر؟"

"إن تركيز المساعدة الأمريكية اليوم يقصد إلى إنشاء حكومة مركزية فعالة في أفغانستان. نحن لسنا في موقف نناقش فيه من هو الشر. إنه ليس قضية".

"في ذهني أسامة بن لادن، الذي هو بالتأكيد مثال أمريكا الأعلى للشر. هو جاء من المجاهدين، وهم الذين كانوا مدعومين من الولايات المتحدة".

"دعنا نكن واضحين بشأن ما الذي كنا ندعمه. نحن كنا نوفر المساعدة للمجاهدين إلى أن انسحب الاتحاد السوفيتي. إن أسامة بن لادن مثل سلالة مختلفة، كان جزءاً من المقاومة ضد السوفيت، نعم، ولكن كان لديه جدول أعمال مختلف. والفكرة القائلة بأننا بطريقة أو بأخرى مسؤولون عن أسامة بن لادن هي فكرة غير صحيحة تاريخياً على نحو غير عادي".

"لقد خرج من الدعم الضخم الذي أعطته الولايات المتحدة إلى الأصوليين الإسلاميين الذين كانوا يقاتلون شراً آخر مقدراً من أمريكا، وهو الاتحاد السوفيتي".

"نعم، نحن أعطينا دعماً لتنويعة من الفئات السياسية، وبعضهم كانوا أصوليين.ولكننا لم نكن نقصد أبداً أن نقويهم. ومأساة أفغانستان هي الفوضى، إنها الفوضى التي نتجت بعد انسحاب السوفيت".

"في يوم سابق قريب، وعدت أنت أن تكشف دليلاً مقنعاً عن إنتاج العراق لأسلحة التدمير الشامل. أين الدليل؟"

"لا أعتقد أنني قد سبق لي أن وعدت بالكشف عن دليل. ما نعرضه نحن الآن هو أن نظام حكم صدام حسين كان متصلاً اتصالاً لا سبيل إلى الخلاص منه مع القدرة على استخدام أسلحة التدمير الشامل، ومن جملتها الأسلحة النووية".

"بحسب ما قاله الرئيس بوش، فإن الولايات المتحدة غزت العراق لأن العالم كان مهدداً بأسلحة العراق للتدمير الشامل".

"لم يكن هو السبب مطلقاً. لقد جاء التهديد من نظام حكمه الاستبدادي".

"وهكذا فإن كل تلك البيانات الواضحة من بوش وبلير حول تهديد خلال خمسة وأربعين دقيقة من العراق، على سبيل المثال، ... لم تكن هي السبب؟"

"لم تكن هي الفرضية التي ذهبنا بناء عليها إلى الحرب، ذلك صحيح، نعم، ذلك صحيح... ذلك صحيح".

"لقد أطلقت أنت عدداً من التهديدات ضد كوريا الشمالية. هل هي الهدف التالي؟"

"أي تهديدات! عددها!"

"حسناً، لقد هددت بما تدعوه منع* سفن كوريا الشمالية. وقد قلت عدة مرات وأنت تستخدم لغة مستورة، طبعاً، إن كوريا الشمالية سوف تهاجم، إذا لم تفعل ما يقال لها".

"ما قلناه هو أننا مستعدون، مع البلدان التي تتفق معنا في الرأي، أن نتخذ إجراءات لمنع شحنات أسلحة التدمير الشامل أو الصواريخ البالستية في البحر، وفي الجو وعلى الأرض، حيث نمتلك السلطة لفعل ذلك".

"ومن سيعطيكم تلك السلطة؟"

"هذه مسألة للنقاش".

"ألا يمكن لذلك أن يطلق زناد حرب نووية؟"

"أنا لا أعتقد أن هناك أدنى فرصة بأن ذلك سيحدث..".

"ولكنك إذا أوقفت السفن، أليس هناك أكثر من صدى خفيف لما حدث تقريباً، في العام 1962، في أزمة الصواريخ الكوبية؟ أليس هناك خطر أن الكوريين الشماليين سيتحركون للدفاع عن أنفسهم ضد قوة كبيرة بوسيلتهم الوحيدة، وهي أسلحتهم النووية؟"

"لقد أوقفنا واحدة من سفنهم، السون سان، ولم يفعلوا شيئاً في رد الفعل".

"وماذا لو اتخذوا عملاً في المرة القادمة؟"

"ونحن لا نستطيع أن نحتمل ألا نمنعهم. فكر بالمدنيين الأبرياء الذين سيموتون إذا انتظرنا غيمة فطرهم لتحدث".

"أود أن أسألك عن المدنيين الذين ماتوا في أفغانستان والعراق..".

* المنع في السياق العسكري هو "فعل يهدف إلى تحويل الإمكانية السطحية العسكرية للعدو، أو قطعها، أو تأخيرها، أو تدميرها قبل أن تستخدم استخداماً فعالاً ضد قوات صديقة". والمنع الجوي هو "العمليات الجوية المنفذة لتدمير إمكانية العدو العسكرية أو تحييدها أو تأخيرها قبل أن تستخدم ضد القوات الصديقة..". (المترجم).

" لقد كان أحد الأمور المذهلة بشأن النصر السريع للتحالف [في العراق] هو كم كان الضرر الذي أوقع للبنية التحتية العراقية قليلاً، وكم كانت الإصابات منخفضة".

"حسناً، إنها عالية جداً إذا كانت عشرة آلاف مدني".

"حسناً، أنا أعتقد أن ذلك منخفض جداً إذا نظرت إلى حجم العلميات العسكرية التي تولينا القيام بها".

"عشرة آلاف وفاة منخفضة...؟"

"بالتأكيد هي كذلك".

وقف وحل مسكة سماعة الميكرفون وثبت خصلة الشعر المستعار.

وقال لي: "قل، هل أنت عضو في حزب العمال البريطاني؟"

"لا، إنهم الآن المحافظون في بريطانيا".

"وإذاً، فأنت شيوعي؟"

"لا".

"حسناً، ما أنت؟"

"شكراً يا سيد بولتون".

وليام كريستال هو محرر نيوستاندرد، وهي مجلة تصدر من واشنطون ويملكها روبرت مردوخ وتعتبر الصحيفة البيت للمحافظين الجدد. وكريستال هو مؤلف الوثيقة الرئيسية لمشروع من أجل قرن أمريكي جديد، الذي يتقاسم كريستال مكاتبه خلف أبواب كالقناطر. قصير في القامة ومتورد الوجه، يجلس على مكتب يطل عليه تمثال نصفي لصدام حسين ومقالة مؤطرة من مجلة فرنسية وعنوانها، "أمريكا: بعد العراق، العالم!" وعلى الجدران صور له هو مع أبطاله، رونالد ريغان ومرغريت تاتشر، وها هو جالس مع نائب الرئيس دان كويل، الذي

عمل كريستال له. وفي أثناء مقابلتي قد انزلقت بعيداً أي فكرة بأن المحافظين الجدد يمتلكون قاعدة فكرية، أكثر مما هي قاعدة عاطفية وإيديولوجية عميقة. وسألته ماذا عنى باسم "قرن أمريكي جديد".

"ما هو؟ ما هو؟ إنه القوة الأمريكية والاجتراء الأمريكي نيابة عن المبادئ الأمريكية التي تقدم الحرية والديمقراطية..".

"أليس هو أكثر من ذلك؟ وثيقة السياسات، التي عاونت أنت في كتابتها، وتشير إلى أمريكا بوصفها (الخيالة على جبهة جديدة والتي ستقاتل وتربح على نحو حاسم حروباً كبيرة متعددة، ومتزامنة.) ماذا يعني هذا؟"

"إنها تقول إننا نحتاج إلى القوات العسكرية الكبيرة على نحو كاف لتقاتل في العراق وفي أفغانستان وتعالج تهديدات كوريا الشمالية وفي كل أنحاء العالم".

"على مكتبك أطّرت مقالة من مجلة فرنسية مع عنوان رئيسي، (أمريكا: بعد العراق، العالم!) "

"تلك نكتة صغيرة".

"هل هي صحيحة؟"

"أفغانستان والعراق هما بداية فقط للتهديدات التي يجب علينا أن نعالجها. وسيكون من الحمق أن نظن، أننا نستطيع، بعد أن حررنا هذين البلدين، أن نعود إلى افتراض أننا محميون بالمحيطين الأطلسي والهادئ".

"أليس هذا هو الذهان الهذائي (بارانويا)؟"

"ذلك سخف مضحك".

"أو هو عذر وسواس الذهان الهذائي من أجل التدخل في بلاد أخرى؟"

"وذلك أيضاً سخف مضحك".

"أنت تسمي نفسك أمريكياً استعمارياً، هل ذلك صحيح؟"

"لا، ولكن إذا كان ما نعمله يبدو استعمارياً، فليكن كذلك... والمشكلة مع أمريكا ليست في أننا نذهب للغزو والنهب حول العالم، نفرض أنفسنا. المشكلة مع أمريكا منذ نهاية الحرب الباردة هي أننا كنا حتى الآن أبطأ مما ينبغي في الوصول إلى الانغماس في النزاعات. كثيرون من الناس ماتوا، ومئات الآلاف قتلوا، لأن الأمريكيين مكثوا في وطنهم. والمشكلة التي يجب على الأوروبيين أن يقلقوا بشأنها هي أن الأمريكيين سيعودون إلى الوطن".

"الناس في كل أنحاء العالم قلقون لأن الولايات المتحدة تدير هجمات من دون وجود استفزاز على بلدان ذات سيادة ".

"هل يفعلون؟ هل يفعلون؟"

"نعم، يفعلون".

"حقاً، هل نحن سنهاجم بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا؟ أي ديمقراطية؟ أي نظام حكم محترم؟"

"حسناً، الولايات المتحدة لا تهاجم عادة البلدان القوية".

"هل نهاجم بلدانا محترمة؟"

"قلت بلداناً قوية".

"هل الناس فعلاً قلقون من أن الولايات المتحدة ستذهب إلى بلد محترم، يلتزم بالقانون وسنأتي إليه ونقول: (نحن لا نحب منظركم، ونحن سنقوم بإطاحتكم.) هل ذلك ما فعلته الولايات المتحدة كثيراً جداً؟ كم عدد البلدان التي هاجمتها الولايات المتحدة في الخمسة عشر عاماً الماضية؟"

"حسناً، منذ الحرب العالمية الثانية، كان هناك اثنان وسبعون تدخلاً من الولايات المتحدة".

"أوه، هل ذلك صحيح؟"

"نعم".

"ذلك غريب مضحك"

"ليس غريباً مضحكاً، إنه صحيح".

"إنه ليس صحيحاً. إنه بيان أحمق وسخف مضحك".

"إنه حقيقة. كان هناك اثنان وسبعون تدخلاً، ومن جملتها إطاحة حكومات كانت ديمقراطيات اجتماعية انتخبت انتخاباً ديمقراطياً، من النوع الذي قد تصفه بأنه محترم، من مثل الحكومات المنتخبة في غواتيمالا، والبرازيل، وإيران، وتشيلي، إذا سمينا قلة منها فقط... الآخرون كانوا ببساطة حائلاً في طريق المخططات الأمريكية".

"وهكذا فما تقوله هو أنه لا يوجد تمييز يمكن ضبطه بين الاحترام واللااحترام؟"

"لا. كثيرون من الناس الآن يعتبرون نظام الحكم الحالي في واشنطون نظاماً غير محترم، ولكن ما من أحد سيهاجمه، هل يفعلون؟"

"غريب مضحك..".

"ما الذي يعطي الولايات المتحدة الحق لتقرر مسائل الحياة والموت حول العالم: أي بلد يكون محترماً، وأي بلد سيهاجم أولا يهاجم؟"

"عن أي بلدان تتحدث أنت؟"

"أفغانستان والعراق".

"إذاً ذلك هو المجموع الكلي للحروب الأمريكية العدوانية، أهي تلك؟"

"بلدان هوجما في عامين: سجل ليس سيئاً"

"إنهما حربان اثنتان جيدتان".

"ذلك أكثر مما فعلته معظم البلدان..".

"إنهما لكذلك وأنا فخور جداً بأن أمريكا كانت قادرة على فعلهما".

في السنوات التي كنت أجيء فيها حتى الآن إلى واشنطون، تعلمت أن أحترم مجموعة من الأمريكيين المتفردين من مطلقي صافرات الإنذار لكشف الأخطاء. وهؤلاء ضباط سابقون من وكالة الاستخبارات المركزية الذين "استداروا"، وغيروا مواقفهم وتحدثوا علناً ضد مكائد أمريكا السرية في العالم. ليس كل هؤلاء خونة مرتدين، فبعض منهم ترك وكالة الاستخبارات المركزية مصحوبين بالاستحسان الحماسي من مؤسستهم، ولكن شيئاً ما كان قد حدث قبل تركهم مؤسستهم وغيّرهم. فبعد أن كانوا قد التحقوا بالوكالة بإحساس من المثالية نحو "خدمة لبلدي"، فهم يغادرونها مع "عبء على الضمير ومطالب منه" كما وصف ذلك أحدهم.

في العام 1981، قام رالف ماكجيهي، وهو المتسلم لأعلى وسام تقدير من وكالة الاستخبارات المركزية، بكشف حرب فيتنام بوصفها سلسلة من "الخدع القاتلة" استخدمت لتبرير الغزو الأمريكي.[78] وفيليب ليكتي، الذي كان ضابط عمليات سابق لوكالة الاستخبارات المركزية في قاعدتها في جاكرتا، كشف كيف أن الرئيس جيرالد فورد ووزير خارجيته، هنري كيسنغر، كان قد أعطى الضوء الأخضر لحاكم إندونيسيا المستبد سوهارتو لغزو تيمور الشرقية في العام 1975، وكان في حينها يقوم سراً بتسليح قواته الغازية.[79]

وراي ماكغفرن أيضاً ترك وكالة الاستخبارات المركزية مصحوباً بالثناء العالي من رؤسائه، وبشكل لافت للنظر من جورج بوش الكبير، الذي كان في ذلك الوقت رئيساً. وهو يتحدث الروسية بطلاقة، وكان رئيس فرع السياسة السوفيتية الخارجية، في إدارة الاستخبارات، في السبعينيات من 1970 قبل أن يصير مؤلف الموجز الاستخباراتي اليومي للرئيس. حين وصل جورج دبليو. بوش إلى السلطة، قام ماكغفرن بالتحذير من خطر "المجانين".

سألته: "ماذا عنيت بالمجانين؟"

"عنيت الناس الذين يديرون إدارة جورج دبليو. بوش. يجب عليك أن تفهم كم هم مختلفون. وهم يحملون مجموعة من المعتقدات تشبه كثيراً تلك المعتقدات التي تم التعبير عنها في كتاب كفاحي، إنها كلها مبثوثة ومطروحة هناك. والمشروع من أجل قرن أمريكي جديد يجعل الأمر واضحاً وضوحاً كاملاً وهو أنه حين أنتج بول وولفوويتز أول وثيقة له في الموقف الدفاعي في العام 1991، كانت متطرفة جداً إلى درجة جعلت الجنرال [برينت] سكوكروفت، مستشار الأمن القومي، وجيم بيكر، وزير الخارجية، يبتلعان بمرارة، وذهبا إلى الرئيس (بوش الكبير) وقالا له: (يجب علينا ألا نسمح بهذا، ويجب علينا أن نضع هذا في الملف الدائري أي في سلة المهملات.) وفعل الرئيس ذلك بدقة. والآن نحن لدينا ابن الرئيس مأسور من هؤلاء المؤيدين لإيديولوجية فكر معين، وهؤلاء هم أنفسهم الذين كان يشار إليهم في الدوائر التي تحركت فيها، في القمة، بصفة (المجانين). فأنت تكلمت آنئذ عن (المجانين) وعرف كل واحد من كان هؤلاء: ريتشارد بيرل، وبول وولفويتز، ودوغ فيث..".

"من أشار إليهم بصفة (مجانين)؟"

"جميعنا".

"في وكالة الاستخبارات المركزية؟"

"نعم. دوائر السياسات، ودوائر الاستخبارات كذلك".

"القول المبتذل بأن 11 أيلول/سبتمبر غيرت كل شيء؟ هل ذلك رأيك؟"

"لا، ولكن الحدث كان تعزيزاً لا يكاد يصدق لما أراد المجانين أن يفعلوه. كان يجب أن يكون رد فعلنا عملاً من أعمال الشرطة. وبدلاً من ذلك، لعب المجانين على مخاوف السكان، وأدخلوا عناصر الانتقام الكريهة، من أجل أن يهلك في الهجوم على أفغانستان من الناس على الأقل قدر العدد الذي هلك في 11 أيلول/سبتمبر. وكل شيء تبع كان علاقات عامة، ودعايات سوداء. لقد أظهرت هذه الإدارة نفسها بكونها ماهرة في هذا العمل مهارة لا تكاد تصدق. انظر إلى الطريقة التي ربطوا فيها صدام مع

القاعدة، إنها مهمة ضخمة تحت الظروف العادية، نظراً إلى أنه لم يكن هناك أي علاقة، ولكن 11 أيلول/سبتمبر سمحت لهم بتحقيق ذلك".

"هل هناك دليل على أن الكثير من هذا كان مخططاً له قبل 11 أيلول/سبتمبر؟"

"نعم، هناك دليل في وثائق رأيتها أنا. وبعضها يقول في الواقع إن ما يفعلونه هو عملية طويلة الأمد، خطة إستراتيجية، ويمكن أن يكون هناك أحداث متداخلة ستكون بركات كبيرة وسوف تسرّع تنفيذ خططهم، وإن 9/11 كان بالضبط هو ذلك النوع من الحدث البركة. والآن، أنا لست شخصاً من نوع القائل بوجود مؤامرة ولذلك فأنا أتجنب الكثير من نظريات المؤامرة التي تروج حولنا".

"بعد أن قضيت الكثير من حياتك في وكالة الاستخبارات المركزية، لابد أنك تكن الاحترام للمؤامرة؟"

"أكن لها بالفعل. فأنت إذا نظرت إلى الوراء إلى اغتيال الرئيس كينيدي ومارتن لوثر كينغ، يجب عليك أن تحترم عنصر المؤامرة. لقد قرأت دليلاً مقنعاً بأن إدارة بوش هذه كانت تعرف الفصل والآية، أي التفاصيل الكاملة لما كان يحدث بشأن 11 أيلول/سبتمبر وسمحت له أن يحدث. وأنا آخذ بالتفسير الخيّر بأن الحدث كان نتيجة عدم كفاءة فاضحاً".

"هل الحرب على الإرهاب خداع؟"

"أعتقد أن مخادعة كلمة ليست قوية قوة كافية. إن كوننا في حرب لا يمكّننا فقط أن نرمي وزننا حول العالم في الخارج بل يمكننا أيضاً أن نفرض ضوابط على نحو ضيق شديد جداً على أولئك الذين قد ينشقون ونصبغهم بصبغة غير الوطنيين. وذلك هو ما حدث".

"هل كانت حادثة أسلحة التدمير الشامل مجرد تمثيلية ألغاز كلمات؟"

"كانت تمثيلية ألغاز كلمات بنسبة خمسة وتسعين بالمائة".

"كيف تهربوا من العواقب واللوم؟"

"الصحافة سمحت بالهرب من العواقب واللوم. وإليك هنا مثالاً واحداً. لقد طلب مني أن أكون في فوكس نيوز لمناقشة أسلحة التدمير الشامل. وقال لي المذيع المقابل: (الآن، يا سيد ماكغفرن، لقد أكملنا قبل قليل استطلاعنا للرأي هنا وهذا يظهر أن سبعة وستين بالمائة من الشعب الأمريكي لا يهمه سواءً أكتشفت أسلحة التدمير الشامل، أم لم تكتشف. فلماذا تهتم أنت إذاً؟(وقلت له:" سيدي، يجب عليك فعلاً أن تسأل نفسك لماذا لا يهتم سبعة وستون في المائة. ولماذا لا تقول فوكس نيوز ورفاقك في البقية من وسائل إعلام التيار الفكري العام للشعب الأمريكي ماذا يحدث؟ كيف يستطيعون أن يهتموا إذا كانوا لا يعلمون)؟"

"هل الأمريكيون واعون للدور المهم الذي لعبته الولايات المتحدة في دعم أسامة ابن لادن والدور الذي لعبته وكالة الاستخبارات المركزية، ويعود في الزمن إلى عهد الرئيس كارتر؟"

"مرة أخرى، كيف يستطيعون أن يكونوا واعين إذا كانت حكومتهم لا تثقفهم؟ ووسائل الإعلام لديها بشكل مساو حافز بدرجة صفر لأنها ملحقة، وأسيرة، ومروضة محلياً بشكل كامل نتيجة رغبتها في أن تخدم لا الحكومة فقط، بل والشركات التي تملك تلك الوسائل".

"هل أنت قلق بشأن سياسة الهجوم الاستباقي؟ وإلى أين ستقود؟"

"أنا قلق بشأنها قلقاً كثيراً جداً. نحن حسبنا أننا تركنا التهديد النووي خلفنا مع نهاية الحرب الباردة، ولكن الرئيس بوش وفي الحقيقة رئيس الوزراء بلير الآن قالا إنهما راغبان في النظر في ضربات استباقية بأسلحة نووية. إن هذا شيء ما حقيقي... أن التهديد النووي اليوم سينظر إليه بوصفه قادماً أولاً وقبل كل شيء من الولايات المتحدة الأمريكية ومن بريطانيا العظمى... لو كنت أنا كورياً شمالياً فسأكون قلقاً جداً، جداً".

"كتب نورمان ميلر في يوم قريب أنه يعتقد أن أمريكا قد دخلت في الحالة ما قبل الفاشية. ما هو رأيك في ذلك؟"

"حسناً، وأنا لا أقول هذا لأكون متهكماً، ولكنني آمل أن يكون محقاً، وذلك لأن هناك آخرين يقولون إننا قد صرنا من قبل الآن في مزاج فاشيستي. حين ترى من الذي يسيطر على وسائل الإنتاج هنا، وحين ترى من هو الذي يسيطر على الصحف والدوريات، ومحطات التلفزة، التي منها يستقي الأمريكيون أخبارهم، وحين ترى كيف تجري إدارة ما تدعى حرب على الإرهاب، فإنك تبدأ بفهم المسار الذي نتجه نحوه. وكان لدى جوزيف غوبلز هذا القول المأثور وهو أنك إذا قلت شيئاً ما مرات كافية، فإن الناس سيبدؤون بتصديقه، وتلك الإستراتيجية طبقت بنجاح كبير على أيدي هذه الإدارة...أسلحة التدمير الشامل، القاعدة، علاقات العراق، والأدلة الأخرى التي استنبطت لتبرير حرب من دون استفزاز... وهكذا نعم، نحن جميعنا يجب أن نكون قلقين بشأن الفاشية"[80].

في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2003، أسس راي ماكغفرن وضباط استخبارات سابقون المحترفون الاستخباراتيون القدامى من أجل سلامة العقل. وتضم هذه الجماعة الآن أكثر من خمسة وأربعين ضابطاً كبيراً سابقاً من وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة استخبارات الدفاع، ومكتب وزارة الخارجية للاستخبارات والبحوث، واستخبارات الجيش، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ووكالة الأمن القومي والوكالات الاستخباراتية الأخرى. وكان هذا الفعل فعل تمرد غير مسبوق من الداخل.

وفي 5 شباط/فبراير من العام 2003، أرسل الضباط المنشقون ورقة، بعنوان "مذكرة إلى الرئيس"، إلى البيت الأبيض. وكانت تدميراً لخطاب وزير الخارجية كولن باول أمام مجلس الأمن في الأمم المتحدة في ذلك اليوم، والذي كذب فيه باول بالقول إن الاستخبارات قد "برهنت" أن صدام حسين امتلك أسلحة التدمير الشامل. واشتكت الورقة بشأن "تسييس" الاستخبارات التي رافقت "قرع الطبول للحرب"[81].

وقـال راي مـاكغفرن: "وقلقنـا هـو أن هـذا لـيس إلا البدايـة: وأننـا قـد فقـدنا السيطرة من قبلُ".

غادرت أفغانستان "المحررة" في يوم ليس غير نموذجي. فحين تحركت سيارتي إلى مطار كابل، كانت سيارة ركاب تحمل جنوداً ألمانيين من القوة الدولية للأمن والمساعدة (إيساف)، على مسافة ميل أمامنا، قد نسفت، وقتل ستة. من الذي فعل هذا؟ هل كان أحد "بقايا" طالبان؟ أم كان "قائداً إقليمياً"، واحداً من الحلفاء الجدد للغرب، وكان يعبر عن استيائه السري؟ وفي المشهد، التقانة الغربية العسكرية، طائراتها العمودية تئز، والعربات المدرعة والأسلحة الآلية، كلها عرضت القوة وعجز القوي معاً، وهي تستنقذ سيارة الركاب المسودة تاركة خلفها بركاً من الدم على غبار الطريق.

الألمان هم الذين كانوا يديرون مطار كابل، وكانوا قد استشاطوا غضباً إلى درجة شديدة قاموا معها بإغلاق المطار ونصبوا رشاشاً على المدرج الرئيسي فيه. وبدت الفوضى في المخرج النهائي المهترئ للمبنى عالماً مصغراً يمثل الحياة في الخارج. وحين فرضت حرارة منتصف النهار نفسها واستشعرها الناس، بدؤوا يكافحون من أجل الحصول على مكان والجلوس فيه. والخطوط الجوية الأفغانية أريانا، وزعت وجبات طعام ملفوفة بورق معدني وقد انتهى تاريخ صلاحية الوجبات للأكل منذ وقت بعيد، والعديد من هذه الوجبات سقط على الأرض الإسمنتية، وترك خلفه سطحاً زلقاً من المرق البني المندلق من الوجبات. وفي الخارج، وقفت طائرتان قديمتان من نوع إيرباص جنباً إلى جنب وكانت إحداهما قد أكلت أختها لأن مخروط الأنف في المأكولة أخذ منها ليكون قطعة غيار للأخرى "لعلها تطير"، حسب ما قال الطيار المغتم.

بعد إعلان أخطأت فهمه وحسبته نداء إلى الصلاة، تلا نتيجة لذلك تدافع إلى الطائرة. وهناك بقينا وقد هبط الليل. لقد رفض الألمان أن يتزحزحوا قيد أنملة من وراء رشاشهم. وطائرتنا، التي كانت تعمل في الماضي في الخطوط الداخلية في الهند، كانت وعلى نحو مرئي تتساقط إلى مزق: فقلائد من الهيكل الخارجي تتدلى في

المقصورة، والمقاعد مكسورة الظهر، وأبواب المغاسل كانت قد استسلمت منذ وقت طويل، تاركة حفرة في الأرضية محمولة جواً. ثم إن صوت صافرة إنذار قطعت أجواء القدرية الثقيلة، وقد اندفع الرئيس قرضاي إلى داخل المطار ليناشد الألمان أن يدَعونا نغادر. فرقّوا للحال، وبمساعدة رب النبي*؛ وصلنا بعد ذلك إلى دبي.

وفي الوقت نفسه، أعلِن أن صفقة خط الأنبوب، التي كانت قد تمت الموافقة عليها في الأصل بين طالبان، وبين إدارة كلينتون وشركة يونوكول، كانت تسير قدماً.[82] وأقيم احتفال مختصر في السفارة الأمريكية في كابل، وحضرها قرضاي، الذي كان هو نفسه قد تفاوض على صفقات خط الأنبوب بوصفه مستشاراً لشركة النفط يونوكول. وكان يرافقه، كالمعتاد، أربعة وعشرون أمريكياً من حراسته الشخصية من القوات الخاصة الأمريكية.[83]

والغزو الأمريكي والبريطاني لأفغانستان في العام 2001 أوصل إلى النهاية الحظر الشامل تقريباً على إنتاج الأفيون الذي كانت طالبان قد أنجزته. وقد وصف لي مساعد في العمل في كابل ذلك الحظر بأنه "معجزة عصرية". وقد ألغيت المعجزة بسرعة. فمكافأة على مساندة "ديمقراطية" قرضاي، سمح الأمريكيون لأمراء حربهم بمعاودة زراعة محصول الأفيون الكلي للبلد في العام 2002. وصارت ثمان وعشرون مقاطعة من أصل اثنتين وثلاثين مقاطعة فوراً تحت الزراعة، وأعيد تأسيس مصانع التنقية. والنتيجة هي أن 87 بالمائة من تجارة العالم في الأفيون الآن تنشأ في أصلها في أفغانستان.[84] والضحايا، اليوم، في معظمهم من الشباب في الغرب. ففي العام 2005، قدر تقرير للحكومة البريطانية أن خمسة وثلاثين ألف طفل في إنجلترا كانوا يستخدمون الهيروين.[85] وفي وقت كتابة هذا النص، روت تقارير إذاعة الأخبار أن فتاة عمرها أحد عشر عاماً في غلاسغو انهارت في مقعدها المدرسي من آثار الهيروين. ولكن التقارير لا تقول إن الطفلة، في كل الاحتمالات، هي ضحية من ضحايا "الحرب على الإرهاب" و"لعبته الكبيرة" في أفغانستان.

---

* في النص بمساعدة النبي، ولعله سمع ذلك من العامة، وهو ينافي الإيمان. (المترجم)

وبالنسبة إلى الناس العاديين في أفغانستان، كل شيء تغير ولا شيء تغير. فقانون الشريعة وأحكامه الصارمة يجري إعادتها إلى وضعها السابق. فكبير القضاة، فضل هادي شينواري، وهو رجل دين في الثمانينيات من عمره ومن دون أي تدريب في القانون العلماني، قد حكم بأن العروض التلفازية التي تقوم بها نساء يرتدين ملابس محتشمة ويغنين عن الحياة الريفية هي عروض غير شرعية، إلى جانب الأفلام العامة من بوليوود*.[86] ورجع وضع البرقع وشملت الرجعة الجيوب التحررية التي تحررت تحرراً عابراً قصير المدة في كابل.

وفي واشنطون، بعد أن مشى الأفغان "طريق الحرية" (جورج دبليو. بوش) واحتضنوا "نموذجا" للديمقراطية (رونالد رامسفيلد) فهم الآن لا يحظون إلا باهتمام قليل. ومنذ غزو أفغانستان، أسست الولايات المتحدة ثلاث عشرة قاعدة في عشرة بلدان في المنطقة، مع وجود أكثر من ستين ألف من القوات العسكرية في حراسة مسارات خط الأنبوب وطرق بوابات مصادر هذا الوقود المستحاثي. المهمة تحققت، كما يمكن أن يكون بوش قد قال. ويقول تقرير من وكالة الاستخبارات المركزية إن أفغانستان قد استبدلت وحل العراق محلها أرضاً للتدريب من أجل الجيل القادم من "الإرهابيين المحترفين". ولا تحتوي صفحات التقرير التي تصل إلى 119 صفحة على إشارة واحدة إلى الدور القيادي الذي لعبته الولايات المتحدة طوال ربع قرن، في إنشاء هؤلاء "الإرهابيين المحترفين"[87] وتدريبهم.

من بين حكام العالم سقطت نجوم وارتفعت. دوغلاس فييث استقال من وزارة الدفاع، بعد أن وصفه الجنرال تومي فرانكس القائد الأمريكي في أفغانستان والعراق بأنه "أغبى رجل على وجه الأرض"[88]. وعُين بول فولفوويتز رئيساً للبنك الدولي. وقد استخدم جورج بوش مهرباً دستورياً من القرن الثامن عشر، فتجاهل المعارضة التي أبداها مجلس الشيوخ وعين جون بولتون ليمثل أمريكا في الأمم المتحدة التي يكرهها.

* صناعة الأفلام الهندية، وهي على غرار هوليوود. (المترجم)

أفغانستان، التي بدأت فيها "اللعبة الكبيرة" لم تبق بعد اليوم "قصة". والخبر التالي كان خبراً صغيراً في نشرة لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) أذيعت حين كانت هذه الكلمات تكتب:

كشفت القوات العسكرية الأمريكية في أفغانستان عن أن ستة أطفال ماتوا في غارة على مقاتلين مشتبه بهم... وجاءت الأخبار عن الوفيات بعد وقت قصير من قيام الولايات المتحدة بتقديم الاعتذار عن قتل تسعة أطفال في غارة منفصلة في المقاطعة المجاورة... وعلى كل حال، حذرت الولايات المتحدة من أن الإصابات المدنية لن تثنيها عن عزمها وتردعها. وقال ناطق باسم الولايات المتحدة [إن الأطفال الموتى] كانوا هم الملومين إلى حد ما بسبب وجودهم في موقع يستخدمه المقاتلون...[89]

* * *

كتب أخرى بقلم جون بلجر

اليوم الأخير

العاقبة: صراع كمبوديا وفيتنام

(مع أنطوني بارنيت)

الخارجيون

(مع مايكل كورين)

أبطال

بلاد سرية

أصوات بعيدة

جداول عمل خبيئة

الحكام الجدد للعالم

لا تكذب علي: صحافة التحقيق وانتصاراتها.

(محرر)

'يظهر جون بلجر -مع انتباه حاد للحقائق- الحقيقة القذرة، ويعريها كما هي. إنني أحييه'.

هارولد بنتر

'جون بلجر هو الترياق المضاد للتفكير السهل المريح، وللعجب بالنفس، وللجهل'.

ديلي تلغراف

'إن بلجر هو أقرب مراسل لدينا للمراسلين العظماء الذين عاشوا في الثلاثينيات من القرن الماضي وفي الحقيقة فإن بيديه سلاحاً، التقطه ولوح به مهدداً واستخدمه في الصراع ضد الشر والظلم'.

الغارديان

'إن ما يجعل جون بلجر صحافياً عظيماً بحق هو ضميره وشجاعته.

مارثا جلهورن

عندما خطا نلسون مانديلا خارجاً من السجن إلى الحرية في العام ١٩٩٠م، كانت البهجة واضحة في جنوب إفريقية وفي كل أنحاء العالم. ولكن الحرية الحقيقية لهذا الشعب تبقى حلماً بعيداً. لماذا؟ فمن جنوب إفريقية إلى الهند وإلى ما وراءها يقوم نظام اقتصادي جشع بالحكم على الملايين بالفقر، في الوقت الذي يقوم فيه رجال يعملون في مكاتب لانقة نائية بفرض نظام سياسي بلا رحمة ولا شفقة، مستعملين من أجل ذلك التعريفات الجمركية وأنواع الحظر التجاري، والقنابل والرصاص، وهم بعملهم هذا يشوهون لغة الحرية نفسها، ويتسببون في إيقاع معاناة لم يسبق لهم أن عرفوها، وفي إراقة دماء لم يسبق لهم أن شموا رائحتها.

في كتاب **(الحرية في المرة القادمة)**، يصف الصحافي المشهور ومخرج الأفلام جون بلجر كيف أن الناس الشجعان الذين يحاربون ليحرروا أنفسهم يلمحون الحرية في الغالب، ولكنهم يلمحونها ليروها تسلب منهم فقط. وهو يتحدانا في الغرب أن 'ننظر في المرآة'، إلى أفعال حكومات'نا' لنبحث عن المصدر الحقيقي للكثير من خوف العالم وانعدام الأمن فيه – وللإرهاب. فهم باسمنا -وبشكل مخادع في الغالب- يشتغلون وفق جدول أعمال خفي، مثلما جرى في دييغو غارسيا، وهي جزيرة كالجنة في المحيط الهندي، عمدت الحكومة البريطانية إلى طرد كل سكانها طرداً سرياً ووحشياً؛ لتمهد الطريق لقيام قاعدة أمريكية عسكرية ضخمة هوجمت منها أفغانستان والعراق.

وفي فلسطين، والهند، وجنوب إفريقية، وأفغانستان، وبريطانيا، والولايات المتحدة، فإن تقارير جون بلجر الحية -وهو شاهد عيان، ومقابلاته المتماسكة مع الأقوياء المدعومة بالبحث الشديد الدقة- تفجر أسرار حكامنا وأكاذيبهم، وتسلط ضوءاً كشافاً على الأحداث التي أودعت في الظلال بوساطة رقابة غير معترف بها ولكنها مع ذلك رقابة خبيثة فتاكة. وبإنسانية، وبذكاء، وبعاطفة يحيي المؤلف الشعب الذي يرفض أن يكون ضحية، ويطالب بحرية هؤلاء الناس بتحد غير هياب.

جون بلجر: نشأ وترعرع في سيدني، في أستراليا. وكان مراسلاً حربياً، ومؤلفاً، ومخرج أفلام. وقد نال أعلى جائزة للصحافة البريطانية مرتين، وكانت إحداهما جائزة صحفي العام، وذلك من أجل عمله في كل أنحاء العالم، وبشكل بارز في كمبوديا وفيتنام. وكان مراسلاً دولياً للعام، وحائز جائزة رابطة السلام والميدالية الذهبية من الأمم المتحدة. ومن أجل بثه الإذاعي، نال من فرنسا جائزة مراسل بلا حدود، ونال جائزة أكاديمية تلفازية أمريكية، وجائزة إمي، وجائزة ريتشارد ديمبلبي، المقدمة من الأكاديمية البريطانية للأفلام وفنون التلفاز. وفي العام ٢٠٠٣، تسلم جائزة صوفي عن' ثلاثين عاماً من كشف الخداع وتحسين حقوق الإنسان.

ISBN:978-9960-54-371-0

9 789960 543710

ORD:000284-1

موضوع الكتاب: الحرية - مقالات ومحاضرات

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com